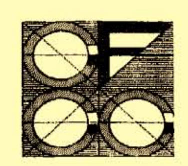


مارسيل ديتيين
چان بيير ڤرنان



حيل الذكاء

دهاء الإغريق الميتيس

ترجمة : دكتور مصطفى ماهر



مارســيل ديتيين
و چان پيير ڤرنان

حيـل الذكـاء

دهـاء الإغريـق الميتيـسى

ترجمة

دكتور مصطفى ماهر

الطبعة الأولى
٢٠٠٠م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

صدر هذا الكتاب بالتعاون مع المركز الفرنسى للثقافة
والتعاون (قسم الترجمة) التابع لسفارة فرنسا بالقاهرة

هذه ترجمة كاملة لكتاب

Les Ruses de L'intelligence, la Mètis des Grecs

Marcel Detienne & Jean - Pierre Vernant

Flammarion 1989

تصميم الغلاف محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع – تليفون – فاكس ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خالد بن الوليد بالهرم – رمز بريدى ١٢٥٦٧

Publisher:ÈIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St ., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P. C 12567

مقدمـــة المترجم

يرجع اهتمامي بالثقافة الإغريقية، سواء بمعناها الضيق أو معناها الواسع إلى وقت بعيد يصعب عليّ الآن تحديده بدقة. ولكنني أذكر أنني اهتممت بأطراف منها صبياً عندما درسنا تاريخ مصر القديم في التعليم الثانوي، أي منذ نحو نصف قرن من الزمان، فقد شد انتباهي أن فترات من تاريخ مصر القديم ارتبطت بالإغريق ارتباطاً شديداً. ثم مرت سنوات، وقمنا برحلات ثقافية إلى مواقع أثرية في الصعيد والدلتا وساحل البحر المتوسط والصحراء، فإذا الآثار الباقية - ومن بينها مدرجات المسرح - تشهد على مشاركة مصرية واسعة وعميقة في الثقافة الإغريقية بعد غزو الاسكندر الأكبر. وإذا كانت الثقافة الإغريقية قد اغترفت منذ بداياتها من المعين المصري، فقد تطورت الأمور فأصبح للمصريين عطاؤهم بالإغريقية. فنحن أمام ظاهرة من التداخل الثقافي الجديرة بالاهتمام الخاص والدرس الخاص أيضاً. ولنبحث عن هؤلاء الفلاسفة المصريين الذين كتبوا بالإغريقية، وهؤلاء الشعراء المصريين الذين كتبوا الشعر والملاحم بالإغريقية، وغير هؤلاء وأولئك في التخصصات المختلفة. ولندع الحرب والشقاق والجدل جانباً. ونلقي الضوء على البناء والعمران.

فمصر لم تصنع الحضارة الأولى على غير مثال سابق فحسب، ولم تبتدع مفهوم الثقافة العالمية فقط بل أقامت صرحاً من الثقافات المتتابعة بعضها فوق بعض، وأقامت مناهج التبادل والتداخل والتفاعل المثمر لصالح البشر جميعاً. وقد انتقلت هذه المناهج إلى ربوع العالم المختلفة، واتسمت شيئاً فشيئاً بسمات العالمية، وعرف من عرف ضرورة التلاقح الثقافي وأثره على الحضارة. حتى إذا عكفتُ على دراسة تطور الحضارة العربية بعد الإسلام وجدتها حريصة على النظر إلى بعيد، وعدم الاكتفاء بالأفق الواحد، بل الانفتاح على الآفاق شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً. وهل ننسى ما شهدته حواضر الثقافة العربية الإسلامية من نقل نِعَم ثقافة لإغريق - وغيرها من الثقافات القديمة الهامة - إلى العربية، وإساغتها، وإبداع ثقافة جديدة غنية مؤثرة لعبت دوراً جوهرياً في تاريخ الإنسانية، فأنشأت بناءً شامخاً على أساس متين.

وهكذا استمر كَلَفي بالثقافة الإغريقية، وتدرج معي في مدارج التعليم العالي الذي انفتح أمامي فيه إبان دراستي آداب الغرب أفقَ الثقافة الأنتيكية، أي الإغريقية اللاتينية. فأنّى

لطالب آداب الغرب - فرنسا، ألمانيا، إنجلترة، إيطاليا، إسبانيا وبلاد اسكانديناڤيا- أن يفهم منها شيئاً فهماً صحيحاً، إلا بالرجوع إلى التراث القديم، لمعرفة أسس التحول الثقافي الأوروبي، ولم يعد من الممكن فهم وتذوق أدب وفكر أوروبا إلا بالنظر المتأمل في هذه المصادر الإغريقية واللاتينية.

وإذا كان المصريون قد حفظوا فيما يقولون ويكتبون كثيراً من مفردات الإغريقية ترجع إلى العصور الأولى، فقد تكرر الاغتراف اللغوي مرة أخرى على يد المترجمين الأول في أيام الأمويين والعباسيين ، ودخلت في لغتنا كلمات مثل فلسفة وموسيقا، بل نلتقي بكلمات معربة أصبحت غريبة علينا اليوم مثل قاطيغوريا وهيولي واسطقس. وما عدنا إلى الترجمة منذ عصر محمد علي حتى عادت الكلمات اليونانية في ثوب فرنسي أو إيطالي أو إنجليزي تدخل العربية: دراما، كوميديا، تراجيديا، استراتيجية، طبوغرافيا، ديموقراطية، أرستقراطية، ناهيك عن بيولوجيا، فسيولوجيا، ميكروب، ميكروسكوپ، تيليسكوپ، فوتوغرافيا الخ هذه القائمة الطويلة. وعندما قام رفاعة الطهطاوي بترجمة كتاب فينيلون «تليماك» (تيليماخوس) وأسماه «مواقع الأفلاك في وقائع تيليماك»، فقد كان على بينة من أنه ينقل إلى القارئ المصري والعربي كتاباً فريداً، ثرياً أعظم الثراء، قوامه التراث الإغريقي. وعندما نقل تلميذه محمد عثمان جلال حكايات الشاعر الفرنسي لافونتين «العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ»، نوه في مقدمته بإيسوب <أيسوپوس> Aisopos ، هذا الشاعر الإغريقي الأسطوري الذي أسس أو قيل إنه أسس هذا النوع من الأدب التعليمي الجميل. وفعل عبد الله حسين نفس الشئ عندما ترجم عن الفرنسية كتاباً عن فلاسفة الإغريق.

أعاد المصريون اكتشاف الثقافة الإغريقية، وتزايد اهتمامهم بها تزايداً ملحوظاً، جديراً بالتقدير.حتى إذا قامت الجامعة المصرية الحديثة وجدناها توسع دائرة الدراسة لتشمل الفلسفة الإغريقية أولاً ثم الآداب الإغريقية والفنون الإغريقية والتاريخ الإغريقي، وظهرت ترجمات مجددة وجديدة، وكان لطه حسين في ذلك دور الريادة: منظراً ومؤلفاً ومترجماً. وقد استقرت دراسات الإغريقية واللاتينية في جامعاتنا، وبلغت درجات عالية في مجالات البحث والتعليم الأكاديمي والتعريف العام لجماهير القراء طلاب الثقافة الرفيعة. وهانحن أولاء نقترب من افتتاح «مكتبة الإسكندرية» لندخل بها عصراً جديداً من إحياء تراث رفيع، ونؤكد مفهوم التواصل .

ولم يكن اشتغالي بترجمة كتاب ألان دي ليبيرا «فلسفة العصر الوسيط» Alain de Libera, La philosophie médiévale فرصة لتجديد تناول هذه الفلسفة من منظور متكامل فحسب، بل لإعادة النظر في الفلسفة الإغريقية من البداية إلى العصر الوسيط أيضاً. وقد أحسن ألان دي ليبيرا تصوير دخول الفلسفة الإغريقية ثقافة العالم الإسلامي أولاً، ودخولها العالم الأوروبي الغربي بعد ذلك. قدَّم روم الشرق، البيزنطيون، إلى المسلمين المتعطشين إلى العلم ما قدموا من تراث الفلاسفة وبخاصة أرسطوطاليس، ولم يسعوا هم إلى متابعة النظر فيما وصل إليه هذا التراث بين ظهراني المسلمين، فظل أهل أوروبا الشرقية على حالهم، يتكلمون لغاتهم، ويدينون بمذهبهم المسيحي الشرقي، وينشغلون بمشكلاتهم الخاصة. أما روم الغرب، أهل غرب أوروبا، الذين ظلوا يتكلمون لغاتهم ويضمون إليها اللاتينية وثقافتها، فلم ينقلوا الفلسفة الإغريقية في البداية عن البيزنطيين، فقد باعد بينهم الشقاق، والشقاق الديني خاصةً، بل نقلوا عن المسلمين. ويقول ألان دي ليبيرا بوضوح إن المسلمين بما فعلوه بالفلسفة الإغريقية، وبما أبدعوه من فلسفة إسلامية هم الذين أعطوا أوروبا الغربية قاعدة ثقافتها المختلفة عن ثقافة أوروبا الشرقية، وإنهم هم الذين صنعوا أوروبا الغربية بطابعها المميز.

وكان من الخير أنني تعلمت في سنوات الصبا طرفاً من الإغريقية واللاتينية، حثنا على ذلك طه حسين وتلاميذه العظام الذين تعلمنا عليهم. فلما نزلتُ معترك الترجمة والتأليف، وبدأت أشارك في «الألف كتاب» (الأولى)، وغيرها من سلاسل النشريات التي أخذت الدولة تشجعها، كان من أوائل الكتب التي ترجمتها إلى العربية كتاب في تاريخ الأدب الإغريقي. فبعد أن فرغت من «مدخل إلى الأدب» من تأليف إميل فاجيه (وهو عرض للآداب في العالم، منذ البداية إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين. وفيه بطبيعة الحال فصل عن الأدب الإغريقي)، و«مبادئ علم الجمال» لشارل لالو ومسرحية «إيفيچيني» لراسين (بمادتها الإغريقية المشهورة)، نقلت إلى العربية كتاب پتيمانچان في تاريخ الأدب اللاتيني مع مقدمة وافية ضافية عن الأدب الإغريقي. ولعلي فرغت من ترجمة كتاب پتيمانچان هذا في عام ١٩٥٦ أو ١٩٥٧ وقدمته إلى طه حسين في المجلس الأعلى للثقافة فأحاله إلى الدكتور صقر خفاجة لمراجعته، ولكنني لم أتابع المراجعة لسفري إلى ألمانيا في عام ١٩٥٨، وبقائي في الخارج حتى عام ١٩٦٢. وشغلتني أمور كثيرة عن هذا الكتاب، فلم أبحث، بعد عودتي، بحثاً جدياً عن مخطوطي، ولا عن الأصل الفرنسي الذي ترجمت عنه، ثم توفي الدكتور صقر خفاجة، رحمه الله، فجأة قبل أن التقي به وأحدثه من جديد عن هذا المشروع القديم. وأبدلت الحديث الشفهي الذي كنت أتهيأ لتبادله مع صقر خفاجة بدراسة تكريماً له

ضمها «كتاب صقر خفاجة التذكاري» الذي نشره الزميل العلامة الدكتور أحمد عتمان، وتناولت فيها دور الترجمات من الألمانية إلى العربية في نقل الثقافة الإغريقية، فلم تكن الثقافة الإغريقية تنتقل إلى القارئ العربي إلا بطرق غير مباشرة في أغلب الأحيان.

وليس من شك في أنني لو عثرت في أوراقي القديمة على مسودات ترجمتي كتاب يتيمانچان- إذا عاد عصر المعجزات - فسأجدها محتاجة إلى صياغة جديدة، بل ربما فضلت الانصراف عن المحاولة القديمة، واستئناف المسيرة على مستويات أخرى بلغها العمل العلمي البحثي والتعليمي في هذه التخصصات على يد الرواد والزملاء.

وهذا هو كتاب «حيل الذكاء. دهاء الإغريق الميتيسي .Les ruses Dde l'intelligence La mètis des Grecs من تأليف: مارسيل ديتيين Marcel Detienne و چان پيير ڤرنان Jean-Pierre Vernant ينقلني إلى عالم التراث الإغريقي المتشعب والمثير على نحو عام، وإلى عصور الميثات على نحو خاص، والميثات هي الكلمة الإغريقية المعربة التي تدل على هذا اللون الخاص من الأساطير الإغريقية الأولانية. شغلني هذا الكتاب «الصعب» الذي يتناول بالدرس المدقق إلى أبعد حدود التدقيق موضوعاً محدداً، أو موضوعات محددة من الثقافة الإغريقية القديمة. فهو يلقي الضوء على نمط معين من الذكاء، ليس هو الذكاء المألوف، ولكنه أقرب ما يكون إلى المكر والخبث والمخاتلة، وقد ارتبط في التراث الإغريقي بالربة «ميتيس» حتى أصبح اسم ميتيس mètis كلمة دالة عليه، ودخلت اللغة الفرنسية وبعض اللغات الأخرى بهذا المعنى. .

لم نترجم كلمة mètis بكلمة "ميتيس" معربة عن الإغريقية إلا إذا كانت الاسم العلم الذي تعرف به الربة ميتيس، ولم نترجمها بالدهاء فقط إلا استثناءً في بعض المواضع بقصد التخفيف، وآثرنا أن نترجمها بـ«الدهاء الميتيسي» فنكون حافظنا على اللفظة العربية "الدهاء" وحافظنا على التحديد الدلالي الإضافي الذي يقصده المؤلف ، فهو ينطلق من أن الدهاء عند الإغريق شيء قائم بذاته، وأنه يرتبط بأسطورة ميتيس. ولهذا لم يستخدم في هذه الحالة كلمة ruse، بل استخدم الكلمة الإغريقية.

ولقد اتبعنا طريقة المؤلفيْن في كتابة الكلمات الإغريقية بحروف لاتينية حتى يسهل على جمهور القراء متابعتها. وسيجد فيها المتخصص خيراً كثيراً، وسيجد فيها القارئ الذي لم يتخصص في الإغريقية فائدة أيضاً في استجلاء تكوين الكلمات، ومقارنة بعضها بالبعض. كذلك لم نكتب الأسماء الإغريقية بحسب التحوير الفرنسي، بل رددناها إلى أصولها، فكتبنا

هوميروس لا هومير، وأپوللودوروس لا أپوللودور، ونسبنا إلى هوميروس هوميروسي لا هوميري . ومعروف أن اللغات الأوروبية (الفرنسية، الإيطالية، الإنجليزية، الألمانية على سبيل المثال) لديها قوائم كاملة وثابتة لكيفية كتابة الأسماء الإغريقية، وهي تختلف عادة في الكتابة والنطق من لغة إلى لغة، ولهذا تمسكنا بقاعدة كتابة الاسم الأجنبي أقرب ما يكون إلى لغته الأصلية. وربما نجد أنفسنا مضطرين في حدود ضيقة إلى الأخذ ببعض التحويرات المعربة الشائعة. ونحن على كل حال بحاجة إلى قاموس أسماء معتمد وملزم، يرد الأسماء إلى لغاتها الأصلية إلى أبعد الحدود الممكنة. فليس هناك معنى لاتباع لغات ثالثة تحور وتحذف وتضيف بحسبها منظومتها الصوتية والإملائية. وقد بذلت جهوداً في هذا الاتجاه في كتاب «فلسفة العصر الوسيط»، ومن قبل في كتابة الأسماء الألمانية والفرنسية بحسب أصولها وإمكانات العربية. وسيلاحظ القارئ أننا استخدمنا كلمات إغريق - وإغريقي - وإغريقية على الرغم من شيوع كلمات يونان- ويوناني- ويونانية - في العربية منذ قرون، وكلمات : يونان - ويوناني - ويونانية، لها مدلولاتها المحددة التي يحسن الالتزام بها.

وليس من شك في أن قارىء كتابنا هذا يحتاج إلى أن يتهيأ له بقراءات تحضيرية في الثقافة الإغريقية القديمة والعتيقة، وبخاصة في الأساطير والأدب والفلسفة والجغرافيا والتاريخ وعلم الآثار الإغريقية، حتى يخرج بخير فائدة من هذه الدراسات الرصينة المتعمقة التي يضمها الكتاب. وقد آثرنا ترك عناوين الكتب في الملحوظات الهامشية على حالها، حتى يستطيع القارئ الطُلَعة الرجوع إليها ، فقد رجع المؤلفان في كثير من الأحايين إلى الترجمات الفرنسية، لا إلى النصوص الأصلية. وجمعنا الملحوظات الهامشية كلها معاً في أخر الكتاب. ولم نتدخل بشروح من عندنا إلا في أضيق الحدود حتى لا ندس أنفسنا في العلاقة بين مؤلف الكتاب العلمي وقارئه. وسيعجب القارئ المدقق بمناهج البحث والاستقصاء والمناقشة النقدية التي هي من أساسيات تناول العلوم تناولاً حديثاً، وبخاصة تلك التي تحتمل الافتراضات والتخمينات إلى جانب التثبت الوضعي والالتزام الموضوعي.

ومن المفيد أن أنوه بما عرف بالحيل في التراث العربي، سواء في مجال الحيوان، الطب، السلوك، السياسة، الدين. وسوف يجد الباحثون المتخصصون في المقارنة بها مادة ثرية لمزيد من البحوث، وبخاصة عند توسيع مجال المؤثرات ليشمل المؤثرات الفارسية والهندية وغيرها من المؤثرات التي تشير إليها دلائل صريحة .

وأذكر على سبيل المثال الكتب التالية:

- بنو موسى، ابن شاكر، كتاب الحيل، تحقيق أحمد يوسف الحسن، جامعة حلب ١٩٨١.

- الجزري، أبو العز (بن اسماعيل بن الرزاز) ، كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، تحقيق أحمد يوسف الحسن، جامعة حلب ١٩٧٩.

- الخصاف، أبو بكر (أحمد بن عمرو بن مهير) ، كتاب الحيل والمخارج، تحقيق يوزف شاخت، هانوفر ١٩٢٣.

- الشيباني، محمد بن الحسن، كتاب المخارج في الحيل، تحقيق يوسف شاخت، لايبتزج ١٩٣٠

- القزويني، أبو حاتم (محمود بن الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن بن محمد بن عكرمة بن أنس ابن مالك الأنصاري) ، كتاب الحيل في الفقه، تحقيق يوسف شاخت، هانوفر ١٩٢٤.

- (مجهول) ، السياسة والحيلة عند العرب، تحقيق رينيه خوام، لندن ١٩٨٨.

- الماوردي، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك، تحقيق رضوان السيد، بيروت ١٩٨٧

- المرادي، أبو بكر (محمد بن الحسن الحضرمي القيرواني) ، كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة، تحقيق رضوان السيد، بيروت ١٩٨١.

-الطرطوشي، سراج الملوك، تحقيق جعفر البياتي، لندن ١٩٩٠.

- الرهاوي، أدب الطبيب، نشر فؤاد سزگين، فرانكفورت ١٩٨٥

- الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة ١٩٦٩

- الدميري، حياة الحيوان الكبرى،

والله ولي التوفيق

مصطفى ماهر

مصر الجديدة أغسطس ١٩٩٩

مقدمـــة

كما يخلُص العائد من رحلة إلى نفسه في نهاية المطاف ليستعيد في مخيلته المسار الذي قطعه، كذلك المؤلف عندما يفرغ من كتاب يستطيع، على سبيل التقديم له، أن يستعيد في فكره العمل الذي أنجزه، وأن يحاول تحديد ما فعله. ففي الوقت الذي يكون فيه البحث جارياً على قدم وساق يجد الباحث نفسه في خضم يدفعه إلى هذه الناحية تارة، وإلى تلك تارة أخرى، ولا يكاد يحقق بالضبط الطريق الذي يسوقه البحث إليه ولا الهدف الذي يسيّره نحوه. ولقد استمرت بحوثنا في «الدهاء الميتيسي» la mètis عند الإغريق نحو عشر سنوات، تخللتها بعض التوقفات [١]. ولقد جرّت علينا بحوثنا هذه مفاجئات ومفاجئات لم يكن أقلها أننا رأينا أفق الدرس الذي تجشمناه يزيد اتساعاً كلما تقدمنا إلى الأمام. كنا، كلما اعتقدنا أننا أوشكنا على بلوغ الهدف، نجد حدود المنطقة التي تهيأنا لاكتشافها تتباعد فلا نصل إليها. وإذا جاز لنا أن نقرر شيئاً نراه اليوم مؤكداً، فهو أن الأرض التي سعينا إلى اكتشافها والتي كان علماء الهيللينية حتي ذلك الحين يجهلونها لأنهم لم يسألوا أنفسهم عن موضع الدهاء الميتيسي la mètis في الحضارة الإغريقية [٢] - هذه الأرض تضم مناطق شاسعة بكراً تستحق أن يتناولها الباحثون بالدرس مستقبلاً. وهذا يعني أن كتابنا هذا لا يغطي مجال الدهاء الميتيسي la mètis كله، وأنّى له ذلك. ومن هنا كان من الضروري أن يقوم الباحثون من بعدنا بدراسات تهدف إلى التوسع والاستكمال، ونكتفي هنا بالإشارة على سبيل المثال إلى دراستين من هذا القبيل، أولهما تلك التي تنصب على مجمل المهارات الحرَفية التي يعتبر دايدالوس Daidalos ‹بالفرنسية Dédale› سيدها الأسطوري، وثانيها تلك التي تتناول أشكال الذكاء المحتال التي تختص بها بعض القوى الإلهية، ونكتفي بذكر الكتاب الذي خصت به فرانسواز فرونتيزي Françoise Frontisi دايدالوس [٣] وبالتنويه بالبحوث التي تناولت بها لورانس ليوتار كان Laurence Lyotard-Kahn شخصية هيرميس Hermès.

ومن حق القارىء أن يوجه إلينا عدة أسئلة، من قبيل: ما هو هذا المجال البحثي الذي نتحدث عنه حديثنا عن أرض بكر، وأين موقعه من المجتمع الإغريقي ومن الثقافة الإغريقية،

وما هي الطرق التي توصل إليه، باختصار ما هو على وجه الدقة موضوع كتابنا، وما هي العلوم التي تنتسب إليها بحوثنا؟ والإجابة عن هذه الأسئلة لا يمكن لأسباب مختلفة المستويات أن تكون سهلة ولا بسيطة.

ونقول باديء ذي بدء إن الواقع الذي نجتهد في الإحاطة به يفترش العديد من المستويات المتباينة التي يتمايز بعضها عن البعض الآخر كما تتمايز الثيوجونية <= قصة أنساب الآلهة> أو ميثوس السيادة، أو تحورات ربة مائية، معارف أثينة وهيفايستوس، معارف هيرميس، معارف أفروديتي، معارف زيوس وپروميثويس، فخ القنص، شبكة الصيد، فن السلال، فن النساج، فن النجار، براعة الملاح، لمحة السياسي، نظرة الطبيب الخبير، أحابيل شخص ماكر مثل أوليسيس، مخاتلة الثعلب، تشكُّل الاخطبوط، لعبة الألغاز والتنوّات، الخداع البلاغي لدى السفسطائيين. هكذا يجتاز بحثنا عالم الإغريق الثقافي على سعته كلها، ابتداءً من وسائله التقنية القديمة المتوارثة، وانتهاءً بتنظيم مجمع أربابه الپانثيون. ويخطو بحثناخطاه على كل مستويات العالم الثقافي الإغريقي، ويسلك سبله بمختلف أبعادها، ويتنقل دون هوادة من قطاع إلى قطاع، لكي يستخرج من وثائق يبدو عليها التباين كل التباين، توجهاً عقلياً واحداً، ونموذجاً واحداً لطريقة الإغريق في تصور نمط معين للذكاء يتغلغل في الحياة العملية، ويتصدي لعوائق يكون عليه أن يسيطر عليها متوسلاً بالحيلة من أجل بلوغ النجاح في مجالات العمل المتباينة كل التباين.

ولقد تحتم علينا بحسب الحالات واللحظات أن ننوع مناهجنا في التناول، وأن نؤلف بين المنطلقات ووجهات النظر المختلفة. ومن هنا جاء عملنا في بعض أوجهه دراسة مفردات، وتحليلاً للحقل الدلالي للدهاء الميتيسي la mètis وتماسكه، واستقراره المدهش على مدى الهيللينيستة héllenisme كلها. وهو يمس نقطاً أخرى من تاريخ التقنيات والذكاء التطبيقي على نحو ما يظهر في مهارات العامل الحِرَفي؛ كذلك يتضمن فصولاً كاملة قوامها التحليل الميثولوجي وحل شفرات بنيات مجمع الأرباب الپانثيون. وهو في نهاية المطاف ينتمي إلى علم النفس التاريخي حيث إنه يسعى - على كل طبقات الثقافة الإغريقية وفي كل أنماط الأعمال التي شغلت بها - سعياً دءوباً إلى التوصل إلى مقولة عقلية كبيرة ترتبط بظروف المكان والزمان، وإلى تحديد دقيق لأسلوبها في التنظيم والعمل، ولسلسلة الإجراءات التي تعمل طبقاً لها، والقواعد المنطقية الضمنية التي تخضع لها. نقول: مقولة عقلية، ولا نقول: فكرة. فنحن

لا نكتب تاريخاً للأفكار، وما كانت لدينا القدرة على التصدي لكتابته. فأشكال الذكاء المتحايل، والمكر الموائم الفعّال التي استخدمها الإغريق في قطاعات واسعة من حياتهم الاجتماعية والروحية، وقدّروها تقديراً في منظومتهم الدينية، وحاولنا نحن على طريقة علماء الآثار أن نجمع شتات صورها، لم تكن قط في يوم من الأيام واضحة للعيان في تعبير صريح، ولا موضوعَ تحليلٍ مفهوم مكتوبٍ بمفردات، ولا ماثلة في نص متصل من قبيل النصوص النظرية. ليست هناك كتب تدور حول الدهاء الميتيسي la mètis من قبيل الكتب التي تدور حول المنطق، وليست هناك منظومات فلسفية تأسست على مبادىء الذكاء المتحايل. أي أننا نستطيع كشف الغطاء عن الدهاءالميتيسي la mètis في قلب عالم الإغريق الفكري الموجود في لعبة الممارسات الاجتماعية والفكرية حيث تظهر سيطرته على نحو يصل إلى حد التحكم أحياناً، ولكننا لن نجد حديثاً متصلاً عن الدهاء الميتيسي la mètis في نص يبين لنا من الوهلة الأولى أساسياته ومجالاته.

ونصل إلى المستوى الثاني من الأسباب التي جعلت مهمتنا صعبة، وجعلت لها، في رأينا، مغزاها. فعلى الرغم من سعة المجال الذي تتم فيه ممارسة الدهاء الميتيسي la mètis، وعلى الرغم من أهمية موقعه في منظومة القيم، فإنه لا يظهر صريحاً كما هو ، ولا يتبدى سافراً في نور الفكر الساطع، في وضوح يتمثل في نص عليم يستهدف تعريفه. إنه يظهر دائماً منزوياً في «الحنايا»، زاد هذا الانزواء أو قل، غارقاً في تدبيرٍ ما يستخدمه دون أن يحفل في أية لحظة بإظهار طبيعته أو بتبرير مسلكه. ولهذا فإن علماء الهيللينية المحدثين، وهم ينكرون دور الدهاء الميتيسي la mètis وينكرون أثره بل ينكرون حتى وجوده، يتشبثون مخلصين بصورة معينة اصطنعها الفكر الإغريقي لنفسه يتخذ فيها الدهاء الميتيسي la mètis على نحو عجيب هيئة الغائب. والدهاء شكل من الذكاء والفكر، وأسلوب معرفة، وهو عبارة عن مجموعة مركبة، ولكنها مترابطة أشد الترابط، من التوجهات العقلية، والسلوك الفكري، تجمع: الحس - الفطنة - التنبؤ - الملاينة - المخادعة - المكر - النباهة - البديهة - المهارات المختلفة - الحنكة. وهو ينصب على وقائع خاطفة مائعة محيرة ومختلطة، لا تخضع للقياس الدقيق، ولا للحساب المحدد ولا للتدبير المنطقي الصارم. ولكننا إذ ننظر في جدول الفكر والمعرفة الذي وضعه المختصون بالذكاء، وهم الفلاسفة، نجد أن كل الصفات العقلية التي يتكون منها الدهاء الميتيسي la mètis، وكل ألاعيبه، ومهاراته، وتدابيره، تُنحى جانباً

ويُلقى بها في أكثر الأحايين إلى الظلام، وتمحى من مجال المعرفة الحقيقية ، وتُرد ، بحسب الحالات، إلى مستوى التمرس أو الإلهام المفاجئ أو الرأي المتقلب أو إلى مجرد النصب. فمن سعى إلى البحث عن الذكاء الإغريقي في مدونات جعل الذكاء الإغريقي من نفسه فيها موضوعاً وتحدث عن طبيعته حديث العالم العليم، عليه أن يوقن مقدماً من خيبة رجائه، ومن أنه لن يكتشف فيها الدهاء الميتيسي الإغريقي la mètis. إنما يَكتَشف الدهاءَ الميتيسي الإغريقي la mètis مَن يتتبعه في غير هذا الضرب من المدونات، أي يتتبعه في تلك القطاعات التي عهدنا الفيلسوف يحوطها بالصمت أو لا يتحدث عنها إلا حديث السخرية، أو المجادلة، حتى يوضح على سبيل المقابلة طريقة التفكير العقلي والفهم وهي الطريقة التي تقوم عليها حرفته أساساً.

وليس من شك في أن هذه الأحكام التي نسوقها تحتمل فروقاً يجب علينا أن نبينها. فليس موقف أرسطوطاليس من هذه المسألة مطابقاً لموقف أفلاطون. فالرأي عند فيلسوف الأكاديمية - أفلاطون - أن الإحاطة euchéreia ، والنظرة الصائبة eustochia ، والألمعية agchinoia التي تعمل عملها في المهام التي يحاول فيها الدهاء الميتيسي la mètis بالتحسس والظن بلوغ الهدف المأمول ، تنتمي إلى وجه من المعرفة خارج إطار العلم epistêmê ، غريباً على الحقيقة. أما أرسطوطاليس فإن «الحرص» عنده على الأقل تكتسي بتوجهها وتدابيرها كثيراً من سمات الدهاء الميتيسي la mètis. بل إننا نستطيع أن نتساءل : أما كان أفلاطون نفسه يتبع في مجال الدهاء الميتيسي la mètis طريقة التشريح إلى شرائح، فيستخلص من المهارات الحرفية كل ما يمكن استخلاصه عن طريق استخدام آلات القياس فيتيح له أن ينضم إلى معرفة من النمط الرياضي وأن يقدم إلى الفيلسوف نموذج إبداع خلاق «دميورجي» ينتج عملاً فعلياً، مستقراً ومنظماً على قدر الإمكان في إطارالصيرورة انطلاقاً من «الأشكال».

وينبغي علينا في النهاية وعلى نحو خاص أن نعود مرة أخرى، من المنظور الذي نبسطه، إلى دراسة الإضافة التي قدمها السفسطائيون، فهم يحتلون موقعاً حاسماً عند المرفق الذي يلتقي فيه الدهاء الميتيسي la mètis التقليدي والذكاء الجديد الذي تكلم عنه الفلاسفة. ولكننا مع ذلك، نقرر حقيقة تشمل الجوهر، وهي أن مدونات وتعاليم الفلاسفة كما اتصلت حلقاتها في القرن الرابع تمثل قطيعة قطعت الأسباب بينها وبين نمط من الذكاء، صحيح أنه ظل مستمراً في قطاعات شاسعة هي: السياسة والفن العسكري والطب والمهارات الحرفية، ولكنه انزاح عن المركز، وفقد قيمته بالقياس إلى ما سيعتبر منذ ذلك الحين بؤرة العلم الهيلليني.

العالم العقلي في عرف الفيلسوف الإغريقي، على عكس ماهو في عرف المفكرين الصينيين أو الهنود، يفترض انفصالاً أساسياً بين الوجود والصيرورة، بين المعقول وبين المحسوس. هذا العالم العقلي لا يكتفي فقط بطرح سلسلة من التعارضات بين حدود متضادة. هذه المفاهيم المتضادة وقد جمعت في ثنائيات متعارضة تتواءم بعضها مع البعض الآخر لتكوّن منظومة كاملة من الأضداد التي تحدد مستويين من الواقع يستبعد أحدهما الآخر: أولهما مستوى الوجود، وهو المجال الذي يضم الواحد والدائم والمحدَّد والمعرفة الحقة الثابتة؛ وثانيهما مستوى الصيرورة وهو المجال الذي يضم المتعدد والمتحول وغير المحدد والرأي الملتوي والعائم. في هذا الإطار الفكري لم يعد من الممكن أن يجد الدهاء لنفسه مكاناً: فالسمة الفارقة التي تميزه هي أنه يعمل بلعبة أرجوحية مستمرة، تروح وتجيء بين قطبين متضادين. والدهاء يقلب رأساً على عقب تلك الحدود التي لم تتحدد بعد على شكل مفاهيم مستقرة ومحددة، ومانعة لما سواها، بل تلوح كقوى اتخذت موقف مواجهة، وتجد نفسها بحسب اتجاه المنازلة التي تتناضل فيها، تارة قاهرة في موقف، وتارة مقهورة في الموقف المضاد. وإذا كان على الربات نفسها، المهيمنات على القيود، أن تظل متنبهة حريصة حتى لا تكبلها القيود بدورها، كذلك الفرد الذي وهب الدهاء الميتيسي، سواء كان رباً أو إنساناً، عندما يواجه واقعاً متشابكاً، متغيراً ذا قوة لامحدودة في التحور تحورات عديدة تجعل الإحاطة به أقرب إلى المحال، هذا الفرد لا يستطيع السيطرة على هذا الواقع، أي لا يستطيع أن يحصره في إطار صورة واحدة ثابتة يكون له عليها سلطان، إلا بأن يبدو هو نفسه أكثر مرونة وتعدداً، أكثر حركة، أكثر تنوعاً في القيم من غريمه. وهنا ينبغي على الفرد أن يصطنع الطريقة نفسها، من أجل الوصول مباشرة إلى هدفه، ومن أجل متابعة طريقه دون انحراف خلال عالم متميع، مهزوز لا يكف عن التأرجح إلى هذا الجانب وإلى ذاك، أي ينبغي على الفرد أن يتلوى، وأن يصطنع لنفسه ذكاء متلوياً ومرناً، لكي يتلوى في كل اتجاه، وأن يجعل مسلكه «معوجاً» حتى ينفتح نحو كل الاتجاهات في وقت واحد؛ وإذا شئنا استخدام اللفظ الإغريقي قلنا إن الأجلوميتيس agkulomêtês أي الذي يملك ناصية دهاء ميتيسي ملتو la mètis عليه أن يجمع إلى أكبر قدر من الاستقامة قدرة على سلوك الطريق الذي ينتهي إلى التحقيق الفعلي لما نعقدت عليه النية.

هذه الطائفة المنوعة من العمليات التي يستخدمها الذكاء لكي يدخل في علاقة مع موضوعه، تطرح نفسها حياله على هيئة علاقة تنافس تأتلف من الاتفاق والمعارضة في وقت

واحد، هي التي حاولنا الإحاطة بها على كل المستويات وفي كل الأشكال التي رأينا أننا يمكن أن نلقاها فيها.

وفي بحثنا هذا عن حيل الذكاء اعتمدنا الوقائع الإغريقية وحدها دون سواها. ولقد كان من الطبيعي ونحن نتناول مقولة عقلية متأصلة بمثل هذا العمق في الفكر الديني أن نكرس الجزء الأكبر من تحليلاتنا للإحاطة بمكان ووظائف ووسائل عمل الدهاء الميتيسي la mètis في الميثوس ‹الأسطورة› ولاستجلاء التوزيع الدقيق للصلاحيات المتعددة بين القوى الإلهية المختلفة. والدهاء الميتيسي la mètis يتيح للباحث أن يطرح مشكلات عامة معينة خاصة بنظام مجمع الألهة البانثيون، فنحن نجد هناك آلهة ذات دهاء ميتيسي la mètis وآلهة بلا دهاء. فما هو وجه التضاد بين هؤلاء وأولئك، وإذا نحن جمعنا الألهة الأول في مجموعة واحدة، ففيم تتمايز بعضها عن البعض الآخر؟ ما هذا الذي يجعل دهاء كرونوس أو التيتان بروميثيوس مضاداً لدهاء زيوس الأوليمبي رب الكون؟ أين هو الخط الفاصل بين دهاء la mètis ‹الربة› أثينة وبين دهاء قريب منه هو دهاء هيفاستيوس ‹رب النار والمعادن› أو دهاء هيرميس أو أفروديتي؟ لماذا كان علم الكهانة الذي علمته ثيميس Thémis وأبوللون Apollon ، مثله مثل سحر ديونيسوس Dionysos خارج مجال الدهاء الميتيسي la mètis؟ ولقد أجرينا الجزء الجوهري من أبحاثنا في هذا الكتاب انطلاقاً من الربة أثينة ابنة الربة "ميتيس" ‹ربة الدهاء›، حيث إن أثينة تمثل الدهاء بما هو قوة ربانية في عالم الآلهة الأوليمبية المنظم. وما دامت أبحاثنا قد اتخذت هذا التوجه فلم يكن من الممكن أن تنأى عن التعرض لمشكلات تخرج عن المجال الإغريقي، وتخرج بالتالي عن الإطار الذي كنا قد حددناه لأنفسنا. فشخصية الربة ميتيس ودورها في ميثات ‹أساطير› السيادة وما تواتر لدي الأورفيوسيين في ميثات نشأة الكون، الميثات الكوسموجينية، يستدعيان إجراء مقارنة بالموروثات الأسطورية في الشرق الأدنى، وبخاصة تلك القصص التي يظهر فيها الإله السومري إنكي -إيا Enki-Ea نفسه سيداً يهيمن على المياه، مخترعاً يبتدع التقنيات، عليماً تمتلئ معرفته بالمكر. والدهاء الإغريقي على نحو أكثر عمومية يطرح مشكلة الموقع الذي تشغله في التدابير الواردة في ميثاتس عدد كبير من الشعوب شخصية من نمط «المحتال»، الشخصية التي يتفق علماء الأنثروبولوجيا الأنجلو ساكسون على تسميتها trickster المخادع. وكتابنا، دون أن يتناول صراحة هذه المسائل، يقدم على هذا المستوى إلى ملف الدراسات

المقارنة مادة توثيقية جديدة جُلُّها لم ينشر من قبل. ولعلنا، عندما لم نقْصر بحثنا على موقع الدهاء الميتيسي في الميثوس والدور الذي أنيط به، وعندما تساءلنا عن صورة الذكاء الخاصة التي يمثلها، وعن الوسائل العملية التي يتوسل بها، وعن التدابير التي يستخدمها من أجل تحقيق غاياته، لعلنا نكون قد أسهمنا أيضاً في توجيه دراسات المقارنة وجهةً جديدة. والبرنامج البحثي الذي قد نجد في ختام عملنا هذا ما يغرينا باقتراحه على الباحثين هو إجراء مقارنة تقابلية بين نماذج تفعيلية تهيمن في الفكر الديني على منطق الذكاء المحتال، وتبين على المستوى الميثي ضروب نجاحه، وهي نماذج لاح لنا في حالة المعطيات الإغريقية أنها ترجمت إلى: الانقلاب والقيد والحلقة (٤).

القسم الأول

ألاعـيب الـدهاء

الباب الأول

سباق أنطيلوخوس

على المستوى اللفظي تعني كلمة ميتيس mètis من حيث هي اسم عام شكلاً خاصاً من الذكاء ، من الحرص الأريب. ومن حيث هي اسم علم فهي تطلق على ربةٍ أنثى، هي ابنة أوقيانوس. والربة ميتيس شخصية ربما نظنها هزأة تافهة، وربما تبدو لنا كأنها قضي عليها أن تقوم بأدوار كومبارس. ونحن نعرف أنها كانت زوجة زيوس الأولى، وزيوس هو ملك الآلهة، فما كادت تحمل منه في أحشائها أثينة حتى قام بابتلاعها ودسّها في غيابات بطنه. وكان هذا يعني أن ملك الآلهة قضى في عنف وقسوة على حياتها الميثولوجية. إلا أننا نجد ميتيس في قصص أنساب الآلهة المنسوبة إلى أورفيوس تحتل مكان الصدارة وتبدو في أصل العالم ربةً كبيرة أساسية.

أما فيما يتعلق بالاسم من حيث هو اسم عام، فقد لاح الأمر حيناً كأنما حكم عالم فقه اللغة الألماني ڤيلاموڤيتس Wilamowitz الحكم الفصل عندما سجل في هامش أحد كتبه[١] أن ميتيس بعد أن عرفت حظاً محدوداً في حد ذاته في الملحمة الهوميروسية لم تعش بعد ذلك إلا في صورة أثر تذكاري شعري. وكان هنري چانمير Henri Jeanmaire هو الذي أعاد المجادلة وفتح باب التقصي بمزيد من المثابرة. ويمكننا أن نستخلص من دراسته المعنونة « La naissance d'Athéna et la royauté magique de Zeus» <= مولد أثينة ومملكة زيوس السحرية> [٢] نتيجتين، أولاهما أن قدرة الذكاء التي تشير إليها لفظة ميتيس الدهاء تعمل عملها على مستويات منوعة كل التنوع ولكنها تشترك كلها في التشديد على الفعالية العملية وعلى السعي إلى تحقيق النجاح في المجال العملي، وتضم : العديد من وسائل التصرف المحنك المفيدة في الحياة العملية، وبراعة الحرفي في حرفته، والحيل السحرية، واستخدام منقوعات وأعشاب، وحيل الحرب، وأساليب الخداع، والاحتيال، ومختلف أنواع

التصرف. وثانيتهما أن لفظة ميتيس - الدهاء الميتيسي- تدخل شريكاً في طائفة من الكلمات تكون في مجموعها حقلاً دلالياً واسعاً إلى حد كبير، ومحدداً ومفصلاً على نحو جيد [٣].

ولننظر إلى تاريخ الدهاء الميتيسي الطويل الذي يمتد إلى أكثر من عشرة قرون ، ونبدأ بالبحث في شواهد يقدمها إلينا شاهدنا الأول: هوميروس.

وخير نصوص هوميروس كشفاً عن طبيعة الدهاء الميتيسي ورد في النشيد الثالث والعشرين من «الإلياذة» وهو الفصل الذي يدور حول الألعاب. نقرأ فيه أن الاستعدادات لسباق العربات بلغت منتهاها، وأن نيسطور، وكان شيخاً هرماً يمثل نموذج الحكيم والناصح الخبير بالدهاء الميتيسي [٤]، أخذ يغدق على ابنه أنطليوخوس وصاياه [٥]. كان أنطليوخوس لا يزال في ميعة الصبا، ولكن «زيوس» و«پوسايدون» Poseidôn علماه «كل أساليب البراعة في سياسة الخيول» [٦]. لم تكن خيوله لسوء الحظ شديدة السرعة؛ وكان منافسوه أفضل حظاً. وبدت الدلائل كأنها تشير إلى أن الشاب مقبل على هزيمة. فكيف يظهر على غرمائه الذين أوتوا خيولاً أشد سرعة، بينما لم يؤت هو إلا الأقل سرعة؟ [٧] .

هذا هو السياق الذي دار فيه الحديث حول الدهاء الميتيسي. كان أنطليوخوس بالنظر إلى خيوله دون مستوى منافسيه، ولكنه وهو ابن أبيه حقاً [٨] كانت لديه في جعبته من حيل الدهاء الميتيسي أكثر مما كان يمكن أن يدور بخلد منافسيه. قال له نيسطور: « عليك يا صغيري إذن أن تضع في رأسك دهاءً متعدد السبل metin pantoien حتى لا تضيّع الجائزة». وتأتي بعد هذه الكلمات الفقرة التي تتغنى بمدح الدهاء الميتيسي والثناء عليه:

« الدهاء الميتيسي - أكثر من القوة - هو الذي يصنع الخطاب الجيد. بالدهاء الميتيس يقود الملاح القابض على الدفة سفينة السباق برغم الريح على صفحة البحر الثمل. بالدهاء الميتيسي يسبق قائد العربة منافسه [٩]». وهذا هو أنطليوخوس أوحى إليه الدهاء الميتيسي بحيلة تنطوي على قدر من الخداع، كبر أو صغر، مكنته من أن يقلب الوضع غير المواتي ومن أن ينتصر على من هو أقوى منه - وهذا هو ما عبر عنه نيسطور بقوله: «إن من يعرف الحيل kérdê ، حتى إذا كان يسوق خيولاً ضعيفة، يكسب [١٠]» . فماذا كانت هذه الحيل؟ اتبع الشاب نصائح أبيه فاستغل ضيقاً مفاجئاً في الطريق ناجماً عن تجريف أحدثته مياه عاصفة مطيرة، لكي يدفع عربته بميل أمام عربة مينيلاوس على نحو يحمل مخاطر حدوث الصدام؛

وفاجأت المناورة الغريم الذي كان عليه أن يرد خيوله؛ وانتهز أنطيلوخوس ارتباكه فحقق التقدم الذي يلزمه للسبق في الأشواط الأخيرة [١١].

١- قد تبدو هذه الفقرة عادية إلا أنها تكشف عن بعض السمات الجوهرية للدهاء الميتيسي. فهي تكشف أولاً عن التعارض بين استخدام القوة، والالتجاء إلى الدهاء الميتيسي في كل موقف من مواقف المواجهة أو المنافسة - سواء كانت تتعرض لإنسان أو حيوان أو قوة طبيعية - وعن أنه يمكن تحقيق النجاح بطريقين. إما بالتفوق في «القوة» في المجال الذي تجري فيه المنازلة، فيفوز الأقوى . وإما باستخدام وسائل من نوع آخر تؤدي تحديداً إلى تزييف نتائج المباراة وإلى جعل النصر من نصيب هذا الذي كان في مقدورنا يقيناً أن نعتبره الخاسر. هكذا يكتسب النجاح الذي يجلبه الدهاء الميتيسي معنى مختلطاً: تتعارض حياله ردود الفعل بحسب السياق. فأحياناً يعتبر النجاح ثمرة خدعة، لعدم احترام قواعد اللعبة. وفي أحيان أخرى يثير من الإعجاب بقدر ما يزيد في المفاجأة، عندما يجد الأضعف في نفسه، خلافاً لكل توقع، ما يكفي من إمكانات لوضع الأقوى تحت رحمته. والدهاء من بعض جوانبه ينحو ناحية الاحتيال الخائن، والكذب المخاتل، والغدر، وهي أسلحة مقيتة تلجأ إليها النساء والجبناء [١٢]. ويلوح من بعض جوانبه الأخرى أعلى قيمة من القوة؛ إنه على نحو ما السلاح المطلق، السلاح الوحيد الذي له القدرة في كل الظروف ومهما كانت شروط الكفاح على تحقيق النصر والهيمنة على الغير. ومهما كان الرجل أو الإله من القوة، فثمة لحظة تأتي دائماً يجد فيها من هو أقوى منه: فالتفوق في الدهاء الميتيسي هو وحده الذي يضفي على الرفعة تلك السمة المزدوجة من الدوام والعموم التي تجعلها بحق سلطة فائقة. وإذا كان زيوس ملك الآلهة، وإذا كان يفوق في القوة كل الأرباب الآخرين حتي إذا تكاتفوا ضده، فإنما يرجع ذلك إلى أنه إله الدهاء الميتيسي بامتياز [١٣]. والميثات الإغريقية التي تحكي عن استيلاء زيوس الكرونيدي <ابن كرونوس> على السلطة وإقامته حكماً مطمئناً نهائياً تشدد على أن النصر في معركة السيادة لم يكن ليؤخذ بالقوة بل بالمكر [١٤] وبفضل الدهاء الميتيسي. وما كان كراتوس Krátos وبييه Biê - وهما الغلبة والقوة الغاشمة - ليحيطا بعرش زيوس الأوليمبي، خادمين خاضعين مقيدين بخطاه، إلا بقدر ما تتجاوز سلطته القوة البسيطة وتفلت من نوائب الزمان. فزيوس لم يقنع بالاقتران في زواجه الأول بميتيس <ربة الدهاء>، بل ابتلعها، فجعل نفسه كله دهاء ميتيسياً. كانت تلك حيطة حكيمة اتقى بها ما كان يمكن أن يحدث له <من ضياع>: فلو لم يفعل زيوس

هذا، لولدت له ميتيس بعد أن حملت أثينة، ابناً أقوي منه، كان سيخلعه عن العرش، كما خلع هو من قبل أباه. بعد أن ابتلع زيوس ميتيس الدهاء لم يعد هناك من دهاء يمكن أن يحدث في العالم خارجاً عنه أو ضده. لم يعد من الممكن أن تنتسج خيوط دهاء في العالم دون أن تمر في البداية من خلال عقله هو. ولم تعد الفترة التي يبسط الإله المهيمن في غضونها سلطته تنضوي على توازل مفاجئة تتنزل من القدر. لم يعد هناك شيء يمكن أن يباغته، أو يخدع يقظته أو يتصدى لنواياه. كان زيوس يتلقى تحذيراً من الدهاء الميتيسي الذي بداخله يكشف له كل ما يدبَّر له من خير أو شر، وهكذا لم يعد زيوس يعمل حساب المسافة بين النية والتنفيذ، تلك المسافة التي تبرز منها فجأة، في حياة الآلهة الآخرين وحياة الكائنات الفانية، كمائن الغيب.

٢- والسمة الثانية التي توضحها هذه الفقرة من «الإلياذة» تتصل بالأفق الزمني للدهاء الميتيسي. إن عمل الدهاء الميتيسي يجري على أرضية مائعة، في موقف يعوزه اليقين والوضوح: حيث تتواجه قوتان متعارضتان ؛ وفي كل لحظة يمكن أن تنقلب الأمور وتسير إما في هذا الاتجاه أو في اتجاه آخر. الدهاء الميتيسي يتيح لصاحبه سيطرةً على هذا الوقت المصاب المائع الذي تجري فيه المنازلة، سيطرة ما كان المنازل بدونها إلا ضائعاً عديم الحيلة : في أثناء المنازلة agôn يبدو الإنسان صاحب الدهاء، بالقياس إلى غريمه، وفي وقت واحد: أكثر تمركزاً في حاضر لا يفلت منه شيء، أكثر توجهاً إلى مستقبل سبق إلى تدبير بعض جوانبه، أكثر ثراءً بخبرة تراكمية من الماضي. هذه الحالة من التأمل المسبق الحذر، ومن الحضور المستمر في الأحداث الجارية، يعبر عنه الإغريقي مستخدماً صورة التربص والرصد عندما يقوم الرجل الحذر برصد غريمه ليسدد ضربته في اللحظة المختارة. ولنستمع إلى نيسطور وهو يحذر أنطيلوخوس من الأخطار التي تحدق بمن يبالغ في الثقة في قوته فيكف عن الحذر: «هذا يثق في عربته وجياده ويسلك في حمق المنعطف الواسع الفسيح، فيميل إلى هذه الناحية تارة، وإلى تلك تارة أخرى . . . وذاك يسوق خيولاً أقل سرعة، ولكنه على عكس الآخر يعرف أكثر من وسيلة، ولا يغفل عن الحد، ويسلك المنعطف القصير المختصر، ولا ينسى أن يمسك خيوله بلجام من الجلد، وهو يقودها دون حيد وعينه ترصد dokeúei من أمامه [١٥]» . والفعل dokeúein - يرصد - مصطلح فني من مصطلحات صيد السمك وصيد الحيوان والحرب. ومؤلف قصيدة «الدرع» ‹بالفرنسية Le Bouclier، والمقصود: درع هرقل› المنسوبة إلى هيسيودوس يستخدم هذا

المصطلح في حديثه عن صياد سمك قابع في مكمنه يرصد السمك، وقد تهيأ ليرمي على السمك شرك شبكته العريضة [١٦]. وتتحدث «الإلياذة» عن كلب الصيد الذي يطارد الخنزير البري وتصوره قيد خطى الوحش «ضاماً أيطليه وعجُزه، راصداً محاولاته» [١٧]. أما أنطيلوخوس نفسه فهو في أثناء المعركة يعرف كيف يرصد العدو. وفي غمرة الحشد الذي حمل إليه هيكتور Hektôr الرعب والموت، ينتحي الإغريقي الشاب جانباً ليرصد العدو: «إنه يرصد ثوءون Thoon، فما يكاد هذا يدور نصف دورة، حتى يقفز إليه ويصيبه [١٨]» .

الرجل صاحب الدهاء الميتيسي متأهب دائماً للقفز؛ وهو يتصرف بسرعة خاطفة في زمن مقداره البرق. ولا يعني هذا أنه ينصاع - كما يفعل عادة أبطال هوميروس - لخاطر عفوي مفاجئ. بل العكس هو الصحيح ، فالدهاء الميتيسي يعرف كيف ينتظر في صبر حتى تسنح الفرصة المأمولة. حتى إذا عمل الدهاء الميتيسي عمله استجابة لدافع مفاجيء، فإنه يعمل على عكس العفوية. الدهاء الميتيسي سريع، خاطف كالفرصة التي يكون عليه أن يمسكها وهي طائرة دون أن يتركها تعبر. ولكن الدهاء الميتيسي يمكن أن يكون أي شيء إلا أن يكون خفيفاً lepté : فهو يحمل ثقل الخبرة المكتسبة، إنه فكرة مكثفة، ملبدة، محبوكة pukiné [١٩]؛ وهو بدلاً من أن يطفو هنا وهناك على هوى الظروف، يلقي مرساة العقل عميقاً في قلب المشروع الذي دبره من قبل، وهو يفعل هذا بفضل قدرته على تجاوز الحاضر والتنبؤ بشريحة سميكة نسبياً من المستقبل.

ويحتوي نص «الإلياذة» من هذه الناحية على مؤشرات موحية. فهذا هو أنطيلوخوس في اللحظة الحاسمة من السباق يقول لخيوله : «أسرعي ما وسعتك السرعة، وسأتكفل أنا بالتماس الوسيلة واهتبال الفرصة، إذا ضاق الطريق، لكي أنزلق أمام أتريوس Atreus ‹بالفرنسية أتْريد Atride وهو أبو أجاممنون ومينيلاوس›، دون أن أضيع اللحظة السانحة [٢٠]» . وقد استشهدنا هنا بالترجمة الفرنسية لپول مازون Paul Mazon التي وردت فيها لفظة "الفرصة"›. وكلمة kairós التي تعني الفرصة لم ترد بحرفها في النص الإغريقي؛ ولكن فكرتها حاضرة تماماً في صورة ينبغي أن نحددها بدقة والنص يشدد عليها بإلحاح: الفرصة المقصودة هي فرصة أبعد ما تكون عن أن تباغت أنطيلوخوس، بل هي على العكس تتيح له الوسيلة لتحقيق الخطة التي اختطها منذ البداية. الدهاء الميتيسي يسبق الفرصة مهما كانت من السرعة، ولهذا فالدهاء الميتيسي هو الذي يلعب تجاه الفرصة دور المباغتة؛ إنه يستطيع أن

«يمسك» بالفرصة حيث إنه، وإن لم يكن «خفيفاً»، يعرف كيف يتنبأ بالأحداث التالية وكيف يستعد لها عن بعد كبير. هذا التحكم في الفرصة سمة من السمات التي تحدد فن قائد العربة. وعندما يقرظ پينداروس مهارة قائد العربة نيقوماخوس المعروف بمهارته في قيادة العربة، فإنه يلهج بالثناء عليه لأنه عرف «كيف يرخي اللجام كله للخيل في الفرصة المناسبة katà kairón[٢١] ». والحصانان الإلهيان اللذان يجران عربة أدراستوس المنيعة يحمل أحدهما اسم أرايون Areiôn الذي يدل على امتيازه، ويحمل الآخر اسم كايروس Kairós ‹الفرصة› [٢٢]: لا يكفي أن تكون لديك أسرع الخيول، بل عليك أن تعرف كيف تدفعها في اللحظة الحاسمة.

وفي نهاية السباق الذي ربح فيه دهاء أنطيلوخوس، أدرك أن دهاءه لم يكتسب بعد كلَّ الثقل وكلَّ التماسك المطلوبين، فما زال ينقصه العمر. فهذا هو مينيلاوس يكيل له اللوم والتوبيخ لمناوراته غير الأمينة، ولما اسماه dólos أي الاحتيال [٢٣] ؛ ويدعو الآلهة أن تكون شهوده على السوء الذي حل به؛ ويطلب من أنطيلوخوس أن يحلف اليمين وأن يعترف. ويرى الشاب نفسه مضطراً للإقرار علناً بذنبه، فيعترف بأخطائه ويبررها بطيش الشباب، وبالاندفاع الذي يجعل دهاء الصبي متوثباً: «ألا تعرف طيش الشاب؟ الخاطر لديه سريع، والدهاء الميتيسي عنده خفيف مندفع [٢٤]» . كان أنطيلوخوس، في شوقه إلى الانتصار، يفتقر إلى الثقل ‹الذي يُكتسب بالخبرة على مر سنوات العمر›.فقد شغل بالحيلة التي عكف على تدبيرها فلم يتبين النتائج التي ستنجم بعد الفوز عن الخدعة. لم يعرف خبثُه، وهو الشاب الغرير، كيف ينظر إلى بعيد فيرى أبعد من طرف أنفه كما يقولون. أما خبرة الشيخ المسن فإنها تعطي الإنسان رؤية أوسع، لأن عقله يكون قد ثَقُل بكل المعرفة التي اجتمعت له وتراكمت على مدى السنين، فهو لهذا يستطيع أن يكتشف مقدماً طرق المستقبل العديدة، وأن يوازن الإيجابيات والسلبيات، وأن يتخذ قراره عن علم بالقضية. في النشيد الثالث من «الإلياذة»، عندما نصل إلى المنعطف الذي قد نظن فيه أن العقل سينتصر وأن اتفاقاً سيضع نهاية للحرب، يطلب مينيلاوس باسم الإغريق، قبل أن يعقد العقد، أن يُؤتى إلى جانب أبنائه الشباب بالشيخ الهرم پرياموس: «عقل الشباب يحلق متقلباً مع كل ريح تهب êeréthontai؛ فإذا صحبهم شيخ هرم عرف، بتقريب المستقبل من الماضي háma próssô kai opissô leússei، كيف يمكن ترتيب كل شيء على خير وجه بالنسبة إلى الطرفين [٢٥]» .

أما تقريب المستقبل من الماضي فهي تلك الموهبة التي كان من نكد الدنيا على الآخيين Akhaioi أن مَلِكهم لم يؤتها. أخذ الغضب بأجاممنون كل مأخذ فلم يكن «قادراً بتقريب

المستقبل من الماضي على أن يرى أن الآخيّين يمكنهم أن يحاربوا دون خسارة فهم على مقربة من سفنهم [٢٦]». ولم يكن الطرواديون أسعد حظاً. ولقد أغدق پوليداماس عليهم، بما جبل عليه من حرص [٢٧]، ما شاء أن يغدق من نصائح حكيمة، وتوسل إليهم أن يفحصوا الأمور من كل الأوجه، بل تنبأ أمامهم «بما سيحدث». فلم يسمعوا له، وبقي وحده القادر على أن «يرى الماضي والمستقبل معاً» [٢٨]. وأخذ الطرواديون جميعاً برأي هيكتور الذي دعاهم إلى أن يحاربوا خارج الأسوار. وكان رأياً وخيم العاقبة. هكذا نسي هيكتور العظيم الماضي، وعَمِيَ عن المستقبل، واستسلم كل الاستسلام للكراهية والنزال، فأصبح رأساً خفيفاً استسلم كله إلى صروف الأحداث. ضللت العاطفة الملكين كليهما، فضاق مجال رؤيتهما، وتصرفا، كل في معسكره، تصرف شابين طائشين، فشابَهَا النسوة اللاتي قالت عنهن ساپفو إنهن «طائشات الروح، لا يفكرن لخفتهن إلا في الحاضر [٢٩]» . ثم إن الأفق الزمني حتى بالنسبة إلى الرجل الذي بلغ سن النضج وأوتي فكراً راكزاً، أفق محدود: المستقبل بالنسبة إلى أبناء الفانية معتم كالليل. وهذا هو ديوميديس وقد عرض أن يخرج في داورية ليلية بين خطوط العدو يطلب أن يصاحبه رفيق: «عندما يسير رجلان معاً فإذا لم ير أحدهما الميزة kérdos التي ينبغي الإمساك بها، رآها الآخر. والإنسان يرى أيضاً، إذا كان وحده، ولكنه رؤيته تكون عندئذ أقصر، ودهاؤه الميتيسي أخف [٣٠]» لابد أن يكون الإنسان مسناً يحمل كل الخبرة من قبيل ما أتيح لنيسطور، أو يكون أوتي دهاءً ميتيسياً خارقاً مثل أوليسيس، حتى يكون قادراً - بحسب العبارة التي يصور بها ثوقيديدس Thoukydides الحس السياسي لثيميستوقليس - «على أن يكوّن لنفسه بالنسبة إلى المستقبل أصوب رأي عن أبعد احتمالات المستقبل وعلى أن يتنبأ على خير وجه بالمنافع والمحاذير التي يخفيها الغيب [٣١]».

وينبغي أن نضيف هنا أن هذا التنبؤ الذي يفوق المألوف prométheia أو prónoia - حرفياً = هذه الرؤية المسبقة - لا يسير عند البشر في اتجاهه دون أن يكون هناك ما يأتي من الاتجاه المضاد. فپروميثيوس Prométheus - معنى الاسم حرفياً : الذي يفكر مسبقاً - له أخ توأم هو قرينه وضده واسمه إپيميثيوس Epiméthcus أي الذي يفكر سلفاً. وپروميثيوس يضع في خدمة البشر - الذين أمدهم مع النار بكل الحيل الفنية - ذكاءً يظن أنه يستطيع الاحتيال على زيوس وخداعه. ولكن الدهاء الميتيسي الذي يتوسل به التيتان پروميثيوس ينتهي دائماً بالانقلاب ضده، فيقع في الفخ الذي صنعه. پروميثيوس وإپيميثيوس هما إذن

وجها شخص واحد، كما أن التفكير المسبق prométheia عند الإنسان ليس إلا الوجه الآخر لجهله الكامل بالمستقبل[٣٢].

٣- وثمة سمة أخيرة يخلعها هوميروس على الدهاء الميتيسي، فالدهاء الميتيسي عنده ليس واحداً، وليس على شكل واحد، بل هو متعدد ومتنوع. فنيسطور يوصَف بتعدد الفطنة، بتعدد الدهاء، بأنه pantoiê [٣٣]. وأوليسيس البطل يوصف بصفات تحمل معنى تعدد الدهاء، وتعدد المعرفة، وتعدد الحيلة، فهو polúmètis و polútropos و poluméchanos، إنه خبير في ألوان الدهاء المختلفة pantoious dólous [٣٤] وهو poluméchanos بمعنى أنه لا تعوزه أحبولة أبداً، ولا تعوزه وسيلة póroi يخرج بها من كل مأزق aporia. والفنان الذي تعلم على يد أثينة وهيفايستوس اللتين تملكان ناصية الدهاء الميتيسي، يحتكم أيضاً على صنعة متنوعة الطرق téchné pantoié [٣٥]، يحتكم على فن للتنوع، على علم يمكنه من فعل كل شيء وصاحب الدهاء الواسع المتنوع polúmètis يحمل أيضاً اسم poikilómètis[٣٦] و aiolómètis [٣٧]. ولفظة poikilos (=مزركش، مبرقش، مشعشع، أرقط الخ) تدل على الرسم المبرقش على النسيج [٣٨]، وتدل على شعشة سلاح لامع [٣٩] وعلى جلد حيوان الخشف المبرقع[٤٠] وظهر الحية اللامع الأرقط [٤١]. هذه الزركشة في الألوان والتشاعب في الأشكال يحدثان أثراً من الشعشة والتموج وتراقص الانعكاسات يرى فيها الإغريقي ما يشبه ذبذبة نور دائمة. ومن هنا فإن لفظة poikilos التي تعني المزركش المبرقش، قريبة من كلمة aiólos التي تعني الحركة السريعة المختلجة [٤٢]. ومن هنا فإن سطح الكبد المتغير، تارة بالسعد، وتارة بالنحس [٤٣]، يوصف بأنه مثل السعادة التي لا تدوم على حال بل تتحرك وتتقلب[٤٤]، مثل الربة التي تقلب وتقلب مصائر البشر، بلا انقطاع، تارة من هذه الناحية، ومن تلك تارة أخرى [٤٥] وأفلاطون يقرن المبرقش المزركش poikilos بما لا يبقى أبداً شبيهاً بذاته [٤٦] ويرى في مواضع أخرى أنه ضد البسيط haploûs [٤٧].

وهكذا فإن الزركشة والتشابك ينتميان انتماءً حميماً إلى طبيعة الدهاء الميتيسي، حتى إن لفظة poikılos المبرقش المزركش إذا وصف بها فرد، كانت كافية للدلالة على أنه مراوغ، ماكر ذو قدرة خصيبة على الابتكار وعلى حيل الدهاء من كل نوع. وهيسيودوس يصف پروميثيوس بأنه poikilos مبرقش مزركش وبأنه في الوقت نفسه aiolómetis [٤٨] داهية في سرعة الحركة. وأيسوپوس Aisôpos <= يلاحظ في إحدى «حكاياته» أن الفهد إذا كان مبرقش

الجلد، فإن الثعلب مزركش الفكر [٤٩]. وأريسطوفانيس في مسرحية «الفرسان» يحذر أحد المحاربين من عدو على جانب كبير من الخطورة: «الرجل مزركش poikilos مكار؛ وما أسهل ما يجد الوسائل للخروج من المآزق ek tôn améchánon pórous euméchanos po-rizein[٥٠]» .

قلنا من قبل إن كلمة aiólos كلمة قريبة من poikilos . وقد ألحقها بينفينيست E.Benveniste اشتقاقاً بالجذر aión (skrt áyu) : وهو يعني أولاً قوة حياة تتحقق في الوجود الإنساني، ثم استمرار الحياة، ثم مدة الحياة، ثم مدة من الزمن [٥١]. وبناءً على التحليل اللغوي فإن المعنى الأساسي لكلمة aiólos هو: سريع، متحرك، متوثب، متقلب. والرأي عند ل. پارمينتييه L. Parmentier هو أن لفظة aiólos كان معناها في الملحمة مزركش (versicolor) أي الملون بألوان مركبة بعضها فوق البعض كالشرائح [٥٢]. ولكن إذا صح أن لفظة aiólos عندما استخدمت على سبيل المثال لوصف حصان أخيل وهو كميت على ساقه بطع بيضاء [٥٣] تدل على لون جلده، فإنه من الصحيح أيضاً في نظر علماء المعاجم وعلماء تأويل النصوص الذين فسروها [٥٤] أن اللفظة توحي أولاً بصورة حركة جياشة وتغير دائم. اللفظة تدل في مجال الأشياء على الدروع التي تدور محدثة شعشة [٥٥]؛ وفي مجال الحيوانات على دود[٥٦] ، ذباب الخيل [٥٧]، زنابير، قفير من النحل [٥٨]، أي على كل صنوف الحيوانات التي لا تكف جماعاتها الجياشة عن الحركة أبداً؛ وتدل في مجال البشر على أولئك الذين تعرف قريحتهم المخاتلة كيف تراوغ في كل اتجاه. وپنداروس يصف أوليسيس بأنه aiólos يقصد ماكر مراوغ [٥٩]. ولفظتا aiolómetis, aiolóboulos تقابلان لفظتي poikilómetis, poikilóboulos . والشخص الذي يجعله مكره قادراً على فعل كل شيء والذي يبدو على درجة من الدهاء تمكنه من أن يكتشف عند كل فخ سبيل النجاة، يصفه أوستاثس بأنه aiólos = مموج أي مراوغ و poikilos = مزركش أي واسع الحيلة [٦٠].

لماذا يبدو الدهاء الميتيسي متشعباً متعدد الأوجه pantoiê مزركشاً، متلوناً، متعدد الألوان والسبل poikilê مائجاً، متموجاً كثير المراوغة aiólê ؟ الإجابة عن هذا السؤال تكمن في أن مجال تطبيقه هو عالم المتحرك ، المتشعب، المتداخل المعاني. الدهاء الميتيسي ينصب على وقائع مائعة لا تكف أبداً عن التحور وهي تجمع في ذاتها ، في كل لحظة، أوجهاً متضادة، وقوى متعارضة. وعليه لكي يمسك الفرصة kairós العابرة سريعاً أن يكون أسرع

منها. عليه لكي يسيطر على موقف متغير ومتناقض أن يجعل نفسه أكثر مرونة، أكثر تموجاً، أكثر تعدداً في الأشكال من انسياب الزمن: عليه بلا انقطاع أن يتكيف مع تتابع الأحداث، أن ينحني أمام المباغت من الظروف لكي يحقق على نحو أنفضل المشروع الذي دبره؛ هكذا الربان القابض على دفة السفينة يتصرف بدهاء مع الريح حتى يقود المركبة بالرغم من الريح إلى بر الأمان. والإغريقي يرى أن الشبيه وحده هو الذي يؤثر على الشبيه. النصر على واقعة مائجة متموجة مراوغة تجعلها تحوراتها المستمرة شبه منيعة هدفٌ لا يمكن تحقيقه إلا بمزيد من الحركة، وبمقدرة أكبر على التحور.

هذه السمة التي تسم الشخص صاحب الدهاء الميتيسي، وهي سمة أكدها أبوللودوروس، وكان من المحتمل أن نظنها ثانوية أو إضافية، تتخذ هكذا قيمتها الكاملة. كانت زوجة زيوس ذات موهبة تتمثل في القدرة على التحور. كانت، مثل آلهة بحرية أخرى (هي كذلك كائنات «أساسية») : نيريوس وبروتيوس وثيتيس، تستطيع أن تتخذ أشكالاً بالغة التنوع، فتحور نفسها على التوالي إلى أسد وثور وذبابة وسمكة وطائر ولهب أو إلى ماء يتسرب. وقيل لنا إن ميتيس في كفاحها من أجل الإفلات من تطويق زيوس - كما كافحت بروتيوس من أجل الإفلات من تطويق بيليوس - «تحورت إلى أشكال من كل نوع (٦١)».

ويبدو الأرباب من هذا النمط تقريباً دائماً في الحكايات الميثولوجية، عندما يتعرضون لمحنة فرضت على بطل، إما على نحو بشري أو إلهي. والبطل في لحظة حاسمة من حياته عليه أن يواجه أحابيل إله شديد الدهاء يحيط بسر نجاحه. والإله لديه قدرة على التحور تجعل منه في أثناء المعركة نوعاً من الوحش المتحور، المنيع، المرعب. وعلى غريمه لكي يهزمه أن يباغته بدهاء أو تخفٍ أو كمين - كما فعل مينيلاوس مع بروتيوس العجوز - أن يضع يده عليه على غرة فلا يرفعها عنه بعد ذلك مهما حدث. وعندما يتجرد الإله المتحور من سحره نتيجة للقيد الذي يطبق عليه، فإنه يعود إلى هيئته الأولى ويستسلم للغالب. فإذا كان المغلوب ربةً، فإنها ترضى بالاقتران بالغالب، ويكون هذا الزواج تتويجاً لحياة البطل؛ أما إذا كان المغلوب رباً - مثل نيريوس أو بروتيوس فيكون عليه أن يكشف أسرار علمه العرافي. تدور الأحداث في كل الحالات حول كائن حذر، سريع الحركة، منيع، باغته غريمه وأمسك به، وحبسه في قيد لا يفض.

ولقد أخضع زيوس ميتيس بأن قلب عليها أسلحتها التي تسلحت بها من حيث هي ربة، وهي: التدبير بالتأمل المسبق، الخداع، الأخذ على غرة، القبض المباغت. ومن ناحيتها قامت

ميتيس في نضالها لفك تطويق الإله بتشكيل نفسها على شكل موجودات هرأبة تحير عقل البشر بتحوراتها التي لا تنقطع، فتفلت من القبضة التي دبروها لها، وتنزلق هاربة من بين أيديهم.

وتشير زركشة الدهاء الميتيسي وشعشعته إلى قرابته بالعالم المتشعب، المنقسم، المتموج الذي يغوص فيه ليعمل عمله. هذا التواطؤ مع الواقع هو الذي يضمن له الفعالية. وتحقق له مرونته وقابليته للتشكل النصر في المجالات التي لا تكون فيها قواعد قائمة ووصفات ثابتة ، بل تتطلب فيها كل محنة اختراع تصد جديد، واكتشاف مخرج خفي póros. ومن الناحية الأخرى نجد أن الوقائع المتداخلة، المتناثرة، المتحركة التي يجتهد الإنسان في تأكيد قبضته بناء عليها، يمكن أن تتخذ في الأسطورة شكل الوحوش المتحورة، أي شكل القوى التحويرية التي يحلو لدهائها أن يخيب كل تنبؤ ويضلل دون توقف عقل البشر.

٤- والدهاء الميتيسي هو نفسه قوة دهاء وخداع. وهو يعمل عن طريق التخفي. وهو لكي يخدع ضحيته يستعير شكلاً يتشكل فيه ويستخدمه كالقناع، بدلاً من أن يكشف عن كيانه الحقيقي. في الدهاء يفترق الظاهر والواقع، ويتعارضان كشكلين متضادين ويحدثان تأثير الإيهام الذي يجر الغريم إلى الخطأ ويدعه حيال هزيمته مبهوراً apátē كما لو كان يواجه أعمال ساحر. ولعبة أنطيلوخوس كما وصفتها الإلياذة بأنها «خدعة» dólos [٦٢] من هذا النوع. فقد دبر الشاب مؤامرته الماكرة بعناية؛ فاختبر الأرض، وتبين الموضع الذي يضيق فيه الطريق. وبينما عكف على تدبير مكيدته، بدا - على النحو الذي دعاه أبوه ليكون عليه - حريصاً phronéon [٦٣]، حويطاً pephulagménos [٦٤]، متنبهاً إلى ألا يتصرف على نحو طائش aphradéos [٦٥] مثل قائد العربة الذي يعوزه الدهاء الميتيسي. وتطلبت مناورته من ناحية أخرى أن يكون متمكناً من قيادة خيله، وألا يترك شيئاً للحظ، في اللحظة التي يغير فيها الخيل وجهته لينقض على العربة المجاورة، وأن يضمن في كل لحظة سيطرته الكاملة على خيله. ولا بد للمناورة، لكي تكون فاعلة، أن تضلل مينيلاوس، وأن تتخفى وراء عكس مسعاها. فعندما رأى مينيلاوس - ملك اسبرطة - عربة أنطيلوخوس تنحرف نحو عربته ظن أن الشاب فقد السيطرة على خيله لانعدام خبرته، فصاح فيه: «يا أنطيلوخوس، إنك تقود كالمجنون aphradéos [٦٦]» وهذه اللفظة هي التي استخدمها نيسطور في وصف القائد الذي يعوزه الدهاء الميتيسي، وبدلاً من أن يمسك زمام خيوله، ويلزمها وجهته، ينقاد لها، مثل

الملاح الخائب بين الأمواج والرياح، فإذا العربة تنحرف هنا وهناك، على هوى الخيول، من جانب الطريق إلى الجانب الآخر [٦٧]. تظاهر دهاء أنطيلوخوس الحريص بعكس حقيقته لكي يختل مينيلاوس فلعب لعبة الطيش. فهذا هو الشاب وقد قدر ضربته بحساب دقيق، يسوق جواديه إلى الأمام على الخط المختار، ويتظاهر بالطيش والعجز، كما يتظاهر بأنه لم يسمع مينيلاوس عندما صاح فيه أن يأخذ حذره hôs ouk aionti eoikós [٦٨]. هذه السمات التي اتسم بها مسلك أنطيلوخوس تبرز في كامل صورتها عندما نقربها من مسلك أوليسيس صاحب الدهاء الواسع المتنوع polúmetis، أو الذي هو الدهاء في صورة إنسان. لننظر إلى أكثر أساتذة الإغريق ذكاءً وأعظمهم خطراً، وهو يتهيأ أمام الطرواديين مجتمعين لينسج خيوط خطابه المتموج البراق: هاهوذا يلزم مكانه، ويقف وقفة خرقاء، مثبتاً عينيه على الأرض، لا يرفع رأسه؛ ويمسك الصولجان جامداً لا يحركه، كأنه لا يعرف كيف يستخدمه؛ حتى ليظن الناظر إليه أنه يرى شخصاً أحمق تجمد في حمقه أو شخصاً فقد عقله áphrona. وهذا هو أستاذ المخاتلة، وساحر الكلمات في اللحظة التي ينبغي عليه فيها أن يتكلم، يتظاهر بالعجز عن فتح فمه، جهلاً بمبادىء فن الخطابة aïdreï phôti eoikôs [٦٩]. هذا هو «تلون» دهاء ميتيسي يتظاهر دائماً بعكس ماهيته، وينتمي انتماء القرابة إلى تلك الوقائع الكاذبة، إلى قوى الخداع التي يشير إليها هوميروس بلفظة dólos– خدعة – وهي: حصان طروادة [٧٠]، فراش الحب ذو القيود السحرية [٧١]، طُعم صيد السمك [٧٢]، كل الفخاخ التي تخفي وراء مظاهر مطمئنة أو جذابة، الشرَك الذي تواريه في باطنها.

الباب الثاني

الثعلب والأخطبوط

أتاحت لنا الفقرة الخاصة بأنطيلوخوس في «الإلياذة» أن نرسم، انطلاقاً من ملحمة هوميروس، الخطوط العريضة لحقل الدهاء الميتيسي الدلالي والسمات الجوهرية لهذا الشكل الخاص من الذكاء. والدهاء الميتيسي من حيث هو حرص أريب مكن أنطيلوخوس في أثناء المباريات من التقدم في سباق العربات على منافسين لديهم خيول أسرع من خيوله التي كانت أقل سرعة: فالخدعة dólos والمناورات kérde والمهارة في الإمساك بالفرصة kairós تعطي الأضعف الوسائل لينتصر على الأقوى، والأصغر لينتصر على الأكبر. وهذا هو أنطيلوخوس طوال التجربة يعمل دون هوادة، وقد ثبتت عينه على من سبقه dokcúei : فعلى الدهاء الميتيسي، كي يقلب الأوضاع، أن يتنبأ بالغيب، بما لا يمكن التنبؤ به. والذكاء الآخذ بالدهاء، وقد سلك مدارج المستقبل، يواجه مواقف مختلطة وجديدة، الخروج منها معلق دائماً ، وهو لا يحقق سيطرته على الكائنات والأشياء إلا لأنه قادر على التنبؤ - فيما وراء الحاضر المباشر - بشريحة من المستقبل زاد سمكها أو قل . والدهاء الميتيسي يقظ، متنبه دائماً يلوح متشعباً pantoié ومزركشاً poikilé ومتموجاً aiólé : فهو يتصف بكل الصفات التي تؤكد التحور المتعدد والتكافؤ المتعدد ، لأن هذا الذكاء عليه أن يصطنع تموجاً وتحوراً أكثر من الموجودات المتسربة والمتحركة لكي يجعل نفسه منيعاً حيالها ولكي يهيمن عليها. والدهاء الميتيسي من حيث هو ذكاء قائم على الدهاء ينضوي في النهاية على الغش الذي ينضوي عليه الفخ، فالفخ يظهر على شكل غير شكله ويخفي حقيقته الفتاكة وراء مظاهر مطمئنة.

هذا النموذج الأول من الدهاء الميتيسي الذي تسجلت سماته في الإلياذة والأوديسا سنعرضه على شاهدنا الثاني ونعني به المؤلفات التي تحمل اسم أوبيانوس Oppianos.

* * *

«كتاب صيد السمك» Halieutika الذي ألفه أوبيانوس في القرن الثاني بعد الميلاد و«كتاب صيد الحيوان» Kynegetika الذي يحمل اسم المؤلف نفسه [1] يدخلان بنا في عالم

كله فخاخ. هناك فخاخ من قبيل السنارات والشُّباك والجابيات (أقفاص صيد السمك)، والأحبولات، والمقالب، ويدخل في قبيل الفخاخ على نحو ما : الحيوانات والبشر الذين نراهم تارة صيادين وتارة أخرى فريسة. في الكتابين المذكورين ترد كلمات خديعة، حيلة، ألعوبة dólos, téchné, méchané وتتكرر بلا انقطاع مرتبطة بالدهاء الميتيسي. ففي عالم الحيوان، كما في عالم البشر، يتدخل الدهاء الميتيسي باستمرار لتزييف علاقات القوة. فليست القاعدة هي أن الجسيم يأكل الضئيل: «فأولئك الذين لم ينعم الرب عليهم بنعمة القوة والذين لم يزوّدوا بشوكة صلبة ليدافعوا بها عن أنفسهم لديهم أسلحة تتمثل في إمكانات ذكائهم الخصب الغني بالحيل والخدع dóloi ، فيمكنهم أن يهلكوا سمكة تفوقهم في بسطة الجسم وفي القوة kai kraterón, kai hupérteron[٢]» فليس الضعاف والنحاف محكوماً عليهم مقدماً بالهزيمة. والسرطانات المائية حيوانات بحرية صغيرة، قوتها - كما يقول أوبيانوس - متناسبة مع أجسامها: «ومع ذلك فإنها بفضل حيلها dóloi تنجح في قتل ذئب البحر وهو من أشد الأسماك قوة [٣]» .

والدهاء الميتيسي لدى الأسماك يمكن أن يتخذ ألف شكل، فمَعينه غني بالاختراعات، زاخر بألوان المباغتة. هذه هي على سبيل المثال ضفدعة البحر كيف تعمل : «ضفدعة البحر حيوان بحري ثقيل الحركة، رخو الجسم، قبيح المنظر. وفتحة فمها واسعة مفرطة السعة. وهي تحتكم على قدر غير قليل من الدهاء الميتيسي يأتيها بطعامها. فهي تتلبث دون حراك في قلب الوحل الرطب، ثم تمد زائدة لحمية صغيرة تحت فكها الأسفل: وهي زائدة دقيقة بيضاء كريهة الرائحة ، والضفدعة تحركها بلا انقطاع وتستخدمها كطُعم (خديعة dólos) لتجتذب السمك الصغير الذي ما يكاد يدركها حتى يندفع ليمسك بها. حينئذ تأتي الضفدعة بحركة غير محسوسة تسحب بها هذه الزائدة التي تشبه اللسان وتستمر في هزها برفق على بعد اصبعين من فمها الواسع. ولا يرتاب السمك الصغير أدنى ارتياب في أن هناك فخاً kruptón dólon منصوباً فيتبع الطعم، وسرعان ما يندفن مختلجاً في أعماق هذا الفم الضخم ... [٤]». ويضيف أوبيانوس أن الضفدعة الضعيفة تختِل السمك على هذا النحو وتستولي عليه. إن مجال الدهاء الميتيسي هو المجال الذي تحكمه الحيلة والمخاتلة: إنه عالم مختلط يقوم على الغش والخداع. وزائدة الضفدعة البحرية هي طُعم صيد حقيقي، طُعم يتسم بسمة الطعم المزدوجة : فهذه الزائدة بالنسبة إلى السمك الصغير لها مظهر الطعام، ولكنه طعام سرعان ما

يتحول إلى فم ضخم مفترس. وضفدعة البحر عندما تدلي من طوقها ما يشبه الشريط الذي تطوله كما تريد ثم تسحبه، تقوم بحركة لئيمة لا ينقصها شيء من فن صيد السمك بالشص، لأن هذه الحيلة sóphisma [٥] حفزت الإغريق على أن يطلقوا على الضفدعة البحرية الاسم الذي ينطبق عليها تماماً وهو اسم السمكة الصيادة halieús.

الأسماك صاحبة الدهاء الميتيسي فخاخ حية: والسمكة الرعادة تبدو رخوة الجسم، مجردة من كل قوة، ولكنها «تواري بين جنبيها - كما يقول أوپيانوس - خديعة هي قوة تعتمد على ضعفها [٦]». وتتمثل خديعتها في أنها من وراء مظهرها الأعزل تفرغ شحنة كهربائية تباغت عدوها وتضعه تحت رحمتها.

إن البحر الذي تعمره حيوانات ملتبسة يواري مظهرُها المسالم حقيقتها القاتلة يشبه العالم المفخخ. فهذه الصخرة كتلة رمادية، مطمئنة، ساكنة. ولكنها في الوقت نفسه أخطبوط، يقول أوپيانوس: «وأسماك الاخطبوط بالمخادعة تختلط بالصخرة التي تلتصق بها [٧]» بهذه الوسيلة، وبفضل الإيهام apáté الذي تحدثه، تتخلص بسهولة من ملاحقة الصيادين كما تتخلص من ملاحقة الأسماك التي تخشى على نفسها من قوتها. وعلى العكس إذا مر بها كائن ضعيف، سارعت وغيرت شكل الصخرة الذي اصطنعته، وعادت سيرتها الأولى إلى شكل الأخطبوط. وهكذا فالحيلة نفسها تأتيها بالطعام وتنجيها من الموت. وعالم الغش هو أيضاً عالم اليقظة: فضفدعة البحر المتلبثة في الطين والأخطبوط الملتصق بالصخر يقفان على أهبة الاستعداد، فهما يرصدان ويتربصان لحظة التدخل. كل حيوان أوتي الدهاء الميتيسي عينٌ حية لا تغمض أبداً بل لا ترمش أبداً [٨].

في عالم صيد السمك وصيد الحيوان لا يتحقق الفوز إلا بالدهاء الميتيسي. والقاعدة بالنسبة إلى الحيوان وبالنسبة إلى البشر صيادي السمك وصيادي الحيوانات قاعدة ثابتة تتمثل في : أنه لا سبيل إلى الانتصار على صاحب الدهاء الميتيسي الشديد إلا باثبات مزيد من الدهاء الميتيسي حياله. فمينيلاوس لا يظفر بپروتيوس وهو الإله القادر على الكثير من التحور، إلا باللجوء إلى الكمين والتخفي [٩]. وهرقليس لم يظفر بپيريقلومينوس، المحارب المنيع الذي يتحور إلى ألف شكل، إلا بمعونة أثينة وكل ما لديها من دهاء [١٠]. والسؤال الآن هو: كيف كان أوپيانوس يتصور هذا النمط من البشر، صياد الحيوان أو صياد السمك، الذي يواجه عالماً مفخخاً ويدخل في صراعات مع حيوانات مليئة بالدهاء؟ هناك فقرات عديدة في

«كتاب صيد السمك» و «كتاب صيد الحيوان» تتيح لنا أن نستخلص سماته الجوهرية وأن نتبين صفاته الأساسية. الصفة الأولى لصياد السمك وصياد الحيوان على السواء تتمثل في الخفة والمرونة والسرعة والحركة. أوبيانوس يتطلب من صياد السمك الماهر أن تتصف أعضاؤه بالخفة، فيكون قادراً على القفز من حَجرة إلى حجرة، وعلى الجري على الشاطيء، والانتقال بسرعة تفوق سرعة فريسته (١١). أما صياد الحيوان فينبغي أن يكون قوياً، صلباً يحتمل التعب، وأن يكون أيضاً عداءً ماهراً، سريع القدمين (١٢) مثل المحارب الكامل طبقاً للنموذج الهوميروسي (١٣). وأفلاطون عندما يلاحظ في «القوانين» أنه ليست هناك صفة حربية تفوق رشاقة الحركات البدنية - حركات القدمين وحركات اليدين، تنطبق ملحوظته تمام الانطباق على نموذج الإنسان الذي نسعى إلى تعريفه وتحديد صفاته (١٤). وتتيح بعض السمات الميثية التشديد على هذه الصفة الأساسية. فهذا هو هيرميس عندما يشرع في الصيد عند هبوط الليل يضفر لنفسه «نعلين سريعين» يمكنانه من التنقل بسرعة الريح، ويحكي نونّوس أن أجريوس ونوميوس، وهما من أساتذة صيد الحيوان الميثيين، كانا يملكان نعالاً عجيبة، وعندما أراد ديونيسوس أن يعبّر عن مودته لنيقيوس المغرم بصيد الحيوان قدمهما إليه (١٦). وكان هذان النعلان يكونان بحسب التقاليد جزءاً من تجهيزات أرتيميس عندما يخرج لعمليات الصيد الكبيرة التي حرص عليها (١٧). ويشهد الاسم الذي أطلق عليهما بوضوح على القيم التي يرمزان إليها فقد سميا: إندروميديس éndromídes أي نعال «الجري».

والصفة الثانية لصياد الحيوان وصياد السمك هي التخفي، وهو فن يتمثل في أن تَرى دون أن تُرى. وليس من شك في أن أوبيانوس لا يورد في أي موضع تعريفاً بالوضوح المطلوب: ولكنه عندما يضم عدداً معيناً من التعليمات والوصايا والنصائح معاً فهو يضع بين أيدينا السند الوحيد الذي يخول لنا الحق في استشفافه. نبدأ أولاً بما يعطيه من تعليمات تقنية خالصة: الخيط الذي تربط فيه السنارة لا بد أن يكون دقيقاً كالشعرة، والأحبولة التي تمد على المسالك التي تسلكها الفريسة يجب أن تختلط بأغصان الأشجار، والجابية (القفص الذي يوضع في الماء لصيد السمك) لابد أن تندمج كلية في صورة العالم البحري، كما أن الأخطبوط يستعير لون وشكل الصخرة التي يلتصق بها (١٨). هذه التوصيات الخاصة بأسلحة صيد السمك والحيوان لا تنفصل عن سلسلة كاملة من النصائح يوجهها أوبيانوس إلى أولئك الذين يريدون صيد سمكة أو حيوان، وهي: عليهم أن يكون ساكنين، وأن يتنقلوا دون ضجيج، ومهما

كانوا من السرعة، فلابد أن يعرفوا عند اللزوم أن يتلبثوا بلا حراك طوال ساعات [١٩]. فإذا أراد صياد أن يصيد رفاً من السمك رصده الراصد فماذا يعمل؟ عليه أن يتحاشى على قدر الإمكان إحداث جلبة بالمجداف أو بالشباك؛ وعليه أن يرمي الشباك على مسافة كافية حتى لا يصل صخب المجاديف وقرقعة المركب إلى السمك؛ وعلى كل المشاركين في حملة الصيد أن يلزموا أقصى درجات السكون حتى يتم «تطويق» السمك وحبسه في التحويطة الدائرية للشبكة الضخمة [٢٠]. في هذا العالم البحري الذي أَلِفَ أحياؤه جميعاً - كما يقول بلوتارخوس - توجساً سرعان ما يتحول إلى ارتياب»، يظل التخفي بلا جدوى إذا لم يبدأ أولا بوضع الطعم ونصب الفخ [٢٢]. على صيادي السمك والحيوان عندما يلزمون السكون ويتوارون عن الأنظار أن يجعلوا من أنفسهم فخاخاً.

التزام السكون وإرهاف السمع والتخفي بحيث تَرى كل شيء دون أن تُرى، والتنبه الدائم، كل هذا يغطي مصطلحاً فنياً في صيد السمك والحيوان شددنا من قبل على أهميته في السجل اللغوي الهوميروسي [٢٣] هو مصطلح dokeúein : الترصد والتربص. والصفة الثالثة لهذا النمط من البشر هي اليقظة. وهنا نجد أوپيانوس صريح العبارة، إذ يقول إن صيد الحيوان وصيد السمك يتطلبان اللمحة الثاقبة. صيادو السمك وصيادو الحيوان لا بد أن تكون عيونهم مفتوحة، وحواسهم يقظة، ولا ينبغي لهم أبداً أن يستسلموا للرغبة في النوم [٢٤]. والحيوانات التي يتربصون بها لا تكف أبداً عن اليقظة. هل يمكن أن تنام الأسماك؟ لقد ناقش القدماء هذه المسألة مناقشة مستفيضة ، حتى إن أرسطوطاليس اجتهد ما وسعه الجهد أن يبين في كتابه «تاريخ الحيوان» ‹طباع الحيوان› أنها تنام، بل تنام نوماً عميقاً [٢٥]. وبعض مؤلفي الكتب الفنية، مثل سلويقوس الطرسي Séleucos de Tarse، زعموا أن الأسماك جميعها لا تنام باستثناء نوع واحد يسمى على سبيل التناقض «المنتفض» skáros [٢٦]. وأخذ أوپيانوس بهذا الرأي فقال: إن الأسماك حيوانات لا تغمض عينها، حتى في الليل، وهي تتميز بذكاء لا يغلبه النعاس أبداً nóos panáupnos [٢٧]. وسلويقوس وأوپيانوس على حق على نحو ما في مواجهة أرسطوطاليس وعلمه في مجال الطبيعيات، فمن رأيهما أن الأسماك ما دامت ذات دهاء ميتيسي فلا يمكن أن تنام؛ إنها تشبه زيوس إله الدهاء الميتيسي، الذي لا يغفو، ولا تغمض له عين أبداً [٢٨]. البارع في التربص cúskopos مثل هيرميس هو الذي يكون صياد الحيوان [٢٩]. ويذكر پوللوكس Pollux في سجل صفات الصياد، بعد أن أشار إلى أن

الصياد ينبغي أن يكون سريعاً koûphos، سباقاً في الجري dromikós، يقظاً ágrupnos، فرض عليه أيضاً أن يكون صاحب نظرة حادة، ثاقب البصر [٣٠] وعندما ينصح پوللوكس في موضع آخر بما ينبغي عليه أن يفعله ليواجه الخنزير البري يشدد على هذه الصفة ويضفي عليها الأهمية كل الأهمية، يقول: ينبغي أن يكون ذا نظرة ثاقبة ليصوب stocházesthai على المواضع الحيوية kairia، على النقطة التي يكون فيها الجرح مميتاً [٣١].

إذا كان صياد الحيوان وصياد السمك قادرين على اليقظة، فإنهما كما يقول أوپيانوس[٣٢] يحققون صيداً جيداً، ويكونون أعزاء على هرمس ، إله الحظ، وهو علاوة على زيوس – الذي تتسم طبيعته بأنها غريبة على النوم تماماً – أشد ألهة الپانثيون الإغريقي يقظة. الحركة واليقظة وفن أن ترى كل شئ دون أن تُرى كل هذه الصفات تتلخص في الصفة التي يتطلبها أوپيانوس Oppianos في صياد السمك البارع، ألا وهي: أن يكون ممتلئاً مُمَاحَلَة pol-upaipalos [٣٣] . هذه الصفة paipalé أو paipálema يمكن أن تدهشنا ، فالكلمة معناها حرفياً «صفوة الدقيق»، ولكنها في لغة أريسطوفانيس تستخدم مجازاً للدلالة على الشخص الداهية الأريب المحّال [٣٤]. الإنسان الذي يوصف بهذه الصفة هو المتمكن من الأمحال. والتعبير يناظر سلسلة الكلمات التي تربط على نحو وثيق مفهوم الدهاء بفكرة التشعب والتنوع: الداهية صفة أوليسيس وهيفايستوس وهيرميس [٣٥]، والنبيه polútropos صفة الأخطبوط والإنسان ذي الدهاء الميتيسي [٣٦]، والأربة poluméchanos صفة خاصة بذكاء أوليسيس [٣٧]. والمحّال ، المتمكن من الماحلات polupaipalos، لا تحيلنا فقط إلى الفخاخ، والأحابيل، والجابيات، والشباك، وكل الخدع التي هي أسلحة صياد الحيوان وصياد السمك. السياق يدل على أكثر من هذا : «لابد لصياد السمك من عقل مليء بالماحلات، وبالحرص noemon. لأن الأسماك التي تقع بغتة في فخ، تبتدع ألف حيلة لتهرب منه pollà kai aióla mechanóontai [٣٨]. دهاء الأسماك الميتيسي هو الذي يضطر الصياد إلى قدح ذكاء غني بالماحلات. وأوپيانوس يقول ذلك بوضوح في أكثر من موضع : «الأسماك لا تستغل ماحلات ذكائها، وحيلها وخدعها في علاقاتها مع أبناء جنسها فقط nóema puknón, me-tis epiklopos، بل كثيراً ما تنقض مهارة أولئك الذين يعملون على الاستيلاء عليها: وكثيراً ما تنجح في الإفلات عندما تكون السنارة قد أمسكتها أو تكون الشبكة قد أحاطت بها. إنها تفوز في معركة الدهاء boulei nikesantes، وكثيراً ما تنتصر على أحابيل الإنسان [٣٩]»

حتى عندما تكون الحيوانات قد وقعت في الفخ، فإنها بفضل دهائها الميتيسي، تظل هي ذاتها فخاخاً: فهي تمتلك كل دهاء السفسطائي، المخاتل المليء بالخدع poikilos الذي «لا تعوزه الحيل أبداً pórous euméchanos porizein للخروج من كل مأزق amechanon (٤٠)». إن دهاءها الميتيسي لينافس كيد بروميثيوس «فهو قادر على حل العقدة التي لا تحل، وعلى إيجاد مخرج (٤١)». وينبغي على صيادي الحيوان وصيادي السمك للانتصار على هذه الكائنات التي امتلأت جعبتها بالإمكانات، ولتقويض أركان حيلها المباغتة أشد المباغتة، وللتصدي للمفاجئات التي لا يمكن التنبؤ بها، أن يكونوا متمكنين من دهاء ميتيسي أعظم، وأن يحملوا في جعبتهم المزيد من الألاعيب التي لا يمكن أن تواجهها ضحاياهم. في تجربة عالم الحيوان ذاتها يجد الدهاء الميتيسي ما يشد به أزره، وما يتزود به من مقومات لامحيص عنها. وبلوتارخوس يشدد على هذه النقطة في كتابه «ذكاء الحيوان»، يقول : «إن ممارسة صيد الاخطبوط تنمي المهارة deinótes والذكاء العملي súnesis (٤٢)». وعلى العكس من ذلك نجد أفلاطون في «القوانين» يدين بعنف صيد السمك بالسنارة، وملاحقة الحيوانات المائية، واستخدام الجابيات، وصيد الطيور، وكل صنوف الصيد بالشباك والفخاخ، والسبب في ذلك أن هذه الأساليب تنمي صفات الدهاء والغش وهي تناقض الفضائل التي تتطلبها مدينة «القوانين» من رعاياها (٤٣).

صيادو السمك وصيادو الحيوان بما هم أساطين الماحلات يمارسون غشاً لا يدانيه غش آخر؛ فهم يزيدون من تدابيرهم الماكرة، ويشحذون قدرتهم على اختراع ألف من المخادعات للتصدي لمداحلات دهاء الحيوان. بعض الأسماك تقع في الفخ منجذبة إلى طعوم بسيطة: فالاخطبوط المشوي على الفحم يجتذب دون صعوبة سمك الكانثاري إلى داخل الجابية. ذلك صيد سهل، ولكن من الممكن تحويله إلى صيد هائل كالمعجزة عندما يستخدم الصياد بدلاً من الجابية العادية التي لا تحبس سوى سجين واحد جابية لا تنقفل على الفور، ويتلبد الصياد صابراً، تاركاً الأسماك تألف الآلة، وتتعود على أن تجد فيها طعامها، ثم ينزل فجأة غطاءً على الفتحة ينطبق عليها بإحكام، ويسبي هكذا القطيع كله (٤٤). ولكن هناك من الضحايا من هم أقل سذاجة، يحتاجون إلى أساليب أكثر خبثاً: فأوبيانوس يوصي لصيد الأنثياس anthias (٤٥) بتثبيت «ذئب بحري» حي في سنارة ذات طرفين، ما أمكن ذلك. فإن لم يجد الصياد طعماً حياً، فيمكنه أن يلجأ إلى الألعوبة البديلة التالية: فيربط تحت فم السمكة المتخذة طعماً عُدة

تسمى «الدلفين» تجعل جسم السمكة الميتة يتحرك حركات الجسم الحي. وتنخدع أسماك الأنثياس عندما ترى السمكة الطعم تتحرك كأنها تلوذ بالفرار، فتندفع نحوها [٤٦]. وهنا نلاحظ أن خدعة الصياد ليست إلا تقليداً أو رداً على خدعة الضفدعة البحرية .

* * *

الحيوانات ذات الدهاء الميتيسي لا تعد ولا تحصى . وأوبيانوس يحكي باستفاضة عن ألاعيب الإخنمون ichneumon [٤٧] ومخاتلة ثور البحر [٤٨]، وهو يدهش لدهاء نجمة البحر والريتسا [٤٩]، وتحايل téchné الكابوريا التي تسلك سلوكاً ملتوياً [٥٠]. ولكن من بين كل الحيوانات التي يميزها دهاؤها الميتيسي هناك حيوانان يفرضان نفسيهما بصفة خاصة على الاهتمام، ألا وهما : الثعلب والأخطبوط. ولهما في الفكر الإغريقي قيمة النموذج؛ فكأنهما تجسيد للدهاء في عالم الحيوان. كل واحد منهما يمثل ناحية جوهرية من الدهاء الميتيسي. أما الثعلب فلديه في جعبته ألف ألعوبة، ولكن دهاءه يبلغ ذروته فيما يمكن أن نسميه حركة الانقلاب أو سلوك الانقلاب. وأما الأخطبوط فإنه يرمز بما أوتيت لـمّاساته من مرونة فائقة إلى الإفلات اعتماداً على التحور المتعدد.

وعندما يصف أوبيانوس دهاء ضفدعة البحر التي تتلبث في الطين وتظل ساكنة لا تراها الأنظار، فإنه ينطلق إلى مقارنة بالثعلب: «الثعلب المكار agkulómetis kerdó يصطنع حيلة مماثلة؛ فما يرى جماعة من الطيور البرية، حتى ينام على جنبه، ويمد أعضاءه الخفيفة الحركة، ويغمض جفنيه ويقفل فمه. ويظن من يراه أنه يغط في سبات عميق أو أنه بالفعل مات لبراعته في حبس أنفاسه، ويكون هو في هذه الأثناء وهو ممدد على الأرض عاكفاً على تقليب خططه اللئيمة aióla bouleeúousa في ذهنه. وما تراه الطيور حتى تنقض عليه زرافات ووحداناً، وكأنها تريد أن تهينه فتخدش فراءه بمخالبها، وما تصل إلى متناول أسنانه حتى يميط اللثام عن خدعته dólos وينقض عليها بغتة [٥١]». فالثعلب فخ؛ يتظاهر بأنه ميت، وعندما تحين اللحظة المناسبة يصبح الميت أشد الأحياء حياةً. ويتمثل فن الثعلب في أنه يعرف كيف يتلبد ساكنا ساكتاً في الظل. هكذا يتخيله مؤلف «كتاب الصيد» : «أكثر الحيوانات البرية خبثاً aiolóboulos... في حرصه، يسكن في أعماق جحر هيأه أدهى تهيئة. فهذا السكن الذي احتفره لنفسه له سبعة أبواب مختلفة تؤدي إليها سبعة ممرات، وفتحاتها بعيدة بعضها عن البعض. وهكذا فخوفه أقل من خوف الصيادين الذين يضعون فخاً

على بابه فلا يتمكنون من إيقاعه في شراكهم [٥٢]». وهو في مكمنه يدبر خطط مخادعاته. ويطابق هذا المكمن، أو هذا الجحر المحيّر، المفعم بالألغاز والمتعدد الأشكال، عقلاً لا سبيل إلى سبر أغواره. والحيوان الذي بلغ هذا المبلغ من المخاتلة لا يمكن إلا أن يكون منيعاً لا سبيل إلى الإيقاع به: «لا ينبغي لمن يريد صيده أن يعتمد على الفخاخ أو الأحابيل أو الشراك، فليس له مثيل في شم رائحة الكمين؛ وهو ماهر في قطع الحبال وفي الإفلات من الموت لما أوتيه من مماحلات الدهاء [٥٣]. ويستخدم أوبيانوس للتعبير عن «الإفلات» الفعل الخصيص : olisthánein أي ينزلق، وهو الفعل الذي يوحي بصورة المصارع الذي يدهن جسمه بالزيت لينزلق بين يدي غريمه [٥٤]. الثعلب بالنسبة إلى العالم الإغريقي هو الدهاء: ومن الممكن أن تعبر اللغة الإغريقية عن الدهاء بكلمة ألوبيكس alópéx أي الثعلب. والصفات الجارية التي ينعت بها الثعلب هي: الخبث [٥٥] والمماحلة [٥٦] والمخادعة [٥٧] aiolóboulos, poi-kilóphron, poikilos، والثعلب هو أسطون المخادعة : وكلامه في حكايات الحيوان أكثر إغراءً haimmúloi lógoi من كلام السفسطائي [٥٨] . وعندما تفاخر الفهد أمامه بأنه مرقط الفراء، رد الثعلب عليه بأنه يواري من تحت فرائه ذي اللون الواحد المحْمَر عقلاً مزركشاً وذكاء متلوناً متعدد الأشكال يستطيع أن يتكيف مع كل الظروف [٥٩]. ويلقب بالكيردو Kerdó أي الانتهازي، وهو يمثل الخبيث [٦٠] الذي خلا جزء من جسمه من الشعر فلا يستطيع أحد الإمساك به [٦١] . ومنذ عصر ألكايوس Alcaeus [٦٢] يبدو نموذجاً لنمط معين من البشر، فبيتّاكوس Pittacos ثعلب. إنه يعرف كيف يلوذ بالصمت، ويتقن في المعركة كذلك فن الخداع. وبيتّاكوس الثعلب يقال عنه إنه قتل في المنازلة القائد الأثيني فرينون Phrynon، البطل الأوليمبي في البانكراسيون pamkration تلك الرياضة التي تضم المصارعة والملاكمة معاً ، فقد أخفى تحت درعه شبكة باغت غريمه وألقاها عليه [٦٣].

وعقل الثعلب زاخر بالخبث [٦٤]. وهذه هي حيلته في الإمساك بطيور الحُبَارى: إنه يحني رأسه صوب الأرض ويبصبص بذيله. ويزعم إليانوس Elianos أن طيور الحبارى المخدوعة apatétheisai تقترب من هذا الشكل الذي تظنه واحداً من أبناء جنسها . وعندما تصبح قريبة المنال ينقلب الثعلب بغتة epistréphein وينقض عليها [٦٥]. وإذا كان دهاء الثعلب الميتيسي قد تأكد في تظاهره بالموت، فإنه يبلغ الذروة في حركة الانقلاب المفاجئة هذه. والحق أن الثعلب يملك سر حركة الانقلاب الذي يعتبر منتهى دهائه. وفي الديوان الرابع

«البرزخي» IVe Isthmique يصف الشاعر پيندارس (پيندار) دهاء الثعلب وصفاً مفعماً بالإيحاء، يقول: كثيراً ما فاجأ دهاءُ الأضعف الأقوى وأوقعه kai krésson' andrôn cheirónôn ésphale téchna katamárpsais'. فقد أخفقت شجاعة أياكس، وهي أعظم شجاعة بعد أخيليوس Akhilleus، أمام خدعة أوليسيس الداهية polúmetis، وكان انتصار أوليسيس هو انتصار الذئب على الأسد (٦٦). وينتقل پيندارس من خلال هذه الطرق إلى حيث يمدح ميليسّوس Mélissos الثيبي الذي غلب خصمه في مباراة الانكراسيون وهي الملاكمة والمصارعة معاً. يقول عنه إنه كان قصير القامة، ولكنه كان ذا قوة رهيبة : «شجاعته في المعركة تشبه شجاعة الضواري ذوات الزئير الرهيب». إنه أسد هصور. ولكنه أسد مبطن بثعلب ينقلب على نفسه فيوقف انقضاض النسر (٦٧). واعتُبر ميليسوس أسطوناً في حيلة الحلبة أو حيلة الإفلات pálaisma التي تتمثل في الإفلات من هجمة الخصم، والانقلاب بالجسم انقلاباً يرُد ضد الخصم قوة اندفاعه (٦٨). والثعلب على نحو مماثل عندما ينقض النسر عليه، ينقلب على نفسه بغتة فينخدع النسر وتضيع منه الغنيمة، وتنقلب المواقف، فيتحول الغالب إلى مغلوب والمغلوب إلى الغالب. هذه هي ضربة الثعلب.

ولكن الثعلب ليس وحده الذي يملك ناصية هذه الضربة في عالم الحيوان. فهناك سمكة اشتهرت بأنها تعرف كيف تخرج من المأزق الذي لا مخرج منه. فعندما تبتلع السنارة تصعد إلى أعلى بكل ما تسطيع من سرعة وتقطع الخيط من منتصفه، بل من الجزء الأعلى منه في بعض الأحيان. وپلوتارخوس يتحدث بمزيد من الإفاضة : «هذه السمكة تهرب عادة من الطعم dólos، ولكنها إذا بلعته تخلصت منه، فهي بما أوتيت من قوة ومرونة hugróteta ترتمي إلى الوراء وتقلب جسمها metabállein tò soma بحيث يكون الداخل مكان الخارج : فتقع السنارة hósta ton entòs genoménon apopıtein ágkistron (٦٩)». وهذه حركة مكر يؤكدها إليانوس حيث يقول : «هذه السمكة تطوي أعضاءها الداخلية وتقلبها إلى الخارج، مجردة جسمها كالقميص heautes tò entòs metekdûsa éstrepsen éxo hosper oûn chitôna tò soma anelixasa (٧٠)» إنها تقلب نفسها كالقفاز وتحقق منتهى ما تصل إليه حركة القلب. ورب سائل عن الاسم الذي أطلقه الإغريق على هذا الحيوان المائي الماكر؟ لقد أطلقوا عليه اسم "السمكة الثعلب". وليست هناك ملاحظة وضعية من الواقع تثبت حقيقة هذا المسلك العجيب الذي تنسبه روايات كثيرة إلى الثعلب، سواء الثعلب من ذوات الأربع، أو

السمكة الثعلب. فلم يلتق الإغريق في الطبيعة بهذه الألوان من السلوك يقوم بها حيوانات، ولكنهم كانوا يتصورونها في أذهانهم، في المفهوم الذي اصطنعوه عن الدهاء الميتيسي ووسائله ونتائجه. وهكذا فإن الثعلب، في مفهومهم، من حيث هو تجسيد للدهاء لا يمكن أن يسلك إلا على نحو يطابق طبيعة ذكاء ملتو. وإذا كان الثعلب ينقلب فهو إنما ينقلب لأن الدهاء الميتيسي قوة انقلاب.

وإذا كان الثعلب مرناً ورقيقاً مثل سَيْر من الجلد، فإن الأخطبوط يتمدد بأعضاء مرنة ومتموجة aióla guîa لا تعد ولا تحصى (٧٢). والأخطبوط في رأي الإغريق عقدة ذات ألف ذراع، أو شبكة حية من الأحابيل المتداخلة polúplokos (٧٣). وهذه الصفة هي نفس الصفة التي ينعت بها الثعبان والتفافاته والتواءاته (٧٤)؛ تلك هي المتاهة بتشعباتها، وتداخل قاعاتها وممراتها (٧٥). والطوفون Typhon الوحش هو أيضاً معقد ومتشعب polúplokosكالأخطبوط: فهو كائن متشعب «له مائة رأس» وجذعه يمتد في أعضاء ثعبانية(٧٦).

والأخطبوط مشهور بدهائه الميتيسي (٧٧). وأوبيانوس يقارنه بلص من أولئك اللصوص الذين يخرجون بالليل لينقضوا على فريستهم بغتة (٧٨). والأخطبوط لا يمكن الإمساك به، فمداحلاته mechané تتيح له أن يندمج في الحجر الذي يلتصق به (٧٩). وهو قادر على التشكل الكامل ليلتف على الأجسام التي يمسكها، وهويعرف كيف يقلد ألوان الكائنات والأشياء التي يقترب منها (٨٠). والأخطبوط منيع لا يمكن الإمساك به، وهو كائن ليلي، مثله مثل هيرميس الملقب بالليلي núchios (٨١)، يعرف كيف يتوارى بالليل، الليل الذي يستطيع هو أن يفرزه، مثل الأحياء من بني جنسه، وبخاصة سمك الحبار. ويوصف الحبار بأنه مخادع مخاتل dólometis, dolóphrôn (٨٢)، وهو مشهور بأنه أكثر الرخويات دهاءً. وهو لكي يخدع عدوه ويداحل ضحيته يمتلك سلاحاً لا يخيب هو: الحبر، وهو أشبه ما يكون بالضباب tholós (٨٣). هذا السائل الغامق، هذا الضباب اللزج يتيح له الإفلات من هجوم الأعداء الذين يتحولون إلى فريسة له وكأنهم حبسوا في شبكة. هذا الحبر، هذا الضباب الأسود، هذا الليل الذي لا مخرج منه، هو الذي يحدد سمة من السمات الجوهرية للأخطبوط وللحبار. والحيوانات المرأسّة الأرجل حيوانات منيعة، رخوة، تصطنع لنفسها مئات الأطراف النشيطة، حيوانات غامضة كالألغاز: فليس لها أمام وليس لها خلف؛ وهي تعوم ملتوية،

عيناها إلى الأمام، وفمها إلى الخلف، ورأسها تحيط به كالهالة أرجلها المتحركة (٨٤). وعندما تتزاوج فإنها تترابط ترابطاً وثيقاً، فما إلى فم، وذراعاً إلى ذراع. وتسبح هكذا وهي مترابطة أشد الترابط ، وقد أصبح مقدم أحدها مؤخر الآخر (٨٥). إنها حيوانات ملتوية، لا يتميز مقدمها تميزاً واضحاً عن مؤخرها، وهي تخلط كل الاتجاهات في ذاتها وفي مسلكها وفي كيانها الفيزيقي. وأسماك الحبار والأخطبوط كائنات لي؟ عرف لها مَخرج apories ، وليل الحبر الذي تفرزه ليل بلا مخرج، بلا طريق، وهو الصورة الكاملة لدهائها الميتيسي. الحبار والأخطبوط هما وحدهما، في هذه الظلمة المطبقة، اللذان يعرفان كيف يشقان طريقهما وكيف يفتحان لهما مخرجاً póros . الليل مأواهما، يلوذان به ليفلتا من أعدائهما، ويخرجان منه بغتة، ليطبقا على ضحاياهما (٨٦). أنهما فخان حيّان يستخدمان وسيلة خداع يسميها بلوتارخوس سوفيسما sóphisma، هي: زائدة دقيقة طويلة تتحرك حركة بطيئة، يستخدمانها كالطعم في استدراج السمك. فإذا أصبح السمك في متناولهما أطبقا عليه بشراسة (٨٧). ولكن الشيء الذي يمنحهما القوة هو نفسه الذي يؤدي إلى هلاكهما. فهذه الحيوانات التي هي دهاء كلها لا يمكن صيدها إلا بإيقاعها في فخها: والصيادون عندما يصيدونها يلقون إليها بأنثى من جنسها كطعم، يربطونها برباط متين لا يستطيع إلا الموت أن يفكه (٨٨). وهكذا فإن على الصياد لكي يقضي على هذه الأسماك أن يقلب عليها قوتها المتمثلة في الربط برباط متين.

والأخطبوط مثله مثل الثعلب يحدد نمطاً من السلوك البشري: «وجّه إلى كل واحد من أصدقائنا... وجهاً مختلفاً من ذاتك epistrephe poikilon éthos. وتَمَثّل بالأخطبوط ذي الطوايا العديدة إذ يصطنع لنفسه شكل الحجر الذي سيلتصق به. تلق الناس يوماً بإحدى الطوايا، وفي اليوم الآخر غيّر اللون. والكياسة sophie خير من الإصرار atropic (٨٩)» «الإصرار على لون يتعارض أشد التعارض مع "تعدد الأوجه"، كما يتعارض التصلب والثبات مع الحركة الدائمة التي يتحراها من يكشف دائماً وجهاً مختلفاً.

والنموذج المقترح هو نموذج الرجل "المناور" ، المتلون، المتعدد الأوجه polútropos (٩٠) الرجل ذو الألف طريقة، الذي يوجه نحو كل شخص وجهاً مختلفاً. وهو بالنسبة إلى التراث الإغريقي كله يحمل اسم أوليسيس الداهية plúmetis، الذي قال عنه أوستاثيوس: إنه أخطبوط (٩١). ولكن الأخطبوط لا يميز فقط نمطاً من السلوك البشري. بل يستخدم أيضاً نمطاً

لشكل من الذكاء هو : الذكاء ذو اللماسات الأخطبوطية polúplokon nóema [٩٢]. هذا الذكاء الأخطبوطي يظهر خاصة في نمطين من البشر: السفسطائي والسياسي اللذين تتعارض خصالهما ووظائفهما في المجتمع الإغريقي وتتكامل كما يتقابل ويتباين مستوى الكلام ومستوى العمل. في الحديث المتموج الرجراج poikiloi lógoi يبسط السفسطائي الكلام «ذا الثنايا والطوايا العديدة» periplokai [٩٣] فإذا هي: مسلسلات من الكلمات تتتابع كحلقات الثعبان، وعبارات تتحلق حول الخصوم مثل أذرع الأخطبوط المرنة. أما السياسي فعندما يتخذ مظهر الأخطبوط، ويجعل من نفسه متعدد الثنايا والطوايا polúplokos، فإنه لا يصطنع فحسب لوغوس lógos الأخطبوط، بل يعبّر عن مقدرته على التكيف مع المواقف التي تسبب الحيرة أشد الحيرة، وعلى أن يغيّر وجهه فيتخذ وجوهاً عديدة بعدد الشرائح الاجتماعية والأنواع البشرية في المدينة، وعلى أن يخترع مئات الطرق المنوعة التي تحقق لعمله الفعالية في أكثر الظروف تنوعاً [٩٤].

والمتعدد الثنايا والطوايا polútropos في بعض جوانبه من حيث هو نمط بشري يبدو كأنه يختلط بالنمط الذي يسميه الشعراء الغنائيون الهوائي المتقلب ephemeros [٩٥]، إنه الإنسان الذي لا يبقى على حال بل يتغير بين لحظة وأخرى: فهو تارة على هذا الحال وتارة على ذاك؛ وهو أرعن يتزلق من تطرف إلى تطرف. والهوائي المتقلب ephemeros كالمتعدد الثنايا والطوايا polútropos يتميز بالحركة. ولكنهما إذا كانا كائنين متحركين يختلفان أحدهما عن الآخر اختلافاً جذرياً في نقطة جوهرية، فأحدهما سلبي والآخر إيجابي. الهوائي هو الرجل المتقلب الذي يشعر بأنه يتغير في كل لحظة، يحس بكيانه الرجراج، يتقلب مع كل نسمة ريح، إنه - بحسب تعبير پينداروس - «فريسة الزمن الخادع» dólios aión [٩٦]، الزمن الذي يغير مسار حياة. أما المناور المتعدد الثنايا والطوايا فإنه يمكّن لنفسه اعتماداً على سيطرته، فهو: مرن، متموج، وهو مسيطر على نفسه دائماً، وهو لا يبدو متقلباً إلا في الظاهر. وحركات التقلب التي يقوم بها هي الفخ أو الشبكة التي يقع فيها عدوه. وهو بدلاً من أن يكون لعبة في يد الحركة، يسيطر عليها، ويلعب بها ويلعب بالآخرين بسهولة ترجع إلى أنه يبدو في ظاهره كالهوائي. وبين المناور المتعدد الثنايا والطوايا وبين الهوائي المتقلب من البعد مثل ما بين الأخطبوط والحرباء: فإذا كانت تحورات الحرباء ناجمة عن الخوف، فإن تحورات الأخطبوط ناجمة عن الدهاء. إن تحورات الأخطبوط - كما يبين پلوتارخوس [٩٧] -

فعْلُ مُداحلة mechané، وليست انفعالاً فيزيقياً خالصاً ... إنها وسيلة للإفلات من الأعداء والإمساك بالأسماك التي يتخذها طعاماً له». بناءً على قدرة الأخطبوط والإنسان المناور polútropos على اصطناع كل الأشكال دون أن البقاء سجينا في إي منها يتحدد لدى الاخطبوط والإنسان المناور المتعدد الثنايا والطوايا دهاءً ميتيسي لا يبدو على مرونته أنها تنحني أمام الظروف إلا لتسيطر عليها سيطرة أوثق.

انقلاب الثعلب وتحور الأخطبوط والحبار نمطان من أنماط السلوك يكوّنان بتكاملهما وجهي الدهاء الميتيسي اللذين لا ينفصل أحدهما عن الآخر ويشتركان في مُعامل مشترك هو : عنصر الربط والقيد. والأخطبوط المتعدد اللماسات polúplokos عبارة عن قيد معقود من ألف ذراع متشابكة، وكل أجزاء جسمه قيود تحدق بكل شيء ولا يستطيع أي شيء أن يحدق بها. والثعلب المخاتل poikilos يسكن في متاهة، والمتاهة مكان مخاتل poikilon يمد في كل الاتجاهات لمّاسات مسالكه ودروبه. والثعلب كالقيد الحي الذي ينطوي وينبسط ويرتد وينقلب حسب إرادته، وهو كالأخطبوط أسطون متمكن من القيود: فلا شيء يمكن أن يحدق به، وهو يستطيع أن يحدق بكل شيء. والقيود أسلحة الدهاء الميتيسي المفضلة. والكلمتانplékein "يضفر" و strépheín "يبرم" من الكلمات المفتاحية في قاموسه (٩٨). في الكتابين المنسوبين إلى أوبيانوس (عن صيد السمك وصيد الحيوان) لا يدور الحديث إلا حول القيود والحبال والسلاب المصنوعة من غصون الخلاف المبروم، والجابية المضفورة dólos plektós(٩٩). وغصون شجر الخلاف lúgos هي بالنسبة إلى صيد السمك وصيد الحيوان المادة الخام الأساسية: هذه الغصون تبرم اثنين أو ثلاثة أو أربعة معاً، ثم تربط القطعة المبرومة إلى الأخرى لتكون حبال الخلاف المضفور التي يحملها صياد الحيوان وصياد السمك البارع دائماً معه(١٠٠). ولكن فن الأربطة ليس حكراً قاصراً على صيادي الحيوان والسمك: فعندما أراد هيرميس أن يخفي عن أبوللون مقود ثيرانه، حيث عزم على أن يوقعه في شرك من كيده، عكس آثار الثيران، دافعاً أمامه الثيران القهقرى، وقلب هو أيضاً في الوقت نفسه آثار قدميه متقدماً القهقرى، مداخلاً الأمام والخلف بعضهما في البعض مداخلات متشابكة، لا سبيل إلى فك تشابكها(١٠١). كان هيرميس يوصف بأنه عقدة حية، كذلك كان يوصف بالمحوري stro-phaios (١٠٢) ليس فقط لأنه كثيراً ما كان يقوم قريباً من الباب الذي يدور حول محاوره stróphigx ولكنه كما يقول الشراح (١٠٣) كان الدائر حول محوره stróphis (١٠٤)

كائناً متحركاً مثل فنان الپانتوميم ستروفيوس Strophios وهو أبو فلوجيوس Phlogios الذي كان فنان پانتوميم هو الآخر وكان يلقب بالدوار حول محوره : وكانا كلاهما يقلدان في تمثيلهما الصامت الكائنات الحية البالغة التنوع بتحريك أصابع أيديهما الرشيقة (١٠٥). وكانت كلمة محوري strophaios كنية يكني بها الإغريق السفسطائي الذي يعرف كيف يشبّك sumplékein الكلام lógoi والحيل mechanei ويبرمها stréphein (١٠٦).

وإذا كان المصارع ماهراً في التثني مثل غصن الخلاف. فإن السفسطائي بارع في تناول الكلام بالتثنيات والمداخلات. التثنيات: لأن السفسطائي متمكن من فن التثني بألف طريقة pásas strophàs stréphesthai (١٠٧)، والتحايل بألف وسيلة تحايل mechanâsthai strophás، ومحاكاة الثعلب فيقلب الحجة التي استخدمها الخصم نفسه ويجعلها ضده. وهو يشبه پورتيوس في أنه لكي يفلت من قبضة الآخر يصطنع كل الأشكال الحية. والمداخلات: لأن السفسطائي لا يكف عن تعقيد الرأي والرأي المضاد بعضهما في البعض: أنه ينحو تماماً منحى پالاميديس Palamêdês مثل زينون الإيلي Zenon ho Eleates ، ويتكلم بقدر فائق من الفن يمكنه من أن يجعل الأشياء نفسها تبدو لمستمعيه تارة متشابهة وتارة متباينة، تارة واحدة وتارة متعددة (١٠٩). وكلماته المتداخلة هي من قبيل الفخاخ strephomena (١١٠)، الألغاز التي تنطق بها الألهة ذوات الدهاء والتي يسميها الإغريق جريفوي griphoi (١١٢)، وهو اسم مشتق من اسم بعض شبك السمك. التواءات، انحناءات، مداخلات، انثناءات: هكذا يظهر مصارعون وسفسطائيون مثل قيود حية، لا يقلون في ذلك عن الأخطبوط والثعلب.

وليس موضوع الأربطة والقيود هو الكلمة الأخيرة في الدهاء الميتيسي للأخطبوط والثعلب. فحركة القلب والانقلاب التي يقوم بها الثعلب هي المُناظر الكامل لتحورات الأخطبوط: ألم تر أن الثعلب عندما ينقلب يقوم بحركة التفاف دائرية يتحول فيها الأمام إلى الخلف، والخلف إلى الأمام. وهو كالحبار لا أول له ولا آخر، لا مقدم له ولا مؤخر: إنه بلا شكل، وإنه ليل عميق، وحصار لا مخرج منه. والدائرة التي يرسمها الثعلب عندما ينقلب تجعله منيعاً مثل الغمامة التي يفرزها الحبار. والغمامة nephéle اسم يطلقه الإغريق على نوع من شباك صيد السمك (١١٢). والشبكة التي هي نسيج لا يُرى من الأربطة والقيود سلاح من أسلحة الدهاء الميتيسي المفضلة: بالشبكة انتصر پيتاكوس Pittakos على فرينون Phrynon (١١٣)، وبالشبكة شلت كليتمنسترا Klytaimnêstra حركة أجاممنون قبل أن تذبحه (١١٤)، وبالشبكة

حبس هيفايستوس أفروديتي وآريس (١١٥). والفخ الذي نصبه أوليسيس للخُطّاب كان شبكة «لها أعين لا تعد ولا تحصى (١١٦)»؛ والسلاسل التي غُل بها پروميثيوس إلى صخرته كانت تنسج حوله شبكة حلقاتها من الفولاذ (١١٧). كانت «شبكة بلا مخرج -ápeiron amphibles tron (١١٨) تحيق بكل شيء ولا يتمكن منها شيء، شكلها هو أكثر الأشكال انسيابية، وأكثرها حركة، وكذلك أكثرها إحداثاً للحيرة، ألا وهو شكل الدائرة. وفي لغة الإغريق، كما نعلم، يستخدم فعل enkukleîn (١١٩) أي حاق - أحاط - طوّق كالدائرة للتعبير عن الصيد. ليس هناك بين دهاء الثعلب ودهاء الحبار ودهاء صياد السمك فرق ينصب على طبيعة الدهاء الميتيسي. ولابد للانتصار على عدو أوتي دهاءً ميتيسياً أن ترد إلى نحره أسلحته الخاصة به: و«غمامة» صياد السمك تقابل تماماً «غمامة» الحبار. والإنسان الذي أوتي الدهاء الميتيسي يستطيع أن ينتصر على أكثر أنواع عالم الحيوان دهاءً بأن يجعل من نفسه باستخدام الشبكة قيداً ودائرة، وبأن يصبح بدوره ليلاً بهيماً، أو كميناً لا مخرج منه، أو شكلاً لا يمكن الإمساك به.

* * *

مرت بين هوميروس وبين أوپيانوس من الزمان عشرة قرون. وامتدت بين «الإلياذة» وبين <كتابيْ أوپيانوس:> «صيد الحيوان» و«صيد السمك» مسافة فصلت بين القصة الملحمية والكتب الفنية التي تعالج صيد البر وصيد البحر. وعلى الرغم من ذلك فهناك في مجال دراستنا استمرار يبدو لافتاً للنظر آخذاً بالألباب. فقد بقي الحقل الدلالي الذي يقع فيه مفهوم الدهاء الميتيسي والذي ينتظم شبكة مدلولاته كما هو في جوهره. مجموعة الكلمات - الخديعة dólos، الاحتيال mechane، المماحلة téchne، المناورة kérdos، الإيهام apátc، الرجرجة aiólos، المخاتلة poikilos، الإغراء haimúlos - التي تحدد بما تتضمنه من سمات نوعية هذا النمط من الذكاء الدهائي الذي يتميز بالمعاجلة والمرونة، والالتواء والمخادعة مما يمكنه من مواجهة ما لم يكن في الحسبان، والتصدي لأكثر الظروف تغيراً والفوز في المعارك غير المتكافئة على أعداء تسلحوا بأسلحة أفضل لخوض مباراة القوة. فضعف أنطيلوخوس عند بداية سباق العربات ضعفٌ تمثل في تخلف خيله يناظر تماماً الضعف الفيزيقي في حالة السرطان البحري والسمك الرعّاد وهو ضعف لا يوازنه إلا مزيد من الدهاء الميتيسي؛ واليقظة المتحفزة المستمرة التي يأخذ بها الشاب نفسه على طول المضمار تشبه يقظة الأخطبوط الذي

يترصد لغنيمته بلا هوادة؛ وغش قائد العربة الداهية الذي يجعله دهاؤه الميتيسي، عن تدبير مسبق، يتصنع الطيش والجنون لكي يخدع منافسه هو صورة من الفخ الحي الذي يمثله الثعلب إذ يتصنع الموت وهو حي، أو صورة من زائدة الضفدعة البحرية الشبيهة باللسان التي تلوح في ظاهرها كأنها طعام للسمك الجائع وهي تخفي الفم المفترس الذي سينقفل عليها.

والدهاء الميتيسي - بما يتسم به من سمات وألوان سلوك تميزه، وبالمجالات التي يمارس عمله فيها، والخطط التي يستخدمها لقلب قواعد اللعبة في مباراة القوة - نراه يستغل كل المفهوم الذي كونه الإغريق عن هذا النمط الخاص من الذكاء الذي لا يتأمل الجوهريات الثابتة بل ينشغل مباشرة بالمشكلات العملية بكل صروفها ويواجه عالماً من القوى المعادية والمحيِّرة لأنها تتصف دائماً بالغموض والتميع. والدهاء الميتيسي من حيث هو ذكاء يعمل فيما هو صائر ، وفي موقف النضال، يكتسي شكل قوة مواجهة تستخدم صفات عقلية - الحرص، الفطنة، العجلة، نفاذ البصيرة، المكر، بل والكذب - ولكن هذه الصفات تلعب دورها كطائفة من الأعمال السحرية التي قد تحوزها لكي تتصدى للقوة الغاشمة بالأسلحة التي هي أسلحتها الخصيصة: المَنَعة والغش. والكائن الذي أوتي الدهاء الميتيسي منيع يفلت من بين أصابع عدوه منساباً كالماء الجاري؛ وهو لفرط مرونته يتحور تحورات عديدة؛ وهو مثل الفخ يبدو على عكس حقيقته: غامضاً، مضاداً، يتوسل في عمله بالانقلاب.

هذا الاستمرار الذي استمره السجل اللغوي للدهاء الميتيسي، واستمرت من خلاله صوره وموضوعاته ونماذجه، كيف نفسره، وما هو المدى الذي نعترف له به؟ هل يمكن القول إن ما جاء في كتابيْ أوپيانوس هو مجرد لعبة أدبية، والتماس للقديم، واستخدام مقصود لسجل الملحمة اللغوي؟ حتى إذا أخذنا بهذا الرأي، فإن شواهد أوپيانوس توضح بنيات الفكر الهوميروسي المتصل بالدهاء الميتيسي. ولكن لماذا لا نلاحظ أن من هوميروس إلى أوپيانوس، على مدى تراث طويل يمتد عبر هيسيودوس والشعراء الغنائيين والشعراء التراجيديين وأفلاطون وأرسطوطاليس، عدداً من الألفاظ المرتبطة أوثق الارتباط بالدهاء الميتيسي يبدو أنها كانت تحظى باستخدام مميز في مجالات صيد الحيوان وصيد السمك والحرب بقدر اعتبار الحرب مشابهة للمجالين الأولين. في النشيد الثاني عشر من «الإلياذة» تستخدمة كلمة خديعة dólos للدلالة على الطعم، على سنارة الصياد [١٢٠]. عند هيسيودوس في نهاية الصراع الذي تصادم فيه المرة تلو المرة دهاء زيوس ودهاء پروميثيوس، كانت الخدعة النهائية

التي كرست تفوق ملك الآلهة على التيتان تتمثل في خلق پاندورا Pandora لتكون الطُعم الذي أوقع إيپميثيوس وأوقع كل الرجال. كانت پاندورا خدعة وعرة لا مخرج منها dólos aīpús améchanos [١٢١]؛ ونجد شرحاً للقيم التي تتضمنها لفظة «وعرة» في الفقرة المناظرة في مأساة «أجاممنون» حيث تتفاخر كلوتايمنيسترا بأنها، لكي توقع زوجها <أجاممنون> في الفخ، نصبت عالية شباك الكيد بحيث لا تستطيع قفزة أخرى أن تتجاوزها [١٢٢]؛ هذه الخديعة الوعرة التي لا مخرج منها dólos aipús améchanos هي الفخ، هي حفرة عميقاً عمقاً يجعل من المحال التماس مخرج منها. وعندما أقفل أوليسيس على الخُطّاب الفخ الذي نصبه لهم ، كان هو الصياد الذي ألقى شباكه على سمك أخذ يرتعد بداخلها [١٢٣]، وهنا نذكر كذلك ساريبيدون Sarpédon عندما حذر هيكتور من الخطر الذي يتهدد الطرواديين وأفصح عن خوفه عليهم من أن يقعوا في شبكة تحيق بهم جميعاً من أولهم لآخرهم [١٢٤]. پيندراوس يتحدث بوضوح عن دهاء الثعلب الميتيسي [١٢٥]، وكذلك إيون الخيوسي Ion de Chios يصف حيلة القنفذ [١٢٦]. في مأساة «أجاممنون» التي أسهب فيها إسخيلوس أي إسهاب في الحديث عن موضوعات صيد الحيوان وصيد السمك [١٢٧]، نجد ملك الإغريق هو صياد الحيوان الذي ضيق الخناق على مدينة پرياموس ليرمي عليها شباكه، ولكنه لن يلبث أن يقع في الشباك التي نسجها دهاء زوجته الميتيسي لتوقعه في الفخ بدوره. وسوفوكليس وأوريپيديس يذكران فن صيادي الحيوان وصيادي السمك ويؤكدان الحيل mechanai التي يبتكرها عقلهم المبدع وذكاؤهم المتعدد الأوجه poikilia prapidon [١٢٨]. وعندما يرسم أفلاطون صورة إيروس Éros فإنه يجعله يرث عن ميتيس، جدته الأولى، الخصال التي تجعل منه صياداً لا نظير له thereutes deinós يقف بلا انقطاع على أهبة الاستعداد، ذا رجولة، وسرعة، مستجمعاً كل قواه، عاكفاً دائماً على تدبير مكيدة [١٢٩]. وهو يستخدم مفردات صيد الحيوان والسمك في تعريف فن ذلك الذي يجسم في عينيه - عن معارضة للحكمة التي يوجهها الفيلسوف نحو عالم المثل - الذكاء القائم على كل مخاتلة صاحب الدهاء الميتيسي الغارق في عالم الظواهر والصيرورة، ألا وهو: السفسطائي الذي يتوسل بألاعيبه وحيله البلاغية ليجعل الخطاب الضعيف يظهر على الخطاب القوي.

ولدينا المزيد: يمكننا أن نرجع إلى أبعد ما نستطيع الرجوع إليه من الماضي فنجد سجل مفردات الدهاء الميتيسي يربطه بتقنيات لها علاقة واضحة بصيد الحيوان وصيد السمك. نجد

الناس ينسجون أو يغزلون أو يضفرون الدهاء الميتيسي أو الخديعة hupháinein, plékein, tektainesthai ، كما يجدلون فخ صيد الحيوان أو يضفرون جابية (١٣٠). كل هذه الألفاظ تشير إلى تقنيات قديمة (١٣١) هي تلك التي تستخدم مرونة الألياف النباتية، وقدرتها على الالتواء لتصنع منها عُقَداً وأربطة وشباكاً وشبكات وأشركة تمكن من المباغتة والإيقاع والقيد بالأغلال، وضم القطع العديدة معاً لتكون كلاً محكماً.

يبدو أن هذه الخبرة قد تركت بصمة عميقة على شريحة كاملة من الفكر الإغريقي. ونجد السمات الجوهرية للدهاء الميتيسي التي استخلصناها بتحليلاتنا - وهي: المرونة والتحور والغش والالتباس والعكس والقلب - تتضمن قيماً معينة تنتسب إلى المنحني والمرن والمعوج والمائل والغامض، على عكس المستقيم والمباشر والصلب والواضح ذي المعنى الواحد. وتبلغ هذه القيم ذروتها في صورة الدائرة، التي هي رباط القيد الكامل لأنها كلها تنقلب وتنغلق على نفسها، ولا أول لها ولا آخر، ولا مقدمة لها ولا مؤخرة، ودورانها يجعلها ثابتة ومتحركة، وهي تتحرك في آن واحد في هذا الاتجاه وفي الاتجاه المضاد. هذه القيم نفسها تظهر في الاستخدام شبه المنظومي لسجل المنحني اللغوي لوصف الدهاء الميتيسي: لا الدهاء الميتيسي الملتوي agkulómetis فحسب، بل إن صفة مثل skoliós واسماً مثل stróphis، والألفاظ المركبة من الجذر -gu* والدالة على الانحناء ، مثل الصفة amphigueeis التي تدل على كائن أرجله ملتوية أو يمكن أن تنتقل إلى أمام وخلف في آن واحد، والجذر -kamp* الذي يدل على ما هو منحن أو ما هو قابل للثني أو ما هو ذو مرفق. ومن الأمور التي لها دلالة في هذا المجال هو أن أرسطوطاليس المنحول إذ بسط في كتاب «الميكانيكا» (١٣٢) نظرية الأدوات الخمس التي تمكّن من إحداث انقلاب القوة المميز للدهاء الميتيسي - أو إذا شئنا استخدام ألفاظ المؤلف نفسها: التي تجعل الأصغر والأضعف يسيطر على الأكبر والأقوى - شرح تأثير «الآلات» المدهش الذي تستخدمه البراعة البشرية مستغلة خصائص الدائرة: التي توحد في ذاتها عن طريق انحنائها المستمر والمنغلق على ذاته عدة أشياء متضادة ، مولدة أحدها من الآخر، وهكذا تبرز الدائرة كأكثر الأشياء غرابة وتحييراً thaumasiotaton في الدنيا بما تملكه من قوة تُشتت المنطق العادي. هذا التأثير التناقضي لقلب الأوضاع والموازين سجله أرسطوطاليس صاحب الطبيعيات في كتاب «تاريخ الحيوان» <طبائع الحيوان>، حيث نجد غالبية القصص التي سيفصلها أوبيانوس، بعد بلوتارخوس وأثينيوس، عن ذكاء الحيوان. وكما أن دهاء أنطيلوخوس الميتيسي مكنه بحصانين أقل سرعة من التقدم على خيول أكثر

سرعة، كذلك تستطيع الضفادع البحرية - في رأي أرسطوطاليس - وهي أكثر الأسماك بطئاً bradútatoi أن تجد وسيلة لالتهام البغال البحرية التي تعتبر في البحر أسرع الأسماك tòn táchiston (١٣٣).

وإذا كان الدهاء الميتيسي على مدى ألف عام قد خط في الثقافة الإغريقية خطاً مستمراً ظهر لنا ثابت الرسم، فلا يبدو على الرغم من ذلك أن مؤرخي الفكر الأنتيكي أعاروه اهتماماً كافياً. ولعلهم كانوا مشغولين من خلال أعمال الفلاسفة الكبرى بإبراز مقومات أصالة الهيللينية بالنسبة إلى حضارات أخرى: منطق الهوية، ميتافيزيقا الوجود والثابت، ولهذا كثيراً ما نحوا منحى إهمال هذا الجانب الآخر من الذكاء الإغريقي الذي عظّمه الميثوس عن طريق تأليه ميتيس زوجة زيوس الأولى، تلك الربة التي ما كان ملك الآلهة بدون مساعدتها ليستطيع أن يقيم هيمنته ويمارسها ويحافظ عليها. وعلى الذكاء لكي يحدد وجهته في عالم التغير وعدم الثبات ولكي يسيطر على الصائر لاعباً وإياه لعبة الدهاء أن يقترن في عيون الإغريق بالطبيعة على نحو ما، كما فعل مينيلاوس عندما اندس في جلد عجل البحر لكي ينتصر على أعمال پروتيوس السحرية الرجراجة المتموجة. على الذكاء إذن، لشدة مرونته أن يجعل نفسه حركة دءوبة وتحوراً متعدداً وانقلاباً واحتيالاً وغشاً.

الدهاء الميتيسي ذكاء دهائي أمده صيد الحيوان وصيد السمك في البداية الأولى بالنموذج، ثم تجاوز هذا الإطار تجاوزاً بعيداً، على نحو ما يبينه عند هوميروس شخص أوليسيس الذي هو التجسيم البشري للدهاء الميتيسي. الدهاء الميتيسي هو مخططات المحارب عندما يركن إلى المباغتة والخديعة والكمين، وهو فن الربان الذي يقود السفينة ضد الرياح والمد والجزر، وهو تلاعب السفسطائي بالألفاظ ليقلب على غريمه الحجة البالغة التي احتج بها، وهو شطارة المصرفي والتاجر اللذين يكسبان كالحواة مالاً كثيراً من لا شيء، وهو حرص السياسي الأريب الذي لديه حس استشعار يمكنه من التنبؤ مقدماً بمسار الأحداث الذي يفتقر إلى اليقين، وهو ألاعيب حواة، وأسرار صنعة تمنح الحرفيين سيطرة على مادة تتمرد دائماً ، قل التمرد أو زاد، على جهدهم الجهيد: هكذا يسيطر الدهاء الميتيسي على كل الأنشطة التي يكون فيها على الإنسان أن يتعلم كيف يناور القوى المعادية التي لا يمكن لفرط شدتها التحكم فيها مباشرة، ولكن يمكن استخدامها برغمها دون مواجهتها وجهاً لوجه، من أجل التوسل بوسيلة ملتوية ومباغتة لتحقيق المشروع الذي سبق التفكير فيه وتأمله وتدبيره.

القسم الثاني

الاستيلاء على السلطة

الباب الثالث

معارك زيوس

الربةُ ميتيس عند هيسيودوس تقابل الدهاءَ الإنساني الميتيسي عند هوميروس، والدهاءَ الحيواني عند أوبيانوس، والربة ميتيس الداهية هي إبنة تيثيس Téthys وأوقيانوس Okéa-nos، تزوجها زيوس Zeus وابتلعها. وليس من شك في أن هذه الربة ‹مقارنة بشخصيات الآلهة المشهورين› شخصية صغيرة من بعض الأوجه. فلم يقم الإغريق قط شعائر لربة بهذا الاسم. وعلى مستوى الشعائر لا تدخل ميتيس الداهية في عداد الآلهة الحقيقيين. فهل يرجع اهتمام الشاعر هيسيودوس بها إلى خياله الشخصي واتجاهه إلى تأليه المجردات الخالصة؟ لو أخذنا بهذا الرأي لأنكرنا جزءاً جوهرياً من الفكر الديني، ونعني به الحاجة إلى تعريف وترتيب وتنظيم القوى المابعدية، وهي حاجة لا يمكن أن تستجيب لها الشعائر استجابة كاملة، ولكنها تجد ما يرضيها في التشكيلات الميثية الواسعة من قبيل تلك التي جاء بها هيسيودوس. ومن هذا المنظور فإن ما يطلق عليه اسم «المجردات» الهيسيودوسية هي أبعد ما تكون عن مفاهيم تخفَّت عن طريق حيل الاستعارة الشعرية في هيئة آلهة. إنها «قوى» دينية حقيقية تهيمن على أشكال من العمل محددة أشد التحديد وتعمل في قطاعات محددة من الواقع [1]. أما دورها في لعبة القوى الإلهية المختلفة – التي تحكي «ثيوجونية» هيسيودوس عن مولدها وتخبر عن مجالات تطبيقها وصراعاتها وتوازناتها حتى اللحظة التي يقوم فيها تحت سيطرة زيوس النظام النهائي للعالم – فيبدو هذا الدور أحياناً في مثل ضرورة دور بعض آلهة البانثيون التقليدي. وميتيس الداهيةُ على وجه التحديد تحتل عند هيسيودوس في تدبير العالم الإلهي مكاناً عظيماً. وإذا كانت هي زوجة زيوس الأولى التي اقترن بها على الفور بعد انتهاء حربه مع التيتان وإعلان لقبه ملك الآلهة، فإن ذلك يعني أن هذا الزواج يسم تتويج فوزه ويكرس هيمنته الملكية. ليس هناك سلطان بلا ميتيس، بلا دهاء ميتيسي. فلولا عون الربة ميتيس، ولولا دعم أسلحة الدهاء التي يحيط بها علمها السحري، لما كان من الممكن الاستيلاء على السلطة العليا ولا ممارستها ولا الحفاظ عليها. و«ثيوجونية» هيسيودوس

تشدد بخاصة على دور ميتيس الداهية في تحقيق السيادة ودوامها. ومسرحية «بروميثيوس مغلولاً» لإسخيلوس تشهد على أن الفوز في الصراع على مُلك العالم - الذي تواجه فيه التيتان يقودهم كرونوس والأوليمپيون يقودهم زيوس - كان مقرراً من قبل لمن «يناله لا بالقوة والعنف، ولكن بالدهاء [٢]» . وإذا كان جيش الأورانيدين وكرونوس قد هزم في النهاية، فإنما يرجع ذلك في رأي الشاعر التراچيدي إسخيلوس إلى عدم الاستماع إلى نصائح ‹بروميثيوس› الذي يجسد في طبيعته التيتانية المتمردة دهاء هذه الميتيس التي يحكي هيسيودوس أن زيوس دبر أن تكون خالصة له كلها فابتلعها قبل أن تلد أثينة.

هذه الاختلافات في الروايتين الأسطوريتين ليس لها من أثر إلا التشديد بمزيد من القوة على ثبات موضوع الدهاء في قلب ميثيات السيادة. فهيسيودوس وإسخيلوس يتفقان على التعرف في ‹التيتان› پروميثيوس على نفس نمط الذكاء الملتوي، ونفس القدرة على الخداع التي أطلق عليها الإغريق اسم ميتيس - الدهاء الميتيسي. وكلاهما - هيسيودوس وإسخيلوس - يرون أن التيتان لا يتسم فحسب بأنه صاحب الدهاء الرجراج aıolometis، والدهاء الملتوي agkulometis، aipométes ، المخاتل poikilos، dolophronćon المخادع poikilóboulos، polúïdris ، اللئيم sophistes [٣] وأنه صاحب القدرة «على إيجاد مخرج حتى من المآزق التي لا مخرج لها [٤]» ، المتمكن من المناورات، ومن تدابير الاحتيال، مستحضراً في ذهنه دائماً علمه بالفخاخ والمصائد، صنعته الخداعية dolic téchne[٥]، بل هو أيضاً الوحيد الذي يمكنه أن يقرر دخول لعبة الدهاء مع زيوس، واستخدام الإيهام apáte [٦] ضده، والتصدي لملك الآلهة بدهاء ضد دهاء. وپروميثيوس هو «المتنبيء»، مثله في ذلك مثل الأوقيانيدية ‹ميتيس›، هو الذي يعرف كل شيء مسبقاً، فهو يمتلك هذا النمط من المعرفة الذي لا بد منه لمن يشتبك في معركة نهايتها غير مؤكدة [٧]. ميتيس «تعرف من الأشياء أكثر مما يعرف أي إله أو أي إنسان [٨]»؛ پروميثيوس «يعرف من الأشياء أكثر من أي واحد في الدنيا»؛ وميتيس في بطن زيوس ستمكنه من أن يعرف كل ما ينتهي به إلى السعادة أو الشقاء [١٠]؛ پروميثيوس يعرف مسبقاً تمام المعرفة كل ما سيحدث؛ وما من مصيبة تصيبه إلا وقد عرفها من قبل [١١]. وفي صياغة إسخيلوس الذي يتجاهل عمداً شخص ميتيس يتخذ پروميثيوس مكان ميتيس ويلعب الدور الذي خصها به هيسيودوس. ولكن وجود وغياب ميتيس من بنية ميثيات السيادة يؤكدان بالقدر نفسه الدور الذي يخص هذا الشكل من الذكاء الملتوي الذي تمثله الأوقيانيديس ‹ميتيس›. وما كان يمكن، في المنظور التراچيدي الخاص بثلاثية إسخيلوس، أن تتدخل ميتيس على الإطلاق. لأن زيوس في مطلع

هذا المسرحية الأولى - والوحيدة التي وصلتنا وهي «بروميثيوس مغلولاً» - ملك الآلهة، لأنه انتصر على التيتان، ولكن سيادته لم تكن قد استقرت نهائياً بعد، بل كانت على العكس، تبدو مقضياً عليها بالانتهاء عند أجل بعينه حددته اللعنة التي نطق بها كرونوس <أبو زيوس> يوم سقوطه وخص بها أصغر أبنائه <وهو زيوس>. وتأهب زيوس، دون أن يرتاب في شيء، لزواج «سيلقي به أسفل السلطة والعرش» (١٢). فلما تم هذا الزواج الذي دفعه إليه عدم الأخذ بالحيطة طمعاً في النيريدية <جنية الماء> ثيتيس، بدأت بالنسبة إليه أوقات عسيرة سيباغته ويغلبه فيها الأقوى منه. لقد تحتم عليه، كما حدث لأبيه كرونوس من قبل، أن يعاني قسوة قانون تتابع الأجيال الذي يعني أن ابنا سيولد له يكون أقوى منه <فيسقطه عن العرش> ويعلمه «البون الذي يباعد بين أن تكون ملكاً حاكما وأن تكون عبداً» (١٣). الثلاثية كلها مبنية على هذا الموضوع، موضوع الخطر الذي يهدد حكم سيد الآلهة؛ وهي لا تضع على المسرح في تصويرها السيادة حالة الاستقرار والاستمرار كما صورها هيسيودوس، بل تضع حالة أزمة لن يستطيع زيوس أن يتجاوزها إلا إذا دفع الثمن متمثلاً في التصالح مع بروميثيوس المغلول، وتحريره من قيوده، وتعديل السلطة الملكية في اتجاه العدل والتفكير. في هذا السياق لا يوجد مكان لميتيس. فوجودها، وزواجها، وابتلاع الملك المهيمن إياها يمكن أن تعني بالنسبة إلى هيمنة الإله الأوليمبي ضماناً منيعاً وبقاءً صامداً. وإنما كان غياب الدهاء الميتيسي هو السبب في أن زيوس وجد نفسه من حيث هو ملك معتمداً على خداع بروميثيوس. واتخذ هذا الاعتماد سمة مزدوجة. كان زيوس في سعيه إلى الانتصار على كرونوس، أي في سعيه إلى الاستيلاء على السلطة الملكية - بحاجة إلى خطط التيتان الذكية؛ وهو من أجل الحفاظ على حكمه يريد أن يتقي المخاطر التي تحيق بالملك عندما يولد له أبناء أصغر وأقوى منه ولهذا فلابد له من أن يعرف ما يخبئه الغيب، بأن يحصل من بروميثيوس على الكشف عن سر لا يعرفه إلا التيتان. ونجد عنصر الزواج الفتاك الذي يهدد مستقبل الإله الملك موجوداً عند إسخيلوس وهيسيودوس، ولكن الاختلافات بينهما لها دلالتها. في ثيوجونية <هيسيودوس> تأتي قصة الزواج الخطير مباشرة بعد أن يكون الآلهة قد ألحوا على زيوس أن يقبل السيادة، الملكية «الباسيليا basileia»، فتصرف تصرف الملك الصالح وقسّم ألوان التشريف بينهم بالعدل. أما ميتيس التي اتخذها أول زوجة له، فكان المفروض أن تلد له ذرية أوتيت «حرصاً» يساوي حرص الأم (١٤). وكان المخبأ في الغيب أن يصبح ابن ميتيس ملكاً على البشر وعلى الآلهة بدلاً من أبيه. فلما تلقى زيوس تحذيراً مما يمكن أن يصيبه، ابتلع زوجته قبل أن تلد له ولداً. أما إسخيلوس فسلطة زيوس الملكية لديه - على العكس مما هي لدى هيسيودوس -

ليست مقبولة من الجميع بموافقة كاملة. ولا يبدو على هيمنة زيوس التي يرمز إليها «كراتوس» Kratos و«بيا» Bia– وهما رمزا : القوة الخالصة والإجبار – أنها كانت آنذاك قد وجدت التبرير الكامل. كان الآلهة يتحملون قانون هيمنة الأقوى أكثر مما كانوا يعترفون بسلطة ملك حقيقي. وكان هناك آلهة كثيرون يلومون زيوس على استيلائه بالعنف على العرش، ويلومونه على عنفه وعلى قراراته المستبدة (١٥). وهذا هو زيوس يشتهي الزواج من ثيتيس ، وهي ربة لها قدرات سحرية إذا انتقلت إلى ابنها جعلته – مثل ابن ميتيس – أقوى من أبيه، فيعزله عن العرش. ولكن زيوس في هذه المرة لا يعرف هذا السر. وهاهوذا وقد استسلم لنزواته ملكاً يوشك أن يصنع بنفسه شقاءه (١٦). كان الوحيد الذي يعرف هذا السر الرهيب، هو پروميثيوس، وكان هو أيضاً الوحيد الذي يحتكم على وسيلة درء هذا القدر (١٧). ومعنى هذا أن زيوس كان يمكنه تحاشي هذه البلية عن طريق الاستعانة بپروميثيوس، كان على الملك بغية الحفاظ على استمرار عرشه أن يشترك مع پروميثيوس وأن يستند إلى علمه. وسيكون عليه أن يتخلى نهائياً عن ثيتيس، بدلاً من أن يتخذها لنفسه زوجة ويبتلعها كما فعل مع ميتيس بحسب رواية هيسيودوس. ومن هنا فقصة هيسيودوس وقصة إسخيلوس لا تختلفان إلا ظاهرياً. إنهما تشرحان في شكلين مختلفين الآليات السرية للسيادة، وتشددان أيضاً على الدور الذي تقوم به التدابير السحرية للذكاء الدهائي في إرساء قواعد السلطة الملكية التي لا ترتكن على القوة الغاشمة وحدها.

وتحكي مسرحية «پروميثيوس» لإسخيلوس أن التيتان إذ احتقروا أساليب الدهاء me-chanás haimúlas، وتغالوا في تعظيم قوتهم الوحشية، ظنوا أنهم سيحققون الفوز على الأوليمپيين في غير جهد. وبذل ابن يابيتوس Iapetos <أي پروميثيوس> الجهد في إقناعهم بعكس ظنهم فأغدق عليهم ما أغدق من النصائح والآراء الأريبة، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح. فلم يشأ كرونوس والتيتان أن يسمعوا شيئاً، بل رفضوا مجرد بحث المسألة. فلم يبق لپروميثيوس من سبيل إلا أن ينضم إلى جانب زيوس (١٨). وهذا هو الأوليمپي زيوس يرحب بخدمات المنشق الذي سيمكنه بخططه boulai من تحقيق النصر وتكريس امتيازاته بأن يسمح بتقييد كرونوس الهرِم وحلفائه في غيابات هوة تارتاروس (١٩).

موضوع الخديعة الذي يطالعنا واضحاً لدى إسخيلوس ، جامعاً في آن واحد الدهاء والفخ والقيد السحري في مواجهة القوة البسيطة، مانحاً النجاح في المعارك من أجل السيادة، موضوع نلتقي به مجدداً في كل الحكايات الميثية الدائرة حول المعارك التي يتحتم على زيوس

خوض غمارها لكي يعلو ويبقى على قمة السلطة. وهو يرد عند هيسيودوس نفسه بين السطور. وفي هذا الشأن لا بد من أن نورد ملاحظة أولى. جرت العادة على أن نقرأ «ثيوجونية» ‹هيسيودوس› في التلخيص الذي ينسب إلى أپولودوريس والذي دوّن تقريباً في القرن الثاني الميلادي. في هذه القصة الموحدة التي صاغها كاتب الميثات يقابل تمام المقابلة تتابع ثلاثة أجيال إلهية - جيل أورانوس وجيل كرونوس وجيل زيوس - ثلاثة عصور ملكية متتالية . أورانوس هو أول ملك تربع على عرش العالم. انقلب عليه ابنُه كرونوس وضربه بالمنجل وطرده من العرش بمساعدة اخوته التيتان وتربع على العرش. ثم انقلب على كرونوس ابنُه زيوس وأصبح هو ملك السماء [٢٠]. ولكن نص هيسيودوس مختلف، فلم يرد فيه في أي لحظة أن أورانوس نودي به سيداً ولا اعتبر ملكاً. وكل الفقرات التي تتصل به تنخرط في سلك حكاية ميثية من حكايات نشأة الكون. ولم يظهر موضوع المنافسة على السيادة إلا مع كرونوس. أما أوروانوس فيظهر على هيئة قوة كونية أساسية: انه السماء الليلية المعتمة ذات النجوم [٢١]. وجايا Gaïa- الأرض - أنجبته دون أن تتزوج بكائن من كان، أنجبته بطريقة شبيهة بالاستنساخ، فجعلته مساوياً لها ison heoutei [٢٢] حتى يغطيها تماماً عندما يتمدد فوقها [٢٣] قبل أن يصبح بعد ضربة المنجل التي سددها إليه كرونوس: المقر المكين للآلهة السماوية، أي المناظر الدقيق لما تمثله جايا بالنسبة إلى الخليقة جميعاً منذ ظهورها عند أصل العالم: مقراً آمنا أبداً على عكس فوهة الخاوس Khaos الفاغرة التي لا قاع لها [٢٤].

ورب السماء السوداء لا يعرف له من نشاط آخر إلا النشاط الجنسي. ولهذا فهو يحيط بالأرض قاطبة، ويغطيها، وينتشر فيها بالليل [٢٥]. هذا الفيضان الغرامي يجعل من أورانوس «الذي يغشى ويخفي» [٢٦]: فهو يغشى ويخفي الأرض التي يأتي ليتمدد عليها [٢٧]؛ وهو لا يسمح لأولاده بالصعود إلى النور، بل يخفيهم في المكان الذي استولدهم فيه، في بطن جايا، التي تظل تتأوه مختنقة في أعماقها [٢٨]. كيف يمكن أن يكون أورانوس ملكاً على كون لم يبرز كليةً بعد؟ كان لا بد من ضربة منجل يسددها كرونوس إلى أورانوس فينسحب أورانوس مخصيّاً عن جايا ويبتعد نهائياً ليستقر في هذا المكان الذي سيكون منذ ذلك الحين سقف العالم، كما تمثل جايا أرضيته. في ذلك الوقت، لا قبله، أصبح العالم هذا الكون المنظم الذي غدا في آن واحد الإطار والرمية بالنسبة إلى تناحر الآلهة على سيادة العالم.

ولنا أن نقارن مسلك أورانوس ومسلك كرونوس تجاه أولادهما. وسنفهم من خلال المقارنة المتوازية بين الفقرات على نحو أفضل تغير المستوى الذي ينجم عند الانتقال من أحدهما إلى

الآخر، المرور من موضوع بروز عالم متميز إلى موضوع منافسة على السلطة الملكية. ويحكي هيسيودوس (الأبيات ١٣٢-٢١٠) أن أورانوس أوتي من جايا ثلاث سلالات من الأبناء، هم: التيتان والكوكلوپيس Kuklôpes والهيكاتونخيريس Hekatogkheires، وكلهم يوصفون بالفظاعة؛ وكانوا منذ القدم ex arches يقفون من أبيهم موقفاً قبيحاً مفعماً بالكراهية. والشاعر ‹هيسيودوس› لا يكشف عن أسباب هذه الكراهية، ولكننا نستطيع أن نستشف معناها ونحدده. فقد قابل الأبناء عداء الأب بالعداء؛ ونحن نعرف هذا العداء من خلال مشاعر ذلك الذي اعتبر أشدهم فظاعة deinótatos paidon، واتسم منذ البداية بالدهاء الميتيسي الملتوي agkulometes[٢٩]. والشيء الذي كرهه كرونوس في أبيه أورانوس هو أنه thalerós مزدهر، مليء بالحيوية والعصارة [٣٠]. من ناحية الابن : الدهاء الميتيسي. من ناحية الأب: الخصوبة العارمة. طبيعة أورانوس، وهي أنه «شرِهٌ كل الشره إلى الحب [٣١]»، منعت الأبناء الذين أنجبهم من أن يحتلوا في نور الشمس المكان الذي يليق بهم. وعندما أخفى أورانوس نسله في بطن الأرض، لم يكن يسعى إلى المحافظة على حكمه ضد منافسين محتملين، بل كان يسعى إلا الحيلولة دون كل ميلاد يمكن أن ينجم عنه كائنات مختلفة عنه [٣٢]. لم يكن من الممكن أن يظهر «جيل» جديد طالما استمر هذا الإنجاب المستمر الذي مارسه أورانوس متحداً دائماً بجايا. والإهانة lobe التي عابتها عليه جايا وكرونوس والتي قررا أن يحاسباه عليها وأن يدفعاه ثمنها، هي بالنسبة إلى الأم وأبنائها هذا الشكل من الوجود الضيق المحدود الذي أقصاهم إليه اندفاعه الجنسي العارم [٣٣]. ولقد عوقب أورانوس في الموضع الذي ارتكب به الإثم، ويشهد العقاب على ماهية الإثم. فلم يغل رب السماء كما سيغل كرونوس والتيتان عندما ينزل بهم زيوس عقابه. ففي اللحظة التي كان يعاشر فيها جايا هوى ابنه بالمنجل على أعضائه الجنسية فاجتثها. وأدى هذا الحدث إلى نتائج كونية حاسمة، فقد باعد السماء عن الأرض، ورفع القيد فيما بعد عن قدوم أجيال في المستقبل؛ وأقام شكلاً جديداً من الإنجاب عن طريق ضم مباديء تظل حتى في تقاربها متمايزة ومتعارضة ؛ وأسس التكامل الضروري بين قوى الصراع وقوى الحب [٣٤]؛ واستهل أخيراً بالتهمة التي وجهها أورانوس لأبنائه neikeion قانون القصاص أو المكافأة tisis، ذلك القانون الذي تولته الإيرينيات Erinyes وأولاد الليل والذي لن يكف منذ ذلك الحين عن السيطرة على المستقبل[٣٥]. ولكن في منظور تحليلنا لابد من التشديد قبل كل شيء آخر على سمتين. أولاهما أن الأمر يدور حول «كمين سري» بباغت أورانوس الغارق في الحب [٣٦]؛ إنها حيلة مخادعة dolie téchne، خدعة dólos [٣٧]، تطابق تمام المطابقة الدهاء الميتيسي الملتوي

agkulometes؛ وثانيتهما إنها من ناحية اتصافها بالمخاتلة عملية تستهل بين الآلهة، إذ تفتح أمام لؤم كرونوس طريق السلطة، تاريخ نكبات السيادة.

وكرونوس لا يخفي أولاده في بطن الأرض، فعندما ينزلون من بطن الإلهة ريا Rhéa إلى ركبتيها يمسكهم ويبتلعهم كما سيبتلع زيوس ميتيس فيما بعد. وهو لم يفعل ذلك استجابة لطبيعته من حيث هو إله نهم «مزهر»، بل لدوافع سياسية عرضت عرضاً واضحاً شديد الوضوح: «كان يخشى أن يستولي حفيد آخر من أحفاد السماء على الشرف الملكي bas-ileida timen بين الخالدين [٣٨]» .

أخفى أورانوس أبناءه بأن استسلم دون مقاومة تقريباً إلى شهواته الجنسية. أما كرونوس فقد ابتلع أبناءه وبقي دائما يقظاً متأهباً، قلقاً شكاكاً، صاحي العين دائماً، يقف دون هوادة على أهبة الاستعداد: dokeúon [٣٩]. ولكن يقظة هذا الذي أسماه هيسيودوس Kronos Basileus كرونوس باسيليوس، أي الملك كرونوس، وميجاس أناككس mégas ánax أي الأمير القوي ،‹ميجاس = قوي و أناكس =أمير›[٤٠]، ووصفه بعبارة أكثر دقة في فقرة أخرى قائلاً عنه إنه «أول ملوك الآلهة» [٤١]، لم تكن من الكمال بحيث لا يستطيع أحد أن ينال منها. هذا الداهية سيجد من هو أكثر دهاء منه. فقد دبرت ريا بالاشتراك مع جايا وأورانوس مؤامرة دهائية، أو كما يقول هيسيودوس، وجدت السبيل بالاتفاق مع أقاربها لتدبر خدعة ميتيسية metis (metin sumphrássasthai) [٤٢] لكي ينجو زيوس، آخر الأبناء من المصير الذي لقيه من سبقوه. وأفلتت المؤامرة السرية التي دبرتها ريا من ترصد كرونوس اليقظ. وولدت «خفية»؛ و«أخفت» ابنها في كريت؛ و«خبأت» تحت لفف أطفال قطعة من الحجر؛ وقدمتها «تحت المظهر الخداع» كأنها طفل وليد إلى شراهة كرونوس الذي لم ير فيها إلا ناراً. انخدع كرونوس بهذا الإيهام apáte- وهذه هي الكلمة التي يستخدمها پاوسانياس Pausanias [٤٣] - ولم يشك أورانوس العظيم في أن في مكان قطعة الحجر ابناً له، لن ينهزم ولن يعاني، بقي حياً لكي يطرده عما قريب بالقوة من العرش ويسود هو الخالدين بدلاً منه [٤٤].

هذا النصر النهائي الذي حققه زيوس على أبيه سيحتفل به هيسيودوس في القصة الطويلة التي خص بها الحرب ضد التيتان (الأبيات ٦١٧-٨٨٥). في هذه المعركة التيتانية - التي تمثل ما يشبه ذروة القصيدة الثيوجونية - يلعب الهيكاتونخيريس - ذوو المائة ذراع - دوراً حاسماً: عرف زيوس من جايا أن الفوز سيكون من نصيب أولئك الذين ينجحون في ضم

الهيكاتونخيريس إلى صفهم والحصول على مساندتهم. ومن هنا كان كوتوس Kottos وبرياريوس Biareôs وجوجيس Gygês ضَمَنَةً وصناع النصر في معركة السيادة. ولكن هيسيودوس في فقرة سابقة، في الأبيات ٤٩٣-٥٠٦ التي تلي مباشرة قصة «الخدعة» التي دبرتها ريا لإنقاذ الصغير زيوس، كشف عن وسيلتين من شأنهما أن يحققا نهائياً هيمنه ابن كرونوس الصغير. كان من الضروري العمل على أن يتقيأ الأب كل الأبناء الذين ابتلعهم أي اخوة وأخوات زيوس الكبار حتى يحاربوا إلى جانب أخيهم. ولا يحدد الشاعر بدقة الوسائل التي اتبعت لجعل كرونوس العظيم صاحب الأفكار الخبيثة يُفرغ ما في بطنه. ولكنه يشير فقط إلى أن الإله كرونوس وقع في هذه المرة أيضاً في خدعة dolotheis دبرت بناء على نصائح من جايا [٤٥]. «فلما غلبه ابنه بمماحلات المكر والقوة » téchneisi biephi te paidós [٤٦] اضطر أن يتقيأ بعد قطعة الحجر التي ابتلعها - بدلاً من زيوس - كل من كان قد أعقب من أولاد وقد عبر هيسيودوس عن ذلك بقوله: «فأطلق نسله...gónon anéeke» [٤٧] ويتبع نص أپولودوروس Apollodoros من الناحية الجوهرية رواية هيسيودوروس ولكنه يختلف اختلافاً طفيفاً إذ هو أكثر تصريحاً، يقول : «فلما بلغ زيوس النضج ضمن لنفسه عون ميتيس بنت أوقيانوس، وقدم إلى كرونوس عقاراً phármakon شربه فاضطر إلى تقيؤ الحجر أولاً ثم بعد ذلك الأولاد الذين كان ابتلعهم ؛ واستعان زيوس بهم في الحرب التي خاض غمارها ضد كرونوس والتيتان [٤٨]»

ليس الصحيح أن نُقَرِّب كرونوس الذي ابتلع أولاده من أورانوس الذي أخفى أولاده، بل الصحيح أن نقربه من زيوس الذي ابتلع ميتيس. فالموضوع في حالة زيوس يطابق الموضوع في حالة كرونوس. في الحالتين ملكٌ سيد يعرف أن قدَره يقضي عليه بأن يخلعه واحد من أبنائه عن العرش. في رواية هيسيودوس نبهت جايا وأورانوس كرونوس وزيوس. فاتجه سعي كل منهما إلى رد قضاء القدر بحيلة أريبة [٤٩]. وإذا كان سعي كرونوس قد خاب، فإن زيوس سيحقق النجاح فيما فشل فيه كرونوس. كان كرونوس يواجه جايا وأورانوس اللذين نبهاه إلى ما ينتظره، ولكنهما، وقد استعانا بما دبراه مع ريا من دهاء ميتيسي وخدعة dólos، أحبطا محاولات الملك الأول التي أراد بها أن يغير نظام الأشياء لصالحه وأن يُبقي على الملكية في يديه. أما في حالة زيوس، فقد حدث العكس، إذ دخل الإلهان الأساسيان ‹جايا وأورانوس› اللعبة مع زيوس، فبناء على نصيحتهما قرر أن يبتلع ميتيس ويطويها في أحشائه «حتى لا يصبح الشرف الملكي أبداً ملكاً لأحد غيره من الآلهة التي تعيش إلى الأبد [٥٠]». وفي استطاعتنا أن نفهم موقف أورانوس. إنه يريد أن يحاسب كرونوس الذي لعنه علناً على الخطأ

الذي ارتكبه حياله. أما موقف جايا فهو يدهشنا أكثر. فهي في نهاية المطاف التي دفعت كرونوس إلى خصي أبيه؛ وهي التي اخترعت المنجل الفولاذي المنحني ، أي هي التي اخترعت أداة الجريمة لتضعها سلاحاً في يد ابنها. ولكن هاهي ذي تتخذ في هذا الجزء من القصة وجهين مختلفين، فهي تقارب ثيميس - التي كثيراً ما يخلطونها بها - والتي تمثل من حيث هي قوة عرافية قانونَ قدرٍ ثابت لا علاج له. فجايا هي التي عن طريقها يستطيع كرونوس أو زيوس أو بروميثيوس أن يعرفوا ما يخبئه المستقبل. ولكن جايا تقارب الإيرينيات اللاتي يسهرن على ألا يفوت خطأ بلا عقاب، ويتحملن بعبء العمل على مر السنين دون تسامح على إنضاج عقاب الجرائم المتوارية أشد التواري (٥١) . ولقد كانت جايا هي التي تلقت قطرات الدم التي سقطت من عضو أورانوس بعد قطعه، واستولدت منها على مر السنين periplomćnon d'en-iauton (٥٢) الإيرينيات الشديدات، واضطر كرونوس بعد ذلك أن يتقيأ على مر السنين epiploménon d'eniauton (٥٣) كل أولاده. أما عضو أورانوس المقطوع فقد حمله پونتوس Póntos وهو العنصر المائي ، هو الموج، الذي يتسم بالحركة بقدر ما تتسم الأرض به من جمود وثبات، إلى بعيد، في وقت طويل poulùn chiónon (٥٤)؛ وتكونت من زَبد المَني aphrós عندذاك الربة الداهية التي تهيمن على الاقترانات، والتي يصاحبها حيثما ذهبت، الحب والرغبة، ألا وهي الربة أفروديتي، التي لا تتسلح بقوة الانتقام ولا بالبطش الحربي، بل بالابتسامات، وألاعيب الثرثرة النسائية، والجاذبية الخطيرة للذة، وكل مداهنات الإغراء exapátas (٥٥).

ولا يكفي زيوس لكي يستميل القدر لصالحه أن يضمن تواطؤ أورانوس وجيا وميلهما. فلابد أن يفعل ملك الآلهة شيئاً يدل على نيته. وعلى الرغم من دهاء كرونوس وتنبهه اليقظ فقد أتاح لدهاء ريا أن يباغته؛ ووقع في الفخ dólos الذي دبرته له مماحلات téchnai زيوس؛ ولم يأخذ حذره من شراب الخديعة، من العقار السحري phármakon الذي جهزته ميتيس المحنكة. هكذا انقلبت عليه الخطط التي دبرها ليهرب من القدر الذي قدِّر عليه وحققت ذلك الذي كان يظن أنه سيفلت منه. فلم يستطع كرونوس أن يوقف الزمن الذي يقضي بأنْ تتابَع الأجيال دون شفقة ، ولم يستطع أن يفلت من شريعة القصاص التي أقامها خَصْي أورانوس: فبعد أجلٍ طال أو لم يطل سيكون عليه أن يدفع ثمناً يساوي الإثم الذي ارتكبه. بخدعة استهل كرونوس سيادته بأن مد يده لضرب أبيه. وبخدعة أخرى انهارت سيادته وانتهت كما بدأت. لم ينفعه دهاؤه كله بشيء منذ أن ترك خارجه قوة ميتيس العالية تستمر في ممارساتها وتستطيع أن تعارضه، تلك القوة التي هي، على نحو ما جاء في هذا السياق، قوة الزمن

المحتال، وهو زمن ينتهي دائماً مهما عملت، بأخذك على غرة [٥٦]. لم يبتلع زيوس أبناءه؛ وهو قد تلقى تحذيراً من الخطر الذي يتربص به، كما تلقى أبوه مثله من قبل، ولكنه تقدم إلى أصل الداء. واستخدم في هجومه على ميتيس نفس أسلحتها. فاصطنع مماحلات أفروديتي الماكرة، وأغوى زوجته بالغش مستخدماً كلمات ناعمة haimulioisi lógoisi [٥٧]، حتى إذا خلب لبها بالمخاتلة dóloi phrénas exapatesas، ابتلعها وطواها في أحشائه. وأپوللودوروس يلخص القصة باقتضاب قائلاً: «عندما تبينت ميتيس أنها حامل، ابتلعها زيوس، وسبقها بغتة phthásas، لأن جايا تنبأت بأن ميتيس بعد أن تلد البنت التي تحملها في أحشائها، يمكن أن تلد ابناً يصبح ملك السماء [٥٨]. كان زيوس إذن هو الذي قلب في هذه المرة أسلحة الإلهة ضدها، تلك الأسلحة التي كانت تجعلها منيعة لا تُغلب، ألا وهي : الدهاء، الخداع، الهجوم على غرة. وبانتصار زيوس ‹على ربة الدهاء، وابتلاعه إياها› اختفى إلى الأبد احتمال حدوث خدعة تباغته ويمكن أن تهدد هيمنته. لم يعد زيوس الملك، مثل كرونوس أو آلهة أخرى، إلهاً ذا دهاء، بل أصبح هو الداهية metieta، هو المعيار، معيار الدهاء، الرب الذي قُدّ كله من دهاء.

* * *

الفصل الثاني الذي يدور حول صعود زيوس إلى العرش يضع على مسرح الأحداث الكوكلوپيس دون أن يسميهم بأسمائهم. والنص الذي يلي مباشرة مشهد إصابة كرونوس بالمنجل يطرح على التفسير والتأويل أسئلة دقيقة. فقد جاء فيه أن زيوس حرر من بطن كرونوس اخوته وأخواته الذين سيساعدونه في الصراع ضد التيتان. نقرأ: «ثم فك من الأغلال اللعينة اخوة أبيه، أبناء أورانوس hoús dese pater»، وعبارة hoús dese pater هذه يمكن تأويلها ‹تأسيساً على الأصل الإغريقي› على وجهين: «الذين قيدهم أبوه» أو «الذين قيدهم أبوهم» [٥٩]. في الحالة الأولى يكون المقصود هو أن كرونوس قيد بعض اخوته؛ في الحالة الثانية يكون أورانوس هو الذي قيد بعض أبنائه. ويبدو أن أپوللودوروس وتزيتزيس Tzetzès اختارا التأويل الأول التي ينبغي علينا رفضه. فوضع كلمة ouranidas بعد كلمة pater يفرض الأخذ بالتأويل الثاني.أضف إلى ذلك أن هيسيودوس في حديثه عن معركة التيتان يحدد بلا مواربة أن الهيكاتونخيريس، بين أبناء السماء، قيدهم أبوهم بقيد شديد [٦٠]. ولكن هذا التحديد لا يكفي للتغلب على عقبات التأويل. من ناحية: الفقرة التي ينصب عليها كلامنا لا تدور حول الهيكاتونخيريس، بل حول أولئك الذين قدموا ثمناً لخلاصهم «إلى زيوس

الرعد والصاعقة والبرق التي كانت الأرض الهائلة تخبئها، والتي سيضمن زيوس اعتماداً عليها الهيمنة على بشر من الفانين يدركهم الموت وآلهة لا يموتون [٦١] » ونحن نعرف من البيت رقم ١٤١ أن الكوكلوپيس، الذين يوحي اسمهم بالرعد والصاعقة والبرق، قدموا إلى زيوس الرعد هدية له وصنعوا له الصاعقة. فلماذا لم يذكرهم الشاعر بالاسم؟ الألفاظ التي يستخدمها هيسيودوس «أبناء أورانوس، اخوة أبيه - أو أعمامه [٦٢] - تنطبق علاوة على الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس، على التيتان أنفسهم الذين لم يكن من الممكن أن يفك زيوس قيدهم لأنهم كانوا يحاربون ضده في معسكر كرونوس، وهو بعد انتصاره سيزج بهم مكبلين بالأغلال في غيابات تارتاروس الت تكتنفها الغيوم. هناك ما هو أكثر من ذلك. فقد عرض هيسيودوس سجلاً لنسل أورانوس في فقرة سابقة أشرنا إليها من قبل وهي الأبيات من ١٣٢ إلى ١٥٣. في هذا السجل في بداية «ثيوجونية» نجد ثلاث طوائف من أبناء السماء والأرض. رتب الشاعر أول المذكورين بترتيب مولدهم ووسمهم بأسمائهم الخاصة دون ذكر لعشيرتهم، وهم: أوقيانوس Okéanos، كويوس Koios، كريوس Krios، هيپيريون yperion، ياپيتوس Japetos، ثيا Theia، ريا Rheia، ثيميس Thémis، منيموسونه Mnèmosunè، فُوْيبه Phoibè، تيثيس Théthys، ثم يذكر بعدهم أصغرهم وهو كرونوس Kronos ذو الأفكار اللئيمة. ثم يأتي ثلاثة أبناء يوصفون بأصحاب العين المدورة كيكلوپيس وهم: برونتيس rontès، ستيروپيس Steropès، أرجيس Argès. ومن بعد هؤلاء ثلاثة ذكور أسماؤهم: كوتّوس Kottos، برياريوس Briareôs وجوجيس Gygès يتميزون بأن لهم مائة ذراع. ولكن هذه المقطوعة الرئيسية لا تشير إلى أي تقييد للكوكلوپيس ‹حرفياً=أصحاب العين المدورة› أو الهيكاتونخيرپيس ‹حرفياً = من لهم مائة ذراع› ينسب إلى أبيهم أورانوس. على العكس: النص يشير ضمناً إلى أن كل الأولاد، سواء الأبناء أو البنات، عوملوا نفس المعاملة: كلهم خبئوا سواء بسواء وبالطريقة التي شرحناها من قبل في بطن جايا. كذلك توجهت جايا إلى أولادها جميعاً لتحضهم على التمرد ‹على أبيهم›[٦٣]. وباسمهم جميعاً قام كرونوس، الوحيد الذي لم يكن ليرتعد أو يهتز، بالتصميم على «بسط ذراعه» ليتمكن من عضو أبيه ويقطعه [٦٤]. ولقد ألحق أورانوس بهم جميعاً دون تمييز، على سبيل اللعنة، كنية epiklesis «تيتان»، التي لم يحملها أحد من قبل، «لكي ينزل المستقبل بأولئك الذين مدوا ذراعهم أعلى مما ينبغي titainontas القصاص tisin الذي يستحقه [٦٥] ».

في النص الوحيد الذي خص به هيسيودوس أورانوس، ونسله، وخصيه، لا تظهر الشمس في هيئة الإله الذي يجمع الشمل. والعقاب الجماعي الذي أنزله بأولاده، وتواطؤهم المتساوي على التمرد ، والاسم الوحيد - اسم التيتان - الذي كناهم به جميعاً على سبيل اللعنة، كل هذا يسمح لنا بأن نفترض أنهم بعد انتصار كرونوس لقوا نفس المصير. هيسيودوس لا يصف مصير التيتان بدقة إلا بعد خصي أورانوس فيقول عموماً إنهم تحرروا. وما كانت به حاجة إلى هذه القيلة، فهي بديهية. فما دام أورانوس قد نُحي، لم يعد هناك من يستأنف حبسهم في بطن جايا ، التي كان قد أخفاهم فيها. وهذا هو الشاعر دون ما حاجة إلى تفسيرات أخرى، يعرض عندما تسنح اللحظة المناسبة، كيف تزوج أبناء وبنات السماء وماذا أنجبوا من أولاد[٦٦]. ولكن القائمة التي يوردها والتي يذكر فيها كل رب باسمه وكل ربة باسمها، دون استخدام لفظة تيتان على الإطلاق، لا يأتي فيها أحد من الكلوكلوبيس والهيكاتونخيريس. لا يذكر شيئاً عنهم. صحيح أن هؤلاء وأولئك لم يكن لهم نسل، أو على الأقل لم ينجبوا أبناء مرموقين، ولهذا فلم يكن هناك مبرر لذكرهم [٦٧]. ومع ذلك فقد كان الأحرى بهيسيودوس أن يقول ما لم نعرفه إلا فيما بعد وما قاله على نحو يشبه المصادفة بمناسبة خلاصهم على يد زيوس: وهو أن بعض أبناء أورانوس - على عكس اخوتهم وأخواتهم - قيدهم أبوهم بالأغلال. وإذا كان أورانوس قيدهم، وزيوس فك قيدهم، فلنا أن نقبل - دون أن يقول ذلك هيسيودوس - بأنهم ظلوا طوال حكم كرونوس في حالة العبودية نفسها التي دفع بهم إليها من قبل. ولكن كيف نفسر إذن أن إزاحة السجان لم تحقق لهؤلاء المساجين ماحققته لإخوتهم، أعني: التحرر؟ إن سكوت هيسيودوس عن البيان يمثل مشكلة. أما أپوللودوروس، الذي ظل يتبع تراث «ثيوجونية»، فنراه يبذل جهداً لإدخال شيء من الحبكة في تتابع الأحداث [٦٨]. ولكي يصل إلى هدفه هذا الذي ارتآه، نراه يسلك سبيلاً مضاداً لهيسيودوس، فيجعل الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس يولدون قبل أولاد السماء والأرض الآخرين، ويعود فيسلك سبيلاً مضاداً لهيسيودوس فيخص باسم التيتان الأولاد الذين ولدوا بعدهم دون سواهم. ويفترض كاتب الميثات أپوللودوروس، الذي يبدو أوروانوس لديه في هيئة أول ملك، أن أورانوس بدأ بنفي الهيكاتونخيريس والكوكلوپيس إلى التارتاروس بعد أن قيدهم بالأغلال. وأن جايا ثارت على إبعاد أبنائها ، فلما وضعت حملها الجديد من التيتان ذكوراً وإناثاً، أطلقتهم للهجوم على عرش أورانوس.واضطلعوا جميعاً بالهجوم، إلا أوقيانوس؛ وقام كرونوس بخصي أبيه. وما طُرد أورانوس من السلطة، حتي قام التيتان بأول عمل لهم وهو تحرير إخوتهم الهيكاتونخيريس والكوكلوپيس، الذين كانوا مثلهم ضحايا استبداد الأب. ثم قاموا بعد ذلك بوضع السيادة

بين يدي كرونوس. وما كاد كرونوس يصبح ملكاً حتى سارع بدوره إلى تقييد الهيكاتونخيريس والكوكلوپيس وترحيلهم إلى تلك الأماكن تحت الأرض التي أتوا منها، والتي سيظلون بها حتى يخلصهم زيوس مرة أخرى.

ولكن هذه الحبكة التي أدخلها المؤلف وكلفته الأخذ بتعديلات معينة في تتابع الوقائع، تبدو لنا كاشفة عن لفظ وروح قصة هيسيودوس والمنطق الكامن في الحكاية الميثية. ففي صياغة أپوللودوروس نجد أن أورانوس ملكاً هو الذي يقيد؛ ونجد أورانوس ملكاً هو الذي يتعرض للهجوم والهزيمة؛ وكرونوس ملكاً هو الذي يفك القيد، ثم يقيد من جديد؛ وزيوس ملكاً هو الذي يفك القيد بدوره. وإذا صح تحليلنا، فإن أوروانوس عند هيسيودوس ليس ملكاً؛ وكرونوس هو أول من حمل هذا اللقب. ولفظة «تيتان» تسم في ثيوجونية هيسيودوس كل أولئك الذين شاركوا في هذه الملكية الأولى التي أقامها كرونوس. وهي في كل استخداماتها في قصيدة ثيوجونية من أولها إلى آخرها تدل على مجموعة محددة، ليس على أساس أصولها في المقام الأول من حيث هي دائرة أسَرية، ولكن من حيث علاقة المعارضة التي تضطلع بها على مستويين حيال الآلهة الذين يحكمون فوق جبل أوليمپوس. هؤلاء هم أولاً من يسميهم هيسيودوس الآلهة القدامى próteroi theoi، على نقيض آلهة اليوم (٦٩). وهم أيضاً المنافسون المباشرون لزيوس، الذين نازلوا الأوليمپيين في الحرب من أجل ملكية السماء. والتعبير próteroi theoi Titenes يشير إلى جيلين من الآلهة، تتابعا وتواجها من أجل السيطرة على العالم. وبهذا المعنى فإن استخدام كلمة تيتان عند هيسيودوس يؤكد القرابة التي أكدها هيسوخيوس بين تيتان وتيتاكس Titax= ملك، وتيتينه Titènè= ملكة. التيتان ملوك، بل هم على نحو أكثر تحديداً أول الألهة الملوك (٧٠).

ولقد أكب الشراح المحدثون على المشكلات التي تعرضنا لها، وحاولوا حلها من وجه نظر النقد النصي، إما مفترضين مع أرتور ماير Arthur Meyer أن الفقرة التي جاءت في تسلسل أبناء جايا وأورانوس خاصة بالكوكلوپيس والهيكاتونخيريس (الأبيات ١٣٩-١٥٣) محشورة، وإما قائلين كما فعل هـ. بوزه H. Buse و م. ل. ويست M. L. Westأن هذه القطعة لم تكن موجودة في الصياغة الأولى لقصيدة هيسيودوس وأن الحديث عن خصي أورانوس كان يلي مباشرة الإشارة إلى كرونوس حاقداً على أبيه المزدهر (٧١). فيكون هيسيودوس قد حشر فيما بعد في نصه الأبيات ١٣٩-١٥٣ . وأناط بالكوكلوپيس والهيكاتونخيريس هذا الدور مضطراً بعد أن كتب المقطع الخاص بمعركة التيتان الذي جاء فيما

بعد. فلما كانت هذه الأشخاص تلعب دوراً رئيسياً في انتصار زيوس كان من الضروري أن يبين الشاعر من هم ومن أين أتوا. ويكون هيسيودوس، سعياً منه لإعطائهم شهادة الميلاد وشهادة الحالة الاجتماعية اللتين كانوا في حاجة إليهما، قد رجع إلى الوراء وأضاف إلى نسل أورانوس، ملعونين تحت الاسم الجامع "تيتان"، أسماء الكوكلوپيس الثلاثة والهيكاتونخيريس الثلاثة.

ولكن إضافتهم في هذا الموضع يعيبه ضم الشاعر الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس على نحو وثيق إلى مجموعة التيتان مما يفقد الفروق العميقة بين هؤلاء وأولئك مبرراتها. لماذا غُل بعض أبناء أورانوس بالقيود ولم يخبأوا كالآخرين؟ وإذا كانوا قد كُبلوا بقيود فلماذا لم يذكر الشاعر ذلك؟ وإذا كانوا قيدوا أو خبئوا، فلماذا أدى إبعاد أورانوس إلى تحرير البعض دون الآخرين؟

هذه الإعادة لتكوين النص التي قام بها علماء فقه اللغة تتخذ سمة الافتراض؛ ولا يمكن أن نستخدمها للبيان والتدليل. ولكنها إذ تبين المشكلات وتحددها بدقة قد تسمح لنا بأن نستنتج من حيرة هيسيودوس نفسها بعض الاستنتاجات. ولكن من الضروري أولاً أن نطرح المشكلة على نحو آخر. ونحن – دون أن نزعم أننا سنعيد تكوين النص ليكون هو النص الحقيقي فيما وراء النص الذي وصل إلينا – سنحاول فقط أن نتوصل – من خلال بنيات القصة ومواضع السكوت فيها، بل ومواضع التناقض بها – إلى المنطق الذي يحكم عند هيسيودوس تنظيم الحكايات الميثية الخاصة بالسيادة <على الآلهة>. وهناك على هذا المستوى من الطرح ملحوظة تفرض نفسه علينا، ولابد من أن نثبتها. وهي أنه سواء كان الأمر أمر الكوكلوپيس أو الهيكاتونخيريس فإن الإشارة إلى أغلالهم ترد دائماً في سياق بعينه، ألا وهو: الصراع الذي يتنازع فيه على السيادة الآلهة التيتان القدامى يقودهم كرونوس من ناحية، والمتطلعون الجدد إلى السلطة يقودهم زيوس من الناحية الأخرى. إننا لا نجد أية إشارة إلى هذه الأغلال طالما كنا نبحث على المستوى الكوسموجوني الخاص بالعلاقات بين جايا وأورانوس. ومعنى هذا أن موضوع القيد يمثل جزءاً لايتجزأ من الميثات الملكية. هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية هناك تناسق كامل بين نوائب الكوكلوپيس ونوائب الهيكاتونخيريس. نجد نفس البنية القصصية، ونفس الوظيفة في النسيج الكلي للحكاية الميثية. يظهر الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس مغلولين، وزيوس يحل وثاقهم؛ وعلى الرغم من أنهم اخوة التيتان، فإنهم يظهرون أولاً في معسكر الأوليمپيين ويجلبون لهم – سواء في ذلك الكوكلوپيس أو الهيكاتونخيريس – وسائل

النصر. والفقرتان - تلك الخاصة بالكوكلوپيس وتلك الخاصة بالهيكاتونخيريس - تكرر الواحدة منهما الأخرى حتى لتبدو إحداهما كأنها تجعل الأخرى زائدة بلا فائدة. فإذا كان الكوكلوپيس قد أمدوا زيوس عندما قدموا إليه الصاعقة بالسلاح الذي يضمن تفوقه ويسمح له بالسيادة على الآلهة والبشر (البيت ٥٠٦) ففيما حاجته إلى الهيكاتونخيريس ليكسب المعركة؟ والعكس صحيح. إذا صح ما جاء في البيت ٦٢٨ من أن النصر لا يمكن أن يتحقق إلا بالهيكاتونخيريس، فلماذا يصور الشاعر الإله زيوس في وسط المعمعة وقد كف عن التحكم في حميته، فراح يرمي البرق بيده دون هوادة لكي ينسف التيتان أعلى الأوليمپ (الأبيات ٦٨٧-١١٧)؟

وتتطلب الإجابة عن هذه الأسئلة توسيع مجال التحليل. فمهما اختلف الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس بعضهما عن البعض الآخر في أسلوب العمل، فأسلوب عمل الكوكلوپيس يتضح في أنهم يستخدمون سحراً منصباً على التعدين، كما يتلخص أسلوب عمل الهيكاتونخيريس في أنهم يملكون ناصية سحر منصب على الحرب [٧٢]، ومن هنا فإنهم لا يكررون بعضهم بعضاً في أداء الدور الذي يضطلعون به وهو دور صناع النجاح فحسب، بل يؤدون أيضاً وظيفة مساوية تماماً لتلك التي كَلّف بها إسخيلوس پروميثيوس. هناك قرابة بين هؤلاء وأولئك في كل النقاط. فوصول زيوس للملكية رهن بأن تتدخل لصالحه آلهةٌ تنتمي إلى جيل غير جيله، تنتمي إلى جيل الآلهة الأولين المقربة من القوى الأصلية التي سيخضعها الملك الجديد لنفسه. والكوكلوپيس والهيكاتونخيريس من حيث هم إخوة التيتان الناجمين مباشرة من الأرض والسماء ينتمون إلى هذا النمط. أما پروميثيوس فهو عكس ذلك، هو ابن التيتان ياپيتوس، ونحن، إذا حسبنا عمره بدقة الحساب الزمني التي يأخذ بها المؤرخ وجدناه في مثل عمر زيوس ابن التيتان كرونوس. فلا شأن له إذن بهذا النمط. ويفرض منطق الحكاية الميثية على الشاعر التراجيدي منظوراً مختلفاً تماماً. وپروميثيوس عند إسخيلوس يظهر هو نفسه كالتيتان، قريباً من القوى الأصلية التي ابتهل إليها في كلماته الأولى، واستشهدها في كلماته الأخيرة. أما زيوس والأوليمپيون فهم بالنسبة إليه آلهة صغار، هم الآلهة الجدد الذين هدموا القوى القديمة وحطموا التقسيم العتيق [٧٣]. وأُمُه هي ثيميس Thémis- والتي هي بحسب قوله جايا Gaïa باسم آخر (البيت ٢١٠) - ولهذا فإنه مثل الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس ابن الأرض. وآيةُ تجانسه مع القوى الكونية هي زيارة أوقيانوس الذي أتى باسم روابط الدم يقترح عليه مساندته، وتظهر كذلك على نحو أشد في وجود كورس

الإوقيانيديس المخلص إلى جانبه حتى يحين حين الكارثة النهائية، ومن بينهن ميتيس التي كان تزوج أختاً لها اسمها هيسيوني Hésionè (البيت ٥٦٠).

وهناك تقارب آخر يتمثل في أن الأم الأصلية جايا، أصل كل الأشياء باستثناء الخاوس والليل، كشفت لزيوس تفصيلياً عما ينبغي عليه أن يفعله مع الهيكاتونخيريس إن أراد أن ينجح في مسعاه (البيتان ٦٢٦-٦٢٧)؛ وهي التي أبلغت پروميثيوس مقدماً بالطريقة التي يجب اتباعها لكي يكون النصر حليف هذا المعسكر دون غيره (مسرحية «پروميثيوس»، البيت ٢١٠). وكانت هي التي وارت في حجرها هذه الصاعقة التي سيقدمها الكوكلوپيس بموافقتها إلى زيوس لكي يستخدمها سلاحاً حاسماً يحقق له النصر (٧٤).

والنقطة الأخيرة التي نذكرها هي: أن الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس منذ ظهورهم في ميثات بالسيادة عند هيسيودوس يمثُلون أمامنا كالمقيدين بالأغلال كما رأينا. وزيوس هو الذي يحررهم؛ وهم ، في مقابل هذا الصنيع، يقدمون إليه السند الذي يحتاج إليه لتحقيق النصر. وهؤلاء الأشخاص الذين يقيِّدون وتُفك قيودهم، أساطين في القيود. والأمر واضح بين في حالة الهيكاتونخيريس : ففي صراعهم ضد التيتان نراهم يشلون حركة إخوتهم تحت ركام من الحجارة «فيقيدونهم بقيود أليمة» (٧٥)، ويدفعون بهم على عجل تحت الأرض في أعماق التارتاروس، من حيث هم «حراس phúlakes زيوس يحرسون الأسرى (٧٦). وكما أن لهم القدرة على التقييد، لهم القدرة على التحرير. في «الإلياذة» عندما يتهيأ الآلهة المتحالفون ضد زيوس ليغلّوه، تتحرك ثيتيس - وقد ذكرنا من قبل علاقتها بميتيس الأوقيانيدية - فتدعو برياريوس ليخف إلى نجدة زيوس، وبرياريوس هو أبرز الإخوة الثلاثة. وكان مجرد وجود الهيكاتونخيريس إلى جانب ملك الآلهة كافياً لإبعاد خطر الأغلال التي كانت تتهدده (٧٧).

والكوكلوپيس عند هيسيودوس لا يظهرون صراحة أصحاب قدرة على التقييد. إنهم الصناع الذين يصنعون تحت الأرض أسلحة زيوس، ووشائج القرابة بينهم من حيث هم حدادون إلهيون وبين هيفايستوس الذي بينت ماري ديلكور Marie Delcourt سمته السحرية، وأنه أسطون طلاسم تُحَرِّر من القيود وأسطون قيود لا قدرة لأحد على حلها، قيود رهيبة تزداد الخشية منها لأنها خفية لا تدركها الأبصار (٧٨). وإذا تبعنا صياغةً أورفيوسية تذكر، بعد هيسيودوس، أن الكوكلوپيس جلبوا لزيوس الرعد وصنعوا له العاصفة، فلنا أن نصدق أن هيفايستوس علّم الكوكلوپيس حرفته (٧٩). وهناك ما هو أكثر من ذلك : هناك الآلة التي

منحوها زيوس ووثق فيها (البيت ٥٠٦) ليضمن حكمه، كما وثق عند محاربة كرونوس في الهيكاتونخيريس (pistoi البيت ٦٥١ والبيت ٧٣٥) ، على عكس التيتان الذين لم يرضوا بالثقة في نصائح پروميثيوس الحكيمة (pithein البيت ٢٠٤) - ولم تكن تلك الآلة سلاحاً بالمعنى المألوف. إنها آلة تأخذ العدو أخذاً أكيداً مباشراً، وتنزل بالبشر موتاً مباغتاً ينقّض من السماء. هذه الآلة تلعب حيال البشر الذين ينبغي عليه أن يصارعهم دور آلة هيمنة سحرية. بهذه الآلة «يكبح» زيوس العدو الإلهي فيطرحه من فوره أرضاً، وقد شل قدرته، وسمّره في موضعه. وصَعْقُ إله يعني في عرف سيد السماء تقييده، ربطه بالأغلال، حتى يتجرد من القوة الحيوية التي تبث فيه الحياة، ونبذه إلى الأبد جامداً إلى أطراف العالم، بعيداً عن الدار الإلهية التي كان من قبل يمارس من خلالها قوته. وقام هيسيودوس وفي أعقابه الشعراء الآخرون بتصوير ذي بعدين لألوان التأثير المرعبة الناجمة عن هذه الحزمة المجدولة من النار التي يطوق بها زيوس أعداءه. هناك أولاً مشاهد من الاضطراب الكوني؛ الهواء يتأجج، الأمواج والمحيط تتأجج، والأرض والبحر والسماء تنهار بعضها فوق بعض؛ وهوة التارتاروس ترتجف وقد زلزلت؛ وكل أرجاء الكون المختلفة، وكل العناصر تختلط من جديد في اضطراب شبيه بالخاوس الأصلي [٨٠]. للصاعقة من القوة ما يمكنها من رد العالم على نحو ما إلى الحال التي كان عليها «أصلاً»، ومن هنا فإن النصر الذي تمكن زيوس منه يتخذ قيمة إعادة كاملة للنظام في الكون. هذا هو البعد الأول.

أما البعد الثاني فيجعل آثار الصاعقة تبدو أكثر تحديداً ودقة. وسواء كان الحديث عن التيتان أو عن توفون فإن المشاهد، بل التعبيرات، تتكرر. التيتان الذين كانوا يسكنون أعالي أوثروس [٨١]، يجدون أنفسهم في النهاية على الأرض حيث يفتك الهيكاتونخيريس بهم تحت ركام من الحجارة [٨٢]. فقد دحرهم زيوس من السماء(البيت ٨٢٠). أما توفون فيخر على الأرض، مقلوباً (البيت ٨٥٨). فقد أصابته الصاعقة «وأوقعته من أعالي مكابراته البديعة» («پروميثيوس»، البيت ٣٦٠)، مثلما تنبأ پروميثيوس لزيوس بأن إلهاً سيأتي، يمتلك ناراً أقوى من البرق، «توقعه وقوعاً مهيناً» («پروميثيوس»، البيت ٩١٩). أعمت الصاعقة التي أرسلها زيوس التيتان فوهنت حميتهم ménos، وخبا كفاحهم [٨٣]. كذلك توفون الذي كانوا يميزونه بقوة ذراعيه وساقيه cheires, pódes [٨٤] التي وصفوها بأنها لا تتعب، أصيب في الشيء الذي تقوم عليه قوته: أصيب في أطرافه guîa؛ وسقط مبتوراً guiotheis (البيت ٨٥٨). «وأصبحت قوته sthénos هباءً منثوراً، فقد نسفها الرعد نسفاً» («پروميثيوس»، البيت ٣٦٢).

ويظهر خمود الحمية ménos وشلل الأطراف في نصوص أخرى ناجمين عن قوة سحرية تقيّد وتكبل. في الإلياذة يخشى أجاممنون من قوة زيوس «أن تقيد حمية <الإغريق> وأذرعهم» [٨٥]. والمفردات الأكثر استخداماً في تعريف العمل الصاعق الذي يعمله الملك السيد مفردات توحي بالقيود. في «ثيوجونية» نجد ابن كرونوس «يكبح» أباه (البيت ٤٦٤)؛ توفون «كبحته» الضربة التي حصره بها زيوس (البيت ٨٥٧)؛ كذلك نجد عند پندار عدو الإله «تكبحه» الصاعقة (انظر Pythique, 8, 24) وعند إسخيلوس يرمي غضب زيوس إلى «كبح» نسل أورانوس («پروميثيوس» البيتين ١٦٣-١٦٤). والأفعال damnáo, damázo, dámnemi حتى إذا لم يكن لها أصلاً، كما يقترح أونيانس Onians [٨٦]، معنى الكبح بالقيود والأغلال، تسم القهر الذي يفرضه الإنسان على الحيوانات الوحشية حيث يركب عليها النير واللجام أو القيد. والقرابة الدلالية بين «الكبح» و«التقييد» تشهد عليها فقرات متعددة عند هوميروس نستخلص منها نصين من «الإلياذة» نتوسع فيهما [٨٧].

النص الأول يعرض پوسايدون الذي زلزل التربة، وشوكته في كثير من صفاتها، وبمؤثراتها الكونية، قريبة من صاعقة زيوس. ثم إننا في صياغة أپوللودوروس نجد الكوكلوپيس لم يصنعوا فقط الصاعقة لزيوس لتكون آلة النصر. ولكنهم قدموا كذلك لپوسايدون وهاديس Hadès الأسلحة التي يملكونها ملكاً خاصاً لهم: «أعطى الكوكلوپيس زيوس الرعد والبرق والصاعقة، وأعطوا هاديس خوذة الكلب، وأعطوا پوسايدون الشوكة. فلما تسلحوا بهذه الآلات انتصروا على التيتان، وألقوا بهم في غيابات التارتاروس وجعلوا الهيكاتونخيريس حراساً عليهم [٨٨]. كذلك مسرحية «پروميثيوس» لإسخيلوس تجمع الصاعقة والشوكة على سمة مشتركة هي أنهما آلة هيمنة: فالغريم الرباني الذي شاء له القدر أن يقلب زيوس «سيبدع heuresei ناراً أقوى من الصاعقة لها دوي هائل يغطي الرعد ويمزق سلاح پوسايدون، الشوكة، بلية البحر، التي تزلزل الأرض [٨٩]». وفي نصنا الذي وجدناه في «الإلياذة» يتدخل پوسايدون بالسحر عند نشوب المعركة بين إيدومينيوس Idomeneus الذي حماه، والطروادي ألكاثوس Alkathoos؛ وسحَرَ عيني ألكاثوس البراقتين thélxas ósse phaeiná، سحراً شبيهاً بومضة الصاعقة في «ثيوجونية» التي تعمي التيتان وتسلبهم عيونهم 698 ,ósse d'amerde... auge، و«يكبح» edámasse المحارب الطروادي «فيغل أطرافه الرائعة pédese phaidima guîa؛ ويستمر النص: «فلم يعد في استطاعة الرجل أن يولي دبره ويلوذ بالفرار - ناهيك أن يتجنب الضربات. فبقي قائماً، ساكناً بلا حراك، مثل النُصُب <الجنائزي الحجري> stele» [٩٠]. ومقارنة المحارب الذي تركه السحر قائماً في الأرض

بالنصب الجنائزي، تتخذ هنا قيمتها كاملة، ليس فقط لأن الموت عندما يقيد الحي يجمده في صلابة الحجارة وثباتها، وإنما لأن النصب الجنائزي يرمز إلى الثبات، إلى الاندساس في نقطة محددة من تربة هذه القوة المتحركة التي لا يمكن الإحاطة بها والتي تنتشر في كل مكان وتمثلها روح الميت psuche.

والنص الثاني من الإلياذة لا يقل إيحائية عن الأول (٩١). فهذان هما الألوآديان Aloades - أوتوس Otos وإيفيالتيس Ephialtès - يكبلان آريس Arès بكبل فظيع desan krateroi eni desmoi. والمعنى أنهم حبسوا هذا الرب في جرة من البرونز لا يستطيع أن يخرج منها أبداً. والعبارة نصها عند هوميروس : «Chalepòs he desmòs edámna كبحه قيد قاس»، وهي عبارة لافتة للنظر لم يعدم الباحثون أن يقارنوا جرة البرونز - التي كبحت أريس كالقيد - بتلك الجرة الأخرى التي يحيط بها البرونز والتي سد پوسايدون فوهتها ببوابات من البرونز، ونعني بها: هوة التارتاروس السحيقة كما يصفها هيسيودوس في الفقرة التي يذكر فيها السجن الذي زج زيوس فيه التيتان (٩٢).

ولهب البرق الذي يخطف البصر وقد أمسكه زيوس بين يديه واستخدمه سلاحاً راشقاً لا يفل يحدث في الأماكن نفس التأثير المذهل «المشل» الذي يحدثه بريق الأسلحة المعدنية على البشر، ذلك البريق البرونزي الذي يصعد إلى عنان السماء ويجمد من فرط برودة الرعب قلب العدو. وعبارة «ثيوجونية» 698 ósse d'amerde... auge = «بريق الصاعقة سمل عيون‹التيتان›» تقابلها حرفاً حرفاً عبارة الإلياذة ósse d'amerde auge, XIII, 340 - «بريق البرونز بهر عيون ‹المحاربين›». والبرق الذي يتكثف فيه النور والنار، مثله مثل معدن الصلب الأبيض الذي صنع منه منجل hárpe كرونوس مصدره باطن الأرض الحالك الذي ظل قابعاً فيه إلى حين (٥٠٥). ولقد أسلمت جايا لابنها سلاح المنجل hárpe، وهو الخدعة dólos التي ابتدعتها. وفن الكوكلوپيس هو الذي هيأ لزيوس الصاعقة؛ ومهارتهم mechanai, 145ومعها مقدرتهم هي التي جعلت من قوة النار الأصلية الوسيلة التي يمكن أن يستخدمها الملك الجديد والتي تؤهله لحكم السماء فوق قمة الأثير البراق - على الأقل إلى أن يقوم ابنٌ من أبناد ميتيس أو ثيتيس - بدوره - بـ«اختراع» نار أقوى من الصاعقة. وهذا الإشعاع المنبعث من النار البالغة الاستعار، هذا البريق المنبعث من النور البالغ التوهج، لا تستطيع الآلهة - مهما كانت منيرة لامعة براقة - مواجهته دون خطر. فليس هناك سلاح يمكن أن يفتك بالمخلدين؛ ولكن سلاح النار الذي يمتلكه زيوس يفضي بأعدائه إلى الظلمات، إلى ذلك الليل

الذي يبقى فيه الآلهة المغلوبين مكبلين بعيداً عن نور الشمس. وإنّا لنقرأ في« ثيوجونية» أن البريق الباهر المنبعث من الصاعقة والبرق يخطف عيون التيتان «على الرغم من قوتهم». ويوصف التيتان هنا بأنهم chthónioi ⁽⁹³⁾. وهذه الكلمة حيّرت الشراح المحدثين. وهذا هو مازون Mazon يترجمها إلى «أبناء الأرض» كما لو كانت gegeneis . صحيح أن التيتان أبناء الأرض، ولكن جايا لم يسمها هيسيودوس chthón ، ثم إن التيتان كانوا ينسبون عادة إلى أبيهم، لا إلى أمهم. وهيسيودوس يسميهم أورانيدين Ouranides <نسبة إلى أبيهم أورانوس>. ومن هنا فإن معنى الكلمة كما يذكر ويست West في شرحه ⁽⁹⁴⁾ هو «تحت الأرض»، وهذا صحيح لأن التيتان كانوا يقيمون تحت الأرض hupò chthonós (٧١٧) حيث ألقى بهم الهيكاتونخيريس، وعندما تناديهم هيرا في «المتتابعة البيثية» <من شعر بينداروس> ضاربة الأرض بكفها فهي تناديهم باسم «يا معشر الآلهة التيتان، يا من تقيمون تحت الأرض» ⁽⁹⁵⁾. واستخدام صفة «الذين يقيمون تحت الأرض» قبل أن يلقي بهم الهيكاتونخيريس في أعماق التارتاروس لا يحتمل فقط معنى استباق الأحداث، فالتيتان وقد قُطعوا عن نور الشمس، وحُرموا البصر ينتمون إلى مجال الليل ٥٦). ومنذ تلك الحظة كانوا تحت رحمة زيوس، وقد ألقى بهم بلا دفاع إلى عدو، عينه على عكس عينهم، مفتوحة دائماً على سعتها، ويقظته لا تفتر لحظة. وسلاح النار الذي باغتهم وخطف بصرهم يمثل بحسب عبارة إسخيلوس في «پروميثيوس» ágrupnon bélos (358) سلاح اليقظة الدائمة الذي لا يعرف ليل السِّنة والنوم ⁽⁹⁷⁾. ولم يكن أمام الهيكاتونخيريس إلا أن يتموا بطريقة حرفية على نحو أو آخر تلك المهمة التي كان سلاح الكوكلوپيس قد أنجزها بطريقته إذ قطع التيتان عن عالم اليقظة والنور. فطرحوهم بلا حراك تحت الحجارة التي غطتهم، هكذا زج الهيكاتونخيريس محاربي كرونوس «في الظلام» eskiasan مكبلين بقيود أليمة، منبوذين تحت الأرض في غيابات هوة التارتاروس السحيقة الحالكة التي لن يخرجوا منها أبداً ⁽⁹⁸⁾.

في الصراع ضد توفون تتواصل الفقرات على النحو نفسه لتعبر من خلال متتابعات السرد، عن الموضوع الميثي المتمثل في يقظة مهيمنة تبلغ ذروتها في القدرة على مباغتة العدو وشله وتكبيله عن طريق ضربه بالصاعقة، يذكر هيسيودوس: «كان من الممكن أن يصبح توفون ملكاً على الفانين والخالدين، لو لم يلمحه أبو الآلهة والبشر بعينه الثاقبة فجأة؛ فعاجله بالرعد، وضربه به ضرباً شديداً قوياً ⁽⁹⁹⁾». هذا الذي نراه في هذا المشهد يتناقض تناقضاً كاملاً مع كرونوس الذي ظلت عينه يقظة، وظل على أهبة الاستعداد (البيت ٤٦٦)، ولكنه على الرغم من ذلك باغتته ريا Rhéa بحيلتها. ونجد في صياغة إپيمينيديس أن السرد نفسه يؤكد

بالنسبة إلى الملك ضرورة اليقظة الكاملة التي لا تخبو لحظة. ولو خفض زيوس يقظته، ولو للحظة واحدة، لخاطر بفقدان سلطته العليا. ولقد انتهز توفون الفرصة عندما ترك زيوس الوسنَ يرخي جفنيه، وما كان له أن يغفو. فصعد توفون إلى القصر الملكي، ودلف من أبوابه، ونفذ إلى داخله. وما كاد يضع يده على المَلَكية حتى فاجأه زيوس بهجوم مضاد، وأجهز عليه بالصاعقة (١٠٠). ووصف المعركة ضد توفون في «ثيوجونية» يذكرنا بالمعركة ضد التيتان. هذه هي الصاعقة ترج الكون من أعاليه إلى أسافله. كل شيء من السماء إلى أعماق التارتاروس اهتز وغلا. أحاطت الضربات بتوفون فمزقته حتى خر صريعاً. ولكي يعطي زيوس نصره الذي «كبح» عدوه معناه كاملاً، دحره في التارتاروس (١٠١).

في صياغة أپوللودوروس يضرب ملك الآلهة عدوه بالصاعقة، ثم يرمي فوقه جلاميد إتنا Etna، كما حطم الهيكاتونخيروس التيتان تحت الحجارة من قبل ليكبلوهم بالأغلال (١٠٢). أما عند پنداروس فيتمدد توفون «مغلولاً» dédetai تحت الإتنا: و«عمود السماء» يمسكه مكبلاً وصقلية كلها تضمه piézei (١٠٣). على أي وجه ينبغي علينا أن نفهم هذا الضم؟ في «الأوديسا» نجد هيرميس يتأمل القيود السحرية التي شل بها هيفايستوس حركة أفروديتي وآريس على سرير حبهما ويتمنى على سبيل الفكاهة أن تضمه في صحبة الربة <أفروديتي> قيوداً أوثق من هذه (١٠٤)؛ وفي فقرة أخرى يطلب أوليسيس إلى رفاقه، حتى يقاوم نداء الجنيات، أن يتكرموا بضمه piézein في قيود أكثر عدداً (١٠٥). بل ربما جاز لنا أن نجازف بتحديد الشكل الذي اتخذته أحياناً في الخيال الميثي تلك القيود التي ضمت توفون تحت الإتنا. وپروميثيوس يذكر في إشفاق مصير ثائر مثله هو توفون العنيف الذي «كبحته القوة»(١٠٦)، والذي وهن جسمه فتمدد جانباً «تضمه أصول الإتنا» ipoúmenos rhizaisin Aitnaiais húpo(١٠٧). ولقد كبِّل ملك الآلهة پروميثيوس كما كَبّل من قبل توفون والتيتان. ويظهر في بعض الصور في الوضع الذي وصفته «ثيوجونية» : مقيداً إلى عمود بقيود وثقى لا تُحل (١٠٨). بل إننا نلقاه في مأساة إسخيلوس وقد غل مرتين:

أولاهما في مستهل المسرحية إذ أوثقه هيفايستوس إلى الصخرة بقيود لا تتهرأ. والإله الحداد يعمل صاغراً بأمر من زيوس ونجد ممثلي زيوس المباشرين، وهما كراتوس Kratos وبيا Biè - أي القهر والعنف - إلى جانبيه. وقوته على التقييد لا تقوم، مثل قوة زيوس، على مستوى السيادة، ولكنها تعمل من تحتها، في خدمة السلطة؛ إنها قوة آلية بحتة.

وثانيتهما في ختام المسرحية، إذ أتى هيرميس إليه يطلب منه باسم زيوس أن يكشف له

سر القران الذي يهدد بخلع ملك الآلهة عن العرش. ورفض التيتان پروميثيوس فأطلق زيوس عليه الصاعقة. وانطلاق الصاعقة من حيث هي سلاح في يد الملك يمثل الهيمنة يتخذ مرة أخرى سمة مزدوجة، فهو كارثة كونية «تقلب العالم وتحدث به الاضطراب» (٩٩٤)؛ فهذه هي الأرض بجذورها تُقتلع من قواعدها؛ والبحر يمتد مائجاً صاخباً فيمحو حتى في السماء درب النجوم (الأبيات ١٠٤٥-١٠٥٠). وانطلاق هذه الصاعقة يمثل بالنسبة إلى پروميثيوس، الذي كبل بالأغلال في الهواء الطلق، درجة جديدة من محنة الإخضاع. فشعلة الصاعقة تنسف القمة التي غل إليها؛ وسيدفن بدنه تحت الأرض (البيت ١٠١٨)، وستضمه حجرة منحنية بين ذراعيها (1019) petraia d'agkále se bastásei. بل إن پروميثيوس يواجه في النهاية مصير القذف في غياهب التارتاروس حيث يلحق بتوفون والتيتان المكبلين بقيود وثقى لا سبيل إلى فكها desmois alútois [١٠٩]. ولكن مصيره سيكون في الواقع مختلفاً. وآلام پروميثيوس لا تذكّر بعقاب التيتان المضروبين بالصاعقة بقدر ما تذكّر على الأحرى بالبلايا التي عاناها من أبناء أورانوس هؤلاء الذين سيتبين أن عونهم ضرورة لا محيص عنها لسيد السماء الجديد. ولسوف يخلف پروميثيوس المغلول، بموافقة زيوس [١١٠]، پروميثيوس المحرر، فيجري عليه ما جرى على الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس [١١١]، الذين غلوا ثم حرروا. وتغيُّر الحال على هذا النحو يلعب في نسيج تدابير الميثوس، في كل مرة يحدث فيها، دوراً مشابهاً. فما يتحرر الكوكلوپيس حتى يقدموا إلى زيوس ثمن تحريرهم، ألا وهو الصاعقة التي هي آلة تمكنه من تحقيق النصر (البيت ٥٠١ وما بعده). كذلك الهيكاتونخيريس عندما يتحررون من قيودهم يقدم ثمناً لهذا «الصنيع الذي لم يتوقعوه» (البيت ٦٦٠) التزاماً بأن يدخلوا في المعركة ضد التيتان بكل ما لقوتهم الحربية من ثقل حاسم. وپروميثيوس يقدم إلى ملك الآلهة في مقابل حريته التي ردت إليه السر الذي ينقذ به تاجه. وكان التيتان پروميثيوس قد تنبأ عندما صُب عليه العذاب صباً بأن يوماً سيأتي، علي الرغم من قيودي، يكون فيه «ملك السعداء بحاجة إليّ، إذا أراد أن يعرف أي قدَر خطير هذا الذي يتربص به ليجرده من صولجانه وجلاله» . ثم يضيف إلى ذلك أن ليس هناك ما يجعله يكشف السر، لا التلطف، ولا الدهاء، ولا التهديد، «إلا إذا فك ‹ملك الآلهة› باديء ذي بدء هذه القيود الغلاظ» [١١٢]. وإذا لم يكن هذا الأمل قد ثبت أنه هباء منثور حتى إن فقرة أخرى جاء فيها على لسان الكورس أنه بدوره يتوقع أن يرى پروميثيوس «يتعامل مع زيوس تعامل الند مع الند» [١١٣]، فإنما يرجع ذلك إلى أن زيوس الأوليمپي ‹ملك الآلهة› لا يعرف له من وسيلة أخرى لرد القدر «إلا بفك أغلال پروميثيوس» [١١٤]. فيكون على ملك الآلهة أن يشترك مع ‹ پروميثيوس›

ابن ياپيتوس حيث إنه يحتاج إلى أن يضم إلى سلطته الملكية ما عند التيتان من الدهاء والمماحلة والعلم السري بالغيب، ويشرك هذا النمط الخاص من الذكاء الذي يمثله پروميثيوس في بنيان حكم، يصير - بغير هذا العون - إلى الغرق في البؤس وينتهي إلى العبودية. وكما أن علم الكوكلوپيس البارع أتاه بأسلحة لا تقهر، وكما أن ضراوة الهيكاتونخيريس المعجزة شلت أعداءه بهجوم متكرر، فإن حرص پروميثيوس الملتوي يسهم في التمكن من القيود التي سينزعها عن كرونوس ليستغلها هو استغلال الملك ويضمن هكذا سيطرته الدائمة على العالم.

ومع ذلك فپروميثيوس بمكانه في الميثوس حيث لا يقف بجانب زيوس بل في وجهه، يتخذ وضع المنافسة والتعاون معاً سواء بسواء [١١٥]، لا يلوح في هيئة من يقيِّد بل من يفك القيد. صحيح أنه علّم البشر أن يُخضعوا الحيوانات بأن يكبحوها تحت النير واللجام (« پروميثيوس»، البيتان ٤٦٢-٤٦٣)، ولكن هذه المهارة لم تكن إلا واحدة من المهارات التقنية العديدة التي منحها إياهم بكرم أي كرم: فكل الفنون والصنائع التي أوتيها البشر جاءت من پروميثيوس. وإذا كانت مسرحية إسخيلوس تذكر تدابيره boulai التي سمحت لزيوس بأن يواري التيتان في غياهب التارتاروس (البيتان ٢١٩-٢٢٠) حيث تحتل مكاناً جعله هيسيودوس خالصاً للصاعقة التي قدمها الكوكلوپيس وللضربات التي شارك بها الهيكاتونخيريس، فليس هناك ما يسمح لنا بتحديد طبيعة التدابير التي نفذها الداهية ابن ياپيتوس. وعلى العكس من ذلك نجد قدرته على فك القيود مشدداً عليها كل التشديد. حتى عندما يكون مكبلاً بالأغلال يظل على نحوٍ ما منيعاً لا يمكن الإمساك به، أوتي مكراً هائلاً إلى الدرجة التي لا يمكن معها الإبقاء عليه مغلولاً إلى النهاية. وهذا هو كراتوس يأمر هيفايستوس: «اضرب بمزيد من العنف، ضم واهصر، لا يأخذن لين، حتى المغلول بأغلال لا تُفض، لديه القدرة على أن يجد له مخرجاً.» [١١٦] وهذا هو پروميثيوس يقول قول المتنبئ: «بعد أن احتملتُ ألف بلية أليمة، وألف كارثة نكراء، سأفلت من قيودي» [١١٧].

ولم يكن التيتان يجد دائماً السبيل للنجاة بنفسه فحسب، بل لقد «حرر» البشر من رهبة الموت (٢٤٨). بل لقد فعل ما هو أكثر من ذلك، إذ كان هو الوحيد بين الآلهة ، الذي أنجز لصالح البشر- ضد إرادة زيوس عندما كان في مستهل حكمه يتمنى أن يبيد جنس الإنسان ويتلاشى- انجازاً مثل ذلك الذي أنجزه الإله الأوليمپي زيوس لصالح الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس، واستطاع أن يعلن في فخار: «هذا هو ما أقدمت عليه: لقد حللت قيود البشر (exelusámen, 235) وعملت على ألا يهبطوا محطمين إلى هاديس Hadès

‹الموت›.» وماذا يكون حل قيود البشر غير النجاة بهم من الهدم؟ والإله ثاناتوس Thánatos - الموت - إله رهيب، لا يلين قلبه الذي قُد من البرونز؛ فما يلقي حبائله على إنسان حتى يأخذه إلى الأبد [١١٨]. فلما خطف زيوس نور عيون التيتان، وأحاطهم الهيكاتونخيريس بالظلام، كانت تلك، كما رأينا من قبل، وسيلة أدت إلى تقييدهم. ولقد تحقق أن التقييد بالأغلال كان بالنسبة إليهم مرادفاً لزَجٍ جامد في ليل التارتاروس البهيم. وعلى العكس يعني فك قيود الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس ردهم إلى نور الشمس مع كل ما يتضمنه هذا النور بالنسبة إلى الآلهة والبشر من حيوية وحركة.

و«ثيوجونية» تتكلم على نحو مختلف عن الهيكاتونخيريس «وقد تحرروا من قيودهم» (البيتان ٦٥٩-٦٦٠) «ورُدّوا إلى النور (البيتان ٦٢٦ و٦٦٩)» [١١٩]. وپروميثيوس في بعض صياغات أسطورته يرافق من ناحية أخرى هيفايستوس من حيث هو أسطون سحرٍ يحرر من القيود. وهو الذي أبدع أول امرأة - پاندورا Pandora - أو هو الذي خلق الجنس البشري عندما بث الحياة في المادة الخامدة؛ وقد تناول التراب فبلله بالماء وصوّره، وحل قيود الذراعين والساقين، ونفخ فيه الحياة والحركة [١٢٠]. وهو الذي أسعف زيوس عندما ألمّ به ألمُ الوضع بعد ابتلاعه زوجته الأولى ‹ميتيس› : فخلصه من ألمه بضربة من بلطته المزدوجة حرر بها البنت - الربة أثينة - التي حملتها ميتيس في بطنها، وكانت محبوسة في تجويف رأس أبيها لا تستطيع الخروج منه [١٢١].

ووضْعُ التيتان هذا المختلط، حليفاً ضرورياً لزيوس في توليه سلطته والحفاظ عليه، ومعارضاً له كذلك، معادياً ومتصالحاً، مغلولاً ومحرَّراً، على نحو ما متفقاً مع زيوس، على نحو ما رغماً عنه، هذا الوضع نجد تأكيداً له في عادة يشهد عليها مجتثان من آثار إسخيلوس ذكرهما أثينايوس Athênaios [١٢٢]. فبناءً على مجتث «پروميثيوس محرراً» جرت العادة تكريماً لپروميثيوس على أن «يكون تتويج الرأس ثمناً للقيد» antipoina toû ekeinou desmoû. ونجد في مجتث «سفينكس» فقرة تبين بدقة هذه العلاقة القطبية بين التاج - الذي يكرس الاستقامة الدينية لفرد ما أو يكون مكافأة لمنتصر - والقيد الذي يكبل المغلوب: «وتاجاً للضيف الغريب xénoi، ولكنه تاج على العرف القديم: فهو بحسب قول پروميثيوس أفضل القيود كلها áristos desmon ». ولم يكن تاج پروميثيوس القديم مصنوعاً من ورق الغار أو الزيتون كالمعتاد، ولكنه كان مصنوعاً من الصفصاف lúgos. واجتهد التفسير المتبحر الذي قدمه أثينايوس في أن يوضح هذا الوضع الغريب : «وتاج

الصفصاف يناقض المنطق، لأن الصفصاف يستخدم في صناعة القيود وشباك صيد الحيوان pròs desmoús gàr kai plégmata ‏[١٢٣]». والكتاب الذي خص به مينودوتوس Men-odotos الساموسي الأحداث الهامة التي شهدها وطنه <جزيرة ساموس Samos> يقدم إلى <أثينايوس Athênaios مؤلف كتاب Deipnosophistes الموسوعي، وعنوانه يعني «وليمة السفسطائيين»> عناصر حل المشكلة [١٢٤]. فهو يربط في كتابه هذا تاج الصفصاف بشعيرة «التمثال المغلول»، وهي شعيرة لا يمكننا هنا أن نفيض في شرحها، وهي تدور في ساموس حول الصنم الخشبي العتيق brétas ، صنم الربة هيرا Héra، التي غلوها بقيود من هائش الصفصاف Iugódesmos، كما هي الحال في اسبرطة، تحول دون هروبها من تلقائها. ولقد سأل الكاريون <وهم أهل كاريا Karia جنوب شرق آسيا الصغرى> الإله أپوللون النصيحة، فأجاب بأن عليهم وقد قيدوا الربة أن يقدموا إليها من أنفسهم كفارةً، كفارةٌ لا تكون مفروضةً عليهم، بل يقدمونها عن طيب خاطر من تلقاء أنفسهم، ولا تجعلهم يقاسون شيئاً فيه إرهاق حقيقي لهم.

ويعلق أثينايوس على ذلك بقوله: «هذه الكفارة هي تماماً الكفارة التي فرضها زيوس على پروميثيوس بعد أن حل قيوده الأليمة: فلما قبل التيتان <پروميثيوس> راضياً كل الرضا هذا التعويض الذي لم يكن ليكلفه شيئاً يرهقه، أمر ملك الآلهة بأن يقدم الكفارة [١٢٥]». ونحن عندما نقرأ هذا النص الذي يذكّرنا فيه تاج پروميثيوس الصفصافي يقيناً بالأغلال القديمة، والذي نجد فيه على العكس قيود پروميثيوس ابن ياپيتوس تتحول إلى تاج الانتصار [١٢٦]، يصعب علينا أن نقرر مَن مِن الإثنين، الإله الملك، أو التيتان الداهية، غلب الآخر في لعبة التقييد وحل القيود والتي تندرج تحت علامة الدهاء الميتيسي [١٢٧].

وثمة جزئية أخيرة تقرّب پروميثيوس من الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس بإلقائها الضوء على بعض أوجه عبوديتهم المشتركة والمحدودة بزمن. «ثيوجونية» هيسيودوس تلزم الصمت حيال الطريقة التي حرر بها زيوس حلفاءه المستقبليين من بين تلك الجماعة من أبناء أورانوس الذين ظلوا مغلولين تحت حكم أخيهم كرونوس. ويزودنا أپوللودوروس بتحديد دقيق يبدو لنا للوهلة الأولى في غموض اللغز، فيقول: «حل زيوس قيودهم بعد أن قتل حارستهم كامپي Kampè‏[١٢٨]».

وكلمة كامپي Kampè، الانحناءة، تسم في عالم الحيوان نوعاً من الدود يستطيع أن يتكور على نفسه تكوراً كاملاً؛ ونستنتج من شرح لهيسوخيوس Hésychius أن الكلمة

كانت عند ‹الشاعر الكوميدي› إپيخارموس Epikharmos تحمل معنى "كيتوس" ketos وهو وحش بحري مُتَلوٍ، مثل عجول البحر التي يحكمها «شيخ البحر» المعروف بأنه منيع لا ينال منه أحد، وساحرٌ اشتهر بأنه أسطون في المخادعات والمماحلات والاحتيالات، فلا يمكن الانتصار عليه إلا بتكبيله كالقامطة تكبيلاً لا ينفض (١٢٩). وكامپي عند ديودوروس وحش أنجبته الأرض؛ وديونيسوس يقتل كامپي قبل مواجهة التيتان (١٣٠). وكامپي عند نونّوس جنية من التارتاروس، لها أجنحة سوداء، وفلوس قاتمة، ومخالب منحنية مثل المنجل hárpe(١٣١). ويمكننا أن نتصور أن الإنحناء الذي يقرب كامپي من دهاء كرونوس الميتيسي الملتوي agkulometis ويقربها أكثر من الحَجَرَة المنحنية agkále petraia التي ضمت پروميثيوس، تسم هذه الخِلْفة التي خلّفتها الأرض صاحبة القيود، وحارسة المغلولين تحت الأرض. إلا أن الفعل kámpto لا يعني فقط يحني، ولكنه يعني أيضاً يثني، يطوي، يلوي. وهذا الفعل في المبني للمجهول يتردد بإلحاح أخاذ في مسرحية «پروميثيوس» لإسخيلوس لتحديد محنة التيتان في موقف المعذّب. ولقد أعلن پروميثيوس لكورس الأوقيانيديات : لقد حللت قيود البشر. «ولهذا فأنا أنحني kámptomai اليوم تحت وطأة هذه الآلام القاسية التي يصعب احتمالها، والتي يلين الفؤاد لمرآها (١٣٢).» ويتردد التعبير مرتين أخريين: «أنا الذي ساعدت زيوس على إقامة سلطته، أرى عِظَمَ الألم الذي يحنيني اليوم تحت وطأته» و «بعد أن أنحني تحت وطأة ألف ألم سأفلت من قيودي (١٣٣).» وكامپي ليست فقط الانحناء من حيث هي أسطونة القيود، ولكن لأنها تحني الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس كما فعل زيوس – على حد قول پندار – عندما «حنا ékampse» البشر الذين أسرفوا في الغرور(١٣٤).

ووجود كامپي، وقد ألقى عليه نص إسخيلوس الضوء، قد يسمح لنا بأن نتقدم بتحليلنا إلى أبعد مما وصلنا إليه. وقد وسّع لوي چيرنيه Louis Gernet نطاق دراسة قام بها العالم اليوناني كراموپوللوس Keramopoullos على أسلوب تنفيذ حكم الإعدام الذي سمي أپوتومپانيسموس apotumpanismós ، وتمكن فيها من التعرف إلى طريقة شديدة البشاعة في العقاب العلني حيث كان المحكوم عليه يثبت عارياً بثلاثة خطاطيف إلى خشبة مقامة في الأرض، واستخرج لوي چيرنيه المعاني القانونية والدينية لتعذيب پروميثيوس (١٣٥). كان تعذيب پروميثيوس عرضاً علنياً مهيناً من نمط الأپوتومپانيسموس apotumpanismós الذي يقدم نصٌ من قوانين أفلاطون تحديدات دقيقة مهمة عليه. بالنسبة إلى بعض طوائف المجرمين يتمثل التعذيب في «عرض علني مهين للمجرم، قاعداً أو واقفاً amórphous hédras ó stáseis عند المعابد على حدود البلاد (١٣٦)». وعلينا أن نحفظ بعض التفصيلات. كان المجرم

يُبعد خارج المدينة ‹إلى الحدود› ؛ وكان يعاني ما يعانيه من ‹آلام هذا› العقاب الذي يهدف إلى إبعاده، إلى دحره إلى «حدود البلاد»، والعقاب يتخذ قيمة النبذ خارج العالم الذي كان ينتمي إليه huperorismós. ويلعب وضع المحكوم عليه دوراً جوهرياً. ويكون هذا الوضع كما بيّن أفلاطون على شكلين: إما واقفاً أو قاعداً. في مسرحية إسخيلوس تثبت القيود بروميثيوس إلى الصخرة واقفاً ؛ كذلك تبينه بعض المصورات واقفاً مغلولاً إلى خشبة أو عمود. وكلمات هيفايستوس الأولى تهدف إلى إعلان التيتان بالعذاب الذي ينتظره: «ستقوم على هذه الصخرة بحراسة أليمة، تظل إلى الأبد واقفاً orthostáden، لا تغفو ولا تثني ركبتيك ou kámpton gónu» [١٣٧]. وعبارة «تثني ركبتيك» تحمل هنا معناها العادي هو طلب الراحة، والرقود والاسترخاء [١٣٨]. ويؤكد استخدامه [١٣٩] – عن طريق المفارقة ذاتها – قيم الكلمة ذاتها عندما ينطق بها بروميثيوس : التيتان «ينحني» تحت وطأة محنة بلغت من العنف درجة لا تسمح له بأن يثني ركبتيه، أي يرتاح، لحظة.

ولكننا نجد التيتان في مصورات أقدم (وبخاصة حجر محفور في كريت، وصورة عتيقة بالحفر البارز في أولمبيا، ورسوم عديدة على أوان) مغلولاً إلى خشبته، في وضع القعود، أو على الأحرى في وضع الجثو، وقد حنا ركبتيه إلى أمام. فما معنى هذا الوضع؟ إنه يقابل موقفاً شعائرياً يقفه صاحبه في التوسل والحزن والتعليم، بين لوي چيرنيه أنه يرمز في التعذيب إلى حالة الموت الجوهري، ونبذ المذنب من ساحة الحياة في نفس الوقت الذي يجري فيه نبذه من أرض مدينته. فالأمر لا يقتصر على معاقبة المجرم بغلّه إلى خشبة، بل يتعدى ذلك – عن طريق المعاملة المهينة التي تنصب عليه علناً – إلى النيل من صفته الحيوية والدينية، «إلى إعدام ما لدى الفرد من قوة "غيبية"، من صميم وجوده وقيمة وجوده ‹وكرامته› ، وهو ما يسمى بالإغريقية "تيمي" timé » [١٤٠]. هذه هي طبيعة «القيد» الذي فرضه ملك الآلهة على أولئك الذين ينبذهم إلى حدود العالم، مثل المحكوم عليهم بالإعدام والتشهير المهين على الخشبة «بعيداً عن البشر، بعيداً عن الآلهة»، لكي يبقيهم مجردين من كل تشريفاتهم، جامدين وعاجزين في حالة توشك أن تكون الموت [١٤١].

* * *

هذه التحليلات – إذا لم تكن أتاحت لنا أن نحدد وضع الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس تحديداً أفضل، وأن نبين بدقة وظيفتهم بالقياس إلى اخوتهم التيتان، وإلى زيوس أو إلى شخص مثل بروميثيوس في مسرحية إسخيلوس – فلعلها تعطينا الحق في اقتراح تفسير يطابق منطق السياق السردي يوضح غوامض نص هيسيودوس.

كرونوس في منظور هيسيودوس هو أول ملك، وهو بهذه الصفة أسس السيادة الملكية. ولقد قامت هذه السلطة التي لم تكن الدنيا تعرفها من قبل بفضل دهاء من وحي جايا، وبتنفيذ ابنها الأريب الجريء كرونوس. والخدعة dólos التي أقامت الهيمنة تتسم بسمة مزدوجة، إيجابية وسلبية معاً. أما إنها تتسم بسمة إيجابية فلأنها أدخلت العالم مرحلة متقدمة من التطور: فانطلق النشوء، وانفتح المكان وتَنَظّم العالم. انتهت تلك الضمة المتكررة دون ما حد التي اتحدت بها السماء بالأرض وتبعها حُكمُ مَلِكٍ يراقب من أعالي السماء باهتمام أي اهتمام كلَّ ما يحدث في مختلف أرجاء الكون. وأما إن الخدعة dólos تتسم بسمة سلبية فلأنها في الوقت نفسه جريمة بشعة، واعتداء آثم ارتكب ضد ‹آلهة هي› القوى الأصلية التي تمثل أصل ومنبع كل وجود. وهكذا فليس هناك نظام كوني حقيقي بدون تمييز وهيكلة طبقية وهيمنة. وكذلك ليست هناك هيمنة بدون صراع وظلم يقع على الآخرين، وقهر تفرضه الخيانة والعنف. وتصرف كرونوس ‹إذ قتل أباه أورانوس بتدبير من أمه جايا› وما أحدثه من تمزق في نسيج العالم، أتاح لكل شيء أن يجد موضعه في المكان والزمان؛ ولكنه من حيث هو تمرد على رب السماء الذي هو الرب الأب سجل في الوجود إلى أبد الآبدين حضور الشر. والخطأ الذي ارتكبه كرونوس خطأ لا يمكن محوه، ولا يمكن الرجوع عنه، والعودة إلى الوراء ‹إلى ما قبل أن يحدث›. الشيء الوحيد الممكن هو دفع الثمن، فالجريمة تعود بمرور الزمن لتضرب من ارتكبها. وسيعاني كرونوس على يد ابنه ‹زيوس› نفس المعاملة التي نال بها من أبيه (١٤٢).

ولكن لكي يعود التوازن دون أن يولد الصراع على السلطة من جديد ودون أن يتفجر المرة تلو المرة بلا نهاية، جيلاً بعد جيل، لابد أن تفلت هيمنة زيوس من ربقة مسلسل الخطأ والعقاب الذي بدأت حلقاته رداً على دهاء كرونوس الميتيسي الملتوي. لم تكن للملك الجديد القدرة على تجميد الزمن، وإيقاف مسار المواليد، وتثبيت الصيرورة؛ ولكن كان عليه أن يجد، على عكس أبيه، الوسيلة لإقامة نظام يضمن، مع استمرار حكمه استقرار الكون ويضمن للقوى الإلهية التي كسب إسهامها شباباً ثابتاً، وقوة لا تتضعضع، كما يضمن لها دوام سمات الشرف التي نالتها. ولن يستطيع زيوس أن يمحو الشر الذي أصبح منذ ذلك الحين جزءاً من العالم. إنما استطاع فقط أن يبعده، أن يزيحه عن الآلهة (١٤٣)، بأن ينبذه بعيداً عنهم فيقصيه إلى آخر حدود العالم أو بأن يبعث به إلى أرض البشر لكي يجعل منه قدرَ المخلوقات الفانية (١٤٤).

وهكذا فإن ملكية الرب الأوليمبي <زيوس> خلفت ملكية كرونوس دون أن تكررها. والملك الثاني لم يكن نسخة من الملك الأول، بل كان رداً عليه. وهو عندما قلبه، أقام في الحقيقة من جديد السلطة التي كانت قد أقيمت من قبل، ثم ترنحت. والميثوس ، وقد جعل ملكاً يخلف ملكاً، يعبر عن الاستمرار والانقطاع، التوافق والانقلاب جميعاً.

ودهاء كرونوس الميتيسي دهاء لا يقع التشديد فيه فقط على التدني إذا ما قيس بدهاء زيوس، ولكنه يقع على سمته المحيرة، بل الشريرة. فكرونوس رهيب deinós؛ الحقد يسكن قلبه ؛ والعمى الإجرامي الضال الناجم عن التهور (atasthalie, 209) áte يظهر - حتى في لؤمه الخبيث - في صورة ذكاء ضال، وجنون . ومهما بلغ هذا الداهية من سوء الظن، ومهما بلغ من التشكك، فقد كان على عكس الحريص كما فهمه الإغريق، وكان الإغريق يفهمون الحرص على أنه الاعتدال، وضبط النفس والتحكم في الذات: "سوفروسونه" sophrosúne. وبناءً على هذا المعنى - وبغض النظر عن المواربة - فإن كرونوس قريب <الشبه> من أورانوس، غضوب، متهور مثله. وهناك توافق له معناه: في الفقرة التي قلنا عنها إنها مدسوسة «في غير موضعها» حيث إنها لا ترد في سياق مشاجرات أورانوس مع أولاده، بل في سياق الصراع بين كرونوس وزيوس - يصور النص إله السماء ، مثلما كان ابنه في الفقرة السابقة على مشهد الخصي، ضالاً نتيجة التهور (acsiphrosúneisi) áte [١٤٥]. ويقابل جنون كرونوس الذي بسط يده ضد أبيه جنون أورانوس الذي غل تلك المجموعة من أبنائه التي سيحل زيوس وثاقها. أما ما يسم عقل زيوس فهو - على العكس من هذا وذاك - الحرص. والإله صاحب الدهاء الميتيسي metieta - على العكس من صاحب الدهاء الميتيسي الملتوي agkulométes- يبدو في صورة المفكر، المعتدل (البيتان ٦٥٦-٦٥٧)، الحسن النية (البيتان ٥٠٣ و ٦٦٠)، المحترم لامتيازات الآخرين (الأبيات ٣٩٢-٣٩٦؛ ٤٢٤-٤٢٦). والنص يشدد بقوة على التناقض بين "الحكمة" التي تسلتهمها قرارات زيوس(epiphrosúne, 658) ، والضلال المشترك بين أورانوس وكرونوس (acsiphrosúne, 502).

وكرونوس بموقفه المتوسط بين أورانوس وزيوس يتخذ وضعاً مختلطاً. فهو في صراعه ضد أورانوس يتخذ - من حيث هو إله أريب فطين، ومن حيث هو مؤسس الملكية - مكاناً إلى جانب زيوس. ولكنه في صراعه مع زيوس يتخذ - بخلقه المتهور، الهائج المائج الذي لا يملك نفسه، مكاناً قريباً من القوة الأصلية المنبوذة ناحية أورانوس.

مَلكية زيوس تضم كل أشكال القوى التي كانت مبعثرة في الجيل السابق، لدى الآلهة

الأولين. وهي تجمع إلى دهاء كرونوس وجرأته المتجبرة، مع صاعقة الكوكلوپيس وضمات الهيكاتونخيريس التي لا راد لها، علم جايا الأكيد بالمستقبل، ومواربة ربات البحر المتموجات لتحويل ما لا سبيل إلى رده، ومماحلات أفروديتي ذاتها وطغيان إغرائها الحلو.

ولم تقتصر الملكية الإلهية الجديدة على كراتوس Krátos وبيا Bia– أي على الهيمنة والقوة؛ صحيح أنها تعتمد عليهما، ولكنها تعتمد عليهما بهدف وضعهما في خدمة نظام يتجاوزهما، لأن زيوس يضم في شخصه السلطة العليا والاحترام الأوثق للشريعة العادلة[١٤٦]، كما أن ملكيته ملكية توفيق تضم معاً هيمنة الأمير والتوزيع الصحيح لمناصب الشرف، والوحشية الحربية والإخلاص للعهد [١٤٧]، والعنف والإقناع، والنظرة، وقوة الأطراف وكل أشكال الذكاء.

ونحن نجد عند هيسيودوس أن صعود الأوليمپيين، وهم الآلهة الذين يسميهم «صناع كل أعمال الخير» [١٤٨]، يواكب تنظيمَ عالمٍ لا ينفصل فيه سلطان زيوس عن سيطرة العدل. فلما سوى الأوليمپيون صراعهم مع التيتان «ألحوا على زيوس أن يستولي على السلطة وعلى عرش البشر؛ وكان هو الذي وزع عليهم مناصب الشرف» [١٤٩]. ويفترض إقامة نظام مؤسس على توزيع عادل للمناصب والامتيازات اندحار هؤلاء الآلهة الأول الذين هم التيتان بعنفهم. وكان تحقيق انتصار الأوليمپيين يتطلب مساندة الآلهة الكونيين الذين هم أساس وأصل السلطة والعلم. كان زيوس يتسيد على تنظيم جديد، ولكن القوى التي عبأها وركزها كانت موجودة من قبل في العالم. سلمته جايا علِمها بالغيب من حيث هي ربة الأرض ؛ واستخلص من ميتيس، الأوقيانيدية، وأفروديتي، سليلة الموج، مماحلات الذكاء ومخاتلات الإغراء. وهذان هما كراتوس Krátos وبيا Bia – أي الهيمنة والقوة – يرافقانه بما هو ملك في كل مكان، ولقد استجابا لأول نداء وسارعا للحاق بمعسكره، وبصحبتهما أمهما ستوكس Styx ‹ربة هي نهر في عالم الموت› بناءً على نصيحة التيتان أوقيانوس ، كما فعل پروميثيوس – حسب مسرحية إسخيلوس – عندما حذرته جايا فحضر يقدم إلى الإله الشاب حيله وخططه [١٥٠]. ولم يكن الأمر مختلفاً بالنسبة إلى الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس، كان الكوكلوپيس يمتلكون الصاعقة، وكان الهيكاتونخيريس يملكون قوة القيود التي سيعتمد عليها الملك الجديد لينتصر ويحكم. وإذا كانوا أقدم من زيوس من حيث ترتيب النشوء، فما الذي فعله هؤلاء الأشخاص بأسلحتهم وبقوتهم قبل أن يولد ‹زيوس› الأولمپي؟ لا بد أنهم كانوا في وضع حال دون أن يستخدموها. هذا «التحييد» المؤقت لعملاء النصر، وسندة الملكية، يعبر عنه الميثوس

بعنصر تقييد الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس. ولكن إذا كان كرونوس هو الذي كبلهم بالأغلال، فمعنى ذلك أن هذا الرب كان أكثر قوة وسلطاناً من أخوته. وفي هذه الحالة لا نرى كيف يمكن أن يحققوا لزيوس نجاحاً لم يستطيعوا أن يحققوه لأنفسهم. وعلى العكس، إذا لم يكونوا تحت حكم كرونوس قد أرغموا على العجز مغلولين في قيود نكراء، لما سنحت لزيوس فرصة تحريرهم وكسبهم لقضيته. أما وقد تحرروا مثل اخوتهم التيتان نتيجة لإقصاء أورانوس، فقد كانوا مشاركين في هيمنتهم، ولم يكن هناك من سبب ليلعبوا دور المنشقين. وليس من الممكن أن يكون كرونوس قيدهم أو حل وثاقهم. ومن وجهة نظر منطق الميثوس لا يمكن أن تكون هناك علاقة من أي نوع، لا إيجابية ولا سلبية، بين ملكية كرونوس من ناحية ووضع الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس من الناحية الأخرى. ومن هنا جاء صمت هيسيودوس المطبق، فهو لم يقل كلمة واحدة في هذا الموضوع. وما دام زيوس سيقوم بحل وثاق الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس، فلم يكن بد من أن يظهروا في مستهل حرب التيتان في وضع المكبلين بالأغلال؛ ولهذا عمد الشاعر إلى أن يسجل في هذه اللحظة من القصة أن «أباهم» كبلهم بالأغلال، مزحزحاً إلى ما قبل عصر كرونوس أصل هذا الإذلال الذي لا يمكنه أن يضعه في عصر كرونوس، والذي ينبغي أن يستمر إلى ظهور زيوس. وهكذا نجده ينسب إلى أورانوس عملاً لم يكن من الممكن أن ينسب - دون مناقضة - إلى الملك الأول. ولكن التراث الإغريقي التالي كله يظهر فيه كرونوس رباً يكبِّل بالقيود ويفك القيود، ملكاً مغلوباً ومخلوعاً عن العرش، رباً مغلولاً [١٥١].

الباب الرابع

الاقتران بميتيس
ومملكة السـمـاء

بعد أن استهلك زيوس عُرسه الأول ‹وفرغ من زوجته الأولى› ميتيس Mètis، تزوج في عرس ثان التيتانة ثيميس Thémis [1]. ونلاحظ أن هذين العرسين يكمل أحدهما الآخر ضماناً لهيمنة ملك الآلهة الجديد، فالربتان - ميتيس وثيميس - تتجاوبان شريكتين في ثنائي يضم القوى المتضامنة والمتعارضة. والربتان كلاهما من الربات ذوات النبوءة يحيط علمهما بدائرة الزمان كلها. ولديهما بناءً على علاقتهما بالكائنين الكونيين الأولين - الماء والأرض - قدرات سابقة على حكم زيوس، بل سابقة على مولده هو ابن كرونوس الصغير. كانت ثيميس التي وضعتها جايا تسيطر على نبوءات الأرض. أما ميتيس، ابنة أوقيانوس Okéanos وتيثوس Téthys، فكانت كشيوخ البحر تمثل النبوءة بالماء [2]. ولكن العلم الشامل الذي أوتيته كل واحدة من زوجتي زيوس الأوليين يتسم بسمات تختلف من هذه إلى تلك، وهو اختلاف يفسر لماذا لم يتزوج ملك الآلهة ثيميس إلا بعد أن امتص كل قدرات ميتيس وأصبح هو نفسه، وقد ابتلعها، الداهية الميتيسي metieta. أما علم ثيمس الشامل فيتصل بنظام فُهم على أنه أقيم من قبل، وثبت واستقر نهائياً. والكلمة التي تقولها ثيميس كلمة لها قيمة جازمة قاطعة؛ تفصح عن المستقبل كما لو كان مكتوباً من قبل؛ وهي إذ تعبر عما سيكون بناء على ما هو كائن، لا تصوغ نصائح، بل تنطق بمراسيم: تأمر أو تمنع. وأما علم ميتيس الشامل فهو على العكس علم يتصل بالمستقبل الذي يواجهه من ناحيته الاحتمالية؛ وكلمتها كلمة ذات قيمة افتراضية أو إشكالية؛ وهي تنصح بما ينبغي عمله حتى تحدث الأمور على نحو دون آخر؛ تنطق بالمستقبل لا من حيث هو قد ثبت من قبل، ولكن من حيث هو نحس أو سعد ممكنين، وتقدم وسائل علمها المكير التي تمكّن صاحبها من تحويل الأمور إلى الأفضل لا إلى الأسوأ. ثيميس تترجم في العالم الإلهي أوجه الاستقرار والاستمرار والانتظام: دوام

النظام وتوالي فصول السنة دوراً بعد دور (فثيميس هي أم هوراي Horai ‹وهوراي هن يونوميا وديكي وأبريني ربات الطبيعة المشرفات على فصول السنة وعلى كل صور النظام في الطبيعة›)، تحديد القدر(فهي أم موئراي Moîrai اللاتي «يعطين البشر الفانين إما السعد وإما النحس» (٤). ويتلخص دورها في بيان المحرمات وحدود الحرام المحظور تجاوزها والامتيازات الطبقية الواجب احترامها حتي يظل كل واحد إلى الأبد في حدود مجاله ورتبته. وميتيس - على العكس - تتدخل عندما يلوح العالم الإلهي هائجاً مائجاً بالحركة أو عندما يختل توازن القوى فيه إلى حين من أثر: صدامات الخلافة، صراعات السيادة، معارك وثورات، تنصيب أمير جديد؛ هنالك يتخذ زمان الآلهة صبغة متعثرة عارمة؛ وعلى القوى البَعدية لكي تنتصر أن تثبت حميتها وقوتها وقدرتها على المبادرة الذكية والدهاء وروح الابتكار (٥).

وزيوس إذ يقترن بميتيس بعد أن فرغ لتوه من إسقاط كرونوس وقلب الوضع القديم للأمور، لا يقف عند حد الاعتراف بالخدمات التي أسدتها الربة إليه، بل يتخذ لنفسه الوسائل الكفيلة بإقامة نظام جديد حقاً. وهو إذ يشرك معه ثيميس يضفي على القواعد التي فرضها لتوه وعلى توزيع المناصب والامتيازات قيمة نظام مصون لا يُمَس. فزواجه بربتين يكرس صعود السيد الجديد وسقوط العاهل الأول، ويرسي ، في الوقت نفسه، قواعد استحالة إدخال تغيير على هذا الوضع بعد ذلك.

أما إن حيل ميتيس تنضوي على تهديد لكل نظام قائم، وأما إن ذكاءها يمتد داخل مجال المتحرك والمباغت ليقلب المواقف على نحو أفضل، ويهز أركان الدرجات الهرمية التي بدت في غاية الصلابة، فهو ما يعبر عنه الموضوع الميثي الخاص بالمخاطر المتصلة بسلالتها. فأولاد ميتيس يأخذون عن أمهم نفس نمط المخاتلة الملتوية الذي تتميز به. وابن الربة ميتيس وهو يتسلح بهذا السلاح - ‹ سلاح المخاتلة الملتوية› - مقضي عليه حتماً بأن ينكر هيمنة أبيه، وبأن يقلب المَلِك القائم لينشيء حكماً جديداً. ولكن زيوس ليس ملك كالملوك الآخرين. فهو بعد أن تزوج ميتيس وسيطر عليها وابتلعها أصبح أكثر من مجرد ملك: لقد جعل نفسه السيادة الملكية ذاتها. ولما كان كل دهاء العالم، وكل الأمور المباغتة التي يخفيها الزمان قد أصبحت في داخل زيوس، فلم تعد السيادة الملكية موضوع صراع يتكرر إلى ما لا نهاية بل أصبحت وضعاً مستقراً دائماً. هنا استطاع ملك الآلهة أن يحتفل بزفافه إلى ثيميس وأن يستولدها أبناءً حِساناً هم الفصول ‹فصول السنة› والمقادير. ولقد أصدر القرارات التي لا راد

لها فثبّت تتابع أحداث المستقبل، كما ثبت الدرجات الهرمية للوظائف والرتب والمناصب. هكذا جعلها على نحو لا يقبل التغيير. ومهما يحدث من أمر في المستقبل، فلن يكون إلا أمراً عرفه زيوس من قبل واستقر في رأسه منذ الأزل.

وهيسيودوس لا يحكي لنا تفصيلاً عن الطريقة التي استخدمها زيوس لكي يقبض على ميتيس ويبتلعها ويجعل من نفسه الداهية الميتيسي meticta, metióeis [٦]. إنه يقول لنا فقط إن ميتيس كانت على وشك وضع أثينة، «فخلب لبها بالحيلة متوسلاً بكلمات مغرية خدّاعة وابتلعها في أحشائه.» والأرجح أن الإمساك بالربة ميتيس لم يكن أمراً سهلاً. وهناك حاشية كتبها بعض الشراح على هامش نص هيسيودوس يقول فيها إن ميتيس كانت لها القدرة على التشكل على أي شكل تشاء. «فضللها زيوس وصغّرها» وابتلعها [٧]. ونتبين في هذه العبارة موضوعاً من موضوعات الفولكلور، موضوع ساحر (أو ساحرة) أوتي من القدرة على التحور ما يجعل من المحال التغلب عليه، فيحتال عليه (أو عليها) بعضهم مدعياً أنه يريد أن يختبر قوته، ويطلب إليه أن يتخذ أشكالاً مختلفة، وما يزال يجعله يتحور ويتحور حتى يتخذ شكل حيوان صغير ضعيف فيتمكن منه دون مخاطرة.

ويبدو أن قصة پيريكلومينوس Periklymenos ومعركته مع هرقليس Héraklès من نفس هذا النمط. وهيسيودوس هو أول من حكاها ومن ثبّت بهذا المعنى الموروث الأسطوري في فقرة من "سِجِل النساء" الذي نما إلى علمنا عن طريق حاشيتين كتبهما بعض الشراح، أولاهما كتبها على هامش الألياذة، والثانية على هامش «الأرجونوتية Argonautika» ‹= سيرة ملاحي أرجو› لإپولونيوس Apollonios الرودسي وفيها يستشهد بأبيات من قريض الشاعر البوئيسي ‹أي = هيسيودوس› [٨]. ويطالعنا پيريكلومينوس Periklymenos في قصة هيسيودوس من حيث هو أشد أبناء نيليوس Neleus مراساً. ولقد أعطاه جده پوسايدون القدرة على أن يتشكل في أثناء المعارك على كل شكل. ولقد أخطأ هذا المحارب عندما استغل قدرته السحرية على التحور لكي يغلب هرقليس القوي ابن زيوس. ولكن هرقليس تمكن منه بعد ذلك وقتله عندما أتى ليخرب پيلوس Pylos. ولقد تلقى هرقليس في سعيه إلى غلبة البطل المتحور الكثير من حيل الربة أثينة التي وقفت إلى جانبه تقدم إليه المساعدة الواعية اليقظة. أخذ پيريكلومينوس يتحور طوراً بعد طور إلى نسر وأسد وثعبان هائل. ولكن هرقليس الذي أوصته أثينة بأن يقضي على پيريكلومينوس بضربة من الهراوة اهتبل اللحظة التي تحور فيها غريمه إلى ذبابة فقضى عليه. وهناك رواية أخرى مختلفة اختلافاً قليلاً أوردها

هيسيودوس جاء فيها أن هرقليس انتهز فرصة تحور پيريكلومينوس إلى نحلة وحط وهو في هذه الهيئة على موضع في منتصف النير الممتد فوق كاهلي حصاني عربته فعاجله، بناء على توجيهات الربة أثينة، بسهم قاتل. وفي كلتا الروايتين يتولى دهاء الربة الميتيسي تدبير الأمر برمته والبلوغ به إلى منتهاه. هذا الدهاء الميتسي الملتوي يقلب على المحارب الساحر تلك القدرة على التحور التي حصل عليها من جده رب البحر. ولم تبين الربة أثينة لهرقليس لحظة الضرب الملائمة فحسب، ولم تكتف بإرشاده إلى العدو مهما كانت الصورة التي تمكن من التحور إليها، بل تمكنت من تهيئة الفرصة التي سيفيد منها البطل هرقليس بأن أغرت پيريكلومينوس بالغش أن يتحور إلى حشرة (ذبابة أو نحلة) تثير ثائرة الحصانين الذين يجران عربة العدو. ومن هنا يمكننا أن نقول إن أثينة في رواية هيسيودوس كانت تسدد ضد پيريكلومينوس وقدرته التحورية نفس «ضربة الخداع» التي سددها ملك الآلهة زيوس في «ثيوجونيا» ضد الربة ميتيس قبل أن تلد بنتاً علم سلفاً أن «حرص» أمها الرهيب سيكمن فيها، وهو نفس الحرص الرهيب الكامن في زيوس ذاته.

والرواية الثيوجونية – سير الآلهة – التي أوردها خروسيپّوس Khrysippos [٩] تختلف عن رواية «ثيوجونية» هيسيودوس في أنها لا تضع اقتران زيوس بميتيس في مسار زواج الإله زيوس، بل في مسار نزاع مع زوجته الشرعية هيرا [١٠]. ولكن هذه الرواية المختلفة تؤكد في النقاط الأساسية رواية هيسيودوس: فهي كذلك تذكر أن زيوس ابتلع الربة الداهية متوسلاً بالمباغتة والخديعة. تقول هذه الرواية إن زيوس – وقد فر من هيرا Héra ليقترن، بعيداً عنها، ببنت أوقيانوس وتيثوس ‹أي ميتيس›، وتقول إنه «خدع ميتيس على الرغم من كل علمها (وفي قراءة أخرى: على الرغم مما اتسمت به من بأس) [١١]، وأمسكها ودسها في أحشائه خوفاً من أن تلد ذرية أشد فتكاً من الصاعقة. هكذا ابتلعها زيوس الكروني ‹ابن كرونوس› المتربع على عرش الأثير بغتة، وكانت آنذاك تحمل أثينة، وهي التي وضعها بعد ذلك زيوس من رأسه على ضفاف نهر تريتون Triton الوعرة. وبقيت ميتيس كامنة في أحشاء زيوس.»

وموضوع تحورات ميتيس الذي ربطه صاحب الحاشية المدونة على هامش هيسيودوس عند فقرة ابتلاع زيوس للربة [١٢]، وضعه أپوللودوروس عند أصل العلاقات بين ميتيس ابنة أوقيانوس وزيوس سيد الآلهة، حيث كتب: أن زيوس «اقترن بميتيس التي تحورت على كل الأشكال لكي تفلت منه، فلما حملت ابتلعها بعد أن أمسكها بغتة.» [١٣] في هذه الصياغة

يبدو الزواج والابتلاع مثل ركني مواجهة واحدة قام بها زيوس حيال الربة ميتيس حتى يقربها، ويتحد معها ثم ليسيغها تماماً في النهاية. ولقد كانت ميتيس مائجة منيعة توسلت بكل وسائل المخاتلات السحرية لكي تفلت من ضمة زيوس. فاستخدمت نفس حيل المخادعة dolie téchne التي استخدمتها ثيتيس ضد پيليوس، وپروتيوس ضد مينيلاوس ونيريوس ضد هرقل(١٤). وفي كل حالة من هذه الحالات يظل السيناريو الميثي في جوهره واحداً. وهؤلاء الآلهة البحريون - على الرغم مما يبدو عليهم من تباين - يشتركون مع ميتيس في أن لديهم علاوة على موهبة التحور العديد ذكاءً ملتوياً وعلماً من نمط العرافة. أما التصدي لمن يواجهونهم فيقوم دائماً - بناءً على حيلة أو مكيدة أو كمين أو تخفٍ - على مباغتة كائنٍ شديد الدهاء، شديد الريبة، دائم اليقظة، وتقييده بقيد لا ينحل مهما حدث. هكذا يجد الوحش نفسه وقد جرده القيد من سلاح السحر، وأدار عجلة التحورات إلى منتهاها، فلا مفر من أن يستسلم لقاهره. وهكذا يجد الداهية من هو أكثر دهاء منه؛ ويفاجأ من كان دائم الحذر؛ ويقيَّد من كان أسطوناً في التقييد؛ وينظر من كانت لديه القدرة على أن يدور دائرة أشكال التحور كلها فيجد نفسه وقد أحيط به وانقفلت عليه الدائرة؛ ويتحول الأمر المختلط - في خدمة المسيطر عليه - إلى أمر واضح، والأمر الغامض إلى أمر صريح. والألهة المائعون الغامضون المتناقضون الذين كانت لهم القدرة على التحور يضطرون بعد أن تحيق بهم الهزيمة الى أن يكشفوا للعدو الظافر في وضوح عما كان يريد معرفته عن الطريق والمخرج والحيلة. إلا أن زيوس هو الوحيد الذي مضي إلى النهاية في الصراع ضد <ميتيس، وهي> الكائن المائي الذي يمثل كل قدرات وكل مفاخر الذكاء القائم على الدهاء. وهو لم يكتف بتطويقها بذراعية كالوثاق كما فعل پيليوس Peleus بثيتيس ليرغمها على الاتحاد معه، أو كما فعل هرقل بنيريوس Nereus، ومينيلاوس بپروتيوس Pereus من أجل الحصول على السر الذي يرتهن به نجاح مسعاهما. عندما ابتلع زيوس ميتيس أحكم حولها الوثاق الذي سيبقيها سجينة إلى الأبد؛ لقد حبسها نهائياً في داخله، لكي تنقل إليه في كل لحظة، وقد اندمجت في مادته، تلك المعرفة بمقادير المستقبل التي ستمكنه من السيطرة على مسار الأحداث المتحرك الذي يعوزه اليقين.

وسيناريو المعركة التي تدور ضد الإله المتحور يترجِم في شكل درامي وصولَ الغالب إلى امتيازات الدهاء الميتيسي، واقتناصه روح المخاتلات التي تجعل له مخرجاً عندما تتأزم المواقف وتبدو كما لو كانت بلا مخرج. وتبين صروف الصراع ذاتها الانتقال من المتحرك والعائم إلى المستقر والثابت، ومن الغامض إلى الواضح، ومن المتناقض إلى الصريح، ومن غير

اليقيني إلى اليقيني، تبين باختصار - ونقولها بالإغريقية - الانتقال من الأپوريا aporia (=اللاطريق) حيث يضيع البطل أصلاً، إلى الپورروس póros (=الطريق) أي الحيلة الأريبة التي يتمكن منها في نهاية المحنة لكي يبلغ بمشروعاته النجاح. والإله الذي يؤخذ على غرة يتخذ - في سعيه إلى النجاة - أشد المآخذ تحييراً، وأكثرها تبايناً فيما بينها، وأعنفها رعباً؛ فيتحور إلى ماء ينساب، أو لهب يحرق، أو ريح أو شجرة أو طائر أو نمر أو ثعبان. ولكن سلسلة التحورات لا يمكن أن تطول إلى مالا نهاية، بل هي دائرة من الأشكال المعدودة تصل إلى نهايتها ثم تعود إلى بدايتها مرة أخرى. فإذا استطاع العدو القابض على الوحش أن يستمر في ضمته دون فكاك، فإن الإله المتحور وقد وصل في دائرة تحوراته إلى منتهاها يضطر إلى العودة إلى هيئته العادية وشكله الأول، فلا يحيد عنهما. وهكذا أنبأ خيرون Khiron پيليوس أن ثيتيس ستتحور إلى نار أو ماء أو حيوان وحشي، وأن عليه أن يظل قابضاً عليها لا يلين إلى أن يراها تعود إلى هيئتها القديمة archaria morphé [١٥]. وكذلك إيدوثيا Idothea حذرت مينيلاوس من ألاعيب أبيها پروتيوس، وقالت له: «امسكه جيداً ولا تدعه يفلت مهما حاول في صرعة هوجاء أن يتملص؛ وهو سيتحور إلى كل الأشكال، فيغير هيئته إلى كل ما يزحف على الأرض أو إلى ماء أو نار مقدسة؛ أما أنت فامسكه دون أن تلين، بل اهصره وشد وثاقه؛ فإذا وصل إلى حد الرغبة في الكلام الطيب، فسيعود إلى اتخاذ السمات التي رأيته عليها عندما غط في النوم: حينئذ دع العنف، وحل وثاق الشيخ واسأله عن الرب الذي يخلق لك المتاعب [١٦]» والواقع أن پروتيوس وقد أخذ على غرة بمكيدة مزدوجة من كمين وتخف [١٧]، استخدم - بغية الخروج من مأزقه - ألاعيبه الخبيثة olophoia ؛ ووضع فيها كل ما أوتي من حيل الخداع [١٨]. فتحور أولاً إلى أسد ثم إلى تنين ثم إلى فهد ثم إلى خنزير هائل؛ وتحور ألى ماء جارٍ وإلى شجرة سامقة؛ فلم يحقق مأربه في التملص؛ ولم ينحل القيد. حتى إذا فرغت جعبته من الألاعيب السحرية [١٩] عاد سيرته الأولى فإذا هو شيخ من شيوخ البحر صدوق صريح. وإذا صراع القوة والمكر ينتهي ويحل محله حوار صريح، يتكلم فيه كل طرف بقلب مفتوح دون مخاتلة أو موارية atrekéos [٢٠].

فالسيطرة على مقدرة الخداع هذه التي يمثلها في تلونها وتموجها الرب المتحور تتطلب ممن يتصدى له أن يطوق دفعة واحدة كل تحوراته المتباينة ويحكم حوله وثاقاً لا يلين. وهذا أمر تبينه النصوص بوضوح شديد. مينيلاوس يستفسر من إيدوثيا: ما هي الوسيلة التي يتوسل بها إنسان فانٍ عادي مثله لكي يفرض النير على إله مثل پروتيوس؟ وتعطيه إيدوثيا - وهي حورية من حوريات مياه البحر - الخطة: عليه أن يرتمي بغتة على أبيها، وأن يمسكه مسكة لا

يدعه يفلت منها. وبالفعل انتهز مينيلاوس اللحظة السانحة وانقض مع رفاقه على شيخ البحر وطوق جسمه بذراعيه فلم يدعه يفلت [٢١]. كذلك خيرون أوصى پيليوس بأن يضم -sul labeîn ثيتيس وبأن يظل قابضاً عليها katascheîn [٢٢]، وكذلك هرقليس وقد طوق نيريوس sullabon، شد وثاقه édese، ولم يحله ouk éluse إلا بعد أن حصل منه على المعلومة التي كان يبغيها [٢٣].

والأشكال المصورة أكثر تعبيراً من النصوص المكتوبة. وسواء كان موضوعها هو هرقليس في صراعه ضد نيريوس أو ضد تريتون، أو پيليوس يسدد إلى ثيتيس ضربة خنجر، فإن الأشكال المصورة تبين البطل وهو يشل حركة غريمه بتطويقه بذراعيه، جاعلاً من ذراعيه حلقة تحزمه كحزام وثيق التف حوله، ولاحماً اليد اليسرى باليد اليمنى. فإذا انتهت المبارزة انفتح طوق الذراعين لتحرير الإله الذي مكنه دهاؤه الميتيسي من التشكل على كل شكل. أما الربة ميتيس نفسها وقد «وُريت في أحشاء زيوس» فقد بقيت مغلولة في الوثاق الذي شده زيوس ابن كرونوس بالمخاتلة والغدر حول قرينته عندما ابتلعها.

وكما أن زيوس قلب على ميتيس أسلحتها نفسها وهي : الدهاء والخدعة والمباغتة، كذلك اضطر مينيلاوس، لكي يغلب پروتيوس Prôteus إلى أن يواجه «ألاعيب» الإله البحري بالحيلتين dóloi اللتين دبرتهما ابنته - ‹ابنة پروتيوس› - لكي يوقعه في الفخ ‹المزدوج›: الكمين والتخفي. ولقد بينتْ له المزيد فعرف: أن الرب المتحور لا يمكن الإيقاعُ به وقهرُه إلا عندما ينعس، حينئذ يخبو حذره المألوف، وتغفو يقظته. لابد للنيل منه أن يكون دهاؤه الميتيسي قد ولّى عنه إلى حين. كذلك هرقليس ينقض على نيريوس عندما يأخذه النوم [٢٤]. وهذه هي إيدوثيا كشفت لمينيلاوس الخطة التي دبرتها ضد أبيها لكي تسلمه له أعزل، مجرداً من كل سلاح: كان على مينيلاوس الإغريقي أن ينصب كميناً ليتحين اللحظة التي يستسلم فيها پروتيوس للوسن. وما كاد الرب پروتيوس يفترش الرمل ليغفو إغفاءة تتيح له قليلاً من الراحة حتى وجد نفسه مكبلاً [٢٥].

والنوم ‹وهو عند الإغريق الإله› هوپنوس Húpnos، إله قوي ورهيب. وهو يلقي حبائله السحرية على كل كائن حي، وعلى كل فكرة مهما كانت من السرعة، وعلى كل قريحة مهما كانت من الانطلاق. وهوعندما يرغب يعرقل كل ما يتحرك، بأغلال خفية شبيهة بتلك التي يستخدمها أخوه التوأم ‹الإله› ثاناتوس Thánatos، إله الموت، ليكبل بها أبناء الفانية تكبيلاً أبدياً.

وما للآلهة من حيوية وحركة فائقتين لا يعصمها من قوة هوپنوس Húpnos ‹إله النوم› التي تصيب بالشلل. فإذا وقعت الآله في شركه، بقيت فيه طالما شاء، وقد صغرت وتضاءلت، وخبت حيويتها القديمة، ووهنت يقظتها. في هذه اللحظات من الفتور يعتم ما في الآلهة من دهاء ميتيسي، ويصبح من الممكن مباغتتها. وهذا هو هوپنوس Húpnos ‹إله النوم› يقول في "الإلياذة" دون استكبار إنه من السهل عليه أن ينيم كل الآلهة الخالدة، لا يستثني منها تيارأوقيانوس الدوار الدائب الذي هو الأب الذي أنجب كل الكائنات (٢٦). ليس هناك سوى إله واحد تقف قوته التقييدية حياله موقف العاجز لأن ما أوتيه هذا الإله من دهاء ميتيسي لا يعرف الراحة أو الوهن، ‹ألا وهو زيوس›. «أما زيوس ابن كرونوس فلا أستطيع الاقتراب منه أو إنامته، إلا أن يأمرني هو بذلك (٢٧)» زيوس ، الإله السيد، بما لديه من دهاء ميتيسي في داخله، يصمد في حالة من اليقظة الدائمة؛ وعينه التي لا تعرف النوم ولا تغمض أبداً تجعله دائم اليقظة؛ لم يعد من الممكن مباغتته بهجوم أو خديعة أو دهاء ميتيسي. أما كرونوس فعلى الرغم مما أوتي من مكر، ومن قدرة على التقييد اعتماداً على دهائه الميتيسي الملتوي، فقد كان من الممكن غله. وطُرد من العرش، وسار سيرة من لم يعد أكثر من ظل إله وحلم سيادة. ولقد نُبذ إلى بعيد فلم يعد يقضي وقته كله إلا في النوم.

والأسلحة البشرية للدهاء الميتيسي وهي الشِّباك، والجوابي، والفخاخ، والحبال، والمصائد، وكل ما بُرم ونسج ودبّر ورُتّب وجُهّز وأعد وصُنّع (٢٨)، كل هذه يقابلها في عالم الآلهة: القيد السحري الخفي العتيد. ليس من الممكن أن يفنى كائن إلهي، إنما الممكن هو أن يقيَّد. وما معنى هذا التقييد؟ معناه أولاً أن يفقد الإله امتيازاً من امتيازاته الرئيسية وهو الامتياز المتمثل في قدرته على التنقل الخاطف، في قدرته على التواجد في كل مكان، تلك القدرة التي تمكنه في وقت أقل مما يتطلبه البرق أو الخاطر البالغ السرعة من الحضور في كل أماكن الكون التي يختار الظهور فيها. أما تقييد الإله فيؤدي إلى نبذه إلى حدود الكون، أو إلى وهدة وراء الوجود، أو إلى هاوية التارتاروس التي وصدت عتبتها إلى الأبد، أوإلى مغارة في جزيرة مقطوعة عن العالم. حتى عندما يكون الإله المقيَّد في مكان ما بداخل العالم المنظم، فإن شل حركته الذي يبدد مجال فعله يؤدي إلى ضآلة قوته وكيانه فيبدو ضعيفاً واهياً واهناً، تلك الحالة القريبة من الموت التي يمثلها النوم بالنسبة إلى الآلهة (٢٩).

والتراث الأورفيوسي يصف كرونوس ‹الإله المغلول المغلوب› راقداً يشخر بعد أن عض «طُعم الخديعة» الذي أذاقه زيوس إياه عندما أغراه بالعسل، أو يصفه وقد طامن رأسه على

رقبتـه العريضـة، وغُـل في أصـفـاد هوبـنوس Húpnos <إله النوم> الذي يسـيطر علـى كـل الكائنات[٣٠]. وبلوتارخوس يذكر في نصين كرونوس الذي نُبذ بالعراء في جزيرة ينام فيها تحت حراسة برياريوس Briareus، أو قد تمدد نائماً في كهف سحيق، ويوضح في النصين «أن النوم هو الصفاد الذي أعده زيوس ليوثقه به [٣١]».

وهنـاك بين خمول كرونوس مخلوعاً ويقظة زيوس ملكاً حالات متوسطة عديدة. وميثات السيادة الملكية تلعب بهذه الحالات المتوسطة، وبهذه الدرجات المختلفة من اليقظة وحضور البديهة لدى الآلهة لكي تنوه بالمخاطر التي كان من الممكن في بعض اللحظات أن تهدد سيادة زيوس ذاته. والصراع الذي كان على الرب الأوليمبي - بعد انتصاره على التيتان - أن يخوضه ضد توفوبوس Typhoeus أو توفون Typhon له دلالته الخاصة بالنسبة لموضوع اليقظة والخمول وما بينهما من درجات. فتوفويوس عند هيسيودوس وحش هائل pélor [٣٢]، وهو الابن الأخير الذي أنجبته جايا عن اقترانها بتارتاروس. وأياً كانت الأنماط الشرقية التي أغرت بعض الباحثين على مقارنتها بهذه الشخصية الإغريقية [٣٣]، فالرأي عندنا أن توفويوس في قصيدة هيسيودوس يتسم بسمات أصيلة من الضروري استخلاصها وإظهارها بوضوح. فتوفويوس من ناحية أمه يبدو كقوة خثونية أرضية <خثون Khthon = الأرض> تتعارض مع الألهة السماوية؛ وهو من ناحية أبيه تارتاروس - الذي يصفه هيسيودوس بالعبوس والقَطِرَة - قريب من إيريبوس Erebos <إله الظلمات> ونوكس Nux <إله الليل> اللذين تولدا مباشرة من الخاوس؛ وهو بهذه الوراثة المزدوجة يتخذ هيئة قوة أصيلة؛ وُلد متأخراً، أصغر من زيوس، فكان يستأنف - في عالم شمله التمايز والنظام - ذريةَ «أولئك الذين كانوا في البداية» ، ذرية الكائنات الأولانية التي يضعها هيسيودوس عند جذور العالم. ولم يكتسب توفويوس من أصله هذا قوة فائقة وحمية استثنائية فحسب؛ بل كان نمطُ الطاقة التي أتيحت له يجعل من هذه الطاقة قوة خلط واضطراب وعميل للخاوس. وجمع هيسيودوس في وصفه إياه إلى قوة ذراعيه عدة سمات لها دلالتها: أولاً حركةً قدميه التي لا تكل ولا تنصب.

وعلى العكس من أولليكومي Ullikumi الحيثي الذي كثيراً ما قورن به والذي كان يهدد ملك السماء بخمود كتلته الهائلة [٣٤]، كان توفويوس دائب الحركة لا يعرف الخمود أو الخمول؛ كانت قدماه لا تكلان akámatoi [٣٥]؛ كانتا دائبتي الحركة لا تعرفان تعباً ولا راحة. وكان عنف طبيعته العارم يظهر في كثرة رؤوسه الهائلة التي كانت تبرز من كتفيه : مائة رأس

ثعبانية تنتشر من فوق جسده، وتضاعف على نحو جبار عدد عيونه التي ترشق في كل الاتجاهات في وقت واحد بريق نظرة نارية متأجج (٣٦). وبدلاً من أن يكون لتيفيوس صوت يطابق جوهره الخصيص نجده يجمع في شخصه ألف صوت مختلفة؛ فهو تارة يتكلم بلغة إله، وتارة يقلد صوت حيوان ليجعل من نفسه ثوراً أو أسداً أو كلباً، وتارة يصدر ألواناً من الصفير الحاد (٣٧). هذه الجلبة الصوتية وهذه الزركشة الطنانة (٣٨) تترجمان على المستوى السمعي السمة التحورية المتعددة التحور لوحش يتخيله نونوس Nonnos على نحو أكثر تراثية جامعاً في هيئته كل أنواع الحيوانات في تشكيلة واحدة، وهو ما فهمه صاحب الحاشية المكتوبة على هامش «پروميثيوس» لإسخيلوس حيث قال إن ما أوتيه الوحش من مائة رأس هي مجموعة شاملة للحيوانات المتوحشة جمعاء (٣٩). أوتي توفويوس قوة وحركة ويقظة ونظرات نارية مضاعفة مائة ضعف فكان بكيانه المختلط غريماً على مستوى زيوس. يقول هيسيودوس: «عندئذ طرأ في ذلك اليوم طارئٌ <كأنه داء> لا دواء له؛ وإوشك توفويوس أن يصبح ملكاً على الفانين والخالدين لو لم يره فجأة أبو الآلهة والبشر بعينه الثاقبة. فأحدث دوياً حاداً عاتياً(٤٠)» ولقد سلك إسخيلوس سبيل الميثوس كما ورد عند هيسيودس تماماً عندما صور هجوم توفويوس (توفون) على زيوس في صورة محنة تَواجَهَ فيها – بغية نيل السيادة على العالم – من ناحية: البرق المنطلق من عيون الوحش الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى ومن الناحية المقابلة: الصاعقة المتنبهة أبداً التي كانت تحت يد الإله الداهية <زيوس> (٤١). ولقد رأينا الموضوع نفسه في صياغة «إپيميندس» وخلاصتها أن: توفويوس (توفون) انتهز فرصة تمكُّن النوم من جفني زيوس ليدلف إلى قصره ، ويوغل فيه حتى يوشك أن يضع يده على المُلك، ولكن في اللحظة التي يلوح فيها كل شيء كأنه قد ضاع من قبضة زيوس يفتح زيوس عينه: ويخر الوحش مصعوقاً (٤٢). ولا نجد إلا في <كتاب الميثات والأساطير المسمى> «مكتبة Bibliotheke <بيبليوثيكي>» <آلمنسوب إلى> أبوللودوروس الأثيني Apollodoros إشارة إلى الهزيمة المؤقتة التي مني بها زيوس وإلى أفول سلطته الملكية إلى حين. وتوفويوس (توفون) عند أپوللودوروس – وهو كذلك عند پلوتارخورخوس وعند نونوس Nonnos – يحمل سمات تقربه من أولليكومي Ullikumi الحيثي وسيت Seth المصري. ومع ذلك فهناك شيء له دلالته البالغة، ألا وهو أننا نتبين – على الرغم من كل هذه الألوان من العدوى <التي جاءت من الأسطورة الحيثية والأسطورة المصرية وأثرت على الميثوس الإغريقي> – أن منطق الميثوس الإغريقي ومعناه هنا ظلا مطابقين للتراث الإغريقي كما تعبر عنه آثار هيسيودوس. والرأي عند أپوللودوروس (٤٣) أن توفويوس (توفون) . ابن جيا Gaïa

وتارتاروس Tartaros ، هو أقوى وأضخم الكائنات التي أنجبتها الأرض الأم. وهو كائن نصفه بشر ونصفه وحش، له قدمان تركتزان على الأرض التي أنجبته؛ أما رأسه فيتجاوز قمم الجبال ويمس أعالي السماء؛ وهو عندما يبسط ذراعيه تصل إحدى كفيه إلى مغرب الشمس والأخرى إلى مشرقها. هكذا تُوَحِّد كتلتُه الأعلى والأدنى، الغرب والشرق، وتخلط كل اتجاهات المكان معا، كما تختلط فيه - بحسب رواية هيسيودوس - الأصوات المتباينة أشد التباين، وهي أصوات الوحوش التي تعمُر الأرض، وأصوات الآلهة التي تعمر السماء. ولا يقف التناظر عند هذا الحد. ففي «ثيوجونية» هيسيودوس قام زيوس بإلقاء جسد توفويوس (توفون) - بعد أن صعق - في أعماق التارتاروس. فتولدت من جسده ‹جسد الوحش› الرياح العاتية، والزوابع العاصفة التي أخذت تنطلق من غمام التارتاروس، وتبزغ فجأة فوق الأرض أو البحر، محدثة صفيراً مذهلاً هنا وهناك في كل النواحي، خالطةً كل اتجاهات المكان في دواماتها الهائجة المضطربة. ولو كان توفويوس (توفون) قد انتصر على زيوس لجَلَبَ انتصاره على العالم وعلى الألهة شراً مستطيراً هو رجوع الاضطراب، أو هو عودة إلى حالة خاوسية شبيهة بذلك المكان الذي لا اتجاه فيه والذي يمثله تحت الأرض التارتاروس وهو هاوية سحيقة ضالة غير ذات تحديد، ليس لها أعلى ولا أسفل، ليس لها يمين ولا شمال (٤٤). هذا الشر نفسه، الذي «لا علاج له» ، تمثله بالنسبة إلى البشر فوق سطح الأرض منذ ذلك الحين ‹منذ هزيمة توفويوس (توفون)› الرياح العاصفة المتولدة عن الوحش، ويقول عنها هيسيودوس: «ليس للبشر الفانيين ملجأ من هذا البلاء» (٤٥). هذه الرياح العاتية الحالكة الخاوسية المنبعثة من أعماق الأرض تقابلها في رأي هيسيودوس الرياح العادية المنتظمة ‹الثلاث› وهي التي يسميها: «بورياس Boreas » و«نوتوس Notos» و«زيفوروس Zephyrus ». هذه الرياح الثلاث من أصل سماوي، ‹وهي باليونانية مذكرة› أبناء إيوس Éôs وأسترايوس Astraios، إخوة نجم الصباح وكل النجوم التي تتلألأ في الليل وترسم بسَناها ما يشبه نقاط الاهتداء إلى الطريق على ظلمة القبة السماوية كما ترسم عليها في كل ليلة الدروب الثابتة والدائمة (٤٦). والرياح العادية المنتظمة التي تهب دائماً في نفس الاتجاه، والتي ترسم على صفحة البحار طرق الملاحة، توجه وتنظم هي كذلك العالم المنظور‹عالم الشهادة› بأنها تحدد فيه المناطق المختلفة وبأنها تربطها بعضها بالبعض الآخر.

والتوافقات بين توفويوس (توفون) كما يصوره هيسيودوس والرياح العاصفة التي ترُد المكان البشري إلى حالة من الاضطراب شبيهة بالخاوس الأولاني توافقاتٌ تضفي على بيانات أپوللودوروس عن توفويوس (توفون) بعداً أكثر اتساعاً وأكثر دقة؛ فهي تشدد على سمة

«القوة الخاوسية» التي بقيت للوحش في الفكر الميثي عند الإغريق. وهناك نقطة أخرى يستأنف فيها نص أپوللودوروس «ثيوجونية» هيسيودوس ويؤكد دور الذكاء الملتوي في ممارسة سلطة السيادة الملكية. فموضوع الاحتيال والخداع dólos موجود في صلب القصة. تحكي القصة أن المعركة دارت رحاها أولاً عن بعد بين توفويوس (توفون) الذي كان فمه وعيناه تنفث لهيباً، وكانت ذراعاه ترميان صخوراً متأججة وبين زيوس الذي سدد إليه الصاعقة من بعيد. وتقدم توفويوس (توفون) نحو السماء؛ واستمر الصراع عن قرب؛ وضرب زيوس عدوه بالمنجل hárpe وهو سلاح كرونوس. فلما رأى الوحش قد جرح هاجمه جسماً إلى جسم. ولكن توفويوس (توفون) شل حركة زيوس بدسه في حلقاته الثعبانية، وانتزع منه منجله، وقطع به أعصاب يديه وقدميه؛ وألقى بجسد زيوس المشلول فوق كتفيه وحمله إلى قلقيلية حيث وضعه في الكهف الكوروكوري ‹في جزيرة كروكورا›. وأخفى أعصاب الإله زيوس في جلد دب، وأقام على الحراسة حية حارسة phúlax هي ديلفوني Delphúne، رقاها إلى نفس المناصب التي كان برياريوس يشغلها، ووكل إليها المهام التي كان زيوس يكلها إلى برياريوس لحراسة التيتان والتي كان كرونوس من قبله يكلها إلى كامبي Kámpe لحراسة الهيكاتونخيريس [٤٧]. وبدا الصراع كأنما قد حسم على هذا النحو. كان زيوس مقهوراً في نفس حالة العبودية التي فرضها على كرونوس؛ كانت حركته قد شلت ورقد هامداً في غيابة كهف فاقد القوة، عاجز اليدين والقدمين، كانت تلك حال زيوس الذي وصف عدوه الوحش توفويوس (توفون) -كما جاء في«ثيوجونية» هيسيودوس - بأنه عدو ملك الآلهة، أو أنه على الأقل كان عدوه إلى أن أصابته الصاعقة وتقطعت أوصاله guiotheis [٤٨].

أما نجاة زيوس وإعادة سلطته الملكية فسيحققهما تدخل اثنين من «الغشاشين» [٤٩]. هما هيرميس Hérmès الماكر وشريكه إيجيپان Egipan، وهما شخصان يحتلان في نسيج قصة أپوللودوروس موضعاً يناظر بالضبط الموضع الذي تحتله ميتيس في نسيج قصة هيسيودوس وپروميثيوس وإيسخيلوس. ويتمكن الشريكان خفيةً من نشل أعصاب الإله زيوس وإعادة تركيبها على جسمه . فلما عادت أعصاب يديه وقدميه إلى أماكنها، استرد زيوس كل قوته الخصيصة ten idian ischün ، وظهر فجأة أمام الوحش توفويوس (توفون) الذي أصابه الذهول، واعتلى عربته، وألقى عليه صاعقته، فلاذ بالفرار، فطارده في فراره. وكان من الممكن أن تظل المعركة سجالاً لو لم تدبر الموبراي Moirai ‹ربات القدَر، وهن ثلاث كلوثو Klotho ولاخيسيس Lakhésis وأتروپوس Atropos› حيلة جديدة، خديعة ثانية. ولقد استطعن الإيقاع بتوفويوس (توفون) بنفس ضربة «طعام الخديعة» التي أوقع بها زيوس أباه

كرونوس وغلّه بحسب الرواية الأورفيوسية. فأغرين توفويوس (توفون) بأن يقضم ثمرة أكدّن له أنها ستأتيه بقوة لا نظير لها. ولكن هذا العقار phármakon المزعوم الذي يجعل من يتناوله منيعاً لا يُغلب والذي كان المتوقع أن يبلغ بقوة الوحش الهائلة أبعد مدى، لم يكن في الحقيقة إلا «ثمرة عابرة»، وعكس طعام الخلود، وطعاماً لا يمكن أن يذوقه طاعم دون أن تُستهلك قواه وينتهي إلى الموت. وإذا العنف البالغ الذي تحقق للوحش في البداية تنزعه عنه سَدَنَةُ زيوس بذكاء مخاتل ساخر.

وموضوع الاحتيال هذا كرس له نونوس ‹الشاعر الملحمي ابن مدينة أخميم التي كانت تسمى بالإغريقية پانوپوليس› في الكتابين الأولين من ملحمة Dionysiakaò الديونوسيات»، اللذين تناول فيهما قصة توفويوس (توفون) – موضوعٌ أضفى إليه الشاعر بعداً يوشك أن يكون باروكي الطابع baroque ‹بما حفلت به المعالجة من تفصيلات وتشعبات وزخارف›؛ ولكننا نجد وراء الكم الضخم من التفصيلات الخيالية سجلاً لغوياً واسعاً للدهاء الميتيسي منشوراً كالمروحة بكل درجاته يرجع إلى أبعد شرائح التراث. نطالع هنا أن زيوس وقد شُغل بغرامياته ترك صواعقه ‹وهي سلاحه الأساسي، سلاح السيادة الملكية› في ركن قصي من السماء، ولكن الدخان المتصاعد منها كشف عن مكان وجودها. وأشارت جايا على توفويوس (توفون) بأن ينشلها فمد يده إلى قمة الأثير ونشل ‹الصاعقة› سلاح السيادة الملكية. واتخذ الوحش المتحور بدافع من وحشيته المتعجرفة هيئة المناهض لزيوس المناوئ له، بمعنى أن يكون سيد الاضطراب ‹على عكس سيد النظام›؛ ولقد كان موقعه من السيادة الملكية الحقيقية موقع ابن الحرام nóthos من أولاد الحال. كان إذن يمثل الانتقام للتيتان ولكرونوس الذي زعم أنه سيعيده معه إلى ‹عرش› السماء. ولقد هرب كل الآلهة الأوليمپيين من مسكنهم السماوي. ودبر زيوس خطة ماكرة بالاتفاق مع إيروس Éros، وطلب إلى كادموس Kadmos أن يساعده على تنفيذها. وكان الملك كادموس أريباً فطيناً فاستعان بالإله پان Pan، وتنكر في ثياب راع. فلما تنكر في هذه الثياب المضللة تسلح بناي بسيط راح يستخرج منه نغمات خلأبة ليواجه بها المستبد الفتي الذي بث الاضطراب في الكون. ووهن عنف توفويوس (توفون) العارم تحت تأثير الموسيقى، فاقترب من عازف الناي دون أن يشك في أن مكيدة تدبر له، وترك في المغارة السلاح الذي نشله ‹من زيوس من قبل›. وتصنع كادموس الفزع فطمأنه توفويوس (توفون) واقترح عليه أن يحمله إلى السماء التي ‹قال له إنه› سيقيم فيها معه لكي يتغنى فيها بعظمة الملك الجديد. وهنا طلب كادموس آلة ‹موسيقية› أرفع قدراً من الناي تكون جديرة بالاحتفال بالنصر الذي تحقق ضد زيوس. هذه

الآلة التي طلبهما هي آلة اللّورة lura <الوترية> ، وقال إنه بحاجة إلى أوتار <ليصنعها>. كان توفويوس (توفون) يجهل الخدعة المدبرة فعمي عن الخطة التي وُضعت للإيقاع به إلى الهلاك، فأحضر أعصاب زيوس التي كان زيوس قد فقدها في معركة سابقة. واستمر كادموس في العزف؛ وكذلك انتهز زيوس فرصة خفوت يقظة عدوه ونومه فتسلل إلى المغارة واسترد سلاحه <الصاعقة> واختفى. كذلك اختفى كادموس في غمامة وأراه زيوس فيها. وسكتت الموسيقى. هنالك استرد توفويوس (توفون) وعيه، واسترد معه مزاجه العنيف العارم العادي. والتمس الصاعقة فلم يجدها وفهم بعد فوات الأوان أنه قد غرر به. وحل الليل، وأحاط النوم بكل ما هو حي في الطبيعة، وتمدد توفويوس (توفون) على حِجر أمه جايا؛ وخلدت رؤوسه الثعبانية إلى النوم متكورة في أجواف الكهوف. أما زيوس فقد ظل ساهراً. فلما أسفر الصباح تحدى الوحش توفويوس (توفون) الإله الأوليمپي زيوس أن ينازله؛ وهجم عليه بأذرعه الكثيرة، وبأفواهه المتوحشة المفترسة، وخصائل شعره الكثيفة الأفعوانية، ورماه بالصخور وبالجبال بل وبالمياه التي سلطها نحو السماء. ولكن زيوس أحاط بالوحش كله كاملاً بنار صاعقته التي استعرت حتى البياض، على الرغم من ألف شكل تشكل عليها.

وأغرب من قصة نونّوس هذه قصة أوپيانوس Oppianos (٥٠) وإن كانت من الناحية الأدبية أقل تعقيداً؛ وإذا كان أوپيانوس يفرض المقارنة مع ميثوس إيللويانكا Illuyanka، فإنه يقربنا من نص أپوللودووروس ويربط قصته من خلاله بتراث هيسيودوس الذي يجمع في ميثات السيادة على نحو وثيق موضوع الدهاء بموضوعي الطعام والابتلاع. أوپيانوس يضع قصته كلها في ضوء هيرميس الداهية poikilómetis الذي كان أول من عرف كيف يدبر حيل صيادي السمك المتسمة بالحرص البالغ Boulaàs dè perissonóon halićon ... prótistos emésao ، وكيف يكتشف كل حيل صيد الحيوان ويخطط لموت السمك. وهو الذي عهد إلى ابنه پان Pan بفن الأعماق البحرية (صيد السمك) - پان Pan الذي قيل إنه أنقذ زيوس وقتل توفويوس (توفون). فهو الذي خدع الوحش الرهيب dolósas بأن أغراه بأن يقدم إليه وليمة شهية من السمك. وهكذا استدرجه بالخيانة على أن يبرح المغارة الواسعة التي كان يلوذ بها آمناً في أعماق البحار لكي يبرز إلى طرف الشاطيء حيث ضربه زيوس بصاعقة حرّقت رؤوسه كلها. وليس من شك في أن <صورة> توفويوس (توفون) هذا الذي ضيعه شرهه تدين بالكثير من سماتها لأقدم رواية من الروايتين اللتين نعرف منهما ميثوس إيللويانكا Illuyanka الحيثي (٥١). تحكي هذه الرواية عن الثعبان إيللويانكا أنه نازل وغلب إله العاصفة الذي يحتل في مجمع الآلهة الحيثي مكان زيوس. وتدخلت الربة إينارا Inara يعينها شخص

عادي، إنسان فانٍ من البشر، اسمه هوپاسيا Hupasiya ، فأعدت وليمة حافلة دعت إليها إيللويانكا. وبرح الثعبان جحره، وذهب إليها فملأ جوفه من الشراب والطعام في شراهة حتى عجز عن العودة إلى جحره، فكبله هوپاسيا بالأغلال، وقام رب العاصفة بقتله.

ليس هناك مجال للشك في التشابه بين القصتين. ولكن إذا كان أوپيانوس قد استطاع أن يسم توفويوس (توفون) بسمات اتصف بها إيللويانكا الحيثي، فإنما يرجع ذلك إلى أنها - دون تعديل كبير- دخلت متكاملة كلها في الميثوس الإغريقيالذي يدور حول عدو زيوس. توفويوس (توفون) عند أوپيانوس يهوى السمك ويأكله بشراهة، ولكنه ليس ثعباناً كإيللويانكا، بل هو من السمك: والتغلب عليه يعني صيده، ويحتاج صيده إلى تعبئة دهاء هيرميس كله، وحشد كل فخاخ الإله الداهية، معلم الأحابيل والجوابي، ومخترع الخدع dóloi التي نجد اسمها يُستخدم في شعر هوميروس بما يمكن أن يعني الطعم الذي يصاد به السمك.ونخلص من هذا إلى أن هيمنة زيوس بين الآلهة ترتكن على نفس النمط من الذكاء الملتوي الذي يحكم صيد الحيوان وصيد السمك ويجعل للبشر الغلبة على الحيوانات التي أوتيت ما أوتيه الثعلب والأخطبوط من حيلة [٥٢]. ونلاحظ أكثر من هذا. توفويوس (توفون) عند أوپيانوس يَهلك ضحية شراهته. وليمة السمك التي أعدت له هي غواية apáte، فتنة، مثل الطعم الذي يمكّن الصيادين من إخراج السمك من الماء، الطعم الذي يلوح في ظاهره مغرياً كالحياة وهو يخفي في طياته الموت، وليمة السمك هذه تشبه العسل الذي أغرم به كرونوس والذي استخدمه زيوس «فخاً» ليوقع فيه أباه، وتشبه الثمرة التي استخدمتها الموبراي لفتنة توفويوس (توفون) الذي ظن أنه سيجد فيها مزيداً من القوة وأنها ستمكنه من معرفة مصائر من يعيشون حياة عابرة.

نفس موضوع طعام الخديعة يرد في نص آخر لدى أپوللودوروس متصلاً أيضاً بصراعات زيوس ضد أعدائه [٥٣]. يدور هذا النص حول العمالقة الذين يبدو وضعهم غامضاً متأرجحاً طالما ظل الصراع الذي يضعهم في مواجهة ملك الآلهة معلقاً بغير حسم. هل سيصبحون مغلوبين يدركهم الموت أم سيصبحون غالبين خالدين؟ والآلهة تعرف من نبوءة العرافة أنها لن ‹يكون لها أن› تقضي في أمر‹من أمورها› وحدها أبداً. فهذا هو زيوس يحتاج لتحقيق النصر إلى من هو أصغر منه. إنه يحتاج لكي يهلك العمالقة إلى عون إنسان بسيط من أبناء الفانية. ذلكم هو هيرقليس الذي سيتولى الأمر، ولم يكن هيرقليس قد دخل في عداد الآلهة بعد. ولكن جيا التي علمت بالخطر الذي يتهدد أبناءها العمالقة أعدت خطة للتصدي له. وبحثت

عن عقار phármakon يعصم العمالقة من الهلاك حتى لو امتدت إليهم يد مخلوق عابر غير خالد. ومنع زيوس الفجر والقمر والشمس من الظهور ، وسبق هو جيا phthásas فحصد قبلها عشب الخلود، على نحو شبيه بماجاء في نص أپوللودوروس عندما سبق زيوس ميتيس بغتةً phthásas فأمسكها وابتلعها قبل أن تلد الإبن الذي لا يُقهر [٥٤]. وسجل القصة اللغوي وترتيبها يشددان على الرباط الذي جاء في «المكتبة» <"مكتبة أبوللودوروس" وهي ديوان من نصوص الأساطير الميثية تُحل إليه> رابطاً على نحو وثيق الفقرات المختلفة للاستيلاء على سلطة السيادة الملكية: ميتيس تحتال على كرونوس لتسقيه العقار phármakon مدعية أنه سيضاعف قواه الباطنية عشرة أضعاف، فلم يضاعف قواه، بل اضطره إلى أن يلفظ من جوفه أولئك الذين سيتتصرون عليه ويقهرونه؛ وزيوس يحتال على ميتيس فيبتلعها ويبقيها إلى الأبد في جوفه؛ وزيوس يحتال على جيا عندما يحصد من تحت أقدام العمالقة عشب الخلود الذي كان سيعصمهم من الموت لو ابتلعوه؛ والمويراي <ربات القدر> تحتلن على توفويوس (توفون) ليبتلع طعاماً في ظاهره جرعة من الخلود وهو في حقيقته <عقار> يورده مورد الهزيمة والموت.

وما هو قصد نص أپوللودوروس عندما يشدد قطعاً في صراعات زيوس من أجل السيادة الملكية على وظيفة الطعام المبتلع، سواء كان طعام خديعة أو ذا أثر حقيقي؟ هل قصده أن يظهر ما في الفكر الثيوجوني لهيسيودوس من قصور أم أن يوضح واحدة من أساسياته؟ وموضوع الابتلاع يرد عند هيسيودوس في لحظتين حاسمتين متعارضتين فيما بينهما تعارضاً واضحاً. فكرونوس يبتلع أولاده ولكن دهاء ريا الميتيسي يجعله يبتلع حَجَرَةً بدلاً من زيوس ثم يجعله يتقيأ كل الذين ابتلعهم من قبل. وعلى العكس من ذلك تماماً يبتلع زيوس الربة ميتيس ويبقيها إلى الأبد في جوفه [٥٥].

وهناك فقرات أخرى تلقي الضوء على معنى هذين الحدثين في الميثوس عند الشاعر البوثيسي هيسيودوس. فعندما فرغ زيوس من تخليص الهيكاتونخيريس والخروج بهم من الظلمات إلى النور، قرر أن يشركهم في صراع كان قائماً منذ عشر سنوات واستمر متأرجحاً دون أن يستطيع أي من المعسكرين (التيتان والأوليمپيين) أن يميل الميزان لصالحه [٥٦]. ويبدو أن كوتوس وجوجيس وبرياريوس كان لهم قبل أن يدخلوا ميدان المعركة وضعٌ شبيه بوضع العمالقة عند أپوللودوروس: لم يكونوا من البشر الفانين، ولكنهم لم يكونوا حائزين تمام الحيازة لذلك الوضع من الحيوية الدائمة والشباب الدائم الذي يخص الخالدين وحدهم. ولم تتغير الحال

إلا بعد أن عرضت عليهم الآلهة أن يقاسموها النيكتار nektar (شراب الآلهة) والأمبروسيا ambrosia (طعام الآلهة) وهما غذاء الخلود الذي يستأثر الآلهة بامتيازه، حينذاك اكتملت قوة الهيكاتونخيريس وأصبحوا قادرين على أن يلعبوا دور عوامل الانتصار الحاسمة. يقول هيسيودوس: «حينذاك استفحلت حمية الحرب في صدورهم [٥٧]». هذا الغذاء الإلهي المخلّد- الذي ضاعف عند الهيكاتونخيريس مائة ضعف طاقة إلهية لا شك في أنها كانت غافية وقت أن كانوا مصفدين في الأغلال - يمثل المقابل الدقيق للعقار الذي ظن توفويوس (توفون)، بحسب رواية أبوللودوروس، أنه سيجدد قواه التجديد الذي يحتاج إليه ليحتل مكان زيوس ثم كان هو الذي انتهى به في الواقع إلى القدّر العام للفانين. ويذكر هيسيودوس أن آثار غذاء الخلود هذا تتصدى للآثار التي تحدثها في العالم الرباني مياه ستوكس Styx ‹نهر في ملكوت الموت›. ويقول إنه عندما كان شجار يثور [٥٨]، يواجه فيه إله إلهاً آخر، كانت إيريس Iris تحضر قليلاً من هذه المياه الأولانية التي تجلبها من فرع من الأوقيانوس تحت الأرض ليضطرب المذنب. وكانت تحمل هذا الماء في إبريق من الذهب. وكان الربّان المتنازعان يصبان الماء على الأرض تأكيداً لصدق يمينهما. ويمكننا أن نتصور أنهما كانا بحسب التقاليد يرتشفان في الوقت نفسه بعض هذا الماء ‹وإذا بالحق يحصحص›، وإذا بالكذاب يقع على الأرض ويظل ممداً خامداً بلا قوة وبلا صوت على مدى عام طويل. وكان النائم، طالما استمر خموده، يظل مثل الذي حاق به نعاس سحري، بعيداً عن الغذاء الإلهي. يقول هيسيودوس: «لن يقرّب من شفتيه بعد ذلك أبداً لا النيكتار ولا الأمبروسيا[٥٩]» .

وهكذا نفهم على نحو أفضل الأهمية التي يكتسبها في «ثيوجونية» هيسيودوس تقسيم أنصبة الغذاء بين البشر والآلهة، على النحو الذي قضى به پروميثيوس عندما أقام مناسك القربان الأول. ولنذكّر هنا بالخطوط العريضة للقصة [٦٠]. كان الآلهة والبشر يعيشون في الأصل معاً ويجلسون إلى الولائم نفسها جميعاً. ولكن پروميثيوس تلقى مهمة تقسيم الأنصبة وتحديد ما يخص هؤلاء وما يخص أولئك. ودار بخلده أن ينتهز تلك الفرصة السانحة لكي يحط من شأن زيوس ويغشه من أجل صالح البشر. وهكذا قامت بين التيتان الماكر والملك الداهية معركة دهاء وخديعة كانت أسلحة الطرفين فيها هي: الخديعة والغش. قسم پروميثيوس ثوراً ضخماً مذبوحاً في حضور الآلهة والبشر إلى نصيبين كل منهما ينضوي على غش يتوارى تحت ظاهر خداع. أما النصيب الأول فكان يخفي تحت مظهر مغرٍ يثير الشهية إلى أبعد الحدود عظام الثور عارية من اللحم تماماً؛ وأما النصيب الثاني فكان يخفي تحت الجلد والكرش وما لا يؤكل من السقط كل قطع اللحم الجيدة. وفي لحظة الاختيار ‹يقضي العرف بأن› يتقدم السيد

قبل المسود، ويكون على زيوس أن يختار أولاً. ويتظاهر زيوس الأوليمپي - «وقد فهم حيلة التيتان پروميثيوس وعرف كيف يدرك مغزاها »[٦١] - بأنه وقع في اللعبة، ويقلب على البشر التدبير الماكر، ويوقعهم في الفخ الذي ظن پروميثيوس أنه أوقعه فيه. هذه القطع التي لا تؤكل - وهي العظام البيضاء سيكون على البشر منذ تلك اللحظة أن يحرقوها قرابين على الأنصاب للتقرب إلى الآلهة - ومعنى هذا أنها أصبحت بقراره هي في الواقع الجزء الوحيد الجيد حقاً من الذبيحة، ‹لأنه يقرب الإنسان من الآلهة›. ثم يحتفظ البشر باللحم الذي يطهونه ويطعمونه ليعيدوا الحيوية إلى قواهم الخائرة، ولكن هذا الغذاء لن يكون إلا غذاءً «عابراً» ‹لا يحقق شبعاً حقيقياً دائماً› مثل الثمرة التي قدمتها الموبراي إلى توفون (توفويوس). ومن به حاجة إلى أن يشبع منه، ومن يجد لذة في هذا الطعام سيعرف جوعاً ‹بعد جوع›، جوعاً يتجدد بلا انقطاع، وسيعرف الاستهلاك الذي ينهك القوى، وسيذوق النصَب والموت. أما الذي لا يتغذى إلا على دخان العظام والروائح والعطور فسيعرف من فوره ولائم الخلود وسيحلس إلى الموائد التي ينعم فيها بمذاق النيكتار والأمبروسيا.

هكذا نالت كل طائفة من الكائنات الحية الغذاء الذي يناسبها والذي تستحقه. نال البشر الفانون لحم الحيوان المذبوح المطهو . ونال العمالقة وتوفون بدلاً من عقار الخلود الثمرة العابرة ‹التي لا تغني من جوع›، ونال كرونوس طعام الخديعة الذي كبله في أصفاد النوم. ونال الأوليمپيون، حلفاء زيوس الذين أطلق سراحهم وحل قيودهم، النيكتار والأمبروسيا. أما زيوس، زيوس وحده، فنال هذا الغذاء الرباني الذي عرف بالدهاء كيف يبتلعه ويسيغه في جوهره الخصيص: ألا وهي الربة ميتيس التي هي عقار الذكاء والمكر الفائقين ، عقار السيادة الملكية التي لا تبيد [٦٢].

القسم الثالث

عند أصول العالم

الباب الخامس

الدهاء الميتيسي الأورفي
وحبّارة ثيتيس

من الصعوبة بمكان - كما لاحظ كيرن O. Kern [1] - ألا نتبين في شخص ميتيس وفي مشهد ابتلاع زيوس إياها، كما وردا في السير الثيوجونية الأورفيوسية التي تعرف بآثار الرابسوديين <الرابسودوس Rhapsôdos شاعر جوال من العصر القديم> (تمييزا لها عن الصياغات الأخرى) الاستعارة السافرة من «ثيوجونية» هيسيودوس. ولا يمكن أن يطلب طالب من الباحثين في إطار استقصاء عن الدهاء الميتيسي أن يفتحوا ملف الثيوجونويات «الأورفيوسية» بكماله وتمامه. كل ما يصبون إليه هو أن يشددوا فقط على النقاط التي تمس المشكلة المطروحة مباشرة. هذه النقاط تبدو في رأينا داعمة لمذهب العلماء الذين مالوا إلى القول بأصالة تراث ميثي، لا شك أنه كان هامشياً إذا قيس بتراث أكثر «عراقة» كتراث هيسيودوس، واليوم - بعد اكتشاف ما جاء في بردية ديرفيني Derveni المكتوبة حول نهاية القرن الرابع قبل الميلاد من تفسير لثيوجونية أورفيوسية لا جدال في أنها أكثر قدما [2] - لم يعد ممكناً أن نرى أن تأليفاً مصطنعاً قامت به الأفلاطونية المحدثة المتأخرة دون رباط حقيقي بهؤلاء الأشخاص والبيئات الدينية التي وضعها الواضعون - منذ القرن السادس - تحت راية أورفيوس لكي يحققوا الانتشار لأحاديثهم المقدسة Hieroi Logoi .

وإذ يطلق اللاهوتيون الأورفيون اسم ميتيس (مع اسمين آخرين هما فانيس Phánes أي الباهر الذي يظهر ويُظهر - وبروتوجونوس Protógonos أي المولود الأول) على الربة الكبيرة الأولانية التي بزغت من البيضة الكونية حاملة في ذاتها بذرة الآلهة جميعهم [3]، وجرثومة الأشياء كلها، فأخرجت إلى النور - من حيث هي الوالدة الأولى [4] - الكون كله في مساره المتتابع وفي تنوعه الواسع، فإنهم يختارون السير على درب «ثيوجونية» هيسيودوس، تلك الثيوجونية التي جهلها هوميروس والتي لعبت فيها الربة ميتيس الدور الذي حاولنا أن نحدده.

ولكنهم في الحقيقة لا يلحقون أنفسهم بتراث هيسيودوس إلا لكي ينفصلوا عنه، حتى يشددوا بوضوح أكثر - عن طريق بيان سمات التقارب والتشابه الظاهرة - على اختلافات التوجُّه بين أحاديثهم عن بزوغ العالم وحديث الشاعر البوئيسي هيسيودوس عنه. ومن وراء الموازنة بين هذا السرد وذاك - وفيها نجد سلسلة أورانوس .. كرونوس .. زيوس ، وتكراراً لموضوع ابتلاع ميتيس - تقوم أركان لاهوت تكوين كوني جديد يختلف أعمق الاختلاف عن اللاهوت الذي تظاهروا بأنهم يتبعون نموذجه.

ميتيس عند هيسيودوس إلهة دورها بالضرورة دور تابع لا يمكن فهمه إلا بالقياس إلى إله ذكر تكون هي رفيقته، ومساعدته التي يحتاج إلى عونها، هذا الإله هو : زيوس، الأب والملك. وزيوس يحتاج إلى ميتيس حاجة ماسة، لا محيص عنها، ولكنه يحتاج إليها لهدف بعينه وهو أن يحقق بوجودها بجواره أولاً ثم بوجودها في داخله بعد ذلك، هيمنة خصيصة بملك الألهة وحده، وهي هيمنة ظهر طوال نضاله أنه هو مدبر أمرها الحقيقي . وزيوس عندما يبتلع ميتيس في ختام الأساطير الميثية الثيوجونية، يضع النقطة الأخيرة في مسار تطور افترشته معاركه ضد قوي الاضطراب الأولانية، ويخرج شيئاً فشيئاً من الخاوس الأول عالماً منظماً، متمايزاً، ذا طبقات هرمية، تحقق له الاستقرار منذ ذلك الحين.

أما عند الأورفيوسيين ‹أولئك الشعراء المجهولين المتأخرين الذين نسبوا إلى أورفيوس آثاراً ليست له› فلم تعد ميتيس كلمة مؤنثة تتسمى بها ربة أنثى كما صورها هيسيودوس. كان هذا الانحراف المقصود عن هيسيودوس حرياً بأن يبدو من قبيل المفارقة، بل الاستفزاز، لأن كلمة ميتيس في الحس اللغوي الإغريقي اسم نكرة مؤنث الجنس. وهاهي ذي أصبحت ‹عند الأورفيوسيين› آلهاً مزدوج الجنس، مزدوج الطبيعة، طبيعته مذكرة ومؤنثة diphués [٥]. ولكن هذا اللاتمييز أو هذا الالتباس الجنسي له قيمة إيجابية تماماً: قيمة تتضمن أن ميتيس فانيس Mètis-Phanès (فانيس= الباهر) تتعالي بالتضاد بين المؤنث والمذكر، وهو تضاد عندما يفرض نفسه بعد ذلك يكتسب صفة تحديد لا يخلو منها الآلهة أنفسهم ، تحديد الانتماء إلى هذا الجنس دون الجنس الآخر. لم تعد ميتيس من حيث هي امرأة تابعة لزيوس ، بل أصبحت من حيث هي مزدوجة الجنس "هو" لا هي، في موقع أعلى أو على أية حال فيما وراء.

ومن هنا نفهم أن فصل الابتلاع يتضمن في هذا السياق الجديد، معنى مختلفاً كل الاختلاف. في الجيل الإلهي الخامس (وقد انتقل الصولجان من فانيس ميتيسPhanès-Mètis

إلى نوكس Núx - أي الليل - قبل أن يصل عن طريق أورانوس ثم كرونوس إلى أيدي زيوس) يبتلع زيوس فانيس ميتيس ويبقيها في جوفه. ولكن الأمر في هذه المرة لم يعد أمر إلهٍ ملكٍ شابٍ يقرر أن يسبغ في نفسه قُوى شخصية ثانوية بهدف تجميد مسار الكون في الوضع الذي أحدثه انتصاره وحكمه الجديد. على العكس. فزيوس إذ يتطابق كله تماماً مع الإله الذي سبقه يرمي إلى أن يعود - وراء كرونوس وأورانوس - إلى الحالة الأولانية السابقة [٦]، وأن يقفل في ذاته حلقة التكوين ، وإذا كان كل شيء قد نشأ عن الواحد، فكل شيء يعود من جديد ليندمج فيه. على هذا النحو يمكن أن يجري «خلق آخر» [٧]، يناظر الخلق الأول، خلق فانيس ميتيس، وهو خلق يكون فيه زيوس - «الذي هو بداية ووسط ونهاية» كل شيء، «والذي وُلد الأول والآخر» [٨]- سيد الكون، والمَلك الأعلى على شاكلة زيوس في «ثيوجونية» هيسيودوس، والوالد الأولاني - وهو ذكر وأنثى في آن واحد [٩] الوالد الذي ولد كل شيء خاص ومؤجل، على شاكلة هذين الكيانين الأولين اللذين هما في «ثيوجونية» هيسيودوس نفسها: الخاوس Khaos وجايا Gaia. هناك إذن ناحيتان، من الناحية الأولى: يتطور مسار القصة الثيوجونية عند هيسيودوس تبعاً لمحور مستقيم من الاضطراب إلى النظام حتى يصل إلى قمة المنحنى فيتوقف بابتلاع زيوس لميتيس. من الناحية الأخرى: يرسم السرد عند الأورفيوسيين دائرة قوامها اتساع وتركيز متعاقبين، حيث لا يظهر الكل متحدا إلا من خلال عملية تفريق الأجزاء المنفصلة عبر المكان والزمان أولاً، ثم من خلال ابتلاع ميتيس فانيس بعد ذلك تجمع الأجزاء المنفصلة متكاملة معاً من جديد في داخل الكل. هذا الخلق الثاني الذي يربط زيوس بالوالد الأول فانيس ميتيس يهدف أساساً إلى أن يوجد هذا العالم الذي هو عالمنا والذي لم يعد يحكمه زيوس، بل أصبح ابنه هو الذي يحكمه، بعد أن نزل له عن العرش، وابنه هو ديونيسوس الأورفيوسي الذي يمثل هذا الجيل السادس والأخير من الآلهة الملوك، وعنه قال أفلاطون إن تواتر النشيد لن ينقطع إلا عند قدومه، أي أن صعوده إلى العرش يمثل في القصائد المنسوبة إلى أورفيوس نهاية العملية الثيوجونية <نهاية توالد الآلهة، ويبدأ توالد البشر> [١٠]. لماذا حل ديونيسوس هكذا محل زيوس؟ لم يكن الأمر بالنسبة إلى المتشيعين إلى الإله ديونيسيوس ينحصر في مجرد رغبتهم في إبدال الرب الأعلى الرسمي بسيدهم الجديد، ومواجهة زيوس بديونيسوس الذي سيكون على قدر منافسه نظيراً ومثيلاً له على مستوى القيم والمهام اللاهوتية. وديونيسوس الأورفيوسي - شأنه شأن أبيه زيوس ومن خلال أبيه شأنه شأن فانيس ميتيس المحبوس في جوفه [١١] { والذي كان منذ الأصل يحتوي في ذاته زيوس وديونيسوس في آن واحد [١٢] } - يمثل الوحدة الكاملة للعالم المتفرق

المبرقش المتنوع المتغير الذي أنيط به أن يبسط عليه سلطته في الجيل السادس. ولكنه هو الوحيد بين جميع الآلهة الإغريق الذي أدخل في حياته الخاصة كإله هذا التوازن التبادلي، هذا الذهاب والعودة من الواحد إلى المتعدد، ومن الذات إلى الآخر، من الكل المركّز إلى التشتت، بل إنه يتبنى هذا التوازن التبادلي في معرض شغف يحيط بالبشر في حياتهم على نحو مباشر نظراً لأن هذا الشغف يؤسس ميثياً بؤس الوضع البشري ويفتح في الوقت نفسه على مستوى الشعائر السبيل أمام الخلاص. وبهذا المعنى يمكننا أن نقول إن الثيوجونية الأورفيوسية كلها كانت متوجهة نحو الأنثروبوجونيا ‹ سيرة توالد البشر› التي كانت الـ «ثيوجونية» ‹سيرة توالد الآلهة› تمثل بالنسبة إليها ما يشبه التمهيد، والتي انتهت إليها نهائياً في الجيل السادس؛ عندئذ، وعندئذ فقط، يستطيع النشيد أن ينقطع. أما جثمان ديونيسوس الممزق الذي قطّعه التيتان إرباً، ثم أعادوا تكوينه ابتداءً من القلب الذي حفظته معجزة، ففيه سجل مكتوب وتلخيص مدون يشمل العملية الثيوجونية السابقة كلها. ولكن هذه العملية تتخذ منذ ذلك الحين معنى إنسانياً خالصاً. ولا يقتصر الأمر على أن الجنس البشري المتولد عن رماد التيتان الذين حرّقهم البرق يحمل وزر أو ما يوشك أن يكون ذنب البعثرة الإجرامية للأعضاء الإلهية، بل إن البشر يستطيعون أن يتطهروا من خطيئتهم الأسلافية بممارسة الشعائر الأورفيوسية وأسلوب الحياة الأورفيوسية، وأن يرجعوا من خلال ديونيسوس إلى الوحدة المفقودة وأن يجدوا مرة أخرى حياة عصر ذهبي لا يضعه الأورفيوسيون - مستلهمين هنا أيضاً هيسيودوس ليختلفوا عنه - في زمن كرونوس، بل في عصر فانيس ميتيس، أي في عصر الكل الأول و«الواحد» الأصلي.

وتحول زوجة زيوس الأولى إلى ربة قوية أولانية لا يترجم فقط في بيئة طائفية رغبة جدالية تجاه الميثولوجيا الشائعة. إن ترقية ميتيس، بانتزاعها من وضعها الأنثوي والصعود بها إلى قمة الهرم الرباني تستجيب لبعض السمات التي كانت من قبل مبينة بوضوح في ثيوجونية هيسيودوس وكانت تقدر سلفاً لهذه الشخصية الميثية أن تلعب دور الوالد الأول في مبدأ العالم. فميتيس قوة مائية. سائلة، متعددة الأشكال، ذات خاصيات مخصّبة ومربية مثل أخواتها الأوقيانيديات، شديدة القرب من أمها تيثيس - التي يذكر تراث قديم يضمنه هوميروس - أنها بما هي والدة كل الأشياء génesis pántesi ولدت كل الأشياء، إلهية وبشرية. ولقد كانت موهبتها التحورية تجعلها قادرة على التعبير عن الدورة الكاملة لدائرة الأشكال، الأشكال المتضمنة سلفاً على نحو ما في الصورة الأولانية archaia morphé والراجعة في نهاية الدورة إلى أصلها الأول. ونذكر أخيراً - وبصفة خاصة - أن توافقات

ميتيس مع الحرص الأريب والتفكير الماكر كانت تسمح بإضفاء بُعدٍ من الذكاء وقيمةٍ من التمثل المسبق على القوة الأولانية وتمكن على هذا النحو من تأدية معزوفة التكوين على مستوى كوني عقلي مزدوج: فميلاد الكون قوامه بزوغ شيء إلى النور كان في البداية متوارياً في ظلام الأول الوالد، في بطنه الأجوف؛ ولكن هذا النشوء يعرض على أنه عملية من المستوى الذهني، شبيهة بالعملية التي يقوم بها ذكاء عرّاف عندما يعي ويدبر ويجهز في رأسه مسار الأحداث القادمة حيث إن المستقبل يكون - ساعة التمثل - قد تقرر سلفاً في ذهنه قبل أن يتحقق في الواقع الخارجي. وهنا تجد القدرة على الربط التي تملكها ميتيس حقل تطبيق جديد. ونحن نعرف أن الإغريق كانوا يعتقدون أن القدّر الذي «يربط» البشر «تغزله» الموبراي Moirai. كذلك القوة الأولانية ، بما تتسم به من دهاء ميتيسي، ومكر عليم، تنسج وتضفر وتضم وتعقد الخيوط التي يصنع تداخلها نسيج المستقبل، إذ هي تربط في نسيج واحد - على النحو الذي يتم عليه تدبير الفخ - تتابع الأجيال والأحداث. أما إن هذا النموذج المتمثل في عملية نسج ذكية قد استخدمه الأورفيوسيون قبل العصر الهيلليني بكثير،ليصفوا عملية التكوين، فهو أمر نجد الدليل عليه في ملحوظة سجلها أرسطوطاليس، حيث ذكر أن أبيات الشعر المنسوبة إلى أورفيوس جاء بها أن الكائن الحي يتم إنتاجه ginesthai tò zoion بنفس الكيفية التي يتم بها ضفر خيوط شبكة homoios ... tei toû diktúou plokei[١٤].

وبَردية ديرڤيني Dervini تقدم شواهد قيمة تؤكد هذه النقطة. في العمود ١٤ من البردية يشرح المفسر بيتاً من القصيدة الأورفية ربما كان Moîra epéklosen: (= مويرا غَزَلَت) فيرى أن من الممكن، في اللغة الجارية، التعبير عن هذا المعنى بقولنا:«سيحدث ما غزلته مويرا». ويضيف: «أورفيوس أطلق على phrónesis (= الذكاء) ، اسم "مويرا" ... قبل أن يتم تعيين زيوس بالاسم، كانت مويرا أي ذكاء الرب موجودة، في كل زمان وفي كل مكان.» وفي العمود ١٥ يستأنف التفسير: «عندما يقول قائل إن مويرا Moira غزلت فإنه يعني إن ذكاء زيوس قد حدد الأشياء الحاضرة والماضية والمستقبلة، كيف ينبغي أن تنشأ وتوجد وتفنى.» ونكاد نجد ما يغرينا بأن نقول مع ميركلباخ Merkelbach إن هناك قرابة بين الحرص (النجابة) phrónesis الفرونيسيس الذي يجده المفسر في القصيدة الأورفيوسية والنويسيس nóesis الذي قال به ديوجينيس Diogenes الأپوللوني أو النوس Noûs الذي قال به أناكساجوراس Anaxagoras[١٥]. وعلينا أن نضيف هنا أن مصطلح فرونيسيس phrónesis له قيمة أقل تجريداً، أقل في الذهنية والفلسفية الخالصة من النويسيس أو النوس، وإنه يعني حرصاً أريباً مميزاً للدهاء الميتيسي.

وفي العمود الرابع بالبردية ينصب التفسير على بيت شعري كان أورفيوس يتغنى فيه بزيوس إذ يخلق الأوقيانوس - المحيط - ذت التيار الواسع. هذه العملية الخلقية يعبر عنها بالفعل ميساتو mésato : زيوس «تَمَثَّل»، «وَعَى» قوة المحيط. فالتحقيق الخارجي ‹للأشياء› والإنشاء الديميورجي البنائي يَكُونان في البداية «فكرة» داخلية في عقل زيوس، ويحدد المفسر بدقة هذه القيمة médomai ميدوماي مشدداً على أن زيوس لا يُحدث موجوداً في الواقع لا يكون هو ذاته، أو يكون غريباً عن حرصه phrónesis : فقوة المحيط هي قوته هو. ونفس مصطلح ميساتو mésato الذي يرد أربع مرات في واحد من المجتثات المرتبطة بثيوجونية الرابسوديين والتي تتغنى بخلق ديميتير Déméter - ونميل أكثر إلى استخدام كلمة «اختراع» (بالفرنسية invention) - الأمبروسيا والنيكتار والعسل [١٦]. واللفظ نفسه هو الذي استخدم في مجتث آخر من المجموعة ذاتها للتعبير عن خلق فانيس ميتيس القمر : «تمثلت mésato رضاً أخرى يسميها الخالدون سيلينه seléné ويسميها أهل الأرض مينه méne [١٧]»

وفي العمود ٢٠ من البردية إشارة على وجه التحديد إلى خلق القمر، أو على الأحرى - نظراً لأن الخالق في هذه المرة ليس فانيس ميتيس، ولكن زيوس - فالمقصود هو : إعادة خلق القمر. ويبين المفسر أن العملية العقلية التي يقوم بها زيوس عندما يعي أو يخترع القمر، تستجيب لغائية لا تقل عقلية من وجهة نظر البشر. ففي ظلمة السماء الليلية «يُظهر» phainei القمر لأعين أولئك الذين يعرفون التفكير إشارة تعلمهم ما ينبغي عليهم عمله أو الكف عنه. فالقمر يعرّف الفلاحين متى يزرعون والملاحين متى يبحرون. «فلو لم يوجد القمر، لما عرف الناس الحساب arithmón ولا الفصول ولا الرياح.» فلما «تمثل» زيوس القمر كان يفكر سلفاً في الدهاء الميتيسي عند الفلاح الذي يعرف كيف يتتبع نظام فصول السنة، وعند الملاح الذي يستطيع أن يفك في النجوم شفرة اتجاه الرياح وطرق الملاحة التي سجلها فيها الذكاء الإلهي.

والمادة التوثيقية التي لدينا عن فانيس ميتيس Phanès-Mètis الأورفيوسية يعتورها النقص أشد النقص، والتشتت أشد التشتت، مما يحول بيننا وبين تقديم تحليل مثل التحليل الذي قدمناه عن الميتيس ‹الدهاء الميتيسي› في ثيوجونية هيسيودوس وفي تراث هيسيودوس .ومن هنا فإن تناولنا موضوع فانيس ميتيس سيكون بالضرورة أقل مباشرة. ولهذا فقد اعتمدنا طريقة توضيح طولية على نحوٍ ما في المقارنة بهيسيودوس، بنيناها على

أساس الاختلاف، في سعينا إلى استخلاص السمات الخاصة للثيوجونية الأورفيوسية وبيان توجهها الخاص. ومن الممكن السير في هذا الطريق نفسه إلى أبعد من ذلك، لإلقاء الضوء من ناحية أخرى على الشخصية الميثية لفانيس ميتيس ووضعها ووظائفها.

ولقد أتيحت لنا الفرصة لتحقيق هذا الهدف بعد اكتشاف إ. لوبيل E. Lobel بردية نشرها في عام ١٩٥٧. هذا البردية عبارة عن تفسير على قصيدة كوسموجونية <عن نشأة الكون> كتبها ألقمان Alcman في اسبرطة في القرن السابع قبل الميلاد. تبين لنا هذه البردية منذ العصر العتيق الأرخائي كيف أن شاعراً قليل التخصص في اللاهوت مثل ألقمان - كنا نتصور شعره محصوراً في الموضوعات الخاصة بالغنائية الكورالية - كان قادراً على أن يتغنى برواية عن نشأة الكون تختلف اختلافاً شديداً عن رواية هيسيودوس. ونلاحظ على ثيوجونية ألقمان التي نستخلصها من روايته هذه أنها لا تتسم بأي سمة أورفيوسية، بل تستخدم بعض النماذج الميثية التي قام الدليل هكذا على قِدَمها والتي ليست بلا علاقة بالنماذج الميثية التي تستخدمها الأحاديث المقدسة hieroi lógoi.

جعل ألقمان في ثيوجونيته في أصل العالم النيريادية <الحورية> ثيتيس Thétis، تلعب دورها مشتركة من ناحية مع پوروس Póros و تيكمور Tékmor ، ومن الناحية الثانية مع سكوتوس Skótos [١٨]. فكيف نفسر هذا الدور - الذي يبدو لأول وهلة تناقضياً - هذا الدور الذي جعل ألقمان ثيتيس، أم أخيلليوس Akhilleus، تلعبه في نشأة الكون واشتراكها مع پوروس وتيكمور وسكوتوس؟

بالنسبة إلى الخطوط العريضة لمنظومة ألقمان نحن نقبل الاستنتاجات التي وصل إليها ويست M. L. West ولخصها في مقاله الأخير: في الأصل كانت هناك حالة لا شكل لها، لم يكن فيها شيء يمكن تمييزه [١٩]؛ ثم كانت هناك ثيتيس التي يبدو أن عملها كان يتسم بسمة الخلق؛ ثم ظهر بعد ذلك پوروس وتيكمور في صحبة سكوتوس، وكان تيكمور على الأقل يعمل عمل مبدأ التمييز في الظلام؛ وبفضل پوروس وتيكمور تبع النور - نور النهار ونور النجوم الليلية - الليل البهيم، والحلكة المطبقة الشاملة [٢٠].

وننحي جانباً مشكلة هامة لا يمكننا أن نعالجها في نطاق هذه الدراسة. فالمفسر الذي فسر ألقمان يقول ما نفهم منه أن ثيتيس تعمل عمل صانع المعادن [٢١]. ويمكننا أن نذكر في هذا المقام أن السماء كانت فعلاً بالنسبة إلى ألقمان كما كانت بالنسبة إلى هوميروس من البرونز. وكان ألقمان يجعل من أورانوس Ouranos ابن أكمون Akmôn السندال [٢٢]. ومن ناحية

أخرى نفهم أن هيفايستوس عندما اندفع هاوياً من أعلى السماء (مثل السندال ákmon البرونزي الذي ذكر هيسيودوس أنه وقع من السماء على الأرض) (٢٣)، كانت ثيتيس هي التي تلقفته سراً في عمق البحر، وكانت هذه الربة البحرية هي التي تَلَقّى لديها أصول صناعة المعادن، حيث تعلم تشكيل روائع المصنوعات الفنية daidala(٢٤). وجدير بالذكر أن الشياطين البحريين اتصلت بينهم وبين صناعة المعادن توافقات صحت بخاصة لدى شخصيات مثل التيلخينيين Telchines (٢٥). وكانت ثيتيس نفسها تحمل كُنيةً يمكن أن تكون لها دلالتها في هذا المقام، ألا وهي Purrhaie ١١٢: أي الوهّاجة التي احمرت وتوهجت في النار(٢٦). وأياً كان الأمر فقد قدم ويست M. L. West في دراسته الأخيرة أسانيد قوية جداً دعم بها الرأي الذي يؤكد أن القول بأن الربة ثيتيس تقوم مقام الأب الأول صانع المعادن الذي صنع السماء على طريقة الخالقيوس khalkeús ‹المعدّن، الحداد› (٢٧)، ليس قول ألقمان، بل قول المفسر.

وسواء قبلنا بهذا الحل أو بغيره من الحلول في شأن هذه المسألة، فهناك مشكلة قبلها تظل قائمة: كيف يمكننا أن نبرر صفة الربة العظيمة الأولانية التي تُخلع على ربة صغيرة جداً مثل ثيتيس، وفي وقت كانت لهذه الحورية البحرية النيريدية في اسبرطة أيام ألقمان معبدها وصنمها xóanon المستور الذي لم يكن لأحد سوى الكاهنة أن تراه (٢٨)، ولقد قبل جمهرة الباحثين ما ذهب إليه بورا Bowra ولويد چونس Lloyd Jones وهو أن ثيتيس إذ تظهر في ثيوجونية ألقمان فهي لا تظهر فيها على هيئة ربة بحرية وزوجة پيليوس التي نالها غصباً بأن طوقها بذراعيه تطويقاً دونه كل قيد وتمكن منها على الرغم من قدرتها على التحور، بل تظهر نتيجة لسبب آخر وهو أن اسمها " Thétis ثيتيس" أتاح للشاعر نوعاً من اللعب البديعي بلفظة "تيثيمي tithemi" ‹= صهر، صنع، أنشأ، أبدع الخ›، فتكون ثيتيس اسم فاعل ‹من الفعل: تيثيمي› يعني : تلك التي تصهر، وتدبر وتنشئ وتبدع. هذا التأويل يمكن أن يستند إلى شواهد من "الحاشية" على لوكوفرون Lycophron، أليكساندرا Alexandra، ٢٢، حيث توصف ثيتيس بأنها أيتيا إيوثيسياس aitia euthesias أي = سبب إبداع الكون، ومن الحاشية تاو T على الكتاب الأول من الإلياذة (٣٣٩): «يقولون إن ثيتيس هي إبداع وطبيعة كل شيء ten thésin kai phúsin toû pantós». ولكن هاتين الحاشيتين تتجاوزان ما يسعى الساعون إلى إثباته. فثيتيس لا توصف فقط بأنها ثيسيس thésis ‹= المبدعة›، بل توصف بأنها طبيعة كل phúsis toû pantós ؛ والحاشية على لوكوفرون أكثر صراحة: فهي

تصف ثيتيس Thétis he thálassa بأنها البحر وتحدد بدقة أن ثيتيس هي سبب الإبداع euthesia لأن العنصر السائل وهو أصل الكون عندما جمع وتكثف ظهرت الأرض اليابسة ephàne he xerá فتحقق حسن نظام الكون eukosmia (٢٩). فاللعب بالألفاظ حول ثيتيس ثابت بالشواهد، ولكنه يرد في إطار وصف لنشأة الكون يكون فيه البحر - ممثلاً في حورية الماء النيريدية - العنصر الأساسي.

والعجيب في الأمر أن البعض دهشوا للدور الذي أنيط بابنة نيريوس <ثيتيس>. ولكن بين تيثوس - زوجة أوقيانوس التي قدمها هوميروس على أنها أصل كل شيء génesis pántesi - وبين ثيتيس - زوجة پيليوس - هناك من الروابط الوثيقة ما يجعل الجدة والحفيدة تبدوان كالبديلتين (٣٠). ونحن نقرأ في «الميثوجرافيات الفاتيكانية» : Ophion, et secundum philosophos Okeanos, qui et Nereus, de maiore Thetide genuit caelum (٣١).

وثيتيس عند هوميروس تشارك جنية بحرية نيريدية أخرى تبرز مثلها من بين جوقة الربات البحريات المجهولات الاسم، هذه هي : يورونومي Eurynomè. ولقد استقبلت ثيتيس ويورونومي معاً هيفايستوس في أعمق أعماق الهاوية البحرية ، في ما يشبه المابعد البعيد عن الألهة والبشر جميعاً، استقبلتاه عندما اندفع هاوياً من أعالي السماء. ويورونومي هذه كانت تلعب في كوسموجونيات قريبة من كوسموجية فيريقوده السوري Phérécyde de Syros نفس دور الربة الأولانية الذي لعبته ثيتيس (٣٢). اشتركت يورونومي مع أوفيونيوس Ophioneus أو أوفيون Ophion- وهو شيخ من شيوخ البحر يشبه پروتيوس أو نيريوس أو تريتون - وحكمت العالم مع زوجها قبل أن يَخلع كرونوس وريا هذين الزوجين البحريين العتيقين ويسقطانها مدحورين من أعالي السماء إلى أعماق الأوقيانوس (٣٣). وكان للربة يورونومي، بما هي ربة البحر الأولانية، معبدها في فيجاليا، معبدٌ موصد مستور مثل معبد ثيتيس في اسبرطة. ولم يكن هذا المعبد يفتح إلا مرة واحدة في العام: فيرى الرائي في ذلك اليوم الصنم القديم يمثل الربة، نصفها امرأة ونصفها سمكة، مغلولة في قيود من الذهب(٣٤). فهي إذن ربة ذات قيود، تقيِّد وتقيَّد، مثلها مثل ثيتيس التي قيدتها ضَمّةُ پيليوس، ولكنها كانت متمكنة من القيود يشهد على ذلك ما جاء في الإلياذة من أنها هي التي خلصت زيوس من القيود بأن أخرجت برياروس من أعماق البحار، وكانت الآلهة كلها قد ثارت على زيوس وأجمعت أمرها على تكبيله (٣٥).

وهناك ربة ثالثة تتوازى ميثولوجيتها مع ميثولوجية ثيتيس حتى إن الربتين تبدوان فيهما

كاليديلتين، تلك هي ميتيس. يقول كوك A. B. Cook: «كانت ميتيس، مثلها مثل ثيتيس قوة بحرية؛ وكانت ميتيس مثل ثيتيس متحورة؛ وكانت ميتيس مثل ثيتيس حبيبة زيوس؛ وكانت ميتيس مثل ثيتيس مقدراً عليها أن تحمل ابناً من شأنه أن يخلع أباه.» (٣٦). ولقد شهدنا أن ميتيس في الثيوجونيات الأورفيوسية ترقّت وبلغت مبلغ الربة الأولانية. ومن الأسباب التي أتاحت لهذه الربات البحريات أن تلعب عند أصل العالم هذا الدور الكوسموجوني هو قدرتهن على التحور (٣٧). كُنَّ على نحوٍ ما يحتوين مقدماً في داخلهن كل الأشكال التي يمكن أن تظهر على مرالصيرورة، وكُنَّ تارة يخفينها وتارة يخرجنها إلى النور. هكذا نطالع في الثيوجونيات «الرابسودية»، أن زيوس، زيوس الماكر mérmeros ، ما يكاد يبتلع ميتيس حتى يضم في داخله «النار والماء والتراب والأثير، والليل والنهار، وميتيس الوالد الأول genétor » (أو الوالدة الأولى genétis بحسب ما إذا كانت الربة تعتبر مذكرة أو مؤنثة) (٣٨). وعلى النحو نفسه تبتهل الأنشودات الأورفيوسية إلى نيريوس من حيث هو مبدأ كل الأشياء ؛ وتدعو پروتيوس من حيث هو المولود الأول ، الذي أظهر مبادىء كل طبيعة páses phúseos archàs hós éphenen، محوِّراً المادة المقدسة بحسب كل صنوف الأشكال húlen allásson hierèn idéais polumórphais (٣٩). وبعد أن تنوه الأنشودة بالعلم الغيبي الذي أوتيه پروتيوس، فقد كان مثل ميتيس يعرف الماضي والحاضر والمستقبل، تختم بالكلمات التالية: Pánta gàr Proteî próte phúsis egkatétheke فالطبيعة الأولانية أبدعت في پروتيوس كل شيء، وهي عبارة تناظر تماماً ما ذهبت إليه الحاشية التي صورت ثيتيس على أنها طبيعة كل شيء وإبداع كل شيء phúsis kai thésis toû pantós .

هذه النصوص نصوص متأخرة ما في ذلك شك، ومن الصعب أن نحدد أصل التراث الذي تنتسب إليه. والشيء الوحيد المتاح لنا هو أن نلاحظ غُرّة الواجهة ذات الصور المنحوتة تعلو الهيكاتومپيدوم الذي يرجع إلى القرن السادس، وهي تصور صراع هيراقليس ضد تريتون، صراع البطل الذي طوق الوحش بنفس الضمة التطويقية التي أحاط بها پيليوس ثيتيس أو التي أحاط بها مينيلاس پروتيوس (٤٠)، ونرى الإله نيريوس يُخرج من الماء وجهَه المثلث الملتحي ويشاهد في مكر المنظر كله. وشيخ البحر يمسك في كل يد من أياديه اليسرى رموز العناصر المختلفة التي تجمعها طبيعته التي تتحور على أشكال عديدة، وهذه العناصر هي: الماء والهواء والنار (٤١).

وترتبط هذه القدرة التحورية لدى شيخ البحر والربات البحريات بشكل خاص من الذكاء

قوامه المكر والدهاء والخداع، يعمل عمله عندما يجد الأشخاص أنفسهم - بدلاً من أن يبتدعوا الجواهر العتيدة - في قبضة موجودات صيرورة رجراجة ومتعددة ومباغتة. في هذا العالم من التغير الذي لا يتوقف يحتاج الشخص إلى عقل پانتوپوروس pantopóros واسع الحيل، خصب المخارج، قادر في كل موقف على أن يبتكر خطة مناسبة للظروف (mechos, mech-ané, boulé)، وأن يجد المخرج والحيلة من أجل الخلاص من المأزق كما يقول أريسطوفانيس في «الفرسان» : أن تجد المخارج البارعة من المواقف المستحيلة ek ton amechánon pórous eumechánous porizein [٤٢]. ولقد شددنا كذلك على أهمية كلمات بعينها في الحقل الدلالي للدهاء الميتيسي من قبيل:-aiólos, poikilos, dólos, dólios, dolic téch ne, kerdaléos, kérdos, skoliós, mechané الحيلة، المكر، الخداع، المخاتلة، الاحتيال، المناورة، الاهتبال ،المماحلة، الإيهام، الإغراء، الغواية. ولنذكر في هذا المقام أنه إذا كانت بعض الكوسموجونيات الأورفيوسية تضع كرونوس في موضع أصل العالم - وهو كرونوس صاحب الدهاء الميتيسي الباقي Chrónos aphthitómetis الذي يحتضن فيه كل شيء مثلما يبتدع الدهاء الميتيسي لدى الإنسان الداهية مسبقاً الفخاخ المحبوكة ليوقع فيها ضحاياه. ذلك هو الزمن الداهية الذي يتحدث عنه پنداروس في الأنشودة البرزخية الثامنة، الزمن الداهية الذي يقلب ويقلب طريق الحياة بلا انقطاع، تارة من هذه الناحية، ومن تلك الناحية تارة أخرى dólios aión... helisson biou póron [٤٣].

ميتيس عند أفلاطون هي على وجه التحديد الدقيق أم پوروس Póros <= المَخرج، الطريق> الذي اقترن بپينيا Penia <= القفر> لينجب إيروس Érôs<= الحب> [٤٤]. وليس من شك في أن أفلاطون يتندر، ولكن من حقنا تماماً أن نصدق أنه على سبيل السخرية تناول موضوعات ميثية أكثر قدماً. وأفلاطون لا يقدم إيروس على أنه إله theós، ثيوس، بالمعنى الأصيل، ولكن على أنه شيطان دايمون daimon، وسيط يهيمن على عالم الصيرورة، في منتصف الطريق بين الأشكال الدائمة والهيولي المجردة من كل شكل ومن كل تحديد. ورث إيروس عن ميتيس وپوروس عقلاً نبيهاً، دائم اليقظة، لا يصعب عليه إيجاد المخارج póroi، لكي يجلب لنفسه porizein في عالم القَفر penia - الذي غاص فيه - كل الثروات التي انجذب إليها، أعني: الأشكال، المعرفة، الجمال. فالقَفر penia يمثل إذن على المستوى الميتافيزيقي قفر الشكل، الافتقار إلى الشكل، غياب التحديد. ولم يخطئ پلوتارخوس عندما ترجم پينيا <= القفر penia> بالهيولي أو المادة الخام [٤٥]. ولقد أصاب ويست M. L. West في ملاحظته أن وجود پوروس ‹الطريق، المخرج، وتيكمور tékmor (= الهدف،

الإشارة) في قصيدة ألقمان يفترض - قبل ظهورهما - أن تكون هناك حالة للمادة تتحدد سلبياً بوصفها áporon kai atékmarton بالافتقار إلى الطريق ‹پوروس póros› والهدف. الإشارة ‹تيكمور tékmor› بمعنى الپينيا القفر penia (٤٦). هذه هي نفس الطريقة السلبية الاختزالية التي فهمت بها النصوص الأورفيوسية الأكثر تأخراً ، فالظلمة العظمى ‹الميجا خاسما méga chásma› توصف بالسلب والاختزال بأنها الظلمة التي تفتقر إلى كل شيء ástaton kai ápeiron kai aóriston والتي هي بلا ثبات وبلا تحديد وبلا تمييز؛ وهي كذلك adiakriton pánton ónton katà skotóessan omichlen ، حيث إن كل شيء -نتيجة غياب التمييز والتحديد -مضطرب مختلط في غيام حالك؛ إنها هوة بلا حدود وبلا قاع وبلا أساس oudé ti peirar hupen,ou puthmén, oudé tis hédra (٤٧)، بينما نجد نيريوس في الأناشيد الأورفيوسية على هيئة المقابل الإيجابي في وجه هذا السلب والاختزال والافتقار، فهو قرار وقاع البحر وهو حدود الأرض وهو مبدأ كل الأشياء (٤٨) ...hédren .puthmen póntou, gaies péras, arche hapánton

هل اخترع أفلاطون العلاقات بين ميتيس وپوروس وإيروس اختراعاً كاملاً؟ كان إيروس يلعب من قبل دوراً في الكوسموجونيات التي يسخر منها أريسطوفانيس في مسرحية «الطيور» (٤٩). عندما نجم من البيضة الكونية التي وُضعت في حضن إيريبوس Erébos ‹الظلمات الكونية الصفيقة› التي لا حد لها Erébous d'en apeirosi kólpois، أتى بالنورعلى جناحيه الذهبيين الشبيهين بالإعصارين فظهر للأبصار كل ما كان من قبل مهوشاً غير متميز. وعلى النحو نفسه تدعو الأنشودة الأورفية إلى پروتوجونوس Protógonos تحت اسم فانيس ذلك الذي «بدد الظلمة الحالكة» skotóessan homichlen والذي أتى بالنور الباهر lampròn pháos على جناحيه (٥٠). صحيح أن أريسطوفانيس لا يتكلم عن ميتيس ولا عن پوروس. ولكن ميتيس كانت عند هيسيودوس شخصية مكتملة التشخيص. وكان لها عنده وضع ربة حقيقية وهامة يحدِّث المحدِّثون أخبار مغامراتها. وإذا كان زيوّس اتخذها زوجة أولى، وكان زواجه تكريساً لانتصاره في معارك السيادة الملكية، وإذا كان ابتلعها ليضمن لحكمه دواماً خالداً، فإنما كان السبب في ذلك هو أن ميتيس كانت «تعرف من الأشياء أكثر مما يعرف أي رب أو أي إنسان فان» وأنها ستتيح لزيوس، عندما تكون في داخل جوفه، أن «يعرف مقدماً ما سيصيبه من يسر أو عسر» (٥١) أي يعرف مقدماً كل صروف الصيرورة. ولسنا نجد عند ألقمان في نصنا أن پوروس له شخصية مشخصة فحسب، ولكنه مفهوم على أنه إله أولاني ، لأننا نجده في قصيدة ثانية پارثينيون Parthencion اللوڤر يكون ثنائية مع

أيسا Aîsa، ‹أيسا = القدَر› ، تحت اسم جيرايتاتوي geraitatoi أي = أقدم الآلهة (٥٢).
ويمكننا من ناحية أخرى أن نستنتج من مجتث لپارمينيديس أن أفلاطون لم يكن عليه أن يخترع العلاقة بين ميتيس إيروس. فپارمينديس عندما يترك وصف مجال الوجود ليتناول مجال الصيرورة، يصور في المشهد ربةً أنثى كبيرة كان يمكن أن تطلق عليها أسماء مختلفة: ديكي، أنانكي، أفروديتي Dikè, Anankè, Aphrodite. هذا الشيطان daimon الذي يحكم العالم المتعدد والمتغير – حيث يتعارض النور والظلمة تعارض الند للند – ينجب إيروس فيكون هو أول وأقدم الآلهة. ولكن اللفظة التي تدل على إنجاب إيروس القديم تكشف في الربة الكبيرة عن ربة ذات دهاء ميتيسي. ويكتب پارمينيديس Parmenidês: «وحملت» إيروس أول الآلهة قاطبة protiston mèn Érota theon metisato pánton (٥٣). وشبيه بالفعل ميدوماي medomai الذي نبهنا إلى استخدام الأورفيوسيين إياه (وهذا الشبه والتوازي له دلالته) نجد هنا الفعل ميتيوماي metiomai الذي يتضمن نوعاً من الخلق، عملية عقلية، عملية ذكاء (أكثر منه عملية ولادة تقوم بها الربة الأم) خصيصة بشيطان دايموني أريب يحكم العالم kubernaî ممسكا بالدفة فيرسم له مقدماً طريقه مثل الربان الذي يوجه السفينة في البحر.

هذه المقارنة بين الصانع الإلهي وبين الربان لها ما يبررها حيث إن حركات النجوم والشمس التي ينتظم عليها مسار الصيرورة ، ترسم في السماء دروباً وسبلاً ومسالك hodoi, ké-leuthoi, póroi، وهي طرق مرئية تحدد مختلف مناطق الفضاء ، وهي أيضاً طرق أو بوابات البحر póroi halós حيث إن النجوم تبزغ من المياه عند ظهورها وتعود فتغوص فيها من جديد(٥٤)، والشمس بخاصة تبدأ كل يوم رحلتها الملاحية الليلية من خلال نهر أوقيانوس. هذه الرحلة الملاحية تعبر عنها الأفعال diapléo, peraino, poreúo أو تعبيرات مثل ذلك الذي استخدمه إيسخيلوس في مجتث «بنات الشمس» الذي استشهد به أثينايوس "Diabállei polùm oidmatóenta peridromon póron" أي يجتاز التيار الدائري بأمواجه العارمة (٥٥). وطبقاً لرواية ذكرها ديودورس الصقلي يكون أوينوپيديس Oinopidès قد تعلم معارف تلقاها من الكهنة المصرية من بينها أن الشمس لها «مجراها» المائل loxen échei ten poreian (٥٦). وقصيدة الأرجونوتية ‹ملاحو سفينة أرجو› «أرجوناوتيكا Argonautika» المنحولة إلى أورفيوس تتحدث أيضاً عن نجم ساطع ينطلق من خلال «دروب» الهواء (٥٧)؛ كما تتحدث عن العراف الذي تعلم «طرق» النجوم-àstron pa-reias (٥٨) مثل أنكيوس Ankaeus الذي سيحل محل الملاح تيفوس Typhos على دفة

السفينة "أرجو" والذي يستطيع أن يوجه مسارها لأنه يعرف poreias ouranias ástron[٥٩] أي يعرف الطرق السماوية للنجوم. وأراتوس Aratos يحدد بدقة الاسم الذي أطلق على ثريا ‹نجوم› پليادیس Pléiádes فيقول الاسم هو هيپتاپوروي Heptáporoi أي "الدروب السبعة" ويذكر أثينايوس عنها أنها Heptáporoi tekmairontai tà peri ten zoen hoi ánthropoi «الدروب السبعة التي يستخلص منها الناس إشارات عن حياتهم » - عن طريق حياتهم póros biou.

بل ربما كان من الممكن إن نحدد مكان ومعنى هذه الدروب السبعة poroi التي هي أهداف وإشارات tékmar للناس. ففي أقصى الأفق البحري، حيث تبدو القبة السماوية كأنها ترتكن على سطح المياه وحيث كان الإغريق يرسمون المجرى الدائري لنهر أوقيانوس، هناك ترسم الهيپتاپوروي دروب الپليادیس السبعة Heptáporoi– وهي تجاوز المضايق المؤدية من أعماق البحر إلى السماء - المسالك التي تصل مكان البشر ومكان الآلهة بعضهم بالبعض. و‹نجوم› الپليادیس كما يؤكد أراتوس «مشهورة باسم الدروب السبعة الهيپتاپوروي Heptáporoi على الرغم من أنها ستة دروب فقط تبدو للأعين. ولا يرجع هذا إلى أن نجماً منها - إلى أبعد ما تحفظ ذاكرة البشر - تلاشى من السماء. ولكن هكذا يحكون الحكاية. وهكذا يسمون سبعة باسم مميز.» ولدى بعض الشعراء، وبخاصة سيمونيديس وبنداروس، تتسمى الپليادديس Pléiádes پيليناي Péleiai أو پيليئيادیس Peleiádes ، وهي "حمائم" السماء التي تهرب فراراً من أوريون Orion الصياد المتوحش. وننقل عن موئيرو Moirô البيزنطي واللغوي قراطيس Kratès، أن أثينايوس لاحظ أن هذه الحمائم السماوية مكلفة بمهمة تتمثل في إحضار الأمبروسيا لزيوس، والأمبروسيا هي شراب الخلود الذي يغترف من مياه نهر أوقيانوس، عند منتهى العالم الأرضي، على حدود البحر والسماء. وهكذا نجد تفسير العبارة اللغزية التي قالها هوميروس عندما وصف في الأوديسا البلاجكتاي Plagktai أي الصخور «الرجراجة» التي تمثل المضيق الذي لا يمكن لسفينة بشرية عبوره. حتى الطيور - على حد تعبير هوميروس الدقيق - لا يمكنها عبوره «حتى الحمائم pé-leiai الخوافة التي تذهب إلى زيوس الأب بالأمبروسيا. ولكن الصخرة الناعمة تأخذ في كل مرة إحداها ويكون على زيوس أن يقدم بديلاً لها حتى يكتمل العدد.» [٦٢]. تجري الأمور كلها إذن كما لو كانت واحدة من الحمائم السماوية تضيع كل يوم، وهو ما يعني - كما عبر أراتوس Aratos بتعبير آخر - أن الناظر لا يمكنه أن يرى إلا ستة؛ ولكنها على الرغم من ذلك تسمى الدروب السبعة لأن زيوس لا يريد لعددها أن ينقص. والپليادیس بنات أطلس Atlas؛

ولهذا فلنا أن نفترض أن الصخرة الناعمة lis pétre عند هوميروس، تلك التي ينبغي عليها أن تعبر من فوق قمتها، هي «عمود من أعمدة السماء التي يعتبر أطلس رمزها، عمود يفصل بين الأعلى والأسفل، بين السماء والبحر، مهيئاً بينهما هذا المضيق الذي تسلكه البلياديس كل يوم عندما تنطلق في السماء لترسم طُرُقَها póroi.

من حقنا إذن أن ننسب إلى پوروس Póros المشخَّص في شعر ألقمان Alkman دوراً مناظراً للدور الذي أقر الشراح عموماً بأنه أنيط بتيكمور Tékmor. پوروس يدس في ظلمة skótos السماء والمياه المختلطة أصلاً دروباً متمايزة تُظهر للأعين على القبة السماوية وعلى البحر اتجاهات المكان المختلفة، فتوجّه امتداداً كان من قبل خالياً من كل خط ومن كل علامة هادية áporon kai atékmarton (٦٣)،

هذا التناسق الوظيفي بين الپوروس Póros والتيكمور Tékmor اللذين يرافقان ثنائياً الربة البحرية ثيتيس، نفهمه على نحو أفضل إذا نحن أخذنا في حسباننا اشتراكهما في مفردات الملاحة التي ينتمي فيها فن الربان وبالتحديد دهاء الربان الميتيسي (٦٤) إلى التنبؤ وعلم النجوم في آن واحد: فالربان إذ يسعى إلى تحديد مساره على الامتداد غير المتمايز للبحر يكون عليه أن يخمنه اعتماداً على الإشارات التي تعرفه الآلهة بها، وبخاصة مسار النجوم في السماء الليلية. وهيسوخيوس Hésychius و‹موسوعة› "السودا" Souda < حرفياً «الحصن» موسوعة ضخمة بالإغريقية مجهولة المؤلف» (٦٥) يقدمان إلينا تعبيراً يجري مجرى الأمثال ونقرأ عنه تحديداً أنه مأخوذ أصلاً من لغة الملاحة: ástrois tekmairesthai أي ‹= ينجّم› يخمن اعتماداً على النجوم، ويستخدم هذا التعبير في شأن أولئك الذين يقومون برحلة (أو رحلة بحرية) متبعين مساراً طويلاً ومنفرداً epi ton makrán kai eremen hodòn po-reuoménon. هكذا كان الأرجونوتية بحارة سفينة أرجو Argo يجتهدون في تخمين موضع المضايق pórous t'apetekmaironto لكي يخرجوا من مياه المستنقعات الضحلة التي تاهوا فيها، ولكنهم إذ أعوزهم دهاء ميتيسي مناسب oútina metin échon وجدوا أنفسهم مضطرين إلي التخبط عميانياً (٦٦). وكما أن الملاحين يخمنون tekmairesthai طريقهم اعتماداً على إشارات مختلفة، كذلك الآلهة والعرافون يعرفونهم طريقهم tekmairesthai بأن يحددوا مقدماً الاتجاهات والإشارات والعلامات الهادية. وإذا كان فايتون Phaéton – على حد قول المؤلف المجهول لـ Peri apiston – قد بين للشمس طريقها tòn toû heliou diómon etekmérato (٦٧)، كذلك كان الملاح تيفوس بدوره قادراً على أن يوجه رحلة سفينة

"أرجو" مسترشداً بالشمس والنجوم tekmairesthai plóon eelioi te kai astéri ⁽٦٨⁾. وأوليسيس يحكي لرفاقه في الأوديسا أن كيركي Kirké حددت لهم طريقاً مختلفة állen hodòn tekmérato ⁽٦٩⁾. وتوجيه الربة الملاحين إلى الاتجاه الذي ينبغي عليهم اتباعه يعني ضمنياً بداهةً أن حددت لهم علامات دقيقة تدل على الطريق. وفي فقرة أخرى، عندما أصدر كاليپسو أمره بالملاحة، جاعلاً الدب على يساره، أمسك أوليسيس Kalypso يد الدفة يوجهها pontoporeuémenai دون أن ينصرف بعينيه عن السماء الليلية ⁽٧٠⁾. هكذا تبعت طريق السفينة طريق النجوم، هذه النجوم التي هي كما يقول أوريبيديس عن sema kunós في مسرحية "هيكابي" Hékabê أي علامة ملاحية هادية nautilois tékmar، علامة تتيح للملاحين أن يحددوا طريقهم ⁽٧١⁾.

أما المعنى الكوسمولوجي الذي يمكن أن تكتسيه كلمة مثل تيكمارtékmar مرتبطة بمفهوم الطرق السماوية والبحرية، فيبدو واضحاً في قصيدة الأرجونوتية - بحارة سفينة أرجوArgo لأپوللونيوس. عند قيام السفينة ينشد أورفيوس نشيداً، هذا النشيد يتحدث عن مولد العالم، وينوه برحلة ملاحي الأرجو - الأرجوناوتيكا - الذين يقومون لأول مرة بفتح طرق البحر وبتحديد <نهائي> أبدي لمضايقه، ويضفي على هذه الرحلة البحرية بعداً كوسمولوجياً تؤكده - كما سنرى - فقرة الكاتولاس katoulás التي تنتهي بها هذه الرحلة البحرية. يتغنى أورفيوس في نشيده بأصل الكون: كانت الأرض والبحر والسماء في البداية مختلطة مضطربة في شكل واحد يفتقر إلى التمايز، ثم انفصلت بعضها عن البعض الآخر تحت تأثير الصراع Neikos ؛ حينذاك كونت النجوم وطرق القمر والشمس في السماء عند الخروج من الخاوس الأولاني العلامة التي تحددت إلى الأبد-ed' hos émpedon aièn en aithéri tékmar éch ousin ástra selennaies te kai kéleuthoi ⁽٧٢⁾.

يبدو أن پوروس وتيكمور كان عليهما مجتمعين دور يتمثل في تبديد الظلمة الشاملة التي سادت في ليل المياه الأولانية وذلك بفتح الطرق التي من خلالها تستطيع الشمس في سيرها أن تُحضر نور النهار، وتستطيع النجوم أن ترسم في السماء الليلية الطرق المنيرة للأبراج. وإذا كان ألقمان قد اختار أن يشخص هذين المبدأين ليجعل منهما شريكي ثيتيس - ويفضلهما على ما عداهما، مثل "هودوس" hodós و"سيما" sema، فلابد أن السبب في ذلك أن قيمتهما الدلالية الأكثر ثراءً وتشابكاً كانت أصلح للعبة الخيال الميثي. فلفظة پوروس لا تعني فقط - بالمعنى الملموس إلى أبعد حد - طريقاً ، ممراً، معبراً، مخاضة ⁽٧٣⁾؛ وكذلك

لفظة تيكمور لا نعني فقط علامة مميزة، مؤشر، إشارة. بل للفظتين معنى عقلي واضح بالنسبة إلى پوروس في علاقته بالدهاء الميتيسي: إنه التدبير، المخرج الذي يكتشفه مكر كائن ذكي ليخرج من مأزق aporia. ونحن نرى في مسرحية «پروميثيوس» لإيسخيلوس أن پوروس مرتبطة بالتيخني téchne أي ‹التقنية› الحيلة. فالتيتان پروميثيوس منح البشر الحيلة حتى يجدوا الطرق téchnas te kai pórous؛ والنار ‹التي منحها› البشر توصف بأنها سيدة كل الحيل وكل الطرق العظيمة didáskalos téchnes páses kai mégas póros[٧٤]. كذلك تيكمار tékmar في بعض استخداماتها - كما لاحظ فرينكل Fraenkel بحق - لها نفس المعاني الضمنية النفسانية، فنجدها مرادفة لكلمة mechos أي تدبير ودواء لموقف عسير[٧٥]. ونفهم هكذا أن ثيتيس - وهي ربة بحرية أوتيت نفس نمط الذكاء الداهية والعقل الخصب الغني بالحيل الذي أوتيته ميتيس أو شيوخ البحر- تجذب بمجرد حضورها ومنذ أن تظهر : پوروس و تيكمور. ونص برديتنا (16-15 .1) يذكر : ما إن ظهرت ثيتيس ، حتى ظهر مبدأ كل شيء ومنتهاه جميعاً tes Thétidos genoménes arche kai télos háma pánton egéneto؛ وذكر المفسر أن لفظ "أرخي" arche الذي ورد بالنص هو پوروس، وتيلوس télos هو تيكمور، وأن ثيتيس لعبت دور تخنيتيس technites أي دور "صانع". وويست M. L. West يقيناً على حق عندما يؤكد أن ألقمان Alkman لم تكن لديه قط القدرة على أن يقول ‹من عندياته› شيئاً من هذا القبيل. ولكن المفسر هو الذي لصق على نص الشاعر ألقمان مفردات أرسطوطاليسية. ولكن ربما كان النص مهيأ لمعنى عكسي من هذا النوع حيث إن ثيتيس وردت فيه وقد أوتيت علماً، حكمةً sophia بالمعنى الأرخائي للفظة، أو حيلة téchne من قبيل الماحلة dolie téchne التي اصطنعها پروتيوس والتي تتحدث عنها «الأوديسا» [٧٦] وهي عبارة عن قدرته على التحور ومعرفته بكل هاوية وكل طريق من طرق البحر، لدى ذلك الذي قالت عنه الأناشيد الأورفيوسية إنه يمسك مفاتيح البحر kleidas póntou [٧٧]. ويصح أن نستعيد الخطوط العريضة لمغامرة مينيلاوس: نسمع أن الآلهة قيدت طريقه بأن غلت الرياح؛ وظل مينيلاس أسيراً في جزيرته لا يستطيع أن يركب البحر مرة أخرى [٧٨]؛ ونطالع في موضعين أنه لم يستطع أن يجد علامة tékmar ليخرج من هذا المأزق aporia، أي لم يصل إلى تدبير للخلاص مما حاق به وفي الوقت نفسه لم يصل إلى إشارة إلى الطريق التي يتبعها، إشارة تتيح له أن يستدل على مساره فوق الامتداد غير المتمايز من المياه [٧٩]. هنالك تدخلت أيدوثيا Eidothea، ونصحته بأن «يقيد» أباه [٨٠]؛ وإذا كان مينيلاس قد تمكن منه واستمر في ضمه على الرغم من مماحلته، فسيكون على الإله

البحري أن يقول له، دون مواربة منذ تلك اللحظة فصاعداً، ودون غموض atrekéos (٨١) «عن الطريق، وعن نقاط الاهتداء التي يقاس بها الطريق ذهاباً وإياباً hodòn kai métra keleúthou nóstón th' (٨٢).

ويمكننا إذن أن نفهم أن پوروس يمكن أن يصور على أنه الأرخي arché، تيكمور على أنه تيلوس télos. پوروس هو المسيرة، هو العبور؛ تيكمور هو الهدف، هو المنتهى. هكذا في الإلياذة (٨٣)، پوسايدون يمخر عباب البحر الذي ينفتح أمامه ليتيح له العبور؛ الرب يخطو ثلاث خطوات؛ وفي الخطوة الرابعة يبلغ الهدف hiketo tékmor الذي سعى إليه. وتيكمور مهيأ للاشتراك مع ثيتيس على نحو خاص حيث إن الكلمة تنتمي إلى مفردات العِرافة كما ينتمي إلى مفردات الفَلَك والملاحة البحرية، كما أنها تطلق على ظاهرة إشارة القضاء الإلهي boulé، وهي إشارةٌ تكون واضحةً للتعبير عن حكْمٍ وعن أن هذا الحكم مبرم لا راد له. فقد أعطى زيوس إشارة بجبهته عبر بها عن استجابته لرجاء ثيتيس وكانت هذه الإشارة قضاءً إلهياً مبرماً mégiston tékmor (٨٤). كذلك يتحدث موزيوس عن الإشارة من حيث هي الإشارة الإلهية tékmar enargés التي تبين بها الآلهة للبشر الفانين كيف يفرقون بين الخير والشر (٨٥).

ولقد اتخذ پوروس - أكثر من تيكمور - مكاناً إلى جانب الربة البحرية الأولانية ثيتيس لكي يعبر عن العبور من الامتداد البحري الخاوسي إلى مكان موصوف ومنظم. وتتيح لنا دراسات بوخهولتس Bucholz وليسكي Lesky وبينڤينيست Benveniste (٨٦) أن نحدد بدقة العلاقات بين پوروس Póros وپونتوس Póntos في الفكر الإغريقي الأرخي العتيق وفيما يمكن أن نسميه التجربة الدينية التي استمدها الإغريق من الملاحة البحرية والبحر. ولفظ پونتوس Póntos - على عكس الكلمات الأخرى الدالة على البحر thálassa, pélagos, kûma - يعني البحر البعيد، يعني المجهول في البحر البعيد، يعني الفضاء البحري ‹البعيد عن البر› والذي لا يرى منه الناظر الساحل، وحيث لا يبدو لمتطلع سوى السماء والماء يختلطان في الليالي الخالية من النجوم أو الغارقة في غمام العواصف فيتشكلان على شكل كتلة واحدة حالكة، غير مميزة، بلا نقاط اهتداء تدل على الطريق. وپونتوس، بما هو أبو نيريوس وجَدُّ ثيتيس، يناسب الحال من حيث تضاده مع صفحة الماء، ومع قاع البحر، الذي تَصَوَّروه هاويةً laîtma تخيم عليها نفس الظلمة التي تخيم على التارتاروس الغائم (٨٧). وقد بيّن ليسكي Lesky أن الأصل اللغوي لكلمة پونتوس Póntos يحدد معناها على أنه «الطريق

المستهدف». ثم بيّن بينفينيست Benveniste أن پونتوس تقابل الكلمة الڤيدية <التي جاءت في الڤيدات الهندية> pánthâh والتي تعني - على عكس الألفاظ الدالة على الطرق المرسومة، المحددة، والدروب الممهدة - الطريق من حيث هو لم يرسم مسبقاً، الطريق من حيث هو العبور الذي يحاوله البعض من خلال منطقة مجهولة نكراء، والطريق الذي ينبغي فتحه في موضع ليس به ولا يمكن أن يكون به طريق بالمعنى الخصيص. وبهذا المعنى فالپونتوس Póntos هو بحر لا يمكن اجتيازه áporon pélagos ⁽٨٨⁾ أو على الأقل هذه الهاوية البحرية التي لا يسهل اجتيازها ábusson pélagos ou mál cúporon والتي ينوه بها إيسخيلوس في «الضارعات» ⁽٨٩⁾. وإذا كانت سفينة أرجو هي سفينة پونتوپوروس pontopóros neûs، وإذا كانت أخت ثيتيس - وهي نيريدية - تحمل اسم پونتوپوريا Pontopóreia ⁽٩٠⁾، فإن السبب في ذلك هو أن كل إبحار في أعالي البحار، من حيث هو عبور للپونتوس يمثل مغامرة تتجدد في كل مرة، واستكشافاً في مكان بكر، لم يمسسه بشر من قبل، وليس فيه أدنى أثر بشري، وطريقاً póros ينبغي فتحه وإعادة رسمه مجدداً المرة تلو المرة بلا انقطاع فوق الامتداد السائل كأنما لم يكن هناك من قبل قط طريق قد رسم.

وبهذا المعنى يكون هناك في فكر الإغريق الميثي مكان يناظر الامتداد البحري. فهذا هو هيسيودوس يحكي أننا إذا أسقطنا من أعالي السماء سندانا أو رجماً ákmon فإنه يبلغ الأرض بعد تسعة أيام، وهو يقطع المسافة من الأرض إلى التارتاروس في نفس الفترة من الزمن. أما إذا قذف به إلى جوف التارتاروس فإنه لن يبلغ قاعه ولا بعد سنة ، بل يظل هائماً ضالاً لا يبلغ نهاية ⁽٩١⁾. وليس من الممكن اجتياز التارتاروس لأنه ليس به اتجاه ثابت أو محدّد. بل هو ظلمة غائمة، هو كتلة حالكة لا فوق لها ولا تحت، لا يمين لها ولا شمال، هو مكان بلا اتجاه. ويعبر هيسيودوس عن غياب الاتجاه تعبيراً تصويرياً فيقول إن التارتاروس تغشاه الزوابع thúellai التي تهب هنا وهناك éntha kai éntha، تارة في هذا الاتجاه، وتارة أخرى في ذلك، زوابع مستمرة تمزج وتخلط كل اتجاهات المكان في ليلة ليلاء شبيهة بليلة الخاوس الأولاني ⁽٩٢⁾.

والپونتوس Pòntos <البحر> كان من الممكن أن يظل شبيهاً بالتارتاروس الذي حكى عنه هيسيودوس والذي كان هو نفسه صورة من الخاوس ⁽٩٣⁾، لو لم تجلب ثيتيس معها پوروس Póros وتيكمور Tékmor. إذا كانت هناك سفينة بأعالي البحر في الليل، على بعد لا يرى الناظر منه أرضاً تلوح للبصر في الأفق، فالمكان البحري لا يفتقر إلى اتجاه وانتظام. بل هو

يشتمل على اتجاهات ثابتة، أولاً لأن حركات النجوم المنتظمة في السماء تمثل إشارات مضيئة يستخدمها الملاحون علامات هادية؛ وثانياً لأن بعض الرياح، وهي الرياح المنتظمة، رياح الزفيروس Zephyrus والبورياس Boreas والنوتوس Notos التي تهب دائماً في نفس الأوقات، وفي نفس الاتجاهات، ترسم طرقاً تكتنف المكان البحري. هذه الرياح هي التي تحمل السفن من ساحل إلى الساحل المقابل، في اتجاه محدد، فوق ظهر البحر الفسيح، «مثل تيار النهر» (٩٤). وكتاب الرياح Peri anemon يشدد على أن بعض الرياح خصصت لهذا النوع أو ذاك من العبور؛ فهي تربط الأجزاء المختلفة من العالم الإغريقي فيما بينها وبحسب مسارات محددة . عندما أرادت أثينة - كما جاء في الأوديسا (٩٥) - أن تنقذ أوليسيس، فرضت النوم على الرياح؛ وكبلت طرق الرياح الأخرى ton állon anémon keleúthous إلا ريح بورياس التي رسمت وحدها الطريق póros الوحيد. أما عبارة أپوروس أنيموس áporos ánemos ‹مأزق الريح› فهي تعني إما ريحاً عنيفة عنفاً يحول دون الإفادة منها أو التصدي لها، وإما غياباً الريح غياباً كاملاً كذلك الذي عرفه الإغريق في ‹ميناء› أوليس ، فوضعهم في وضع استحالت فيه الملاحة استحالة كاملة en aporiai toû ploû pollêi (٩٦).

وعلى النقيض من هذه الرياح المنتظمة التي توجه بمسارها المكان البحري وتسمح بعبوره، هناك الرياح العاصفة التي يصفها هيسيودوس مستخدماً نفس العبارات التي وصف بها زوابع التارتاروس: فهي رياح تباغت فجأة، وتهب مذهلة، وتتدافع حسبما اتفق هنا وهناك، من كل الجوانب دفعة واحدة، خالطة في زوابعها المضطربة كل اتجاهات المكان (٩٧). thúellai والرياح المنتظمة مصدرها رباني؛ يقول هيسيودوس عنها إنها بنات ‹أبناء› إيوس Eós وأسترايتوس Astraios (٩٨). إيوس هو نور النهار عندما يبزغ الفجر من أبواب البحر في نقطة ‹علامة› الشرق، حيث تنطلق الشمس من المحيط إلى السماء؛ وأسترايتوس هو نور الليل الذي يحل بلألأة النجوم عندما تغوص الشمس من جديد، وقد تمت مسيرتها ، في النقطة التي هي ‹علامة› الغرب. هذه الرياح هي الإخوة الكبار لنجمة الصباح وكل النجوم المنيرة. ويشدد أراتوس Aratos في ‹كتابه› «الظواهر» Phainomena على القرابة بين الرياح والنجوم؛ فاتجاه الرياح ينضبط بناءً علي حركات النجوم (٩٩). إن طرقهم المتوافقة هي التي تحدد الشرق والغرب والشمال والجنوب، وتوجِّه مكاناً لولاها لبقي بلا شكل وبلا تمييز(١٠٠).

والرياح المضطربة المختلطة ليست ربانية الأصل؛ فليس لها علاقة بالنجوم المضيئة، ولكن علاقتها تتصل بمجال الليل [١٠١]. فهي قد انطلقت من جثة توفون التي ألقاها زيوس في التارتاروس. والرأي عند فيريقوديس Phérécyde أن الزوابع thúellai مثل أبناء بوريوس والهاربيين مجالها moîra التارتاروس [١٠٢]. والرياح، قياساً على بعض الروايات، تخرج من فوهات الجحيم السماة bóthroi [١٠٣]؛ وهي، قياساً على روايات أخرى، تولد في أعالي البحر في ذلك المكان الغائم في الامتداد الفسيح الذي يصفه بعض المؤلفين بأنه تارتاروس الهاوية ‹هاوية البحر› Khásma [١٠٤]. والرياح عندما تهب في البحر البونتوس لا تجلب معها فقط الاضطراب الذي يصيب الطرق وتوجهاتها، والاختلاط الذي يحيط بكل اتجاهات المكان، بل تجلب معها غمة من البحر والسماء غارقين دون تمايز في نفس الليلة الصفيقة التي لا سبيل إلى ولوجها. وتأسيساً على هذا المعنى، فإن الامتداد البحري يرتد من خلال هذه الرياح إلى حالته الخاوسية الأولانية، حالة انعدام الطرق áporon وانعدام العلامات atékmarton. هكذا يعود كل شيء من جديد ليصبح مختلطاً مضطرباً في تلك الحالة التي توحي بها الكلمات : الليل Núx، الظلمة skótos، إيريبوس Erebos، الغمامة الحالكة الصفيقة homichle skotóessa، الغمامة السوداء kuanée nephéle، الغمة achlús، الظلمات الكثيفة zophos eeroeidés . ويحدثنا هوميروس أن زيوس إذا ما دبر إغراق سفينة، انتظر إلى أن تغيب الأرض عن البصر،حتى «لا يكون هناك سوى السماء والماء؛ حينذاك تلوح غمامة صفيقة معتمة kuanée nephéle يبسطها زيوس ابن كرونوس على سفينة جوفاء، ومن هذه الغمامة تحيط الظلمات بالبحر» [١٠٥]. وإسخيلوس أكثر دقة في الوصف. فهو ينوه بعنف الرياح الشرسة عندما تموج البحار póntou و«يختلط الموج الهائج ويمحو sugchoseien من السماء طريق diódous النجوم» [١٠٦]. وفاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus يكشف بوضوح عن الخلفيات الميثية لصور عاصفة البحر هذه. وهو يتناول من جديد بدوره وصف الصخور السوداء Kuáneai، التي يراها كذلك «رجراجة» Plagktai أي يرى أنها ‹المم المعوج› skoliòs póros الذي يتحدث عنه أبولونيوس الرودسي، المم المعوج الذي لا تستطيع سفينة عبوره: والصخور الرجراجة تتحرك أفقياً وتصطك بلا انقطاع مثل الباب الذي ما يكاد إنسان يهم بالدخول منه حتى ينغلق ويصبح جداراً متصلاً [١٠٧]. وهي تتحرك رأسياً كذلك، فتنطلق من عمق الأغوار البحرية نحو السماء [١٠٨]. إنها عند أطراف العالم أبواب لا سبيل إلى النفاذ من خلالها، وهي أبواب ذوات أعمدة هي أعمدة السماء kiones ouranoû، ولكن هذه الأعمدة بدلاً من أن تكون ثابتة كأعمدة أطلس تُبقي دائماً على المسافة بين العالي والواطي [١٠٩]، تظل متحركة ولا

تكف عن خلط مياه البحار بنار السماء. ونحن قد وجدنا من قبل عند هوميروس تلك السفينة التي حاولت اجتياز هذه الأبواب، كيف غَشّتها الموجة التي كانت تهدر عند أسافلها، وغشتها الأعاصير النارية التي تشتعل عند أعاليها (١١٠). ويندراوس يقارنها بنفثة العواصف: هذه الصخور المزدوجة، في رأيه، صخور حية zoai، تتدحرج kulindéskonto من جانب إلى الجانب الآخر، أسرع من أسراب الرياح المذهلة (١١١). والرأي عند ڤاليريوس فلاكوس أن كويانيا هي بالضبط المكان الذي تتخذه رياح العواصف طريقاً iter، طريقاً يتوارى عميقاً في التربة، ثم يصعد من العالم الجهنمي حتى يبلغ سطح البحر. وهناك الموضع الذي اعتادت أن تبزغ فيه لتخلط السماء بالماء miscere polum fretumque (١١٢)؛ وما إن تفلت حتى يطبق الليل على كل شيء بسماء حالكة سوداء كالقار piceo premit nox omnia caelo. وكذلك عندما ظهر توفون فوق البحر، جلب الليل وخلط الأعلى بالأسفل extulit adsurgens noctem, imaque summis miscuit (١١٣). وأپوللونيوس الرودسي هو الذي اتخذ لديه المعنى الكوني للعاصفة في أعالي البحار قيمته كلها. فهذا هو أورفيوس عندما تبحر السفينة يكون قد تغنى بالنظام الذي شمل العالم نتيجة ظهور النجوم ومسارات القمر والشمس، علامة اهتداء tékmar جرى تشبيتها إلى الأبد في السماء. وفي آخر رحلة العبور، عندما كانت السفينة فوق هوة البحر الواسعة méga laitma حاقت بها «ليلة رهيبة» وصفت بأنها ka-toulás أي حالكة هوجاء. فهي إعصار تتشابك وتتلوى فيه كل الرياح في اختلاط لا سبيل إلى تفريقه، وهي ظلمة مطبقة لا سبيل إلى اختراقها، سوداء كالقار. يقول أپوللونيوس: «هذه الليلة لا تستطيع النجوم اختراقها، ولا أشعة القمر، كأن الخاوس الأسود mélan chaos سقط من السماء أو كأن الظلمة قد صعدت من أعماق باراثر Barathre (١١٥)» هذا الخاوس الأسود هو الذي يمتد فوق البحر عندما يرتد اليونتوس – نتيجة غياب الرياح المنتظمة وغياب نور النجوم – إلى حالته الأولى، حالة التجرد من الطرق والتجرد من العلامات الهادية، ويصف ثيوقريطيس في أناشيده الإيديللية السفينة التي تعجز عن حساب مغارب ومطالع النجوم، فينتهي أمرها إلى الارتطام بالعواصف الرهيبة. ويحيط بها الليل البهيم. وفجأة – يأتي عون الديوسكوريْن Dioskoioi ‹الأخوين التوأمين كاستور ويولوديوكيس، ابني زيوس، اللذين كانا يظهران على هيئة ضود فوق السفينة› – فتهدأ العاصفة، ويعم سكون مضيء lipare galéne. وتتشتت الغمامات الحالكة ومن وسطها تظهر للبصر ‹لجوم› الدببة Arctoi ephánesan، وينبيء semainousa ضياء amaure لجم المعلف بجو ملائم للملاحة(١١٦).

ويُوصف خلاص الأرجونوتية، ملاحي أرجو، على نحو مشابه: فقد تمثل في بروز العالم بروزاً مفاجئاً حيال النور بعد أن دلف من الليلة الحالكة الأولانية [١١٧]. وهذا هو ياسونJason ‹من ملاحي أرجو› إذ يدرك عجزه عن قيادة السفينة يرفع الدعاء إلى أپولون Aiglétes . فيرسل الإله أپوللون في الظلمة الكاملة من أعلى الصخور السوداء Melánteioi فجأة ومضة متألقة. عندئذ يرى ملاحو أرجو فوق امتداد المياه جزيرةً يوجهون مقدم السفينة نحوها، هذه هي الجزيرة التي ستتسمى من بعد باسم أنافي Anáphe. وكلمة أنافي تعني "تلك التي ظهرت" - «الظاهرة» - وهي تذكّرنا بميتيس فانيس التي ترفرف بأجنحتها البراقة أي التي تحرك الرياح والنجوم فتبدد هكذا «الظلمة الحالكة» وتجلب «النور الساطع» [١١٨] هذه الومضة التي بثها أپوللون - Aigletes أيجليتيس - تذكرنا باسم الأضحية التي كانوا يقدمونها في ديلفي احتفالاً بذكرى انتهاء الطوفان عندما برزت أرض بعد طول انتظار من بين الكم الهائل اللانهائي من المياه، واستطاع ديوكاليون Deucalion أن يضع قدمه عليها لينجب الجنس البشري: كانت هذه الضحية تسمى Aigle أيجلي [١١٩].

وهكذا فإن فقرة «ملاحي أرجو» مبنية على نفس الثنائي المتضاد تضاد الأبيض والأسود والذي فعّله الخيال الكوسموجوني نفسه للتعبير عن أصل العالم، فنجد: من ناحية ظلمة غامة مطبقة، ومن الناحية الأخرى : النور الذي يجعل الأشياء تظهر ويحدد المكان.

على أساس هذا التخطيط تتنظم كوسموجونيا ألقمان، عنده من ناحية Skótos: سكوتوس أي الظلمة، ومن الناحية الأخرى: پوروس Póros وتيكمور Tékmor أي الطريق والعلامة الهادية . وهذا التخطيط هو الذي نجده في الكوسموجونيات التي يسمونها أورفيوسية، والتي تتأكد في أسراريات فلويا Phlya على الرسوم المصورة فيtelestérion التيليستيريون: كان الناظر إليها يرى فيها رجلاً هرماً أبيض الشعر له أجنحة (يقولون لنا على وجه التحديد إنه إيروس العتيق الأرخائي؛ ولكن من الممكن جداً أن يكون أيضا پوروس العجوز أقدم الآلهة جميعاً présbus Póros, geraitatos ton theon [١٢٠]. وكان هذا الرجل الهرم يلاحق امرأة هيئتها سوداء كلها kuanoeidés ، وكان الشيخ يرمز إلى فوس phos أي النور، أما المرأة فترمز إلى الماء المعتم skoteinòn húdor [١٢١].

هذه ثنائية النهار والليل، النور والظلمة - وإننا لنجد ربة من شاكلة ميتيس تمثل الاثنين، هذا وذاك، جميعاً، كما نجدها ذكراً وأنثى في آن واحد. وهي تجاوز هذه المتضلدات بقدرتها على التحور تحورات عديدة. وفي الثيوجونيات التي توصف بالرابسودية، نجد ميتيس التي

ما تكاد تخرج من البيضة الكونية حتى تنجب نوكس أي الليلة ثم تقترن بها لتنجب بقية سلسلة الآلهة. ونقرأ عند أكوسيلاوس Acousilaos عكس ذلك، وهو أن نوكس Núx وإيريبوس Érebos هما اللذان أنجبا ميتيس منيرةً، شريكة لأيثير Aithér وإيروس Éros. وماذا عن ثيتيس؟ إنها أولاً تمثل يقيناً المياه الحالكة tò skoteinòn húdor، تمثل ليل الأعماق البحرية. ومن حيث هي ربة أعماق البحر الحالكة، فهي تقيم في أعماق الغيابات البحرية en bénthessin halòs في ذلك المكان الذي يسميه أوريبيديس المغارات المظلمة ántra múchia مثل ليل ابنة نيريوس (١٢٢). وهي عندما تصعد من عمق البحر لتلحق على رملة الشاطيء بابنها أخيلليوس، تتخذ هيئة غمامة حالكة homichle تطفو من بحر وصفه الشاعر على غير عادته بأنه أبيض لأن سطح المياه الموشاة بالزَّبد يبدو وضاحاً منيراً على عكس ظلمة الأعماق التي تقيم فيها الربة عادة (١٢٣). في النشيد الرابع والعشرين من الإلياذة نقرأ عن ثيتيس عندما تبرح الأعماق البحرية لتذهب إلى الإليمپوس أنها تتخذ حجابها المظلم kálluma kuáneon . وكأنما تصور الشاعر أن الصفة kuáneos (= حالك) التي هي ذات دلالة بذاتها لا تكفي، فأضاف كلمة meláuteıon التي تعني أنه ليس هناك حجاباً أكثر سواداً من ذلك الذي اتخذته (١٢٤). ولقد فسر البعض الحجاب الأسود الذي اتخذته ثيتيس بأنه ثوب حداد لبسته الربة حزناً على پاتروكلوس Patroklos <صاحب أخيلليوس> الذي مات، أو حزناً مسبقاً على ابنها الذي علمت أنه سيموت عما قريب. وهذا تفسير لا يمكن إقامة الدليل على صحته. فما كان لثيتيس أن تلبس الحداد على پاتروكلوس. وما كان لها أن تلبس ثوب الحداد قبل أن يموت ابنها. ثم إننا لدينا الدليل الشكلي على أن صفة الأسود الحالك kuanéa تختص بها ثيتيس بما هي ربة بحرية مستقلة عن كل ظرف خاص. فنحن نعرف عن طريق فيلوستراتوس Phılostratos نص الابتهالات التي كان الثيساليون يبتهلون بها إلى ثيتيس عندما يحجون في كل عالم إلى طروادة: كانوا يدعونها ثيتيس السوداء kuanéa (١٢٥). أضف إلى هذا أن الأناشيد الأورفيوسية ترد فيها كل ربات البحر الأولانية، على نفس نسق إمرأة تيليستيريون فلوا، أي سوداوات. تيثيس ، أم الغمامات السوداوات، تسمى kuanópeplos ونيريوس kuanaugétis والنيريديات يسمون kuanaugéis (١٢٦) . ولكن ربات الأعماق البحرية السوداوات يمكنهن جلب النور والنهار والنجاة. وهناك شرح قديم يبين لنا أن النيريدات جميعاً، عندما ينقذن السفن الجانحة (كما

فعلت ثيتيس على رأس عصبة من أخواتها إذ أنقذت السفينة أرجو عند اجتيازها ممر الصخور الرجراجة) يتخذن هيئة وقيمة البيضاوات، النساء البيضاوات Leukothéai [١٢٧]. وما أدراك ما سيدات البحر البيضاوات. إنهن يبزغن من الغيابات السحيقة إلى سطح المياه، وسط الزبد الأبيض. في قصيدة الأرجونوتية «بحارة أرجو» لأپولّونيوس تدفع النيريدة السفينة من خلال ممر الصخور الرجراجة ؛ وتمسك ثيتيس نفسها الدفة بيدها، وتوجه المسار وتشق السبيل: فاتحة الطريق البحري ومثبتة إياه إلى الأبد ithune kéleuthon [١٢٨].

من بين المخلوقات الحيوانية التي تربطها الأسطورة على نحو خاص بزوجة پيليوس وتحوراتها، نجد مخلوقة توحي على نحو كاشف بالقيم الميثية التي نسبها ألقمان إلى ربة الأعماق البحرية. واتباعاً لتراث انتقل من خلال أوريپيديس ، ونعتقد أنه لابد يرجع في بداياته إلى الأناشيد القبرصية ، نجد ثيتيس - وقد لاحقها پيليوس - تلجأ بغية الإفلات منه إلى اتخاذ كل الأشكال التي تتيحها لها دائرة التحورات، وما تزال تتحور حتى يتمكن البطل من الإمساك بها وهي في صورة scpia ‹سيپيا، أي سمكة الحبارة› ويتحد بها [١٢٩]. وأكبر الظن أن هذه الصورة التي بدت فيها ثيتيس على هيئة سمكة الحبارة صورة موغلة في القدم. ونحن نعرف مما كتبه هيرودوتوس Herodotos خاصةً أن پيليوس تمكن من ثيتيس عند موضع على البحر اسماه «كاپ سيپياس» أي رأس الحبّارة؛ وكاپ سيپياس تطل على منطقة من البحر غنية بأسماك الحبّار، وكانت كانت مخصصة لثيتيس والنيريدات [١٣٠].

وكانت سمكة الحبارة تبدو للقدماء نموذج الحيوان ذي الدهاء الميتيسي. والرأي عند أرسطوطاليس أن سمكة الحبارة هي أكثر الأسماك دهاءً panourgótatos؛ وپلوتارخوس يذكرها مثلاً على اليقظة والمخاتلة؛ وأوپيانوس يصف سمكة الحبارة بالاحتيال والخداع والمكر sepia dolometis, dolóphron, sepiai kerdaléai [١٣١]. وهناك دراسة قام بها لويس سيريه Louis Siret مكنته منذ عام ١٩١٣ من التشديد على أن الاخطبوط والحبار أتيح لهما منذ الحضارات النيوليتية أن يرمزا إلى الماء والبحر [١٣٢]. ولكن من الضروري أن نحدد بدقة أكثر شكل الصور التي توحي بها هذه الكائنات المرأسات الأرجل في عقل الإغريق. كان القدماء يرون أن دهاء الأخطبوط الميتيسي يعتمد أولاً وقبل كل شيء آخر على قدرته على التحور المتعدد. والاخطبوط مرن منساب مثل الماء الذي يتحرك فيه، فهو يكتسب أشكال الصخور التي يتشبث بها الواحدة بعد الأخرى. وهو علاوة على ذلك يحاكي لونها لكي يندمج فيها على نحو أفضل ويجعل وجوده غير مرئي. كذلك يرى البعض - على ما يذكر

أرسطوطاليس – أن السمكة الحبارة تتخذ لون الأجسام التي تقترب منها (١٣٣). ومرونة الرخويات بما لها من لماسات كثيرة polúplokoi تجعل من جسمها شبكة من الأربطة، وعقدة حية قوامها الأوثقة المتحركة المنبثة. أما رأس سمكة الحبارة فيعلوها بدلاً من الشعر hoste plókoi زوائد طويلة لماسة تستخدمها السمكة – وهي ممدة على رمل الشواطيء، خيوطاً لاجتذاب السمك وتكبيله– وهي تقنية يسميها پلوتارخوس "سوفيسما" sóphisma => مكر، خبث» (١٣٤). والحبارة، إذا هبت العاصفة، تمد لـمّاساتها لكي تتشبث تشبثاً صلباً في الصخور الغائرة تحت الماء: وهذه الطريقة هي نفس الطريقة التي يستخدمها البحارة عندما يربطون السفينة بحبل في صخور الساحل أو عندما يلقون الهلب إلى القاع إذا كانوا في أعالي البحار حتى يؤمّنوا السفينة ضد الموج (١٣٥). وفي وقت التزاوج يترابط الحبار، الذكور والإناث، ترابطاً وثيقاً sumplékontai، فماً إلى فم، عاقدة لـمّاساتها بعضها في البعض. وعلى هذه الصورة تسبح أسماك الحبار، متحدة فماً إلى فم، وذراعاً إلى ذراع، فكأنها كائن واحد، ولكنه كائن محير ومتناقض، لا يعرف أحد أين يبدأ وأين ينتهي، أين يمينه وأين شماله، أين مقدمته وأين مؤخرته (١٣٦). هكذا تتجامع أسماك الحبار في ضمة لا يستطيع أي شيء أن يفضها (وهي ضمة فيها ضياعها، حيث يجد الرابط نفسه مربوطاً، وإذا الصيادون يستغلون وثاق الذكر والأنثى، فيقلبونه إلى ضد مرامه ويجعلونه وبالاً على أسماك الحبار التي يمسكونها)، وتسبح أسماك الحبار المتشابكة كأنها مضفورة بعضها في البعض، وتتحرك في اتجاهات متضادة: هذه تسبح إلى أمام، وتلك إلى خلف (١٣٧). وهل هناك من يستطيع، عندما يتحدث عن الحبار، أن يتكلم عن أمام وخلف، عن فوق وتحت؟ فالحبارات بتشريحها «المعكوس» – العينان في جانب، والفم في الجانب المقابل، والرأس يتتوج إلى أعلى بهالة جياشة من الأرجل – وبحركتها المعوجة (١٣٨) التي تضم، مثل حركة الكابوريا أو عجل البحر، عدة اتجاهات في وقت واحد، وبما تتميز به من قدرة على التحور المتعدد، وبمرونة لـمّاساتها قريبة من ربات البحر الأولانية التي يقوم دهاؤها الميتيسي المتشكل، المرن – شأنه شأن الصيرورة التي تهيمن عليها – يقوم على ما ليس مستقيماً وليس مباشراً، بل على ما هو منحن ومتموج ومعوج، على ما ليس ثابتاً راسخاً، بل على ما هو متحرك، متغير، على ما ليس محدداً أحادياً، بل على ما هو متعدد الأشكال وما هو مختلط.

وهناك سمة أخرى محيّرة للحبارة ترتبط بلونها الذي يوحي أولاً – على سبيل التناقض مع ما أوتي البشر – ببشرة المرأة ووورديتها ومزاجها (١٣٩). وهناك مقارنة يعقدها أرسطوفانيس في مسرحية «اجتماع النساء» ‹اسم المسرحية بالفرنسية L' Assemblée des femmes

وبالإغريقية Ekklésiasousai يربط فيها الحبارة والبياض والمرأة معاً. في هذه المسرحية تتنكر النساء الأثينيات على هيئة الرجال ويتخذن لحىً مستعارة. وهذه هي إحداهم تعلق على هذا التنكر ومنظر النساء المتنكرات بقولها : «كأنما لصقوا لحىً على سمكات حبارة محمرة»(١٤٠). ويشرح ج. تاياردا J. Taillardat العبارة شرحاً صائباً، فيقول: «كانت النساء الأثينيات يلزمن بيوتهن فتظل بشرتهن بيضاء بلون سمك الحبارة، وعلى الرغم من أنهن في مسرحية أرسطوفانيس عرّضن بشرتهن للشمس لتلفحها حتى تسمرّ وتشبه بشرة الرجال فقد كانت اللفحة سطحية احمرت منها جلودهن فشابهت النساء سمك الحبار المحمر في المقلاة أكثر مما شابهن الرجال السمر» (١٤١). وكاتب الحاشية لخص المقصود بقوله leukai gàr hai se-piai = لأن سمكات الحبارة بيضاء.

ولكن هذه السمكات البيضاوات تحمل في داخلها سائلاً أسود هو الثولوس tholós، وهي عندما تبث هذا الحبر، تنشر من حولها ظلمة موصدة تتواري في داخلها، سحابة ليلاء تضطرب وتختلط فيها كل طرق البحر.

وهذا هو ما يشرحه - بعد أرسطوطاليس - پلوتارخوس وأثينايوس وأوپيانوس. كان أرسطوطاليس قد سجل من قبل أن الحبارة تتوارى في حبرها krúptetai، وأنها تتظاهر بأنها تستمر في طريقها إلى أمام ثم تنقلب إلى وراء لتضيع في الثولوس tholós (١٤٢)، ويكتب پلوتارخوس: إنها تعمل عملها technoméne لكي تجعل الماء عكراً معتماً، فتنتشر الظلمة skótos من حولها لتمكنها من الهرب سراً والإفلات من نظر الصياد. ويضيف:إن الحبارة تقلد هكذا الآلهة الهوميروسيين الذين كثيراً ما يحيطون بسحابة مظلمة سوداء kuanée nephéle أولئك الذين يريدون نجدتهم فيتوارون عن الأنظار (١٤٣). والرأي عند أوپيانوس أن سمكات الحبارة تلعب لعبتها، وتمكر مكرها kérdos على النحو التالي: فهي لديها حبر أسود tholós kuáneos قرب رأسها، وهو سائل أشد سواداً من القار، وهو من قبيل السائل السحري الفارماكون phármakon ، فتحدث غمامة مظلمة قاتمة achlúos hu-gres؛ وهي عندما تبث هذه الضبابة الليلاء «فإن السحابة السوداء التي يحدثها السائل ichòr achluóeis تعكر الماء في المنطقة المحيطة وتخفي emáldune كل طرق kéleutha البحر» ويجعل من المستحيل رؤية أي شيء. وعلى هذا النحو، ومن خلال التعتيم aporia الذي تخلقه، تستطيع الحبارات التماس سبيلها póros الخصيص: «فهي تهرب بسرعة من خلال طريق الحبر tholós, dià tholóentos póroio (١٤٤)». ومن الطريف أن نجد في نص

أوبيانوس في معرض الحديث عن سمكة الحبارة التي تنشر الليل البهيم في قلب المياه، مزجاً بين مدلولي كلمة پورُوس póros : من ناحية سبيل الخروج من صعوبة، تدبير كائن أريب أوتي الدهاء الميتيسي؛ ومن ناحية ثانية سبيل ، درب، معبر.

ربما كان هذا الالتفاف نحو الحبارة هو الذي جعل أثينايوس يقدم إلينا أنفضل مفتاح لفهم مكان ثيتيس في كوسموجونية ألقمان وإدخالها في صلة مزدوجة وتناقضية بالظلمة الليلية سكوتوس Skótos وبالمسالك Póros والدلائل المنيرة Tékmor. والمؤلف الذي نسج ساخراً معارضاً على أنوال الآخرين، وهو يستشهد بمطرون Matrôn، يحيي في ثينيس، «ابنة نيريوس، sepie euplókamos الحبارة ذات المشابك الجميلة (واللمّاسات العديدة)، الربة الفظيعة ذات الصوت البشري he móne ichthús oûsa tò leukòn kai mélan oîde، الوحيدة التي كانت سمكة، فعرفت الأبيض والأسود جميعاً [١٤٥]».

القسم الرابع

العلوم الإلهية :

أثينة .. هيفايستوس

الباب السادس

عين البرونز

أثينة Athena مثلها مثل غالبية الربات الحامية للمدن تبدو كأنها تتبعثر من خلال تعدد وظائفها، وتنوع تدخلاتها. ونحن في مواجهة هذه القيم المتعددة نجد التحليل التقليدي - الذي يعتمد أصل الكلمات ويهدف إلى تحديد كل إله من خلال جوهره - يبدو عليه أنه ليس لديه إلا أن يختار بين حلين يتساويان في عدم إمكان البرهنة على أي منهما: إما أن يفترض أن أثينة في الأصل ربة حربية أو قوة خصوبة تحورت سماتها تدريجياً. وإما أن يفترض بادىء ذي بدء أن هناك اثينتين متباينتين ولكنهما متكاملتان يشهد تضافرهما بالضرورة على تلك الوظائف التي تتسم بالأهمية الكبرى بين الوظائف المناطة بها [١]. كل هذه التفسيرات الوراثية لا تخطئ فحسب في تصميمها على تحديد أثينة منفصلة عن الآلهة الأخرى، بل تخطيء أيضاً في إهمالها تمييز مجالات العمل الخاصة بأثينة، ووسائل العمل التي تستخدمها هذه القوة الإلهية. ونورد فيما يلي مثالاً اخترناه من ميثات أثينة ذاتها يبين على الفور مدى التمييز الذي قال به چورچ دوميزيل Georges Dumézil عندما لاحظ أن أسلوب عمل إله ما أكثر دلالة على الخصائص من قائمة أماكن عمله، ومناسبات خدماته. وفي دراسة عن أصول ذبح الثيران في أثينا [٣] بذل العالم الإيطالي پيستالوتساU. Pestalozza ما بذل من جهد ليبين أن وراء أثينة - العذراء والمحاربة - كانت تكمن ربةٌ أم، ارتبطت بالمحراث، واتخذت من الفلاحة نشاطها الأول. ويستند پيستالوتسا في إقامة نظريته على حجج من بينها حجة أساسية تتمثل في ميثوس رواه سيرڤيوس Servius في «شرحه على ملحمة الإنيادة» Commentaire à l'Énéide[٤].

يقول: «كانت هناك في أتيكة Attikê في قديم الزمان بنت اسمها مورميكس Murmix، حبتها أثينة بصداقة عظيمة لأنها كانت عذراء، ولكنها كانت ماهرة في العمل بيديها. وذات يوم حلّت الكراهية محل الصداقة، وإليك السبب: كانت أثينة قد شهدت ديميترDémèter تخترع القمح، وعزمت على أن تبين لأهل أتيكة كيف يمكنهم أن يحسنوا فلاحة الأرض ويحصلوا بشكل أسرع على ثمرتها، فاخترعت المحراث. ولكن مورميكس التي علمت باختراع

أثينة تجاسرت على سرقة المحراث وذهبت به إلى الرجال وقالت لمن أرادوا أن يسمعوها منهم إن منحة ديميتر لن تأتي أُكُلها إلا إذا استعان الرجال بالمحراث الذي اخترعته هي فهو الآلة الوحيدة القادرة على تقليب الأرض وتيسير نمو القمح.»

وإذا نحن ضربنا صفحاً عن غضب أثينة وعقاب مورميكس التي جُعلت نملةً وحكم عليها لكي تقيم أودها أن تختلس بعض حبوب القمح، وسألنا: ماذا يبين لنا هذا الميثوس؟ لا جدال في أن أثينة تظهر فيه ممثلة لقوة إلهية متجهة نحو العمل في فلاحة الأرض، وبعبارة أكثر تحديداً نحو الحرث وأثره المخصب، فهل هي لهذا السبب - كما يؤكد بيستالوتسا - ربة أم، وقوة خصوبة وإخصاب؟ العكس هو الصحيح، فكل هذه الحكاية الميثية تحمل الدليل على أن ديميتر وأثينة ، إذا كانتا شريكتين في مجال عمل واحد، فإن طرق عمل كل واحدة منهما، وأنماط تدخلها مختلفة اختلافاً أساسياً.

ففي الأرض الأتيكية التي هي أول أرض تتلقى منحة ديميتر، تتدخل أثينة بصفتها قوة تمتلك «السوللرتسيا sollertia» أي المهارة اليدوية والذكاء العملي: فهي تصنع الآلة، العدة التقنية التي تتيح حصاداً أيسر لقمح ديميتر. في مواجهة ديميتر تمثل أثينة المهارة والاختراع التقني اللذين يكملان العمل الخصيص بقوة إنتاج الحبوب. ليس هنا بلا شك تقسيم فاصل مطلق ولا تقسيم نهائي قاطع. فهناك نصوص تراثية ميثية تصف كيف تحضر ديميتر - مع ما تحضره من خيرات الحبوب - الأدوات التي تيسر الزراعة وتمكن من الاستفادة من النباتات المزروعة: فهي التي منحت البشر المحراث والطاحونة [٥]. ولكن هذه الأدوات التي تهبها ديميتر البشر وتكشف لهم عن سرها، ليست إلا أشياء مكملة لا غنى عنها على نحو أو آخر ، لحياة الزراعة التي تجد هذه القوة الإلهية مسئولة عنها. وديميتر بصفتها ربة كبيرة تهيمن على النشاط الزراعي يمكنها أن تتخذ لنفسها كل مقومات زراعة الحبوب، بما فيها المقومات التقنية البحتة. وعلى الرغم من هذا التوسع الذي يشمل مجالها فإن أسلوب عمل ديميتر يظل هو هو : إذ يتسم بطبيعة خصيبة مخصبة، ولا يتسم قط بسمة تقنية نوعية. أما أثينة فهي على العكس قوة تقنية يمكنها أن تتدخل في مجال الزراعة : وأسلوب عملها ليس أسلوب إخصاب، بل هو في جوهره تقني. والميثوس اللاتيني الذي يورده سيرفيوس والذي يعرض أثينة تخترع أداة الحرث يندرج مباشرة في امتداد الميثوس الإغريقي الأرخائي العتيق: في قصيدة «الأعمال» لهيسيودوس نقرأ أن «خادم أثينة» هو الوحيد المتمكن من صناعة محراث الفلاح، المتمكن من «تعشيق» قطعة الخشب المنحنية gúes في الكعب الذي يحمل سلاح المحراث، ومن تركيبه وضبطه في قصبة المحراث بعد ذلك [٦]..

والمثل الذي حفظناه والذي يشهد على مهارة أثينة اليدوية يبدو أنه يرجع هذا الشكل من الذكاء العملي الذي يسميه الرومان «سوللرتسيا sollertia» ويسميه الإغريق ميتيس métis الدهاء الميتيسي. ومن الممكن أن نخشى من أننا إذا شددنا على تمكن أثينة التقني فإننا ننتهي إلى إهمال نشاطها من حيث هي قوة حربية، وإهمال تفوقها على الآلهة الاخرين في حرفة الأسلحة. سنرد بأن الإشادة المرجعية بالدهاء الميتسي تبرره طبيعة أثينة ذاتها: أليست هي من بين الآلهة القوة التي- مثل زيوس ذاته - تقوم بينها وبين الإلهة ميتيس أوثق الائتلافات؟ وإذا كان زيوس قد ابتلعها ليصبح «مليئاً بالميتيس»، فإن أثينة كانت هي الإبنة التي حملتها ميتيس في أحشائها في اللحظة التي استسلمت فيها للمباغتة.

فأثينة إذن تلقت عن أمها الدهاء الميتيسي، وكانت لهذا السبب كثيرة الحكمة polúboulos، كثيرة الدهاء polúmétis[٧]، ولأنها ابنة بطن الربة ميتيس، فقد كانوا أحياناً يسمونها كأمها «ميتيس» [٨]. هذه الأثينة التي نعرفها، أثينة الملقبة بميتيس والتي يبدو لقبها كأنما سجل في تراث ثقافي طويل، ليست، كما قد يتوقع البعض، أثينة ربة عمل حرفي أو نشاط تقني، بل هي أثينة حربية، إنها الربة التي اكتست بالبرونز كيوم مولدها، والتي تسلحت بأسلحة باهرة قالت عنها رواية أنكرها المنكرون [٩] إن الربة ميتيس حملتها ‹في ذاتها الخلاقة› في نفس الوقت الذي حملت فيه ابنتها ‹في أحشائها›. والحق أن الأثينة التي توصف بالخالقيوئيكوس Chalkioikos ‹أي = ذات البيت البرونزي› الاسبرطية التي تحمل اسم ميتيس [١١] ليست فقط الربة الحامية للمدينة التي كانوا يحتفلون في كل عام بعيدها تحت رئاسة المستشارين وبمشاركة الشباب المدججين بالسلاح: إنها أثينة مسلحة، يكسوها برونز المحاربين [١٢]. وإذا كانت صفتها الخالقيوئيكوس ‹ذات البيت البرونزي› تشير من ناحية إلى بعض سمات هيكلها الذي ربما كانت عدة عناصر فيه - مثل السقف أو الكسوات - مصنوعة كلها من المعدن [١٣]، فإنها يمكن أيضاً علاوة على ذلك أن تعني انتماء أثينة إلى جنس الرجال البرونزيين، إلى أولئك المحاربين الذين وهبوا أنفسهم للحرب هبة مطلقة حتى إن بيوتهم oîkoi صنعت من نفس المعدن الذين يموتون به كما كانوا يعيشون [١٤].

فإذا ذكرنا الجنس الثالث الذي يتناوله ميثوس هيسيودوس، وذكرنا الاسبرطيين أو العمالقة، قد نجد ما يغرينا بالحديث عن «الوظيفة الحربية» التي تتولاها أثينة [١٥]، خاصة وأن أثينة وقد عزفت عن الزواج ونذرت نفسها للعذرية، مما يوحي بأن أثينة على نحوٍ ما قد نبذت أنثويتها وقد منحت فضيلتها الحربية أقصى ما لديها من شدة [١٦]. ولكن الكلمة

الجوهرية في مجال الحرب ومجال التقنيات، الكلمة الملائمة لتحديد ماهية قوة إلهية، هذه الكلمة تظل هي أسلوب تَدَخُّلها، أي - في مجالنا هنا - طريقتها المعينة في استغلال هذا الدهاء الميتيسي الذي أتيح لأثينة بنصيب وافر.

وقبل أن ننعم النظر في «الحرص» كيف مكن الربة من السيطرة على الحصان ومن قيادة سفينة في الليل آمنة من خلال الزوابع، ينبغي علينا أن نبين كيف أن نفس نوع الذكاء يمكنه أن يؤدي دوراً في لعبة حربية تقودها قوة يجللها البرونز [١٧]. فإذا كانت الضربات التي تسددها الأيدي ضد المواقع المعادية تتطلب علاوة على الشجاعة، جسارة النظرة وسرعة التنفيذ، وإذا كان التربص ونصب الكمين[١٨] يتطلبان حرص الثعلب ومهارة «المخبأ» حتى لا يكون المحارب عرضة لمن يراه أو يباغته، وإذا كانت هذه العمليات العسكرية المختلفة تتطلب صفات الدهاء والتواطؤ التي أكبرها القرن الرابع في قادته ومخططيه الحربيين [١٩] وهم المحترفون المتمكنون من حرب أكثر تقنية، وحتى إذا كانت بعض هذه المناورات تعتمد أحياناً أثينة وعونها ونصائحها [٢٠]، فإن الدهاء الميتيسي للربة المدججة بالأسلحة يفعِّل وسائل أكثر سرية تستنفر صنوفاً من السحر المحيِّر ومن أعمال الكيد العجيبة.

واستناداً إلى حكايات مولدها الميثية فإن ابنة زيوس وميتيس بزغت في دوي باهر من النور والصخب، فكانت : «باهرة بسنا أسلحتها، كانت إبهاراً من البرونز ينصب على العيون»َ، وهي عندما جاءت إلى الدنيا أطلقت صيحة حرب هائلة [٢١]. تلك أثينة لصيقة بأسلحتها التي أبدعتها لها ميتيس نفسها وصنعتها بنفسها فجاءت درة حَدَّاد حقيقية يزيد من روعتها أن الدهاء الميتيسي الذي يبث فيها حياة متألقة في بريق معدني قد توّج لتوه الذكاء البراق الصارخ، ألا وهو الدهاء الميتيسي الذي حظيت به تلك البنت التي أنجبها زيوس وزوجته التي ابتلعها. نور باهر ورنين برونزي ، هما سمتا القوة الحربية التي أوتيته أثينة، والتي أظهرتها مدوية في المعارك والمناوشات وبخاصة تلك التي وردت في الإلياذة [٢٢]، وبخاصة عندما تقدم أخيلليوس ليمنع الطرواديين من الاستيلاء على جثمان پتروقلوس Pe-troklos، وما زال يتقدم حتى بلغ الخندق الذي يحد معسكر الإغريق. لم تعد لديه الأسلحة التي كان پتروقلوس يتسلح بها، ولم يكن قد تلقى بعد الأسلحة التي ذهبت ثيتيس إلى هيفايستوس في طلبها [٢٣]. ولكن المصادفة شاءت أن تعيره أثينة أسلحتها، فألقت على كتفي أخيلليوس السربال ذا الشُرابات الطوال، واستخرجت من جسده لهباً مدوياً، وضوءاً صعد حتى الأثير. فلما بلغ أخيلليوس الخندق وواجه الطرواديين، وقف وصرخ صرخة ، «كذلك

باللاس أثينة Pallas Athéné (وهكذا يسمونها) أصدرت صوتها ... فظن من سمع الصوت أنه صفير النفير [٢٤] يدوي بالنذير يوم يطوق المدينة أعداء يفتكون بأرواح البشر». وإذا بالرعب يشيع فيهم والتشتت ينال منهم: «ما كادوا يسمعون صوت رنين البرونز ópa chálkeon [٢٥] حتى انتفضت قلوبهم جميعاً»؛ وجفلت الخيول، وفقد قادة العربات صوابهم «عندما رأوا النار المتأججة تستعر رهيبة»، رأوها على جبين المحارب، وإنها للنار «التي تستمد استعارها من من الربة ذات النظرة المستعرة Glaukopis [٢٦]».

وهذه هي ابنة زيوس، في سعيها لتحقيق المناعة لهذا المحارب الذي اختارت أن تحميه، تستره بالسربال «المرعب»، بهذه العدة التي هي نصف درقة، ونصف سربال [٢٧] تفترشها كالتاج أقنعة الهزيمة Phóbos والمنازلة Éris ورأس الجورجونة Gorgone المهول [٢٨]. هذه العدة سلاح مطلق يقال إن هيفايستوس قدمه إلى زيوس ليُلقي الرعب بين البشر [٢٩]، إلا أن تكون ميتيس - طبقاً لرواية تراثية موازية [٣٠] - هي التي صنعتها بنفسها من أجل ابنتها أثينة، فأهدتها سلاحاً «لا يغلبه شيء حتى صاعقة زيوس نفسها» [٣١]. لأن السربال، شأنه شأن جديلة النار التي أوتيها زيوس ملك الآرباب، يحدث للعدو شللاً صاعقاً يدل على شدة فعاليته السحرية هنا قناع الجورجونة بنظرتها المميتة التي تجمد كل ما تصيبه وتحيله إلى جمود الحجر. وقوة الجورجونة السحرية هذه التي تنطلق من السربال قوة تعرفها الملحمة الهوميروسية وتتلمسها كذلك في عيني المحارب الغضوب الذي تتملكه «لُوسة Lússa»، الجنون، أو في البريق الرهيب الذي يبثه برونز درع [٣٢].

كانت أثينة ذات النظرة الساحرة تمتلك السربال والجوجونة والنار الخاطفة والصوت المدوي، وكلها من أركان السحر الحربي الذي حفظت سره في تأجج نظرتها الخلابة. وأثينة Glau-kopis - شأنها شأن الطائر الليلي الذي يتبعها في كل مكان، شأنها شأن البومة glaúx التي تفتن الطيور الأخرى وترعبها بعينها الثابتة المفعمة بالنار وكذلك بنبرات شدوها [٣٣] - تغلب أعداءها بعينها، وبصوت أسلحتها البرونزية، هذه الأسلحة التي يحلو لتراثها الملحمي أن يقارن بريقها بومضة البرق، وصوتها بدوي الرعد [٣٤]. و«صوت البرونز» الذي تصدره أثينة ومن تحميه معاً، عند إطلاق صيحة الحرب، هذا الصوت ليس إلا الجواب في عالم نبرات «عين البرونز» التي تسلطها على أعدائها بلا شفقة إبنة ميتيس، تلك التي يسميها الإغريق الربة «ذات العين البراقة Glaukopis» والقوة «ذات العين الحادة» oxuderkes [٣٥].

و«حرص» أثينة، بل دهاؤها الميتيسي، يعمل في حقل النشاط الحربي عمل آلية فتنة

تضم تصرفات سحرية معينة يتصرفها المحارب الأرخائي العتيق: وجه عبوس، نظرة الجورجونة ‹المرعبة› ، صرخات - وقيماً أخلاقية مختلفة ترتبط بالمعدن: بريق السيوف، تأجج الخوذات وقرقعات مكتومة تنطلق من السروج البرونزية التي تتجلل بها الخيول (٣٦). وليست «النظرة الثاقبة» التي تصدر عن أسلحة أثينة هي النظرة النكراء الباغية loxuderkeîsالتي يلقيها التيلخين Telchinesعلى ثقافات الجيران والتيلخين حدادون حاقدون غيورون على أسرارهم(٣٧). وأثينة لم تصنع أسلحتها الحربية بنفسها، بل هي - بما هي إلهة - خرجت كاملة التسليح من جمجمة زيوس، نتاج عملية تعدينية. وليست نظرتها البراقة هي عين الصانع الحاقدة، بل هي النار المرعبة الصادرة من البرونز وقد طُوِّع لتحقيق أهداف حربية. ولا يعني هذا أن هناك على المستوى اللاهوتي هذا الفصل بين الأنشطة اليدوية وبين حرفة الأسلحة الذي عرفه عدد معين من المدن (٣٨): فدهاء أثينة الميتيسي الذي يقارب علم هيفايستوس يستغل قيم البرونز من حيث هو معدن جرى إنتاجه وإحياؤه بنار الحداد، ولكن التطبيق الذي تمارسه أثينة يجري على مستوى الحرب النشيطة باستخدام فعال للأسلحة التي يحملها أو يشهرها الرجال المحاربون.

الباب السابع

الشكيمة اليقظة

منذ ظهرت الدراسات التي قام بها چورج دوميزيل Georges Dumézil أصبحنا نعرف أن أفضل تعريف لإله من الآلهة هو أن يكون تعريفاً فارقاً ومصنّفا، وأن المشروع البحثي الذي يستهدف الوصول إلى تعريف للآلهة في علاقاتها المتبادلة، ورسم مواقعها الواحد بالنسبة إلى الآخر، عليه أن يبدأ عمله انطلاقاً من تصورين هما :

- الإكمالية
- والتعارضية،

فالإكمالية والتعارضية تقربان القوى الإلهية بعضها من البعض أو تفصلها الواحدة عن الأخرى؛ ومن الضروري أن يجرى هذا العمل البحثي على مستويات ثلاثة:

- مستوى الممارسات الثقافية
- مستوى الروايات التراثية الميثية
- مستوى الرسوم التصويرية

ولكي يمكن البدء في مثل هذا النوع من الدراسة التحليلية يكفي أن نرى أمامنا شاهداً على قيام علاقة وثيقة على نحو ما بين إلهين في حدود مجال عمل واحد يعملان فيه كلاهما. وهذه هي الحال بالنسبة إلى أثينة وپوسايدون كما نراهما في عدة سياقات.

ولنبدأ على الفور بتناول المثل الذي اخترنا تمحيصه، والنظر إليه من هذا المنطلق، فنجد أن هناك في العالم الإغريقي: أثينة هيپيا Hippia -أثينة ربة الخيل - مشتركة على نحو وثيق مع پوسايدون هيپيوس Hippios- پوسايدون رب الخيل: لكل منهما في توزيع أنصبة الآلهة نصيب في نفس المجال، مجال "الخيل" سواء كان الخيل خيل جر أو خيل ركوب، سواء كان الموضوع موضوع فن قيادة عربات تجرها الخيول أو فن ركوب الحصان أو الفروسية.

من بين الأماكن التي تلقت فيها أثينة «ربة الخيل» منسكاً مشتركاً مع پوسايدون «رب الخيل» [١] ربما كانت كورنثوس Korinthos أهم أو على الأقل أعجب مكان.عندما زار پاوسانياس Pausanias في القرن الثاني الميلادي مدينة كورنثوس، لم يغب عنه أن يشدد على وجود مزار لأثينة كانوا يسمونه خالينيتيس Chalinitis أي «ذو الشكيمة» غير بعيد عن قبر ابنيْ ميديا. وبهذه المناسبة أورد "وصف الرحلة" الذي صنفه اوسانياس <المعروف في الفرنسية بالپيريجيزه Périégèse– عن الإغريقية پيري هيجيسيس Peri hegesis tes Hellados> تعليقاً موجزاً :«يقولون إن أثينة هي الربة التي قدمت أشد مساعدة إلى بيلليروفون Bellérophon، وعلى نحو خاص عندما أعطته <الحصان> پيجاسوس بعد أن روضته بيدها وأخضعته للشكيمة» cheirosaméne... entheîsa autè toi hippoi chal-inón [٢]. والميثوس الذي يذكره پاوسانياس على هذا النحو معروف لنا تماماً تضمنته القصة المفصلة التي حكاها الشاعر پنداروس في أنشودة منْ أنشوداته الأوليمپية، الأنشودة الثالثة عشرة، التي كتبها في عام ٤٦٤ تمجيداً لانتصار مزدوج في السباق والمباراة الخماسية حققه ابن من أبناء كورنثوس المشاهير.

«كان بيلليروفون آنذاك قريباً من النبع، فتملكته رغبة عنيفة في ترويض پيجاسوس zeûxai، فبذل <بيلليروفون> ابن جورجونة المتوجة بالثعابين، جهوداً مضاعفة، بلا جدوى، حتى حلّت اللحظة التي أتته فيها پالاس Pallas <أثينة> بالشكيمة، شبيهة بتاج من ذهب. فإذا حلمه يتحول إلى حقيقة. وقالت له <أثينة> ابنة زيوس: "أنت نائم، يا أيها الأمير، يا ابن أيولوس Aiolos؛ تعال، خذ هذه الآلة التي ستسحر حصانك philtron... hippeion، وقدمها إلى أبيك ، مروض الخيول، Damaîos <دامايوس>، وتقرب إليه بثور أبيض قرباناً".هذا هو ما ظن بيلليروفون أنه سمعه من فم أثينة ذات السربال الأسود في ليل غشيه فيه النوم. فهب واقفاً وأمسك بالشيء العجيب téras الذي وجده قريباً منه، ويمم، في غمرة الفرح، شطر كاهن البلد، ابن كويرانوس Koıranos، ليقص عليه خلاصة المغامرة كلها. فقص عليه كيف استجاب للعرافة، فذهب لينام، ليلته،على هيكل الربة، وكيف أتته ابنة زيوس، وهو الرب المسلح بالصاعقة، فأعطته بنفسها الذهب الذي يروض القوة الجامحة damasiphron. هنالك حضه الكاهن على أن يصدع للرؤيا دونما تقاعس، وأن يقدم من فوره إلى الإله الذي يحمل الأرض قرباناً من الحيوان القوي من ذوات الأربع، ثم يسارع بإقامة هيكل عال لأثينة «ربة الخيل» ... وتقدم المحارب بيلليروفون، وقد غمرته حمية كالنار، فأمسك الحصان الذي ركض إلى عنان السماء، فدس في فمه الآلة التي ستجعل منه مطيّة طيّعة pha`rmakon praüå (٣).

وقصة بيلليروفون - شأنها شأن الميثات التي حكاها پنداروس في أناشيد النصر Epi-nikeia التي تندرج في مدارج مدح ابن من أبناء كورنثوس انتصر في السباق أو في المباراة الخماسية - تحمل قيمة نمطية يشهد عليها بناء القصيدة. فپنداروس ابتداء من الافتتاحية الموضوعة تحت راية اكتشافات كورنثوس القديمة الأريبة، واختراجاتها sophismata البديعة[٤]، ويعلن پنداروس عن نيته، التي لا يلبث أن يكشف عنها بعبارات صريحة، وهي الثناء من خلال مغامرة بطولية على الدهاء الميتيسي للكورنثيين القدماء وعلى فضائلهم الحربية في الوقت نفسه. [٥] ثم تتوالى سلسلة من الإشارات تحدد بدقة مصورات هذا النمط من الذكاء الذي صنع شهرة مدينة المنتصر. نجد أولاً استحياءً شخصيتين ميثيتين مألوفتين في كورنثوس: شخصية ساحرة قديرة هي ميديا Medeia ، وشخصية بطل عظيم المكر هو سيسيفوس Sisyphos [٦]. ثم نجد بعد ذلك ذكرى الحوادث العظام في حرب جلاوكوس Glaukos، ابن بيلليروفون [٧]. هذه العناصر المختلفة تسلك معاً طريقاً واحداً لتضع في مركز القصة الميثولوجية المبسوطة في داخل المدح الغنائي شخصية ابنة ميتيس وزيوس ألا وهي أثينة ذات «الحرص» الذي يتضافر مع وصفها بـ«ذات الخيل»، بوضعها المتمثل في قوة الخيل.

ونلاحظ باديء ذي بدء أن الإشادة بذكاء الكورنثيين الميتيسي وما لهم من اختراجات so-phismata تبدو لصيقةً بالميثوس الذي يقص قصة اختراع أثينة الشكيمة تلك الألة القادرة على كبح الحصان وإخضاعه لفارسه. ولكن هذا الذكاء هو أيضاً نفس نمط الذكاء الذي أسهم سيسيفوس Sisyphos وميديا Medeia في تحديده تحديداً دقيقاً، وهما أكثر اثنين من أبطال الميثولوجيا الكورنثية حظاً من الدهاء الميتيسي. أما سيسوفوس فهو يمثل ذلك الضرب من المكر الذي يدخل في عداد الذكاء المخاتل، فقد أوتي المكر والمداهنة، وتلوين الوعود كتلوين القطعان التي يسرقها من جيرانه، يخادع حتى الموت. أما ميديا [٨]، فهي الأولى بين النساء الخبيرات بالسموم وأشربة الحب، وأنواع السحر الناسفة phármaka metióenta [٩] وقد جاءت لتبين أهمية شيء بعينه في الذكاء التقني الذي تتحدث عنه هذه القصة المزدوجة، أهمية جزء لا يستهان به، جزء أشد قتامة، هو مكوِّن سحري عرفنا بعض سماته في حديثنا عن أثينة.

في سياق الذكاء المخاتل ذي الصبغة التقنية والمستوى السحري اتخذ اختراع الشكيمة وانتصاره على پيجاسوس مكانه. وتراث هيسيودوس [١٠] يصور الحصان الذي قاوم

بيلليروفون في صورة حيوان أعجوبة: فهو ابن جورجونة، بزغ على حدود الليل، من رقبة ميدوسا Medusa المقطوعة، في مشهد أوقيانوسي تفور فيه المياه الخثونية <الأ رضية>، وپيجاسوس الذي خلقه پوسايدون [١١] تتمركز صورته الميثية وسط باقة من المصورات تمتد من جورجو Gorgô ذي رأس الحصان إلى ديميتر إيرينوس <ربة الانتقام> ثيلپوسا Démèter Erinús de Thelpousa [١٢]. وهو في قفزته التي حملته من الأعماق الخثونية <الأرضية> إلى العالَم الأوراني الذي ولجه بصفته حامل الصاعقة وحامل الرعد عند زيوس، قد نشر المجموعة المتدرجة الكاملة لمصورات الحصان التي أتاح تحليل ف. شاخرماير F. Schachermeyr إعدادها، وهي مجموعة تلخص السمات الجوهرية لپوسايدون هيپوس Poseidon-Hippos وهيپيوس Hippios [١٣]: الحصان من حيث هو قوة خثونية <أرضية>[١٤] متوجهة نحو العالم الجهنمي، وقوى الخصب التي تخفيها المياه العذبة والينابيع الفوارة؛ الحصان الناسف المشترك مع الرياح والسحب والعواصف؛ الحصان من حيث هو حيوان حربي، من حيث هو قوة حربية. وإلى جانب القيم الپوسايدونية للحصان پيجاسوس، كان المقصود من الإشارة المرجعية إلى جورجونة [١٥] توجيه مستمع أو جمهور پينداروس نحو صور أخرى تحيل إلى علامة مميزة للحصان في الفكر الإغريقي [١٦]. وهذا هو اكسينوفون Xenophon في كتابه «فن الخيّالة» [١٧] الذي ألفه في لحظة كانت الهيپولوجيا "علم الخيل" فيها قد اتخذت شكل معرفة تقنية خالصة، يستخدم في وصف حصان عصبي وعنيف صفة جورجوس gorgós التي تعني فظيع مزعج. والكلمة في هذا السياق المختص بعلم الخيل لا تعدم أن تكون غامضة. ما من شك في أن من خصال الحصان الأصيل أن تكون عينه – كما يسجل <Pollux> أحد فقهاء المعجمات[١٨] – مليئة بالنار blémma gorgón . ولكن الصفة نفسها تغطي حقلاً أوسع بكثير : فكلمة gorgós جورجوس تحتمل قيماً أخرى [١٩]، مثل بريق الأسلحة [٢٠] المهارة الفائقة الباهرة التي للبطل [٢١]، الصرعة الحربية التي تغير شكل وجه بشري [٢٢]. في كلمة gorgós جورجوس صورة نظرة جورجونة التي تكشف مجال القوى الإلهية وتتوافق مع ما يسميه اكسينوفون في نفس كتاب علم الخيل [٢٣] دايمونيون تي daimónión ti أي ما لا أعلم من العجب العجاب الذي يعطي تقريباً هامش الحيرة الذي يصح أن يرضى قائد خيالة أمين بوجوده في فن الخيل.

كل هذه الإشارات توحي بأن جورجونة تترجم في الفكر الإغريقي سمة جوهرية من سمات الخيل. هكذا يبدو الحصان – بتصرفاته ، بعصبيته، بصهيله، بأزمات جنونه، بمزاجه الجفول، بردود فعله المباغتة، بالرغوة على فمه، بالعرق على كسوته – حيواناً غامضاً عجيباً مزعجاً؛

أنه قوة دايمونية. كذلك نجد في الفكر الديني بين الحصان الجموح وبين جورجونة وبين المسكون ‹الذي يسكنه عفريت› مقاربات واضحة المعالم لاحظها هنري جانمير Henri Jeanmaire (٢٤) من قبل. فالمسكون «مركوب»، تركبه قوة غامضة عجيبة «تلجمه» anaseirázei(٢٥)، والأصوات المتلعثمة التي يصدرها بعض المصابين بالصرع تذكّر بالصهيل، بهذا الضحك المخيف الذي يضحكه الحصان؛ وعلى وجوههم المتقلصة يوشك الإنسان أن يرى قناع جورجونة. وإكسينوفون يقولها بكلمات لا لبس فيها: «المسكونون ينظرون نظرات جورجونة البشعة، ويصدرون صوتاً مرعباً، ولهم قوة فوق قوة البشر.» (٢٦) وعندما أحس أوريستيس Orestes بأنه مهدد نتيجة وجود الإيرينيات ‹ربات الانتقام›، أخوات الجورجونات Gorgones، وجوداً غامضاً ، قال وكأنما أثارته خيول جامحة: «كأنما خرجت خيولي عند منعطف الطريق عن مسارها فجأة.» (٢٧) ولكن الأمر لم في هذه الحالة مجرد علاقة بين الإنسان المسكون والحصان الجامح. وكيف يمكننا - ونحن نسمع الإشارة المزدوجة من قائد يفقد السيطرة على خيوله وعن خيول مكدنة تخطيء المنعطف وتندفع خارج المسار - ألا نتعرف على المسمى تاراكسيپوس Taráxippos أي «مرعب الخيول» والذي يمثل سمة جوهرية من سمات پوسايدون هيپيوس Poseidon Hippios؟ (٢٨) فالمنعطف هو الموضع الذي يمارس فيه هذا الإله قوته المزعجة، وكان قادة العربات يقدمون إليه قرباناً قبل القيام للسباق أو الدخول في الألعاب الأوليمپية. وقد جمع پاوسانياس (٢٩) حول تاراكسيبوس Taráxippos طائفة من الروايات التراثية الأسطورية المنصبة على موضوعين متمايزين ولكنهما متكاملان. نجد، من ناحية، المصورات التي تركز في تاراكسيبوس Taráxippos على الصفة السحرية للخوف الذي يستبد فجأة بالخيول. فيكون تاراكسيبوس Taráxippos حَجَرة لونها لون النار pétras... chróan purrhâs تبعث بريقاً هائلاً يملأ الخيول المكدنة بالرعب (٣٠). ويقول آخرون إنه سحر خبأه پيلوپس Pelops في ذلك الموضع ليرعب خيل أوينوماوس Oinomaos. وهناك في مقابل قصص الرعب حكايات ميثية، المحور المشترك فيها هو صورة قائد عربة قُتل مع خيله المكدنة، أو قائد عربة قَلَبه خيله. ويقولون إن آيَةَ «مرعب الخيول» هي مقبرة المدعو داميون Dameon الذي سقط هو وحصانه إبان حملة عسكرية، ويقول آخرون إن هذا الموضع هو الموضع الذي دفن فيه ألكاثوس Alkathos وهو ضحية من ضحايا أوينوماوس Oinomaos الذي حوله الحقد إلى «عين شريرة» báskanos تصيب كل الخيول المكدنة. وغير هؤلاء وأولئك يزعمون أن تاراكسيپوس Traxippos اسم حَمَلَه جلاوكوس، Glaukos ابن سيسيفوس، الذي فتكت به خيوله في الألعاب الإسيثمية التي أقامها أكاستوس Akastos على شرف

أبيه. ولكن هذا الجلاوكوس الكورنثي (٣١) يبدو هو نفسه قرين جلاوكوس آخر من بوئثيا هذه المرة، مات ميتة مأساوية فقد التهمته حياً خيول متوحشة كان يحلو له أن يطعمها لحم البشر(٣٢).

وصورة حصان يلتهم ويلوك بأسنانه لحم سيده صورة تحدد المغزى البعيد أشد البعد لسلسلة من المصورات تكشف السمة المزعجة للحصان وتشهد على انتمائه إلى عالم القوى الجهنمية. هذه السمات التي يتسم بها الحصان يمكن تحديدها على نحو أدق من خلال ميثين آخرين: ميثوس مغامرات هيپومينيس Hippomenes ولايمونه Leimône وميثوس فرسان ديوميديس Diomedes. أما الميثوس الأول (٣٣) فيجعل من الحصان أداة عقاب ينزله واحد من الكودريدين Kodrides بابنته التي تذنب باستجابتها للغواية؛ ويقولون إن هيپومينيس حبس ابنته بين أربعة جدران في بيت مهجور مع فرس طلوقة منع عنه الطعام فأصابه الجوع بالجنون. وهكذا عذبت البنت عذاباً عجيباً، ولكن العجب يخف إذا قارناه، على سبيل المقابلة، بالاسم هيپومينيس Hippomenes الذي كان الإغريق يطلقونه للتشهير على الغانيات والفاجرات، فالكلمة تدل على افرازات الأعضاء التناسلية التي تفرزها الفرسة الهائجة شبقاً(٣٤). وهذه هي لايمونه Leimône قد حكم عليها بأن يمزقها فرس طلوقة كناية عن الذي غواها، ولكن الفرس كان يتملكه جنون مفترس يثير في النفس في الوقت نفسه فظاعة القوى الغيبية المابعدية. ويحكي الميثوس الثاني حكاية الأفراس التي امتلكها ديوميديس Dio-medes الشراقي، من أبناء أريس Ares، وكانت هذه الأفراس ولدت على ضفاف كوسينيتيس Kossinites الذي قيل إن مياهه تجعل الخيول التي تشرب منها تمتلئ بهياج عارم وحشي، وقد أسر هيراقليس Héraklès هذه الأفراس التي تشتهي أكل لحم البشر في عمل من «الأعمال» ‹التي فرضت عليه›، وأخضعها للنير ليسلمها إلى أوروسثيوس Eurustheus قبل أن يلوذ بالفرار إلى جبل قريب من أوليمپوس، وهناك مزقتها الكواسر الحقيقية إرباً (٣٥).

من خلال هذه المصورات المختلفة - التي تكشف على نحو ما السمة الوحشية في حيوان مستأنس كان الإنسان طوال تاريخه كله يتصور أنه يشعر تجاهه على نحو شبه تلقائي بمشاعر الثقة بل الصداقة - نجد أن علينا أن نحدد ذلك الجزء من الحصان الذي يتطلب الإخضاع والقهر في الميثوس عند پينداروس يقابل هذا الجزء تماماً ذلك الجزء في پيجاسوس الذي يقاوم جهود بيلليروفون . فليس من قبيل المصادفة أن نجد أوريپيديس في معرض الحديث عن خيول

ديوميديس يذكر بصريح العبارة أن هذه الحيوانات لا تعرف الشكيمة، وأنها غير ملجمة achalinoi [٣٦]: أي خيول تأكل لحم البشر omophages ، هي عكس الخيول المسرجة الملجمة المشكومة. وبالتبادل ينصب عمل الشكيمة التي توضع قهراً في فم الحصان على قوة هذا الحيوان الوحشية، على العنف العجيب الغامض الذي يبدو أنه يخلط الحصان والإنسان المسكون ويجعل منه نوعاً من جورجونة. هناك سلسلة طويلة من الكلمات المتراكمة في الأنشودة الأوليمپية الثالثة عشرة تسمح بتحديد دقيق لأسلوب عمل ألة الخيل: هذه الكلمات هي فيلترون philtron أي شراب (البيت ٦٨) فارماكون phármakon أي عقار (البيت ٨٥) تيراس téras أي شيء عجيب رهيب (البيت ٧٣)، يصبغها بصبغة محددة النعت داماسيفرون damasiphron (البيت ٧٨) ومفهوم métra ميترا (البيت ٢٠). وكلمة تيراس[٣٧] تفرض فكرة شيء خارق للمألوف، ولكنها تبين في الوقت نفسه أن هناك قوة عجيبة غامضة، وفعالية فائقة للطبيعة مركزنين في الشكيمة، وكلمتا فيلترون وفارماكون تؤكدان وتحددان بدقة هذه السمة الجوهرية للقوة السحرية. والشكيمة التي يحملها كل حصان يُكدن أو يُركب تبدو مناظرة للأشربة السحرية والعقاقير والمركّبات العجيبة الغامضة التي كانت ميديا - ذكرها الشاعر مباشرة بعد الإشارة إلى دهاء الكورنثيين الميتيسي - تستخدمها أحسن من كل من عداها لكي تعطي ياسون Jason السيطرة على الثيران في مهمة الحرث، والهيمنة على الثعبان الهائل المكلف بحراسة الجزة الذهبية ليلاً ونهاراً. وهنا تبدو الشكيمة حاملة قوة سحرية مزدوجة الأساس. فالشكيمة chalinós من ناحية نتاج للتعدين، هي ابن اللهب purigenes<مذكر> [٣٨] أو من جنس اللهب purigenétes [٣٩]، إنها كائن حي لا يأخذه نعاس أو نوم ágrupnos [٤٠]، هي شيء معدني صنعته وبث فيه الحياة قوة الحدّاد، ودهاء هيفايستوس الميتيسي. ومن ناحية ثانية هذة الشكيمة الموضوعة في فم الحصان تؤثر عليه مثل المَسْكة السحرية . إنها عقال يكبل عنفه [٤١]. وپينداروس يصف الشكيمة بأنها damasiphron [٤٢] أي التي تكبح الجماح، و praüs [٤٣] أي التي تروّض، ويستخدم الاستعارة métra ميترا، وهي عدة القياس والمقياس والاعتدال. ويلجأ سوفوكليس إلى الصورة نفسها فيسمي الشكيمة الكماحة akestér [٤٤] "تلك التي عليها مهمة التهدئة"[٤٥]، التي تعمل عمل العقار أو الدواء [٤٦]. إنها نفس العلاقة بين الشكيمة الكماحة والسحر المرسومة في الموروثات الثيسالية حول لاپيثاي Lapithai پيليثرونيون Pelethron-ion [٤٧] . في هذه المنطقة من جبل پيليون، يقولون إن الحصان الأول الذي بزغ من الأرض روضه واحدٌ من اللابيثيين اسمه پيليثرونيوس Pelethronios وهو نفس اسم نبات عجيب

طلع من تلك الأرض ذاتها، وينسبون إليه كل القدرات الطبية والسحرية . كل هذه المعطيات تبين بما فيه الكفاية أن التأثير على الحصان، والتحكم في قوته المزعجة، يتطلبان أن تكون الشكيمة على نحوٍ ما من نفس طبيعة الحصان، أي أن تتضمن في ذاتها قوة غريبة وغامضة .

وهناك شاهد أخير يستحق أن نضيفه إلى الشواهد السابقة: ليس فقط لأنه يؤكد السمة السحرية للحصان ولكن لأنه يحدد هذه السمة على أساس علاقة مباشرة بينها وبين أثينة. هذا الشاهد عبارة عن أغنية خزّاف انتقلت من خلال سيرة لهوميروس منسوبة إلى هيرودوتس(٤٨). تبدأ الأغنية بابتهال إلى أثينة أن تبسط يدها فوق فرن الخزف لكي تجف الأشياء فيه على أكمل وجه، وتكتسي بطبقة جميلة سوداء لامعة وتؤتي عند بيعها بربح طيب(٤٩). يلي هذا الجزء الأول جزء ثان يتعرض فيه مؤلف الأغنية ، وقد يكون هوميروس، للحالة التي لا ينال فيها الخزافون جزاء ما بذلوا من جهد. ويورد نظرية طويلة عن شياطين الفرن، وهم : الكاسر Súntrips ، الشارخ Smáragos ، المستعر أبداً Asbestos ، والمفتت Sabáktes (٥٠). هؤلاء الشياطين كما تدل أسماؤهم الوظيفية بوضوح يحطمون الآنية ويحيلونها إلى فتات. ويتحدد التهديد بدقة في الصورة التالية: hos gnáthos hippeic brúkei, brúkei dè káminos «ليطلق الفرن صَخّة دونها تلك التي يطلقها فم الحصان»(٥١) وتتوالى سلسلة من الصور تدعم الصورة الأولى، وهي صور: سحر <الساحرة> كيركي Kirké وسمومها العنيفة والقنطوري والفظاعة العارمة (٥٢) والأغنية كلها مبنية على تضاد مزدوج: هناك - من ناحية - تضاد على مستوى محسوس وتقني بين الخزفيات التي جففت على أكمل وجه وبين الخزفيات المحطمة؛ وهناك من ناحية ثانية تضاد على مستوى ديني بين أثينة وشياطين الفرن. نجد على هذا المستوى الأخير تناظراً بين الشياطين المنهمكين في التحطيم، والنار المستعرة التي تنسف الخزفيات، وسموم كيركي، وهجوم القنطوري وبين الصخ المزعج الذي يطلقه فك الحصان. وعلى الرغم من أن هذا التضاد ليس محورياً في الأنشودة فمن الممكن استخلاصه وملاحظة أنه تضاد بين صورة أثينة التي تساعد الخزاف على السيطرة على قوة النار المزعجة وبين صورة حصان مليء بالهياج والصخ.

هذا الصخ الذي يحدثه الحصان يذكره إيسخيلوس مرتين من حيث هو صورة للموت والخراب. فعندما يحيط السادة السبعة بمدينة ثيبة «تدق الشكائم الأجراس بين فكي الحصان منذرة بالمذبحة» (٥٣)؛ ويشتد الخوف عند سماع ضجيج العربات، وصرير محاورالعجلات

والصخ الذي تحدثه الشكيمة المتولدة من النار، الشكيمة التي لا يأخذها إغفاء ولا نوم في أفواه الخيول [٥٤]. هذا الحصان الشره المفترس الذي يطلق فمه الغاضب صخ الشكيمة، وهي شكيمة تتخذ هنا سمات النار المزعجة التي أنتجتها، هذا الحصان يلوح لنا مثل الصورة المقلوبة للحصان الذي أخضعته إرادة أثينة للكماحة. ومع ذلك فحصان الحرب الذي أفزع الثيبيين، في مسرحية إيسخيلوس التراجيدية، ليس هو بالضبط الحيوان المفزع الذي تتحدث عنه أنشودة الخزاف. فإذا كان حصان أنشودة الخزاف يطلق صخاً من فك لا يعرف الشكيمة (لا يختلف في ذلك عن خيول ديوميديس المفترسة) فإن الحصان الآخر بما له من وظيفة حربية حيون يُركب له لجام وعُدة. ولكن الشكيمة التي تتحرك في فمه - إذا كانت هي العدة التي يستخدمها الفارس ليقود مطيته - فهي أيضاً بطبيعتها نارية وبالقرقعة المعدنية التي يبثها تمثل مضاعفة للصخ المشئوم الذي يبثه فك الحيوان. في المعركة التي قام بها السادة السبعة ضد ثيبة، جاء توتر الحصان، وإظهاره التبرم والعصبية داعماً قوة الفارس الحربية الذي كان يسعى إلى ضرب أعدائه بالرعب. ونحن نعرف أن ميثوس پينداروس يشدد أيضاً على هذه النقطة. فما تَلَقَّى بيلليروفون - الذي وُصف بهذه المناسبة بالقوي القدير karterós [٥٥] الشكيمةَ من يد أثينة حتى قفز فوق الحصان پيجاسوس، وجعل - وهو يرتدي عدته العسكرية البرونزية - حصانُه يؤدي «خطوة رقص عسكرية» enóplia paizein [٥٦]، رقصة من نوع البورهيك، وهي رقصة حربية كثيراً ما زعموا أن أثينة هي التي اخترعتها، وكانوا يرقصونها قبل أو بعد المعركة [٥٧]. وحصان بيلليروفون - على الرغم من أنه ينصاع طواعية لأوامر سيده - عندما يقوم برقصة حربية يجعل بريق البرونز الذي يتلألأ فيه الفارس أكثر إثارةً للرعب. وهذه هي النظرة المتأججة التي تنظرها أثينة المسلَّحة تزداد تحديداً نتيجة الصرير الذي تحدثه الشكيمة، تلك الآلة التي ولدت من النار، والتي بفضلها تمنح القوةُ الإلهية نفسها السيطرة على العنف الغاشم للحصان كماخلقه پوسايدون.

ونصل من خلال العلاقات المختلطة بين الحصان والشكيمة إلى تصورٍ مُعَيَّن للشكيمة، لهذا الشيء التقني، هذه الآلة التي تروض الحصان، كما نصل إلى تعريف أول للذكاء الذي تستخدمه أثينة في تأثيرها على الحصان. ففي استطاعتنا الآن أن نحاول تحديد كيف تتخذ القوتان الإلهيتان الموجودتان في ميثوس پينداروس مواقعهما الواحدة تجاه الأخرى في علاقتهما المرجعية المشتركة بالحصان. وعلى مستوى ميثوس پيجاسوس نجد الأنصبة الخاصة بأثينة وپوسايدون على التوالي مرسومة بوضوح ، ونجد وسائل العمل مبينة بوضوح. الميثوس كله تهيمن عليه أثينة «ربة الخيل»، أثينة هيپيا، التي أصبحت عندما دخلت المجال الثقافي

الكورينثي «أثينة ربة الشكيمة»، أثينة خالينيتيس. بهذه الصفة اتخذت أثينة ربة الخيل بالكامل جانب الشكيمة، الخالينيتيس. ونحن نعرف ذلك على نحو أفضل، بخاصة بعد أن بين بحث ممتاز أن الأسطورة الكورينثية عن اختراع الشكيمة هي حدث محدد في تاريخ التقنيات. وهذا هو ن. يالوريس N. Yalouris يتلقف الافتراض الذي طرحه ڤيلاموڤيتس Wilamo-witz[٥٨] واقترح فيه اعتبار الفارماكون پراو <العقار المروض> phármakon praü اختراع شكيمة أقل بدائية ، واستطاع يالوريس [٥٩] أن يبين من خلال بحث تنميطي أنه إذا كانت أجزاء السرج المختلفة قد صورت في كل أنحاء بلاد الإغريق بغير عناية على المصورات السابقة على القرن السادس قبل الميلاد ، فإن هذه الأجزاء نفسها قد صورت في كورينثيا على العكس من ذلك بالعناية أعظم العناية ، بالإضافة إلى أن النقود التي سُكت في كورينثيا آنذاك تؤكد وجود عبادة أثينة ربة الشكيمة منذ القرن السابع. يبدو إذن أن تصوير أثينة ربة الخيل في كورينثيا واكب إنجاز نمط شكيمة أكثر فعالية كما واكب تطويراً متميزاً للمعارف الخاصة بالخيل. ظهرت أثينة ربة الشكيمة في مجتمع يهيمن عليه الباخياد ، طبقة أرستقراطية من ملاك الأرض لها نفس طبيعة الرجال أرباب الخيل hippeis والخيالة hippobótai ، الذين تقوم الشواهد على وجودهم في مدن مختلفة في ذلك العصر[٦٠]. قامت عبادتها في شريحة اجتماعية، هي شريحة «سادة الخيل»، الخيالة، كان الحصان، هذا الحيوان الذي خلقه پوسايدون، بالنسبة إليهم آلة حرب، وقيمة اقتصادية، ودلالة كرامة اجتماعية وعلامة نفوذ سياسي. وبعض الممارسات المتبعة في هذا الوسط من الأشراف والأرستقراطيين يمكن أن تُبرر دون جهد تَمَيُّز ربة ذات شكيمة. مثلاً في ملحمة الأرجونوتية – ملاحي أرجو – نجد ياسون المرة تلو المرة يقدم إلى ضيفه هدية عبارة عن شكيمة حصان ثيسالية [٦١]، وهذا هو <القائد> كيمون Kimôn الأثيني عشية <واقعة> سالاميس Sal amis يقدم على هيكل أثينة قربانا هو شكيمة حصان [٦٢].

على المستوى التقني وهو مستوى خالينيتيس أي ذات الشكيمة يمكن تعريف عمل أثينة على نحو أفضل إذ لابد بالضرورة من مقابلته بعمل هيفايستوس الخصيص. فالشكيمة التي ولدت من اللهب هي درة من درر الحدّاد يمكن أن ينسبها هيفايستوس لدهائه الميتيسي الخاص. ومع ذلك فميثوس پينداروس لا يدع مجالاً للشك في هذه النقطة: الشكيمة التي تعطيها أثينة لبيلليرفون لا تعتبر منتجاً من منتجات التعدين، لا تعتبر درة من الدرر التي أحياها هيفايستوس بما بثه فيها من قوته الصانعة الديميورجية ؛ إنما يتمثلها الفكر على أنها شيئ تقني يسمح بالسيطرة على حيوان لا يمكن التنبؤ بردود فعله. إنما يكمن في هذا النموذج الميثي

لهذه الآلة سر أسلوب التدخل الخصيص بأثينة. فأثينة هي القوة التي تمنح البشر على هيئة ألة قوة تقنية وسحرية معاً للهيمنة على الحصان من حيث هو الحيوان الذي خلقه پوسايدون. وعلى هذا يتحدد على الفور دون ما جهد نصيب پوسايدون. الحصان مخلوق من مخلوقات پوسايدون بكل القيم التي تبينّاها في پيجاسوس: بسمات قوته الجهنمية، وبقوته الحربية، وبحميته، أي بكل ما يتطلب على نحو ما تدخل شكيمة. في مواجهة سيد الخيول هذا ‹پوسايدون› يبدو نصيب أثينة «صناعياً» على نحو مزدوج، أولاً لأنها قوة متجهة نحو «الصنعة» التي هي في وقت واحد دهاء ومهارة تقنية، وثانياً لأنها تعمل عملها من الخارج وعلى نحو مؤقت يؤثر على شيء ملموس ليس ملكاً لها، لأنها تظهر دائماً «بجانب آخر»، بجانب بيلليروفون وبجانب پوسايدون هيپيوس .

وقد يكون من الضروري أن نستبعد منذ الآن تفسيراً يمكن أن يفرض نفسه بسهولة على أساس أن أثينة ربة الشكيمة يبدو من الضروري ربطها بعلاقة مع بعض معطيات تاريخ التقنيات: فتكون أثينة في معناها هي الثقافة التي تروض الحصان ضد الطبيعة التي رسمها پوسايدون في هذا الحيوان نفسه. مثل هذا التخطيط التفسيري لا يقيم وزناً لعدد من سمات پوسايدون الهامة على المستوى الميثي وعلى المستوى الثقافي جميعاً. فهو بصفة خاصة لن يسمح لتقديم تفسير للسبب الذي يجعل العربة التي كدن الخيل إليها تنتمي أيضاً إلى پوسايدون. فنحن نجد في الإلياذة [٦٣] ما يعني أن پوسايدون علّم أنطيلوخوس «فن الحرب بالعربات والجياد» ، علمه كل أساليب استخدام العربة والخيل [٦٤]. ثم إن البطل نفسه، عندما دُعي في نهاية المغامرة، إلى أداء يمين علني يستشهد فيه پوسايدون، وضع يداً على الخيل، أما اليد الأخرى فأمسك بها بقوة سوط قائد العربة [٦٥]. ونذكر أخيراً أن الجياد دُفع بها تكريماً لپوسايدون إلى مياه الديني Diné في أرجوليس Argolis مجللة بطقومها[٦٦].

ولكن من الخطأ أيضاً أن يذهب ذاهب إلى وضع أثينة وپوسايدون في علاقة مباشرة في مرحلتين مختلفتين من مراحل تاريخ الحصان، إحداها هي مرحلة العربة التي تميز العالم الموكيناوي (Mykênai)، والثانية مرحلة تطوير فن الخيل الذي انتشر في بلاد الإغريق في مطلع الألفية الأولى بوساطة الشعوب الخيّالة [٦٧]. حتى إذا قام دليل على أن الشكيمة أداة جاء تطويرها في مرحلة الترويض الذي يميز استخدام الحصان حيواناً مسرجاً للركوب [٦٨]، فإن أثينة لا يمكن قصر سلطتها على مجرد علاقة متميزة بشكيمة حصان الركوب [٦٩]: فسلطانها أوسع من ذلك بكثير، فهو يشمل - علاوة على الحصان - العربة وخيول السباق المكدنة.

وسنوافق راضين على أن الفكر الديني لا يعكس تاريخاً تقنياً يأتي پوسايدون وأثينة لإظهار تطوراته المتتابعة.

* * *

هناك عدد من المصورات الميثية والموروثات الأسطورية والمعطيات الثقافية التي تجمع في مشاهدها أثينة وپوسايدون والحصان، تضع بين أيدينا طائفة من المواقف التي نستطيع من خلالها أن نختبر تعريف وسائل العمل الخاصة بكل قوة من هاتين القوتين الإلهيتين. نستخلص من هذه الطائفة من المواقف أو الحالات ثلاثة أمثلة:

- شعائر أونخيستوس Onchestos
- أسطورة أريون Arion
- قصة سباق إيريخثيوس Erechtheus واسكليميس Sklemis.

أما المثل الأول فهو حالة «شعائر أونخيستوس» التي ستتيح لنا أن نحدد على نحو أفضل أساليب تدخل پوسايدون هيپيوس، لأن الشعائر البوئيتية العجيبة ‹نسبة إلى بوئيتيا Boiotia حيث مدينة ثيبة› أدخلت تمييزاً قاطعاً بين الخيل المكدنة من حيث هي مجموعة من الخيل وبين قائد العربة من حيث هو قائم بدور القائد. و«الأنشودة الهوميروسية إلى أپوللون» هي التي تحكي بألفاظ كثيراً ما نجدها كالألغاز الممارسة الشعائرية المستخدمة في أونخيستون (٧٠): «من هناك، مندفعاً إلى أمام، أيها القائد أپوللون، بلغت أونخيستوس، ساحة پوسايدون الرائعة. هناك يلتقط المُهر، الذي رُوض حديثاً، أنفاسه neodmès polos، على الرغم من أنه يظل حاملاً ثقل العربة. ومهما يكن قائد العربة من الحذق، فهو يقفز إلى الأرض، ويقطع الطريق سيراً على الأقدام. وما تجد الجياد نفسها بلا يد تمسك زمامها، حتى ترج هيكل العربة وقد خلا ، رجاً مدوياً. فإذا تحطمت العربة في الغابة المليئة بالشجر، ضمد القادة جراح الجياد، تاركين العربة مائلة tà dè klinantes eosin. هذا ما كان القانون الإلهي منذ الأصل يسمح به للبشر hos gàr tà prótisth' hostie. كان الداعي يدعو الرب، وكان الرب بما أوتي يحمي عندذاك العربة diphron dè theoû tóte moîra phulássein. » وقد ألقت تحليلات ج.رو G Roux الضوء في براعة على معنى الاختبار الذي كان يخضع له الجواد الحديث الترويض في بلد مربي الخيول هذا. عند مدخل غابة پوسايدون المقدسة القائمة على ربوةٍ يهبطُ القائدُ من العربة إلى الأرض ويترجل، مهما كانت مهارته، ويترك الجواد الفتِي تحت الشجر. وهناك احتمالان، ثانيهما هو وحده الذي ورد وصفه صراحة، ولكنه يفترض وجود الاحتمال

الأول (٧١). فإما أن يحفظ الجواد هدوءه، وقد ترك لشأنه، على الرغم من صخ العربة، وغياب القائد، فيجتاز الغابة دون عائق، ويقود العربة إلى بر الأمان، ‹ هذا هو الاحتمال الأول›. وإما أن يضطرب الجواد نتيجة حريته، ويجن من أثر صخ العربة وقد خفت وخلت من راكبها ، فيعض على الشكيمة، ويرطم العربة في الأشجار، ‹وهذا هو الاحتمال الآخر›. في إحدى الحالتين يثبت الحصان أنه قد روض بما فيه الكفاية ليحتمل صخ العربة ويستأنف طريقه دون أن تمسك بزمامه يد. في الحالة الثانية يظهر المهر أنه حيوان عصبي هائج مثل تلك المهار التي تجفل أمام جارها أو تدع ظواهر المباغتة تزعجها (٧٢). في هذه الحالة الأخيرة، عندما يفزع الحصان سريعاً، يُدعى الرب پوسايدون : فالعربة - لا نعني الهيكل، بل الخيل المكدنة - تحت حمايته.

في شعائر أونخيستوس نجد حقل عمل پوسايدون يتحدد بثلاث سمات هامة.

- نلاحظ أولاً أن كل شيء يجري خارج، أوعلى هامش عمل قائد العربة. فقائد العربة يغاذرها، وتبقى هناك خيول مكدنة مجردة من كل ما يمثل الإنسان الواقف على العربة.

- ونلاحظ ثانياً أن الاختبار يجري في مكان يغمره الرعب حيث يمكن أن يصاب الحصان بخوف عارم: وقائد العربة يغادرها في الوقت الذي تلج فيه الخيل غابة پوسايدون المقدسة.

- ونلاحظ ثالثاً وأخيراً أن ما نتطلبه صراحة من پوسايدون، ليس أن يهدي الخيل المكدنة الطريق المستقيم، ولا أن يهب الحصان المكدن القوة والسرعة اللتين تسمحان له بالانتصار على الآخرين في السباق أو في الحرب. كان تدخل پوسايدون أكثر تحديداً: كان على رب أونخيستوس أن يحمي الخيول المكدنة (٧٣)، وكانوا يدعونه ليحمي العربة من خطرعرفنا من قبل تهديده في مصورات تاراكسيپوس المختلفة، تاراكسيپوس مرعب الخيول، أي الشخص الذي هو الوجه الآخر لپوسايدون هيپيوس.

وشعائر عبادة تاراكسيپوس (٧٤) هي تلك التي تقوم بينها وبين شعائر أونخيستوس التوافقات أكثر التوافقات. فغابة پوسايدون مكان له نفس طبيعة منعطف دروموس Drómos. والاختبار في أوليمپيا وفي أونخيستوس واحد؛ إما أن يبقى الحصان هادئاً، فيدور الدوران في غير خوف كما يجتاز الغابة دون أن يرتاع؛ وإما أن يستبد به الخوف deîma فيقلب قائده ويحطم هيكل العربة. هناك نموذج واحد يُعْلِمُ پوسايدون في أونخيستوس وتراكسيپوس في أوليمبيا.

ولكن هناك بعض الفروق بين هذا وذاك علينا أن نستخرجها: العربات في أوليمپيا عربات يركبها قادة، بينما العربة في أونخيستوس خالية من قائدها. ونلاحظ من ناحية أخرى أنهم

في أوليمبيا كانوا يرفعون الدعاء إلى تراكسيبوس قبل سباق العربات، بينما كانوا في أونخيستوس يكلون إلى بوسايدون حماية العربة بعد نهاية الاختبار. وقد يبدو هذا الاختلاف الأخير هيناً، ولكنه يكشف عن سمة جوهرية تسم دور بوسايدون. وإذا كانت شعائر أوليمبيا وشعائر أونخيستوس مهيكلة على النحو نفسه، فإن الزمنية الخصيصة بهما لا تفصلهما بعضهما عن البعض، بل تصنع بينهما تكاملاً وثيقاً. فمن الممكن اعتبار شعائر تاراكسيبوس وشعائر أونخيستوس بمثابة «مقدمة» و«خاتمة» منسك واحد. في الشعائر الأولى يقدمون القرابين إلى تاراكسيبوس أي إلى بوسايدون هيبيوس قبل السباق راجين أن يحرس الخيل المكدنة. أما في الشعائر الثانية فيبتهلون إلى بوسايدون «بعد» الاختبار لكي يرعى الخيل المكدنة التي رُوِّعت.

هكذا يتحدد حقل عمل بوسايدون «رب الخيل» على نحوين، يتحدد أولاً بناء على البديلين اللذين يقوم عليهما الاختباران: إما أن يظل الحصان هادئاً وإما أن يتخذ الشكيمة بين أسنانه. ثم يتحدد حقل عمل بوسايدون بعد ذلك بدقة بناء على النموذج الزمني الذي ترتسم خطوطه من خلال مقارنة الاختبارين. فبوسايدون يُدعى قبل أو بعد السباق، وليس في أثنائه، ولهذا فهو يبدو أنه يلعب دوراً سلبياً في جوهره. فهو موافق على ألا يرعب الخيل المكدنة، وعلى ألا يُظهر في مخلوقه القوة المزعجة التي تجيش فيه، ولكن بوسايدون مع هذا كله لا يمنح السيطرة على الحصان والعربة. كانوا يدعونه قبل أو بعد السباق، فكان موقعه «في هذه الناحية» من مستوى العمل الذي لاحت لنا أثينة ممثلة له. «في هذه الناحية» من كل ما يعني السيطرة على سباق الحصان.

أما المثل الثاني فهو حالة «أسطورة أريون» التي تدور حول الحصان أريون Arion، والتي ستُبَيِّن لنا بناء على خيل مكدنة ميثية، كيف تتحدد وسائل عمل أثينة ووسائل عمل بوسايدون كل على حدة. مثل هذا المشروع البحثي يمكن أن ينفرط عقده: أليس أريون حصاناً فريداً لا نظير له، وأليس هو علاوة على ذلك حصان ركوب؟ وهو من حيث نسبه يشبه بيجاسوس، كما يشبه الأخ أخاه. وهو مثل بيجاسوس من مخلوقات بوسايدون، فقد ولد عن عشق بوسايدون هيبيوس لديميتير إرينوس Démèter Erinús ذات الرأس الحصاني (٧٥). وأريون حيوان خارق للمألوف، إنه «منظر مدهش للبشر»، بحسب تعبير أنتيماخوس Antimakhos في ملحمة «الثيبيادة Thebais» (٧٦)، يلعب الحصان أريون دوراً حاسماً في مشهد من مشاهد «الثيبيادة Thebais»: فهو الذي يعيد على ظهره

أدراستوس Adrastos الوحيد الذي بقي على قيد الحياة بعد الكارثة الذي مني بها أهل أرجوس أمام ثيبة Thébai [٧٧]. ولبيان انتماء الحصان أريون إلى پوسايدون نرجع إلى شهادة تفرض نفسها، هي مشهد أنطيلوخوس Antilokhos في الأنشودة ٢٣ من «الإلياذة». رأينا أن أنطيلوخوس كانت لديه خيول أقل سرعة من الخيول المنافسة، ولكن بفضل الدهاء الميتيسي الذي علمه إياه الشيخ نيسطور Nestor ضمن الفوز في سباق العربات. عَلِمَ أنه إذا نجح في استغلال ضيق الطريق في حمل منافسه على الالتواء، ليسبقه ويتجاوز المنعطف، فسيفوز، وقد وعده نيسطور بأن خيوله الأقل سرعة ستسبق الجياد الأكثر سرعة: «ولن يكون هناك من يستطيع أن يغلبك ويسبقك، حتى ولو دفعوا على آثارك بأريون Arion، حصان أدراستوس Adrastos السريع المنحدر من أصل إلهي» [٧٨]. يظهر التضاد هنا واضح المعالم بين خيول أنطيلوخوس التي يدفعها دهاء قائدها الميتيسي، وأريون، الحصان القوي، السريع سرعة الريح، الحصان الپوسايدوني الخالص.

في الدائرة الملحمية وفي الملحمة الهوميروسية، يظهر أدراستوس على هيئة الخيّال المتطي صهوة أريون [٧٩]. ولكن هناك مأثورات أخرى، متأخرة عن هذه فيما يبدو، نرى فيها أدراستوس على هيئة قائد عربة كأي بطل آخر من أبطال الملحمة. وتصف «ثيبيادة Thebais» أنطيماخوس

Antimakhos الكولوفوني ‹من كولوفون Kolophon› خيل أدراستوس المكدنة، وهما حصانان: الأول اسمه أريون والآخر اسمه كايروس Kairós [٨٠] ويمكن أن نترجم مدلول كايروس إلى = اللحظة السانحة والفرصة العابرة. فإلى امتياز أريون، إلى قوة الحيوان الپوسايدوني أضيفت مقدرة الثاني على المناورة، وفنه الجوهري في السباق، ألا وهو تحين الفرصة السانحة "كايروس" kairós، والقفز في اللحظة الحاسمة [٨١]، باختصار مجموعة الصفات التي يدل عليها الدهاء الميتيسي، هذا الدهاء الميتيسي الذي يحدد فن سائق العربة وسيطرة القائد [٨٢]. في هذ الجمع تحت نير واحد بين أريون وكايروس نجد أنفسنا سائرين إلى تبين سمتي الحصان اللتين تترجمهما على المستوى الإلهي قوة پوسايدون ودهاء أثينة الميتيسي. وهناك نص تراثي في Etymologicum Magnum [٨٣] يبدو أنه يؤكد هذا التفسير. كان هناك مكان مشهور في كولونوس Kolonós يسمى كولونوس هيپيوس فيه من ناحية هيكل مشترك لپوسايدون هيپيوس وأثينة هيپيا، وفيه من ناحية أخرى معبد هيري مخصص لأدراستوس بصحبة ثيسيوس Theseus وپيريثويس Pirithoüs وأوديپوس Oedipous. وكانوا يقولون إن هذا المكان هو الذي رفع فيه أدراستوس، وهو يفر من الموت، الدعاء صريحاً

إلى القوتين المختصين بالخيل، پوسايدون هيپيوس وأثينة هيپيا، أن يساعداه. دعاهما جميعاً لأن تضافرهما الإلهي كان بطبيعة الحال متضمَّناً بلا شك في تضامن الحصانين أريون وكايروس. أما علاقة التضاد بين پوسايدون وأثينة التي لاحظناها في حكاية پيجاسوس، وحده، بما هو حصان پوسايدون الذي روضته شكيمة أثينة، فنحن نلتقي بها في هذه المرة في حكاية أدراستوس يمثلها حصانان. ومن البديهي أن هذا التباين في الصياغة تربطه علاقة بالطريقة المختلفة لاستخدام الحصان: فپيجاسوس حصان ركوب ؛ أما أريون وكائيروس فيمثلان الخيل المكدن الذي يجر العربة.

ومن هنا ، وعلى مستوى العربة، وفي سياق يبدو فيه نصيب پوسايدون أعلى هيمنة، نسأل عن مسار خط التحديد الفاصل بين ما يخص پوسايدون وما يخص أثينة؟ إلى جانب الحل الذي يقدمه لنا اختراع أدراستوس، هناك حل أكثر اتساعاً وبلا شك أكثر عمومية ينبهنا إليه مؤرخ من القرن الثاني قبل الميلاد، هو مناسياس Mnaséas الپاتاري <Patara> (٨٤). في معرض الحديث عن فن العربات الذي زعم أهل ليبيا أنهم اكتشفوه، يقول مناسياس إن الليبيين يزعمون، علاوة على ذلك، أنهم تعلموا من پوسايدون فن كدن الخيل إلى العربات hármazeûxai وتعلموا من أثينة فن قيادة الخيول المكدنة heniocheîn. هناك خط فاصل بين مجالين: العربة بالخيل المكدنة من شأن پوسايدون الذي يوصف بأنه hippodrómios(٨٥) و zúgios (٨٦) ؛ أما فن قيادة الخيل والعربة فمن شأن أثينة. ونسأل على نحو أدق : عم يدل عمل القائد heniocheîn؟ في فن قيادة العربات، ليست الشكيمة هي التي تعطي القائد السيطرة على العربة: عمل الشكيمة هنا أقل أهمية بكثير من عملها في فن ركوب الخيل حيث تُوَجِّه الحصانَ الذي يمتطي صهوتَه خيّال. ومع ذلك فليس اللجام henia من حيث هو شيء تقني هو الذي نتعرف إليه في اشتقاق فعل heniocheîn ‹يقود العربة›. نصيب أثينة ليس ضيقاً، إنه يغطي كل منظومة أفعال القيادة التي ينبغي على قائد العربة أن يكون متمكناً منها: اللمحة، رد الفعل السريع، الانتباه الحاد إلى تصرفات الخيول المباغتة، إلى تفاوت شكل الأرض، إلى كل العوائق التي يمكن أن تفسد مشوار العربة ولكن القائد الأريب الحصيف hippómetis يمكنه أن يستغلها لتفيده أحسن الفائدة.

هذه المواقف الخاصة بالخيل التي قد يلوح فيها پوسايدون وأثينة في حالة من التنافس تقدم لنا المثل على الأساليب المختلفة التي يسعى الفكر الديني من خلالها إلى الإشارة إلى التعارضية والتكاملية بين قوتين تتدخلان في نفس المجال بوسائل عمل متمايزة. ولقد استخلصنا إلى الآن ثلاثة أنماط:

– إذا كان الأمر أمر حصان ركوب فالحيوان من شأن پوسايدون أما الشكيمة فمن شأن أثينة ؛

– إذا كان الأمر أمر خيل مكدنة إلى عربة ، فإما أن تكون كل قوة من القوتين يمثلها حصان من الحصانين،

– أو يكون الحصانان المكدنان جميعاً تحت هيمنة پوسايدون ، ويعمل القائد بوحي من أثينة.

هذا النمط الأخير كما استخلصناه يسمح لنا من الناحية العكسية بأن نرى على نحو أفضل في حالة شعائر أونخيستوس أن قوة پوسايدون المؤثرة على الخيل المكدن يحددها انسحاب القائد. والموقف الثالث المختص بالخيل والذي بقي علينا أن نفحصه سيبين لنا طريقة رابعة لتحديد الخط الفاصل بين القوتين في عملهما على شيء واحد ملموس.

في الملحمة الهائلة ذات الثماني والأربعين نشيداً والتي ألفها نونوس Nonnos الپانوپوليسي ‹پانوپوليس Pannopolis الاسم الإغريقي لمدينة أخميم المصرية› تمجيداً لديونيسوس في مطلع القرن الخامس الميلادي، يصف النشيد ٣٧ المباريات الجنائزية التي جرت بعد موت إوفيلتيس Opheltés صريعاً بعد الضربات التي سددها إليه ديرياد Dériade ملك الهند. يتواجه في السباق متنافسان يسيطران على المغامرة كلها، هما: إيريختيوس Erech-theus واسكليميس Sklemis. أولهما وهو إيريختيوس، الذي تحميه أثينه، يقود حصانين مكدنين هما اكسنثوس Xanthos وپوداركي Podarké؛ وثانيهما وهو اسكليميس من نسل پوسايدون يقود العربة فوق البحر. في المسار المستقيم المؤدي إلى الوصول يتقدم اسكليميس، فحصاناه هما الأسرع. وإيريختيوس يتبعه، وكل منهما يدعو القوة التي تحميه، اسكليميس Sklemis يدعو پوسايدون، سيد كل العلم المختص بالخيل hipposúnes ku-berneteia [٨٧]؛ وإيريختيوس يستنجد بأثينة التي تدفع الخيل إلى الأمام [٨٨]. منذ هذه اللحظة يصبح السباق معركة بين الدهاء والقوة. إيريختيوس الذي يحتكم على دهاء متموج aiolómetis [٨٩] يدبر مناورة خبيثة [٩٠] ، قَلَّ خُبْثُها أو كَثُر، مكَّنَتْه من الفوز على حصاني غريمه المكدنين الأسرعين. فقد ضرب بسوطه ضربة دفع بها حصانيه إلى مستوى عربة اسكليميس، ثم شد بيده اليسرى لجامي غريمه شدة عارمة، واستفز بيده اليمنى حصانيه استفزازاً شديداً متوالياً. واستغل إيريختيوس تقدمه الطفيف فدفع عربته مباشرة أمام عربة اسكليميس ؛ وعرقله بلفة ملتوية؛ وهكذا فاز الدهاء الميتيسي. وانتصر خيل أثينة المكدن

على خيل پوسايدون. ويهدف الفصل كله إلى إظهار تفوق الخيل المكدن الذي استطاع قائده - بدون أن يضع ثقته في قوة حيواناته - أن يحقق فائدة كبرى من أخطاء غريمه ومن ظروف السباق. وهناك بيتان من الملحمة يلخصان الاختلاف بين أثينة وپوسايدون: «ذكاء قائد مليء بالدهاء الميتيسي هو عجلة القيادة الحقيقية التي توجه العربة pedálion diphroio» (٩١).

هذا المثل الأخير الذي يستند إلى صيغة جديدة تماماً - هي عربتان تتواجهان، بدلاً من حصانين يتعاونان في جر عربة واحدة - يدعم كل الدعم اختلاف وسائل العمل وهو الاختلاف الذي على أساسه يقوم الثنائيُ أثينة وپوسايدون في مجال الخيل (٩٢) .

عندما يتواجه أثينة وپوسايدون بوساطة كائن ملموس - هو الحصان المكدن أو الممتطى - فإنهما يكونان أبعد من أن يختلطا في وضع واحد مبهم هو وضع «سيد الخيل» (٩٣) يكون مشتركاً بينهما، بل يتمايزان تمايزاً واضحاً بناءً على شكل تدخل كل منهما في حقل عمل واحد. ولقد بين لنا ملف أثينة هيپيا كاملاً أن نصيب أثينة يتمثل في السيطرة، السيطرة على الحصان بالاستعانة بأداة مزودة بالفعالية، والسيطرة على قيادة العربة، سواء كان الأمر أمر قيادتها على مسار مستقيم دون التواءٍ أو حيدٍ عن الطريق، أو أمر استغلال اللحظة المناسبة، أو اهتبال الفرصة. كلها سمات تترجم في هذا السياق المختص بالخيل دور دهاء أثينه الميتيسي وذكائها الذي يتصف في أن واحد بأنه دهائي وتقني وسحري. في مواجهة هذه القوة التي تمنح السلطة على الحصان والعربة، يثبت پوسايدون ذاتّه بما هو سيد الخيل ، ولكن سيادته تقف من حيث المبدأ عند ذلك الحد الفاصل الذي تبدأ عنده الصنعة سواء كانت تلك الخاصة بالشكيمة أو بقائد العربة. وپوسايدون، بما هو سيد الحصان، على هواه، يضبط حمية مخلوقه أو يطلق ما به من عنف. ولكنه يظهر دائماً على هيئة المالك الحريص، القابض على حقوقه. وإذا كان پوسايدون ينزل عنها أحياناً عن طيب خاطر فإنه لا يحب لامتيازاته أن تُغتصب . وتأتي جزئية في ميثوس پيجاسوس لتبين أن أثينة تعرف تماماً هذا السمة من سمات پوسايدون: ففي الوقت الذي تخترع فيه الشكيمة، تلك الآلة التي تسمح لبيلليريفون بالسيطرة على ركوبته، نراها تُذكّره وقد أظلته بحمايتها بأنه ينبغي عليه بادئ ذي بدء أن يمجد پوسايدون «المروض Damaîos» (٩٤)، بأن يقدم إليه الحصان المسرج الملجم المزود بالشكيمة التي اخترعتها، ويتقرب إليه بأضحية هي ثور أبيض (٩٥). هكذا تتصرف أثينة التصرف الصائب الكامل الصواب: فتعطي لپوسايدون ما لپوسايدون.

الباب الثامن

زاغـــة البحـــر

في أغلب المجالات التي تشهد ممارسة عمل أثينة. نجد عدداً معيناً من الوقائع الشعائرية، والحكايات الميثية والمصورات تسمح بأن نتبين، في لمحة أولى، تصويراً تقريبياً لهذه القوة الإلهية، سواء كانت هي أثينة المحاربة المرعبة ذات العين البرونزية، أو كانت هي أثينة مروضة الخيول، مخترعة شكيمة الخيل، أو كانت هي أثينة العاملة الخبيرة بشغل النسيج.

أما أن تكون أثينة التي يبدو أننا نتأهب لتقديمها، أثينة بحرية، فهذا مسعى ينطوي على المخاطرة ليس فقط من حيث إظهارها على هيئة غريبة، بل على هيئة توشك ألا تقوم لها قائمة. أما إظهارها على هيئة غريبة فلأن البحر ليس على ما يبدو مجالاً يمكن أن تنافس أثينة فيه بوسايدون، كما نافسته في مجال العربة والحصان. وأما إظهارها على هيئة توشك ألا تقوم لها قائمة فلأنه ليس هناك شعائر هامة تقدس أثينة ربة بحرية يفرضها ميثوس كبير فرضاً حقيقياً. ولكننا إذا فحصنا الموضوع بمزيد من التدقيق اكتشفنا في عمل أثينة طائفة كاملة من التدخلات تقع في إطار البحر والملاحة. فعندما قرر تليماخوس في «الأوديسا» أن يخرج للبحث عن أوليسيس، كانت أثينة هي التي جهزت الرحلة وقادت السفينة. كذلك بالنسبة إلى رحلة «الأرجونوتية» ‹ملاحي سفينة أرجو› كانت هي التي بنت السفينة، واختارت الربان وخفت لمساعدته في لحظة عبوره ممراً خطيراً. وبصفة أكثر عمومية نلاحظ أن أثينة هي التي اخترعت أول سفينة عرفها البشر، سواء ألت إلى داناؤس Danaos أو كانت مركب ياسون ورفاقه ‹الأرجونوتية› ، وهناك أخيراً عدة إشارات إلى أن هناك أثينة غريبة تحمل اسم طائر بحري هو زاغة البحر aithuia.

انطلاقاً من هذه المعطيات الأخيرة، وبغية البحث في تحديد دقيق لطبيعة هذا الطائر البحري، سيمكننا أن نرسم الحدود الأولى للمجال الذي ستدخل فيه السمات المختلفة التي تتسم بها أثينةُ بحرية. في الصفحات الأولى من كتابه «وصف بلاد الإغريق Peri hegesis

tes Hellados ، يذكر پاوسانياس Pausanias أن هناك على ساحل ميجارا Megara رأساً skópelon يسيطر على البحر: هو مكمن Athena aithuia أثينة الزاغة [١]. وفي المكان نفسه قبرٌ دفن فيه پانديون Pandion وهو أحد ملوك مدينة أثينا [٢]. ونجد فيما كتبه الفقيه المعجمي هيسوخيوس Hesykhios ملحوظة موجزة تفيد في إكمال إشارة پاوسانياس: عندما طرد الميتيونيد Métionides پانديون Pandion وشتتوا أبناء الأتيكا Attika، اتخذت أثينه هيئة طائر الزاغ aithuia لكي تحمل الملك المخلوع إلى ميجارا Megara متوارياً تحت جناحيها [٣]. ولما لم نجد في التراث الأتيكي ولا في التراث الميجاري ما يمكننا من كشف غموض هذه البقايا المتبقية عن ميثوس ملكي، فليس أمامنا من سبيل إلا السعي إلى معرفة سمات الربة القابعة على رأس ميجارا من خلال دراسة المصورات المختلفة التي تصور هذا الطائر البحري والتي تمنحه اسمه وشكله.

ولقد ترك لنا علماء الطبيعة وعلماء الطيور وعلماء المعاجم القدامى وثائق عديدة ومنوعة تعطينا الحق في رسم صورة للزاغة التي لا ينقصها شيء جوهري، إلا التحديد الدقيق للفصيلة التي ينتمي إليه هذا الطائر. والمحدثون مثلهم مثل القدامي لا يزالون يترددون بين فصائل مختلفة من طيور الماء التي تتراوح بين الغاق le cormoran وبين زاغة البحر la corneille، مروراً بالزُمّجَ المفضض la mouette argenté والعُرّة la foulque والكروان le courlis والجَلَم le puffin والغطاس le grèbe والزُمّجَ الغواص la mouette plongeuse [٤] . هذه الحيرة لا يرجع السبب فيها فقط إلى طبيعة الوثائق الخاصة بالكائنات الحية التي نشأت كلها بعيداً عن معاييرنا التصنيفية. بل ترجع بقدر أكبر إلى أن السمات المميزة لفصائل الطيورالمتقاربة أشد التقارب قد محتها الصورة الموحدة لسلوك طائر كان الإغريق يعتبرونه الصورة النمطية الواحدة لمجموعة من طيور الماء، مثل láros, dúptes, croidiós, aithuia [٥]. فما هي السمات الجوهرية لسلوك الطائر المسمي "أيثويا" aithuia <= زاغة البحر> الذي سنسميه <في النص الفرنسي> بدافع التسهيل corneille de mer وهي ترجمة حرفية للاسم الإغريقي ko-rone thalássios الذي يستخدمه العديد من فقهاء المعجمات [٦]؟ هذا الطائر أولاً طائر أليف ولصيق بالجنس البشري في ممارسته المزدوجة للصيد والملاحة. وتذكر بعض الموروثات أن زيغان البحر [٧] كانت فيما مضى بشراً اخترع الصيد في البحر. فلما تحول هؤلاء البشر إلى طيور أقاموا على مقربة من الموانيء والمدن على شاطئ البحر. وزاغ البحر بَرّي مائي في آن واحد، ولهذا فهو برمائي مزدوج، يتوزع بين البر والبحر، وبين الماء والهواء. والزيغان التي تعشش على رءوس البر التي يضربها الموج، تتمشى بخطى بطيئة على الشريط الضيق من

الأرض الرطبة التي تفصل وتربط اليابسة بحركة المياه. وهي لكي تنال السمك الذي تتغذى عليه، تغوص في وسط الموج، وعندما تظهر حاملة غنيمتها، يبدو عليها كأنها تصعد من قلب دوامات الزبد.

والزاغة بما هي مطبوعة بالقيمة الدلالية التي تمنحها موقع الوسيط في قلبِ مثلث العناصر: " الأرض - الماء - الهواء"، مهيأة على نحو فريد للتعبير المتداخل عن جوانب مختلفة من عالم الملاحة. فزاغة البحر ، من حيث هي طائر بحري يبرح الأرض لينطلق في الفضاء البحري ثم يعود إلى الساحل مرة أخرى، تبدو نظير الملاح. وهذا هو أراتوس Aratos في كتابه «الظواهر Phainomena» يشبه الملاحين في البحر بزيغان البحر التي ترتمي في أجواف الأمواج وتركب اللجج [٨]. وأرتيميدوروس Artemidoros في كتابه «مفتاح ‹تفسير› الأحلام، بالفرنسية: Clé des Songes» ‹أصل العنوان بالإغريقية Onei-rokritika› يقول إن رؤية زاغة البحر في المنام ينبيء باحتراف الملاحة وبالمعرفة الكاملة بأمرالبحر: ومن يرى مثل هذا المنام لن يمخر عباب البحر إلا ويجد سنداً من علامات اهتداء ‹تدله على الطريق›[٩]. ولكن في الوقت الذي تدل فيه زاغة البحر على الملاح، نرى أنها يمكن أن تدل على مركب سباق، وعلى الحد بين الأرض والماء والسماء، فيقولون : هذه السفينة زاغة البحر [١٠]. في هذا الفضاء الثلاثي نفسه تأتي النبوءة التي يعبر عنها هذا الطائر البحري : «إذا لقيت زاغة البحر سفينةً، وانقضّت في أثناء طيرانها لتغوص وسط الماء، فهي تنذر بخطر مستطير. أما إذا مرت من فوق السفينة، أو حطت فوق صخرة، فتلك على العكس، بشرى بملاحة سعيدة [١١]». إننا نرى هنا حركة مزدوجة: من ناحية عندما يغطس الطائر في البحر، فهو يضم السماء والماء، وينذر بالعاصفة، على نحو ما نجد صراحة في شواهد عديدة أخرى [١٢]؛ ومن ناحية أخرى عندما يحط الطائر علي رأس البر فهو يربط الماء والأرض، وينبئ هكذا بعبور عادي من نقطة على الأرض إلى نقطة أخرى من خلال الفضاء البحري الممتد.

وهناك فصل ميثي في «الأوديسا» [١٣] يؤكد أهمية أيثويا aithuia زاغة البحر في مجال الملاحة. ففي اللحظة التي كانت فيها ملامح فياقيا ‹حالياً = جزيرة كورفو› قد أوشكت على الظهور في الأفق، تعرض أوليسيس لغضب پوسايدون: فقد هبت الرياح عاتية، وتدافعت الزوابع، الواحدة في أثر الثانية، وهبطت ظلمة الليل من السماء، وغشى الغمام البحر والساحل، واختلط ماء السماء بموج البحر. في وسط هذه العاصفة، عندما ظن أوليسيس أنه

لا محالة هالك، أنقذته معجزة: فقد برزت إينو ليثوكوثيا ‹أي= الربة البيضاء› Inô Leu-kothea من بين زبَد موجة، حاملة الوشاح الذي سيتيح لأوليسيس أن يبلغ أرض الفياقيين Phaiakes سالماً. وعندما عزمت الربة البيضاء ليثوكوثيا أن تظهر لأوليسيس، اتخذت هيئة طائر" فتحورت إلى أيثويا زاغة البحر[١٤]. في هذه الحكاية الأوديسية المبنية على التضاد بين الربة البيضاء ليثوكوثيا وبين پوسايدون، تحمل أيثويا زاغة البحر ، بما هي قوة هائلة في ليل العاصفة، النجاة إلى الملاح الذي أشرف على الهلاك. وهناك تشديد خاص على معنى الفصل تمثله القيمة الطلسمية للوشاح الذي أتت به الربة البيضاء ليثوكوثيا ، وهو الوشاح الذي حلا للإغريق أن يروا فيه الوشاح القرمزي الذي كان العارفون في ساموثراقيا يتشحون به لاتقاء أخطار البحر [١٥].

ومهما يكن الاختلاف بين الربة البيضاء ليثوكوثيا Leukothea وبين أثينة في وسائل عمل كل منهما، فإن فصل الأوديسا هو النص الذي يتضح فيه بوضوح أي وضوح المعنى العام لتدخل أثينة أيثويا aithuia زاغة البحر في مجال الملاحة. وهناك تفسيران قديمان يتتبعان مسارها. التفسير الأول [١٦] يعرض لنا في صورة التعليق اللغوي الفقهي الذي يدور حول الربة البيضاء ليثوكوثيا أيثويا Leucothea aithuia زاغة البحر، ويذهب إلى أن أيثويا زاغة البحر «حاملة النور» phosphoros فوسفوروس. فهي مثل «نجمة الصباح» تجعل النور ينبثق من وسط الظلمات. والتفسير الثاني [١٧] يتمركز حول أثينة أيثويا Athena aithuia زاغة البحر، ويذهب إلى أن هذه القوة الإلهية إذا كانت توصف «بأيثويا زاغة البحر» ، فالسبب في ذلك «أن أثينة علمت البشر على طريقة هذا الطائر أن يبحروا على متون السفن: باجتياز البحر من طرف إلى الطرف الآخر.» تعليم الملاحة، فتح طريق على البحر، الإتيان بالنور في ليل العاصفة. تلك أساليب عمل قد تبدو لنا أشتاتاً وقد تبدو لنا لأول وهلة غير متوافقة مع أثينة الواحدة. ولكن الأمر غير ذلك، فأساليب العمل هذه توضح المعطيات الميثية والمأثورات الملحمية المتصلة بأثينة بحرية [١٨].

في «الأوديسا» نجد تنظيم رحلة تيليماخوس كله تتولاه أثينة: فهي تختار سفينة ترمي مرساتها عند مدخل المرفأ؛ حتى إذا حانت ساعة القيام جلست عند مؤخر السفينة في المكان المخصص للربان، وأرسلت في هذه الأثناء الريح المواتية لمسار السفينة [١٩]. في ملحمة «الأرجونوتية» يتخذ عمل أثينة تقريباً نفس الملامح. فعن طريق تيفوس Tiphys، الملاح الممتاز الذي بعثت به إلى ياسون Jason، تقود أثينة على نحو مستتر، جانباً كبيراً من رحلة

ملاحي الأرجو البحرية - الأرجونوتية [٢٠]. وفي المرحلة الأكثر خطورة، مرحلة اجتياز الصخور الرجراجة ، تتدخل على نحو أكثر مباشَرة، متبعة أساليب نعرفهما من خلال صياغتين مختلفتين للمشهد نفسه تتيحان لنا تحديداً دقيقاً كل الدقة. في قصة أپوللونيوس الرودسي ‹وهي قصة ملحمية في أربعة كتب بعنوان Argonautika أي "الأجرونوتية" أو "ملاحو سفينة أرجو"› [٢١]، في اللحظة التي أوشكت فيها السفينة على دخول «الممر الملتوي»[٢٢]، بين كومتين من صخور تتلاحم وتتباعد في حركة تبادلية، أمسكت أثينة السفينة، المعلقة بين الحياة والموت، بيسراها فانتزعتها من ضغط الصخور الرجراجة ودفعتها بيمناها إلى أمام، بسرعة كبيرة، في اللحظة الدقيقة التي لاح فيها أن طريقاً ينفتح في الحاجز الصخري. في هذه الصياغة الأولى يتلخص فعل أثينة كله في دعم عمل الربان نفسه. فنحن نرى أثينة ابنة زيوس تتدخل بالطريقة المفاجئة والفعالة التي تتدخل بها الربة البيضاء ليثوكوثيا ، ولكن بينما تأتي هذه بنجاة مطلقة ومرصودة، نجد أثينة تدعم بحركتها عملاً عكفت على توجيهه من خلال الربان الذي منحته حمايتها. نجد أثينة تكف عن البقاء في الظل خلف الربان وتتقدم إلى أمام لتفتح له طريقاً ، لولاها، لظل محظوراً عليه.

أما في الصياغة الثانية ، صياغة «الأناشيد الأرجونوتية» المنسوبة إلى أورفيوس [٢٣]، فإن تدخل أثينة يتخذ هيئة تبدو في ظاهرها مختلفة. فعندما يصل ملاحو الأرجو إلى مواجهة الصخور القوانية الرجراجة، ترسل إليهم أثينة من فورها طائراً يحط على قمة الصاري. وفي لحظة بعينها يطير الطائر ويناور قريباً من الصخور متحيناً الفرصة لاجتياز الممر. ولكنه ما يكاد ينطلق، حتى تعود الصخرتان اللتين انفصلتا فتقترب الواحدة من الأخرى بسرعة تكفي لقطع طرف ذيله، ولكنها لا تكفي لمنعه من الوصول إلى أويكساينوس پونتوس Euxeinos Pontos ‹"البحر الكريم" اسم على عكس المسمى وهو البحر الخطير "البحر الأسود:›. ويتبعها ملاحو أرجو ويتمثلون بمثلها، فيسلكون نفس السبيل، ويفلتون هم أيضاً من قبضة الصخور القوانية التي تنهزم وتندحر نهائياً فتثبت في مكانها وتترسخ في البحر. هذا الطائر الذي أرسلته أثينة ليفتح الطريق أمام ملاحي الأرجو، والذي يؤدي الدور الذي تتولاه الربة نفسها كما جاء في صياغة أپوللونيوس الرودسي، هو الطائر البحري إيروئيديوس eroidiós[٢٤]، وهو على الأرجح طائر العرة، أي هو طائر من قبيل زاغ البحرla corneille de mer [٢٥]. أما إن طائر الإيروئيديوس eroidiós هذا كان طائراً أليفاً إلى أثينة فهو ما تقدم الملحمة الهوميروسية إلينا الدليل عليه؛ ففي بداية النجدة الليلية التي راح ديوميديس Diomedes وأوليسيس يحاولان تقديمها ضد الخطوط الطروادية، كان ظهور طائر إيروئيديوس eroidiós[٢٦] هو

العلامة التي جاءت تبشرهم بعون أثينا ومساعدتها في مهمة لن يتحقق فيها النجاح إلا بالدهاء والتحايل [٢٧].

ولكن معنى الطائر لا يظل كما هو دون تغيير في النصين، فطائر الإيروئيديوس eroidiós يعني مجرد نبوءة بالنسبة إلى أوليسيس ‹في الملحمة الهوميروسية› ، أما في الأنشودة الأورفيوسية فهو يعمل على مستويين متضافرين ، أولاً على مستوى النبوءة الفعالة، وثانياً على مستوى تقنيات الملاحة. فهذا الطائر الذي أرسلته أثينة عندما اندفع من خلال الصخور الرجراجة وأفلت بعد لأي من انطباق الصخور ‹ومن الموت› رسم في طيرانه خط السير الذي اتبعته سفينة الأرجونوتية. هذا الفصل يبدو مناظراً تماماً لفصل آخر من قصة أبولونيوس الرودسي عندما يطلق الملاحون الأرجونوتية طائراً يبين لهم كيف يشق الطريق من خلال الصخور الرجراجة [٢٨]. فقد استجاب أحد ملاحي سفينة الأرجو للنصائح التي قدمها إليه العراف فحمل في قبضته حمامة طورانية، ووقف على مقدم السفينة، وطيَّرها على خط مستقيم إلى أمام بنفس الحركة التي ستقوم بها أثينة بعد قليل [٢٩] في الفصل نفسه ، عندما ينفتح الطريق، فتدفع السفينة من خلال «الممر المعوج». ثم هذه الجزئية من ميثوس ملاحي الأرجو تأتي مبينة بدقة التوافقات بين السفينة وبين الطائر: فعند اجتياز الممر، مثلما يفقد طائر العرة أو الحمام الطوراني بعض ريش ذيله الذي يشتبك في الصخور، كذلك سفينة ياسون ‹أرجو› تُجتث من مؤخرتها بضعة زخارف [٣٠]. سواء كان الطائر طائراً بعثت به أثينة، أو كان بشيراً ينبيء بتدخلها، فطائر ملاحي أرجو مثله مثل زاغة البحر هو على نحوٍ ما السفينة نفسها، أو هو على الأقل قرين السفينة. إلا أننا لا يمكننا أن نفهم لعبة الطائر والسفينة كلها فهماً كاملاً إلا بالاستناد مرجعياً إلى تقنيات ملاحية معينة في الحضارة الأنتيكية. فالطائر عندما يفتح الطريق لسفينة الأرجونوتية لا يكون مجرد نبوءة بالمعنى الديني للفظة، بل هو أيضاً، وعلى نحو متكامل، أداة ملاحية ووسيلة ملاحية لا ينفصل بعضهما عن البعض[٣١].

في بلاد الإغريق القديمة، وفي بلدان العالم الاسكندينافي وفي بلاد ما بين النهرين، كان إطلاق الطيور وسيلة مألوفة في الملاحة [٣٢]. ففي عصر لم تكن البوصلة قد عرفت فيه بعد، كان الملاحون يحملون معهم طيوراً يطلقونها عندما يريدون معرفة اتجاه البر. تلك حقيقة تقنية تتيح معرفة جانب كبير عن وضع طيور معينة في ميثات البحر والملاحة. وليس من شك في أن هذه المعطيات تفيدنا فائدة حاسمة في سعينا من أجل تحديد أثينة أيثويا aithuia زاغة البحر: فهي تسمح بتوضيح أفضل للعلاقة التبادلية بين مستوى أيثويا aithuia زاغة البحر وبين قيادة السفينة. لا يمكن إذن أن نحصر الطائر الذي أرسلته أثينة إلى ملاحي أرجو بحسب

الصياغة «الأورفيوسية» في مجرد علامة دينية: فسلوكه يطابق النموذج الذي لاح لنا أنه ينبئ بتدخل أثينة كما رأينا في صياغة أپوللونيوس. الموضوع في كلتا الحالتين هو موضوع قيادة السفينة وفتح طريق لها في البحر.

هذا التضامن الذي تنعقد عراه بين أثينة والقيادة في مجال الملاحة البحرية لا يتخذ معناه الحقيقي إلا بعد فك شفرة الساحة البحرية التي تمثل إطار تدخلات أثينة ابنة زيوس وميتيس. ما هي الصورة التي كان الإغريق يتصورونها عن الملاحة من خلال خبرتهم الدينية بالبحر؟ هناك ثنائيان من القوى الإلهية يتيحان لنا أن نرسم هذه الصورة عندما نتتبع مسار خطوط قدرتهما. الثنائي الأول پونتوس Pontos وپوروس Poros القائم تحديداً في العالم البحري، أما الثنائي الثاني فهو توخي Tykhe وكايروس Kairós ويشمل مجاله نطاقاً أوسع، ولكنه راسخ رسوخاً قوياً في مجال الملاحة.

أما پونتوس Pontos، <البحر>، اليَم المالح، فهو قوة إلهية أولانية للبحر المديد، للصفحة الهائلة التي لا حدود لها إلا السماء والماء. وپونتوس ذو الألف مسار، بما هو امتداد مزعج محيِّر غامض مفعم بالأسرار، يبدو على هيئة طريق لايكاد يظهر حتى ينْمحي المرة تلو المرة، إنه ممر لم يُرسم، وسبيل لا يكاد ينفتح حتى ينقفل [٣٣]. في هذا الامتداد المختلط الذي تتخذ كل رحلة من خلاله هيئة اجتياز مفازة مجهولة تظل على الدوام ممتنعة على المعرفة، يسيطرعليها الحراك في أخص صوره. والبحر الذي تقلبه الرياح إذ تخترقه، ويثيره تدافع الموج جيئة وذهاباً، هو أكثر الأماكن حركة، وتغيراً، وتحوراً. وهناك طائفة من التعبيرات في اللغة الإغريقية تسجل تشابكياً هذه السمة الأساسية للبحر الذي سيرمز إلى الصيرورة والنشوء بالنسبة إلى تيار كامل من الفكر. يتدحرج كالاسطوانة kulindeîsthai [٣٤]، من هنا، من هناك، من شمال إلى يمين، من أسفل إلى أعلى éntha kaí éntha, áno kai káto [٣٥]، يهب عاتياً، يتدافع في اتجاهات متضادة állot'alloiâ [٣٦]، يقلب، يطرح، يدهور metabállein, metatrépein [٣٧]، كلها استعارات وكنايات تحدد طبيعة البحر الپونتوس .

ولقد وصف البحر بأنه بلا مخرج apeiron، على الأرجح لأنه كان من المحال اجتيازه من أوله إلى آخره، فوجد عديله متمثلاً في پوروس Poros ، القوة الكوسموجونية المعروفة منذ عصر ألقمان Alkman [٣٨]. كان پوروس Poros يعني أولا المخاضة، المعبر المائي المفتوح من ناحية، فإذا هو يعني المسار، الطريق الذي ينبغي على الملاح أن يشقه لنفسه في البحر. هذه اللعبة التي يلعبها پوروس وپونتوس، تعبر عنها الميثات الإغريقية عن البحر في حكايات

مثيرة تحكي رحلات أوليسيس أو ملاحي أرجو، من خلال الصخور الرجراجة أو الصخور الكالحة، سواء كانت Plagktai أو Kuáneai أو Sumplegádes [٣٩]. كل هذه المواضع في البحر تقدم نفس منظر الصخور الضخمة، والرجراجة، والمتحركة التي لا تكف عن التحرك أفقياً ورأسياً. صورة فضاء تختلط فيه كل الاتجاهات، فيتبادل اليسار واليمين، والأعلى والأسفل المواضع بلا انقطاع دون أن يثبت أي منها على حال قط. فليس من قبيل المصادفة أن يتمركز واحد من التدخلات الكبرى لأثينة على الأفق الخاوسي للصخور المتحركة: ففي اللحظة التي يمر فيها الربان بخبرة البحر البونتوس póntos المخيفة، البحر الذي لا سبيل إلى اجتيازه، تأتي أثينة فتتقدم إليه مساراً، وترسم له طريقاً بوروس póros هو في آن واحد مخرج وطريقة للخروج مما لا مخرج منه aporia وهي الحال التي يُغرق فيها البحر البحارة والملاحين.

أما هاتان القوتان الكوسموجونيتان، توخي Tykhe وكايروس Kairós ، في علاقتهما المتكاملة، فهما ترسمان بتحديد أكبر محيط مجال الملاحة، ونمط النشاط البشري الذي يجد السبيل إلى ممارسة وجوده. في الفكر الإغريقي الأرخائي، تبدو توخي على هيئة قوة إلهية مختلطة وغامضة [٤٠]. وتوخي - بما هي ابنة أوقيانوس وتيثوس، وبما هي ربة بحرية وأخت ميتيس - على صورة البحر [٤١]، فهي تعني التغير والتحرك. وعلى نحو أكثر دقة - وهذا هو وجهها السلبي - توخي تحدد ناحية كاملة من الحالة البشرية من خلال التصويرات المتضافرة للفرد، تتلاطمه اللجج، متقلباً مع هبوب الرياح، متدحرجاً دون توقف، من هنا تارة، ومن هناك تارة أخرى. ولكن توخي لا تعكس فقط صفحة البحر المتغيرة. فلها صفحة أخرى إيجابية تقابل الأولى: إنها توخي التي تمسك الدفة بيدها وتقود السفينة مطمئنة نحو الميناء. في موروث تراثي كامل تعبر توخي ضمنياً عن فرصة الفوز، عن بلوغ الهدف، عن تحقيق النجاح[٤٢]. هذه هي توخي عند بيينداروس في الأنشودة الأوليمبية الثانية عشرة، تعتلي السفينة، وتتناول الدفة من بين يدي الربان [٤٣]. وهذه هي توخي عند ألقمان، ابنة بروميثية Prométheia التي تضمن النجاح بفضل فن التنبؤ، البروميثية <وهذا هو المعنى الحرفي للكلمة> prométheia التي تمنح السيطرة على الزمن وعلى الأشياء [٤٤]. ومهما يبدو لنا الوجهان مختلفين، متعارضين فإن وجهيْ توخي هذين لصيقان، لا ينفصل أحدهما عن الآخر، مثل وجهي هيرميس المزدوج [٤٥]. وتكاملهما تَنْفَكُّ شفرتُه من خلال العلاقة التي تجعل نشاط الملاح لصيقاً بالفضاء البحري لا ينفصل عنه. وكما أن فن التنبؤ يتطور بين بني البشر على خلفية مستقبل مجهول معتم مستغلق، كذلك فن مسك الدفة لا يعمل عمله إلا في إطار اختلاج البحر وما يحتمل فيه من حراك. لا يمكن أن تفصل حركة الدفة عن حركة الأمواج.

وتوخي هو التي جعلت المستقبل المجهول المستغلق يلحق بمجال الأشياء الممكنة. وهنا، عند هذه النقطة، نجد توخي تتجاوز مجال الملاحة وتخرج على نطاق القوة الإلهية البحرية: وتصبح توخي نموذجية في الإحاطة بكل شكل من أشكال العمل البشري.

هذا الاتساع نفسه يطبع بطابعه المكون الثاني من الثنائي توخي كايروس، ألا وهو كايروس Kairos، وكايروس معناها الفرصة المواتية (٤٦)، ويأتي تشابك كايروس ليضاعف من تشابك توخي. وكايروس ليس قوة بحرية حقيقية مثل توخي، ولكنه يقيم علاقات متميزة مع المجال البحري. ولقد أمدتنا الحفائر الإيطالية في ڤيليا ‹مدينة Elaia الإغريقية القديمة› بالأدلة وهي آثارعليها نقوش ولها مدلول ثقافي يرجع تاريخها إلى القرن الخامس ق.م. تشهد على وجود ثلاثي بحري يضم كايروس الأوليمپي يكتنفه پومپايوس Pompaîos وزيوس أوريوس Oúrios (٤٧). من بين هذه القوى الثلاث - نجد پومپايوس مجرد مرافق باهت، وزيوس أوريوس هو بلا شك أشهرهم : إنه زيوس رب الأنسام المواتية ‹وهو المعني الحرفي لكلمة أوريوس› (٤٨). وهناك مزار من مزاراته، زعموا أن ياسون أسسه (٤٩) كان يقوم على الشاطئ الأسيوي من البوسفور، بوسفور ثراقي Thrake (٥٠). وكان الملاحون، قبل القيام برحلة عبر البحر القاتم ‹الأسود› Póntos Áxcinos، يذهبون إلى هناك ويقدمون ضحية على أمل أن يكون البحر كريماً معهم، وأن يصبح بفضل ريح مواتية من زيوس بحراً كريماً Póntos Eúxeinos (٥١). ولكن النسمة oûros التي يبعثها زيوس إلى الملاحين ليست فقط ريحاً حاملة للفلك، بل إن اللفظة تعني أيضاً بالانسياب الاستعاري لحظة القيام (٥٢)، والفرصة المواتية التي ينالها الملاحون لينطلقوا مستبشرين إلى البحر (٥٣). والربط بين زيوس أوريوس Oúrios وكايروس يتخذ مزيداً من الدلالة. وأرسطوطاليس (٥٤) يبين أنه ليس في الملاحة معرفة عامة تشمل كل الحالات الخاصة . ليست هناك معرفة يقينية بكل الأنسام التي تشق مياه البحر. والبحر پونتوس يظل بالنسبة إلى أوسع الربابنة خبرة دائماً هو «المجهول». وامتياز الربان لا يقاس بسعة معرفته، بل يُعرف من قدرته على التنبؤ والاكتشاف المسبق لفخاخ البحر التي هي أيضاً الفرص التي يعرضها على ذكاء الربان. وهناك قصيدة كاملة من قريض ألكايوس Alkaios تعالج موضوعاً محورياً هو أن السباق في البحر يتم على الأرض اليابسة(٥٥). زيوس أوريوس Oúrios يمكنه أن يرسل ريحاً تتيح القيام. ولكن لا بد للربان لكي يفيد منها أن يتنبأ بها ويرصدها. فربط زيوس أوريوس Oúrios - الذي يمثل الفرصة المقدَّمة - بكايروس الذي يعني اللحظة الملائمة التي ينبغي أن يهتبلها الربان عندما يكون قد عرف يتبين عن بعد الفرصة التي ستقدم إليه لكي يمارس صنعته ومهارته téchne(٥٦). هكذا

نرى كايروس البحري كما اكتشف في ڤيليا Velia، يعضده زيوس أوريوس، يظهر على هيئة انعكاس توخي القرينة، على مستوى الزمنية المحدود. وسواء كوّنت توخي وكايروس ثنائياً أم لم يكوّنا، فانهما كلاهما يبرزان سمة جوهرية من سمات الملاحة: التواطؤ الضروري بين الربان وبين العنصر البحري.

هكذا نجد - من پونتوس إلى كايروس، من الشكل الكوسموجوني العالي، شكل البحر المالح، إلى القوة التي أتت متأخرة، قوة الزمن الحادث - أن كل التمثيل الديني المصور للملاحة يتركز حول نمط الرجل الذي أدركنا من قبل قرابته بأثينة في مناسبات خدماتها المختلفة، ألا وهو الربان، والربان شخصية مركزية بالنسبة إلى الفكر الإغريقي، يفرض نفسه بخصلة كبرى وهي أن الدهاء الميتيسي كان نصيبه. استقرت منذ الإلياذة استقرار البديهية أن الدهاء الميتيسي وحده هو الذي يتيح للربان على الدفة أن يقود السفينة خير قيادة على الرغم من الريح [٥٧]. وفي كورس ‹مسرحية› «أنتيجونه» الذي خص به سوفوكليس ‹الإنسان›، ذلك الحيوان البشري الذي نجح باختراعاته، وحيله، ووسائله في الانتصار على القوى الطبيعية، وضع سوفوكليس الملاحة على رأس قائمة منجزات الكائن الزاخر بالموارد والإمكانات والذي يعرف كل الطرق pantopóros [٥٨]. أن تجد سبيلاً póros- طريقاً أو مخرجاً أو وسيلة -، أن تخاتل الريح، أن تكون دائماً يقظاً، أن تتنبأ بأسرع فرصة للتصرف، كل هذه الأفعال، كل هذه المناورات - هذه الحيل الآليات الميخاناي mechanai كما يقول الإغريق - تتطلب ذكاءً متعدد الأوجه، تتطلب الجنومه ‹ذكاء› gnome پولوبولوس ‹الواسع الحكمة› polúboulos الذي يستشفه پينداروس لدى الربان [٥٩]. فالربان الذي يواجه البحر، الذي يواجه مكاناً «ترى فيه لحظة واحدة نسمات معاكسة تهب من جهات السماء المضادة»[٦٠]، لا يمكن أن يسيطر عليه إلا إذا أثبت هو نفسه أنه يتسم بمقدرة شبيهة على التحور، واتخاذ القيم المتعددة.

التنبؤ والاحتراز، اثبات اليقظة، قيادة السفينة القيادة المستقيمة، هذه بعض السمات الجوهرية لدهاء الربان الميتيسي [٦١]. وهذا هو أفلاطون يسجل أنه ليس هناك ربان يمكنه أن «يعرف سر غضب الريح أو مواتأتها [٦٢]» ولهذا ينبغي عليه أن يظل بلا انقطاع يقظاً و«ألا يدع جفنيه أبداً تخلدان للنوم» [٦٣]. وأفلاطون نفسه يكتب أيضاً «إذا أراد الربان حقيقة أن يكون ماهراً في قيادة سفينته، ينبغي عليه بالضرورة أن يركز كل اهتمامه على الجو، وفصول السنة، والسماء والنجوم والرياح» [٦٤]. وريّس الدفة - مثله مثل داناؤس Danaos أول

ملاح وربان حسب حساب التوقعات prónoos ⁽٦٥⁾ عليه أن يكون قد وزن كل هَبّة، وأن يكون كلاعب النرد الماهر ⁽٦٦⁾ : عليه أن يتنبأ بهبات الريح، وأن يواجه الدهاء بدهاء مثله، وأن يتحين الفرصة الخاطفة ليقلب ميزان القوى. وريّس الدفة وقد أُلقي به إلى البحر، وغاص في حراك البحر، يفيد من ذكائه كله ليصحح انحرافات السفينة بحركات الدفة وأن يوجه مساره مهتدياً بنقاط الاهتداء التي ترسمها له النجوم علي قبة السماء ⁽٦٧⁾. التوجيه، تصويب المسار، القيادة المستقيمة، ithúnein هذه هي التعبيرات العادية في معجم الملاحة، وعاديتها تُبرز في فن الربان أهمية مشروعه الذي هو كله مهارة في التنبؤ بالطريق بقدر ما هو المقدرة على تركيز النظر على النهاية النهائية للرحلة ⁽٦٨⁾. من خلال طريق كله انحناءات، ومسارات مائلة، ودوائر معوجة، رسمتها حركات البحر ونزوات الريح، وعلى الذكاء الملاحي أن يعرف كيف يقود السفينة قيادة مستقيمة ، دون انحراف أبداً عن الطريق التي تدبرت مقدماً أن تتبعه ⁽٦٩⁾. ونحن على بينة من أن كل تدخلات أثينة هي في جانب الربان ، في جانب نصيبه النشيط في الملاحة، وذكائه الدهائي والتقني، وهي أمور تجد فيها أثينة - من حيث هي ابنة زيوس - بحق انعاكاساً لدهائها الميتيسي.

ولكن لنترك إلى حين فضاء البحر ولنعد إلى الأرض اليابسة، وعلى وجه الدقة إلى هذا الجزء من الفضاء الذي تجري فيه تجربة سباق يتواجه فيه أشد الرجال سرعة. هنا نلاحظ أن تدخلات أثينة في هذا المجال أكثر سفوراً منها في كل المجالات الأخرى. وليست أثينة - على شاكلة هيرميس أو هيراقليس - قوة دينية لصيقة بحلبة الرياضة ⁽٧٠⁾. ومع ذلك فهناك على وجه التحديد ، في مكان المنافسة والمواجهة النضالية، يجد نموذج عمل أثينة المحدَّد في الملاحة مجالاً آخر للتطبيق يناظر المجال الأول.

وباوسانياس عندما جاس من خلال مدينة اسبرطة في القرن الثاني الميلادي، تبين البقايا الأثرية للدور المتفرد الذي لعبته أثينة في تجربة على أرض المباراة ⁽٧١⁾. كان هناك طريق يخرج من أجورا Agora، يسمونه Aphetaïs «خط الانطلاق»، وكان هناك في المنطقة المحيطة مباشرة، نصب لأثينة يوصف بلفظة Keleútheia كيليؤثيا ‹ ربة الطريق›، زعموا أن أوليسيس كرس التمثال به بعد فوزه في سباق الجري على القدمين الذي فرق طالبي الزواج من پينيلوپي Penelope. ويضيف پاوسانياس معلومة دقيقة، فيقول إن أوليسيس أقام لأثينة Keleútheia كيليؤثيا ‹ربة الطريق› ثلاثة أنصاب متمايزة، منفصلة بعضها عن البعض الآخر. فما السبب في هذا التكريس الثلاثي؟ وما هي الخدمات التي قدمتها

كيليوثيا Keleútheia ‹ربة الطريق› إلى خطيب بينيلوبي المسعد؟ إن لفظة Keleútheia كيليوثيا ‹= الطريق› صفة غير مألوفة لأثينة. فهل المقصود أنها حامية الطريق، وهو المعنى الذي يدعونا إليه المدلول العادي لكلمة kéleúthos كيليوثوس ‹الطريق›؟ أم هل المقصود أنها حامية السباق، وهو المعنى الذي يدعونا إليه السياق الأسطوري في مجموعه [٧٢]؟ ونظراً لعدم وجود أي نور يلقيه علم الاشتقاق ينير لنا الطريق [٧٣]، فإن معنى الصفة الشعائرية لأثينا لا يمكن إن نستخلصه إلا بطريقتين: أن نحاول من ناحية تحديد الصفة النوعية للعلاقة التي تقيمها أثينة بهذا النمط من الاختبار في المباراة، وأن نحاول من ناحية أخرى أن نحدد الصفة النوعية لطبيعة الروابط الامتيازية التي تربطها بأوليسيس. والحق أن السؤالين لصيقان لا يتفصل أحدهما عن الآخر. والملحمة الهوميروسية تقدم إلينا الدليل عندما تكشف التواطؤ بين أوليسيس وأثينة في مجال الاختبار في المباراة الذي يتمثل في سباق الجري على القدمين [٧٤]. فعندما وجد أوليسيس - بمناسبة الألعاب التي أقيمت على شرف باتروقلوسPatroklos - أنه، وهو الواسع الدهاء، سيواجه أياكس Ajax، السريع، أحس بالحاجة إلى دعاء أثينة لكي تتولى الاختبار: «استجيبي لي، يا أيتها القوية، وتعالي برحمتك لتقدمي النجدة إلى قدميّ...». فلم تتأخر الاستجابة؛ وبثت أثينة في أوليسيس مزيداً من الهمة وأسقطت غريمه. «في نفس اللحظة التي أوشكا فيها على القفز لنيل الجائزة، انزلق أياكس في أثناء الجري - جعلته أثينة يتعثر - في الموضع الذي افترشه روث الثيران الخائرة وقد عقروها لتكون أضاحي على شرف باتروقلوس.» لم يشك أحد في فهم ما حدث، وكان أياكس أقل الجميع شكاً ‹في تدخل أثينة لتسقطه وتنصر أوليسيس الذي كانت معه دائماً تتولاه كما تتولى الأم ابنها›، فقال: «آه! لكَم عرفَت ‹أثينة› كيف تجعل قدمي تعثران، الربة التي كانت هنا في كل وقت وآن، كالأم، بجانب أوليسيس، تحمل إليه النجدة!».

كان أوليسيس وأثينة متفاهمين تفاهم اللصوص في السوق. ولقد كانت أثينة هي التي حلا لها أن تذكّر أوليسيس، في اللحظة التي كان فيها أوليسيس، دون أن يعلم، قد بلغ لتوه سواحل إيثاقه Ithakâ. اتخذت أثينة التي شاءت أن تجرب دهاء محسوبها شكل صبي، وكشفت له اسم البلد التي صحا فيها لتوه من غفوته [٧٥]. وحتى لا يفضح أوليسيس نفسه، سارع ليخترع لها عدة أكذوبات جميلة: «فلم تكن الحيل الماكرة تعيي قريحته قط» [٧٦]. واستمعت إليه أثينة مبتسمة: «أي مكار، أي لص، حتى لو كان إلهاً، يفوقك في كل صنوف الحيل الماكرة!... ستعود إلى البلد، ولن تفكر إلا في حكايات اللصوص، والأكاذيب المحببة إلى قلبك منذ الطفولة ... حسبك هذه الحكايات! نحن اثنان صادعان باللعبة: حتى إذا عرفتُ

أنك أقوى أبناء الفانية في الحساب والكلام، فإن قريحة أثينة (دهاءها الميتيسي) وألاعيبها kérde هي ما يتباهى به الأرباب جميعاً ...» (٧٧).

وفي اختبار السرعة نجد نفس السيناريو الذي وجدناه من قبل في سباق العربات. فأوليسيس مثله مثل أنطيلوخوس Antilokhos، أقل قوة من منافسه المباشر، ولكنه هو، لا أياكس، الذي حصل على الجائزة، كان أنطيلوخوس، قد تلقى نصائح أريبة، ففاز بفضلها على الخيول الأسرع، لأنه عرف مسبقاً كيف يتوقع السباق. أما أوليسيس فقد انتصر بفضل تضافر الظروف التي يبدو - اعتماداً على الصياغة الهوميروسية - أنها اعتمدت على تدخل أثينة وحدها، ولكنها تترجم على المستوى الملحمي السمة المستغلقة التي تستعصي على التنبؤ والتي يتسم بها كل موقف مباراة، والفائدة التي يحققها الدهاء الميتيسي يقيناً. فإذا كان أياكس السريع قد افترش روث البهائم، فمعنى هذا أنه لم يتنبأ بالعقبة التي لم يسع غريمه الذي حمته أثينة إلى تنبيهه إليها وجعله يتحاشاها، بل ساعد بلا شك على نشأة العقبة تحت قدميه. صحيح أن «أثينة جعلته يتعثر»، ولكن ليس هناك من يستطيع بدون الاستعانة بالدهاء الميتيسي أن يتنبأ بضيق الطريق على نحو يتيح الفرصة للتقدم على المنافس، أو أن يعرف مقدماً المنطقة الموحلة التي تجعل منافساً متقدماً تقدماًمفرطاً يتعثر وينزلق. وأوليسيس إذ كرس تمثالاً صنماً على شرف أثينة Keleúthcia كيليوثيا "ربة الطريق"، أراد في آن واحد أن يبرز مشاركة الذكاء مشاركةً تضعهما معا تحت راية الدهاء الميتيسي (٧٨) وأن يشدد على الدور الذي ينهض به الذكاء الماكر في مباريات التنافس.

هذه الأثينة التي كانت صورتها موجودة قرب المكان الذي عرف باسم «خط الانطلاق»، هل يمكن أن تكون قوة «الانطلاق الناجح»، مثل الأثينة التي نعرفها من هذا النقش الأتيكي (٧٩) وتكون هي أثينة ربة الانتصار على الخيط الذي تحمل أياكس نفقاته في «الإلياذة»؟ هذا الموضع الذي يسمى أفيتاييس Aphetaís (٨٠) يشتق اسمه يقيناً من اسم خط الانطلاق أفيسيس áphesis في ساحة الرياضة الكلاسيكية. ولكن هناك سببان شعائريان يدعوان إلى عدم تمييز أية علاقة خاصة بين أثينة ربة الطريق و"الانطلاق" بالمعنى الضيق للكلمة. أولاً لحظة الانطلاق كانت في اسبرطة موضوعة رسمياً تحت حماية قوتين دينيتين أخريين هما : الديوسقوريان Dioskoroi ‹الأخوان كاستور Kastor وبولوديوكيس Polydeukes› اللذان كانا يوصفان بالأفيتيريوئين ‹حماة الانطاق› aphetérioi (٨١)، وكان تمثالاهما يقومان على الأرجح عند مدخل «ساحة مارس» عند الاسبرطيين، وهي ساحة الدروموس Drómos (٨٢)

التي كان الشباب في زمن پاوسانياس لا يزالون يذهبون إليها للتدريب على السباق. وهناك علاوة على ذلك رواية تراثية يذكرها نفس الرحالة ‹ پاوسانياس›، تقول إن الحامي عند الانطلاق إلى الاختبار الذي تواجه فيه خُطّاب پينيلوپي كان اسمه أفيتايوسAphetaios[٨٣]، وكان قوة تختص بالهمة والعزم، وزعموا أن تمثاله كان يقوم في نفس المكان الذي جرى فيه الاختبار. وإذا كانت هاتان الروايتان تبرزان أهمية الانطلاق في الفكر الديني، فإنهما تستبعدان أيضاً كل خلط ممكن بين أثينة ‹ربة الطريق›، وبين أن تكون ربة «للانطلاق التاجح» [٨٤]. ولكننا نجد في أبيات الحمد التي يرفعها إليها أوليسيس جزئية توضح معنى هذا الصفة التي وصفت بها أثينة: فأوليسيس،الفائز في الاختبار، يخصص ثلاثة أنصاب متمايزة بعضها عن البعض الآخر [٨٥]. هل هو حمد ثلاثي؟ أقرب الظن أن السبب هو أن كل ساحة سباق، كل دروموس، فيها ثلاث نقاط خطيرة kairoi، ثلاث فرص. هي في آن واحد، لحظات ومواضع.

أولاً: النقطة الأولى هي نقطة الانطلاق - áphesis الأفيسيس - حيث يكون على المتسابق أن يثب بكل همة لكي يضمن لنفسه أفضل ميزة، في الخطى الأولى.

ثانياً: النقطة الثانية: هي المنعطف kámptron الكامپترون، حيث يكون على المتسابق أن يلف، نصف لفة لكي يعود من مسار مواز للأول. و«مفزع الخيل» في مضمار الخيل في أوليمپيا [٨٦] يبين على أكمل وجه أخطار الدوران في المنعطف. اجتياز المنعطف ملتصقاً بالحافة. مس حدود المسار بكبح الحصان الأيسر ودفع الحصان الأيمن، دون الاشتباك بعربة منافس آخر: هذه المناورات تتطلب من القائد المهارة كل المهارة.

ثالثاً: النقطة الثالثة، وهي أيضاً اللحظة الحاسمة الثالثة وهي خط الوصول térma التيرما[٨٧]. ونهاية السباق يمكن أن تكشف كل التقديرات التنبؤية.

وأثينة كيليؤثيا Keleútheia ‹ربة الطريق› في اسبرطة، بما هي حامية النقاط الثلاث، المواضع الثلاثة واللحظات الثلاث الحاسمة في السباق، لا تكتفي بالسير على الطريق بصحبة أوليسيس، بل هي تحكم مكان السباق، وتهيمن على الاختبار في كُلِّيَتِه، لأن الدهاء الميتيسي يمنحها هنا، كما يمنحها في غير هذا المجال، امتياز التنبؤ بمجريات السباق وبتسييره من أوله إلى اخره. ولدينا وثيقة مصورة يمكن أن تأتي لتدلي بشهادتها عن حرص أثينة وأثره في مضمار السباق والمباراة ، هذه الوثيقة المصورة هي اللوحة الحجرية المسماة « أثينة المهمومة» ، المحفوظة تحت رقم ٦٩٥ في متحف الأكروپوليس، وفيها تظهر أثينة متعممة بخوذة ،

وترتدي بردة البيپلوس، تتكئ بيدها اليسرى على رمح، ويبدو عليها أنها تتأمل، تطامن برأسها، أمام «عمود». وقد حلا للباحثين حيناً من الزمن أن يروا فيها شكل «العقل» الإغريقي [٨٨]. ولكن هذا التفسير الهوماني والاستطيقي قد هزت أركانه مؤخراً دراساتٌ مدققة معتمدة على علم الآثار قدمها ش. پيكار Ch. Picard [٨٩] وف. شامو-Fr. Chamoux [٩٠]. والاثنان يتفقان على أن نقطة الارتكاز في تفسير اللوحة الحجرية هي معرفة معنى «العمود» العجيب القائم أمام أثينة. أما عندما يصلان إلى مرحلة التحديد الدقيق لكُنه العمود، فإن الاختلافات بينهما تظهر للعيان. يذهب پيكار إلى أن هذا العمود هو علامة حدودية تُعلم حدود المدينة. أما شامو فيذهب إلى أنه حجر من تلك الأحجار التي تَرسم في ساحات السباق خطوط الانطلاق والوصول. في الحالة الأولى تكون أثينة المهمومة هي أثينا "هوريا" Horia، ربة حربية، «تقف مائلة متكئة متأملة من أجل الدفاع العنيد عن أرضها». في الحالة الثانية تظل أثينة المتأملة أمام حجر الاستاد «حالمة» دون أن تراودها أية هموم على الإطلاق: «إنها تستحضر في مخيلتها صروف السباق القادم وما تكتنفه من شكوك» [٩١].

عندما ألحق شامو اللوحة الحجرية بسلسلة من المصورات فقد حدد نهائياً أن «العمود» لا يمكن إلا أن يكون علامة تحديد حجرية «ترمز إلى السباق الذي تهيمن أثينة عليه». ولكن الملف الكامل الذي أعددناه يباعد بيننا وبين أن نرى على اللوحة الحجرية المحفوظة في متحف الأكروپوليس أثينة تتأمل في شكوك تكتنف النصر، كما يتصور شامو [٩٢]. أثينة، يقيناً، «تتأمل» لأن النصر يكتنفه الشكوك ولأن الألعاب تدور في مكان مفتوح، ولكنها في هذه الحالة «تتأمل» بالمعنى الإغريقي لكلمة يتأمل medesthai التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنشاط العقلي للدهاء الميتيسي. أثينة التي تتكئ على الرمح، وتطامن برأسها نحو الحجر الذي يعلّم خط الانطلاق، كما تظهر على لوحة الأكروپوليس الحجرية ليست صورة «العقل»، بل صورة «الحرص» "فرونيسيس" phrónesis، إنها تسعى إلى التنبؤ بصروف السباق، وتنشغل «بالتفكير في السباق» الذي ستتولاه.

والأمور لا تجرى في ساحة السباق على نحو يختلف عن الفضاء البحري. بل إن الفوز في السباق في البحر يتقرر على الأرض اليابسة قبل مغادرة الميناء [٩٣]. والفائز هو دائماً من لديه في جعبته من الحيل أكثر مما يمكن أن يتصور منافسوه. وإذا كان اختبار البطولة يبدو عليه أنه يجري فيما يشبه أن يكون ساحة مغلقة رسم الحكام حدودها، وجعل للأداء فيها قواعد لابد من الخضوع لها، فإن كل نشاط مباراة - سواء كان اختبار سرعة أو سباق عربات

- يجري في مكان يناظر من وجهة نظر معينة مكان البحر. ومكان المباراة بنقاطه الخطيرة، ولحظاته الحرجة، هو المكان الذي تكون فيه التقلبات كلها ممكنة ، وتكتنف الطريق الذي ترسمه قواعد اللعبة كل السبل التي يعرف الدهاء الميتيسي كيف يشقها ويفتحها لنفسه. إنه مكان متحرك، كثير التحور يتخذ فيه تدخل أثينة بالضرورة الشكل الذي يمنحه لعب الدهاء الميتيسي في الملاحة لمناورات التصدي لحركات البحر ونفثات الرياح.

لكي نحدد على وجه الدقة تعريف أثينة البحرية الذي كنا قد وصلنا إليه، نجد مقارنة تفرض نفسها بين أثينة ابنة ميتيس وبين القوى الإلهية المختلفة التي تتدخل مثلها في مجال البحر، إما بطريقة دائمة مثل پوسايدون، وإما بحسب الظروف مثل الديوسكوريينْ. ومن بين جميع القوى التي تشترك مع أثينة في مجال عمل يمكن أن تكون أشكال تدَخُّلها فيه متمايزة تفرق بعضها عن البعض الآخر، لا جدال في أن پوسايدون هو المنافس الذي يؤخذ بأكبر درجة من الجد. لا يقتصر الأمر على أنه يعتبر في عالم الأوليمپيين الإله الكبير للبحر (٩٤)، بل هو في التراث «منقذ السفن» (٩٥). والمقارنة الأولى بينهما <پوسايدون وأثينة> تقودنا إلى تبيان فرق جوهري في وسائل عمل كل منهما. عندما يظهر پوسايدون لينقذ السفن ويخف بالنجدة إلى الملاحين الذين يدعونه، فهو لا يبزغ من وسط العاصفة، ولا يأتي ليساعد الربان، وليفتح له طريقاً من خلال الزوابع. بل يعمل بأسلوب يطابق سمته الأساسية بما هو قوة العنصر البحري: وهكذا نرى پوسايدون يهدئ عنف البحر. ويضع نهاية لغضب اللجج التي أثارها. والبحر يكف عن الهياج عندما يهدأ پوسايدون. وعندما كان البحارة يأتون ليعلقوا في نصبه واحداً من هذه النذور التي أخرجت لنا مكتشفات پينتيسكوفيا Penteskouphia منها عشرات القطع، فقد كانوا يفعلون ذلك طالبين منه عَوْداً سالماً، أو ليشكروه على رحلة بلا أخطار (٩٦). أما أثينة فكانت تنهض بنصيب نشيط في الملاحة، بالقدر الذي يبدو پوسايدون كأنه لا يلعب فيها إلا دوراً سلبياً في ظاهره.

نفس هذا التباين بين القوتين الإلهيتين نلاحظه في مجال مجاور يتواجه فيه الإثنان تواجهاً مباشراً: مجال الخيل، سواء خيل الركوب أو خيل الجر (٩٧). والمقارنة يسهل إجراؤها لأن الفكر الإغريقي يحلو له أن يشدد على التطابقات بين السفينة والحصان (٩٨)، وبين الدفة واللجام(٩٩). في هذا المجال الآخر الذي تقابل فيه أثينة هيپيا Hippia پوسايدون هيپيوس Hippios ، نجد ميزان القوى يتحدد على مستويين متمايزين: مستوى حصان الركوب، والثاني مستوى الجر الذي يتكون من العربة والخيل المكدنة.

وسواء كانت الحالة حالة حصان ركوب أو حصان جر، فإن خط القسمة بين القوتين - پوسايدون وأثينة - واضح. بل إن التضاد بين وسائل عمل كل منهما تبرزه جزئية شعائرية من مكونات ميثوس أثينة خالينيتيس Chalinitis ‹ربة الشكيمة›: ففي اللحظة التي تقدم فيها أثينة إلى بيلليريفون الأداة الكامحة التي ستمكنه من السيطرة على حصان فائق البوسايدونية، نراها تُذكّر مَن تولت حمايته بأن عليه أولاً أن يرفع أيات الحمد إلى پوسايدون، وأن يعرض پيجاسوس Pegasos مزوداً بالشكيمة على مروض الخيول Damaios، وأن يقدم إليه أضحية عبارة عن ثور أبيض (١٠٠). بهذه الطريقة، التي تبين بها أثينة على نحو واضح أن السيطرة على الحصان لا يمكن أن تتحقق إلا بموافقة ‹پوسايدون› سيد الخيل ويرضائه، تبين بصورة مؤكدة أسلوب عملها وأسلوب عمل پوسايدون.

والأضحية التي تقدم إلى پوسايدون في مجال الخيل لها ما يقابلها في أضحية أخرى تصدر عن نفس النية، وتقدم إلى نفس القوة الإلهية، ولكنها هنا في مجال الملاحة. في التراث الأرجونوتيكي نجد پوسايدون إله البحر الكبير هدف علامات إجلال مختلفة يخصه بها الملاحون الأوائل، ويرفعونها إليه بطريقة لها دلالتها، فهم يرفعونها إليه عند طرفي رحلة الملاحة، أي عند الانطلاق وعند الوصول. في إحدى المأثورات (١٠١) نقرأ أن ملاحي الأرجو كرسوا ساحة مقدسة لپوسايدون عند مدخل البحر الضنين Póntos Axeinos ‹البحر الأسود، الذي كانوا يسمونه البحر الكريم Póntos Euxeinos على عكس تصورهم الفعلي›، متوسلين إلى رب السفن أن ينجيهم من حركة الصخور الرجراجة المتلاطمة. وبالمقابل عندما يعود هؤلاء الملاحون أنفسهم من مهمتهم يقدمون إليه سفينتهم في نصبه الكورنثي على البرزخ الإسثموس (١٠٢). وهناك مأثورة أخرى تشهد عليها قصيدة ڤاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus (١٠٣)، وَرَدَ فيها أن ياسون، قبل ركوب السفينة، قدم علناً إلى پوسايدون وزيفوروس Zephyros وجلاوكوس Glaukos أضحية تتمثل في ثور مُحلى بأشرطة رقيقة قرمزية اللون، كما ضحى ببقرة فتية على شرف ثيتيس. في أثناء هذه التضحية توجه ياسون إلى پوسايدون ليقدم إليه بكلمات الاحترام والإجلال السفينة الأولى التي تهيأت لتعبر البحر: «صفحاً، يا من تهيمن على اللجج المزبدة، يا من تحيط الأرض قاطبة بمياه البحر. إنني أعرف أنني أول إنسان من البشر يغامر بسلوك طريق محظور علينا؛ وأعرف أنني أستحق أن أكون لعبة العواصف...» وبعد أن ألقى ياسون مسئولية جرأته على پيلياس Pelias، أنهى صلاته

بهذه الكلمات التي تحدد بدقة شديدة الأسلوب الخصيص لعمل پوسايدون: «فاقبل هذه السفينة... فوق أمواجك ولا تملأها بالغضب.» ويسري على السفينة ما يسري على الحصان: قبل استخدام أي منهما لابد من العمل على استمالة پوسايدون ونيل رضاه. وپوسايدون في المجالين، مجال الخيل ومجال السفن يتسم بنفس السمات: وكما أنه رب الخيل، كذلك هو يمارس على البحر وعلى السفن سيادة مفعمة بالريبة.

ولا تنتهي المقارنة بين المجالين، مجال الخيل ومجال السفن عند هذا الحد؛ بل من الممكن دفعها إلى أمام، انطلاقاً من أضحية ياسون التي قدمها إلى پوسايدون. ونحن نلاحظ أنه كما أن بيلليروفون قدم إلى پوسايدون حصاناً مزوداً بالشكيمة تم ترويضه برعاية أثينة، كذلك السفينة التي قدمها ياسون لپوسايدون كانت دُرة نفذتها أثينة. والتراث الإغريقي كله يشهد على ذلك. ففي قصة أپولونيوس الرودسي نجد ‹أثينة› ابنة زيوس وميتيس تترأس مراحل البناء المختلفة؛ والنجار أرجوس يتلقى الأوامر منها [١٠٤]، وكانت الربة أثينة نفسها هي التي تختار الأشجار التي نمت فوق ربوة پيليون Pelion [١٠٥]؛ وهي التي تقطعها وتجهزها بالبلطة، وتضع العروق المتناظرة drúochoi [١٠٦] التي تمسك هيكل السفينة أزواجاً، وهي - ختاماً - التي علمت أرجوس فن استخدام المسطرة في قياس العوارض الخشبية [١٠٧]. ونجد أثينة في ميثات أخرى تلعب دوراً لا يقل حسماً: فإذا قال قائل إن داناؤس Danaos هو الذي صنع أول سفينة، فما كان ذلك إلا بنصح من أثينة وبعون منها [١٠٨].

فالمقارنة بين الحصان وبين السفينة تؤدي إلى معرفة وجه جديد لتدخل أثينة في مجال الملاحة. ثم إننا نلاحظ أن هذه المقارنة تؤدي إلى إكمال وتحديد أكثر دقة لأسلوب عمل أثينة في مجال الخيل. ولقد بدا لنا على المستويين اللذين ميزناهما - وأولهما خيل الركوب وثانيهما العربة وخيل الجر - أن خط التحديد الفاصل بين أثينة وپوسايدون يتبع مساراً خصيصا بكل منهما. والواقع أن عمل أثينة على مستوى العربة التي يجرها الخيل أكثر تعقيداً مما كنا نتصور: فهو لا يقتصر على قيادة العربة والخيول، بل يتسع ليشمل تصميم وصناعة هيكل العربة والأجزاء الخشبية المختلفة. و«الأنشودة الهوميروسية إلى أفروديتي» تذكر أن أثينة هي أول من علم النجارين صناعة العربات وعربات النقل المحلاة بالبرونز [١٠٩]. فيما يتعلق بالعربة والسفينة، يبدو إذن أن اختصاص أثينة مزدوج يشمل فن البناء وفن القيادة جميعاً.

البناء والقيادة هذان نموذجان من العمل نجد أنفسنا مدفوعين أكثر فأكثر إلى اعتبارهما دالين على التباعد أكثر منهما دالين على التشابه. ولكنهما في نظر الإغريق يمثلان أنشطة تتيح تناظراً كبيراً. وهناك إشارات مختلفة متصلة بأثينة تسمح بأن تغترف منها الدليل على ذلك. ففي قصة أپوللونيوس الرودسي، نجد تيفوس، ربان السفينة، بعد اجتياز سومپليجاديس Symplégades ‹ممر الصخور الرهيبة›، سعيداً بالإفلات من تصادم الصخور الرجراجة ونجده يرد الفضل كله إلى أثينة التي دفعت السفينة فعلاً في اللحظة الحاسمة. ومع ذلك فلم يكن هذا الوجه من عمل أثينة هو ما استحسن تيفوس الإشادة به. إنه يشكر أثينة ‹ربة› البناء، أثينة التي أحكمت ضم القطع الخشبية معاً ضماً صلباً بالاستعانة بالخوابير[١١٠]، كأنما لم يكن هناك فرق حقيقي بين هذه الأثينة وتلك، بل كان بينهما مجرد تناظر، هذا التناظر الذي يثبته شارح قديم عرفنا أهميته في تعريفه أثينة الأيثويا الزاغة aithuia. فشارح لوكوفرون، صاحب الحاشية، قبل أن يشرح أن أثينة توصف بأنها «زاغة البحر» لأنها علمت البشر أن يبحروا وأن يشقوا لأنفسهم في البحر طريقاً، يبسط تفسيراً آخر يربطه ربطاً وثيقاً بالتفسير الأول : لقد وصفت أثينة بالزاغة aithuia «لأنها هي الحرص، فرونيسيس phrónesis، الذي يبني السفن» [١١١]. والمعنى واضح: إذا كان النشاطان - البناء والقيادة - ينسبان هنا إلى أثينة واحدة، هي أثينة ‹ربة› البحر ذاتها، فإنما يرجع ذلك إلى أنهما كلاهما ينتميان إلى نفس نمط الذكاء الذي يميز أثينة، إلى دهائها الميتيسي أو حرصها.

قُطّاع الشجر، النجارون، بناة السفن، كل هؤلاء فنيون كانوا في التراث ينعمون بحماية أثينة وحظوتها. ونحن نعرف في الملحمة الهوميروسية ميلها العظيم إلى تيكتون هارمونيديس Tektôn Harmonides، النجار، ابن فني التراكيب المحكمة «الذي كانت يداه تعرفان كيف تصنع الروائع من كل صنف»: وتيكتون هذا هو الذي أنشأ tekténasthai سفن پاريس Paris ‹المسمى› ألكسندر [١١٢]. هل يقطع هذا النجار صالبة السفينة قطعاً صحيحاً مستعينا بالخيط؟ إذن فقد أفاءت عليه أثينة من فضلها فمنحته مهارة شغل الخشب [١١٣]. هل المطلوب صناعة محراث، وتعشيق الخشب المقوس في الكعب وضبطه في القصبة؟ تلك إذن مهمة «خادم أثينة» ينهض بتنفيذها [١١٤]. وكما علمت أثينة عمال الخشب كيف يصنعون سفينة أو محراثاً، كذلك علمتهم فن صناعة العربات وعربات النقل.

وسواء كان الأمر أمر صناعة عربة أو محراث أو سفينة فإن اختصاص أثينة يشمل كل مراحل شغل الخشب: قطع الأشجار، مسح الألواح، توضيب قطع الهيكل الخشبي المختلفة، كل العمليات التي تتطلب نفس الدهاء الميتيسي. وقد جاء في الملحمة بالفعل «أن القوة ليست هي التي تصنع قاطع الأشجار الجيد، بل الذي يصنعه هو الدهاء الميتيسي» [١١٥]. وكل نجار في البداية قاطع أشجار، يبدأ باستخدام البلطة في قطع الأخشاب التي اختارها بنفسه في الغابة [١١٦]. فعندما قررت أثينة أن تصنع سفينة الأرجونوتية، فقد حرصت أول ما حرصت على الذهاب إلى پيليون لتجهز الخامات. فلما تم قطع الأشجار، بدأ إعداد الألوح وضبط سمكها [١١٧]. وهناك موروث ميثي في الأغاني القبرصية يثبت أن تلك مهمة تولتها أثينة. ولقد جاء في التراث أن القنطور خيرون عندما صنع الرمح العجيب الذي تسلح به پيليوس قبل أخيلليس بدأ بقطع شجرة الدردار التي اختارها خامة؛ وهيفايستوس الحدّاد زود الخشب بطرف معدني وحوله إلى سلاح حرب؛ أما أثينة فقد تولت بعناية مسح وسنفرة خشب الرمح [١١٨]. وبعد الفراغ من مسح الأخشاب وتجهيز الخامات، كان النجار صانع السفينة أو العربة أو المحراث يقوم بالتوضيب والتعشيق والتثبيت بالخوابير [١١٩]. ومن العمليات المنتشرة أوسع الانتشار في صناعة السفن في بلاد الإغريق، عملية تتلخص في الابتداء عند صناعة جسم السفينة بتثبت الحواف بطريقة بالعاشق والمعشوق والخوابير [١٢٠]. في هذه المرحلة البالغة الأهمية من مراحل صناعة السفن نرى أثينة تترأس العمل بحسب ما جاء في «الأرجونوتية»: «فبينما أخذ أرجوس في تثبيت الحواف بالخوابير، كانت أثينة تنفث في السفينة قوة إلهية» [١٢١]. إذن كل عمليات شغل الخشب ترد مجتمعة ومترابطة بعضها بالبعض في تصوير ميثي لأثينة البحر التي ترسخت صانعة للسفن.

ولكن هذه العمليات في تتابعها المتدرج يتولاها شخص يتميز بنفس المهارة في فن قيادة السفينة وفي فن بنائها على السواء. هذا الشخص الذي تحميه أثينة هو البطل الذي يجسم بالنسبة إلى الإغريق كل الدهاء الميتيسي الإنساني. ذلكم هو أوليسيس. فمنذ أن قررت الآلهة أن يرحل عن الجزيرة التي حبسه فيها كاليپسو Kalypsô، شرع في بناء سفينة: فقطع عشرين شجرة بالبلطة، وهذبها بمهارة؛ وبعد ذلك قام بتقطيعها بعناية على الخيط؛ وفي النهاية ثبت الحواف بطريقة العاشق والمعشوق [١٢٢]. فلما نصب الصاري ونشر القلع على هذه السفينة التي بناها بما هو معلم نجار، «جلس أوليسيس إلى الدفة وقاد السفينة رباناً قديراً، دون أن تأخذ جفنيه غفوةٌ قط، وكانت عينه ثابتة على نجوم الپلياديس الثريا السبع ونجمة الكلاف التي لا تغيب إلا متأخرة، ونجمة الدب التي تسمى أيضاً العربة وهي النجمة التي لا تغوص

قط في حمامات المحيط الأوقيانوس، بل تدور في مكانها تترقب الجوزاء أوريونå Orion (١٢٣). وفي أعمق أعماق الليل، في تلك الليلة التي يسميها إيسخيلوس «أم الكرب بالنسبة إلى الربان الحريص» (١٢٤)، قاد أوليسيس السفينة بدهاء ميتيسي يساوي دهاءه الميتيسي في بناء سفينته.

ويمكننا مع ذلك أن نحاول التحديد بدقة أكبر لنبين كيف يمكن لنشاطين متمايزين أشد التمايز مثل النجارة وقيادة السفن أن يتم التفكير فيهما من خلال نموذج عقلي واحد. في سجل العمليات التقنية التي يقوم بها النجار والتي نوهنا بها أغفلنا عملية تحتل مكاناً هاماً في شغل الخشب، ألا وهي: عملية استخدام الخيط الذي يمكِّن من قطع العروق والألواح مستقيمة (١٢٥) «يخط الخط مستقيماً على الخيط» epi státhmen ithunein تلك عبارة متوارثة في الأدب الملحمي تصور النجار الماهر (١٢٦) وبنّاء السفن القدير (١٢٧). فالخيط هو صورة من صور الاستقامة (١٢٨)، «الخيط الذي يستخدم في قطع صالبة السفينة قطعاً مستقيماً على يد نجار خبير يعرف فنه حق المعرفة بإلهام من أثينة» (١٢٩). والتعبير «يخط الخط مستقيماً» ithunein الذي يعرّف عمل الخيط إذ يرسم طريقاً لا يلتوي إلى يمين أو شمال، هو في اللغة الإغريقية أيضاً تعبير اصطلاحي فني يسنخدم في مجالين تبينّا من قبل توازيهما الوثيق: من ناحية مجال الملاحة حيث يدل على مسار السفينة التي يقودها الربان بفضل الدهاء الميتيسي ، كما تقول الإلياذة». على خط مستقيم في البحر من خلال الرياح والمد والجزر (١٣٠)؛ ومن ناحية ثانية مجال قيادة العربة التي يعرف قائدها، المتمكن من الدهاء الميتيسي، كيف يقودها قيادة مستقيمةً نحو الهدف، دون أن يحيد عن الطريق أبداً (١٣١). من خلال واقع الألفاظ الذي عرضناه يبدو أن الدليل يقوم على أن النجار عندما يصنع عربة أو سفينة، يستخدم نفس نمط الذكاء الذي يستخدمه الربان والسائق عندما يقودان، هذا يقود السفينة في البحر، وذاك يسوق خيله المكدنه إلى العربة على الطريق.. ومن هنا فإن تصوير أثينة ليس فيه فارق بين البناء والقيادة ، بين أن تقطع صالبة السفينة مستقيمة على الخيط وبين أن تقاد السفينة مستقيمة في البحر. ولما كانت السفينة والعربة مشاركتين معاً في ذكاء أثينة التقني، فإنهما يبدوان على هيئة أداتي فعل أكثر مما يبدوان على هيئة أداتين مصنوعتين.

وهناك سمة من سمات مفردات الدهاء الميتيسي يمكن أن تبرهن على الوجه المزدوج لعمل أثينة. فمن بين التعبيرات التي تستخدمها اللغة الإغريقية للدلالة على مفهوم التدبير،

التخطيط، التأمل، نجد تعبيرات تلجأ إلى صور من صيد الحيوان وصيد السمك، فيقولون يضفر حيلة metin plékein كما يقولون يصنع بالضفر جابية أو فخاً لصيد الحيوان؛ ويقولون ينسج خطة metin huphainein كما يقولون ينسج شبكة لصيد السمك أو لصيد الحيوان(١٣٢). ولكن هناك تعبير ثالث ينافس التعبيرين السابقين هو ينجِّر حيلة tek-tainesthai metin(١٣٣). وهذا الفعل "ينجِّر" tektainesthai فعل يدل على شغل الخشب ونشاط النجار. فالمحتال يدبر أو يصنع الحيلة كما يصنعالقطع الخشبية المختلفة التي تكون الفخ وتشكل آداة الخديعة. من هذا القبيل حصان طروادة الشهير، فهو في وقت واحد حيلة حربية أوحت بها أثينة إلى أوليسيس، وآداة خشبية صنعها إيپيوس Epeios بمعونة الربة نفسها(١٣٤). في السفينة وفي العربة - وهما من منتجات ذكاء أثينة وأدواته - نجد نفس الدهاء الميتيسي الذي يصمم ويصنع بنفسه الأدوات التي تخدم مشروعاته وتحققها. وهناك <قصيدة قصيرة من النوع المسمى> إيپيجرامة تذكر اختراع السفينة، فتقول إن أثينة هي أول من صممها <حرفياً = تأملها> médesthai (١٣٥)، هي التي أنشأتها بعملية ذكاء وفي الوقت نفسه بنشاط له طابع تقني.

في ختام هذه المقارنة والمعارضة بين أثينة وبين پوسايدون في المجال المزدوج الخاص بالسفينة والحصان، نجد أنفسنا منقادين إلى تأكيد الدور الإيجابي المضاعف الذي تتولاه أثينة، وهو على عكس ما اختص به پوسايدون من دور تغلب عليه السلبية في أغلب الأحوال، ويبدو محصوراً في ممارسة سيادة توشك أن تكون إسمية. ومع ذلك فلابد لنا - قبل أن نعترف نهائياً بمسار هذا الخط الفاصل بين قوتين إلهيتين متنافستين - بأن نختبره بعرضه على عدد من المواقف الميثية أو الثقافية التي يبدو أنها تكذب هذا التحليل تكذيباً عنيفاً، قَلَّ هذا العنفُ أو زاد. ألسنا نرى پوسايدون في الفصل الذي أداره هوميروس في فيثاقيا يتخذ هيئة الإله الكبير الذي يحمي أمة من الملاحين والمعداوية؟ ألسنا نجده في نُصب على رأس سوزنيون Sounion وثيق الصلة بربان ميثي اسمه فرونتيس Phrontis أي الحريص الأريب؟ وأخيراً ألسنا نرى پوسايدون في التراث الأرجونوتي أباً لأنكايوس Ankaios الذي ترسخت شهرته ربساً للدفة حتى استحق أن يخلف تيفوس، الذي كانت أثينة تحميه، فيجلس إلى الدفة في سفينة ياسون طوال النصف الثاني من الرحلة؟

أما الفصل المتصل بفيثاقيا <جزيرة عند مدخل البحر الأدرياتيكي هي الآن كورفو> فهو يقع في نطاق حلقات تدَخُّل ليئوكوثيا Leukothea. ولقد تمكن أوليسيس بفضل الطلسم

الذي أحضرته «زاغة البحر» من بلوغ أرض الفيثاقيين Phaiakes والإفلات من غضب بوسايدون. وكان رعايا ألكينوءوس Alkinoos يصوّرون على أنهم ملاحون رائعون وأنهم ممن يحميهم بوسايدون. وكانت مدينة فيثاقيا المفتوحة على البحر آهلة بالملاحين الذين لم يكن يحلو لهم أن يتكلموا عن شيء إلا الصواري، والمجاديف، والسفن البديعة (١٣٧)؛ وكانت شوارع فيثاقيا تغص بالعمال الفنيين الذين يصقلون المجاديف، والذين يصنعون أدوات السفن، والقلوع والحبال (١٣٨). وكان احتراف أهل فيثاقيا ينعكس على كل شيء حتى في أسمائهم التي كانت مشتقة من البحر والبحارة ومتن السفينة وظهرها ومقدمها ومؤخرها، وقد ترجم بيرار V. Bérard بعضها حرفياً إلى الفرنسية ‹من قبيل أبو مركب، الربان، البحار، البحاري، أبو قلع، أبو مجداف الخ› (١٣٩) Dugaillard, Vitenmer, Laviron, Lenocher, Del-aproue, Dubord, Delamare, Dularge ... إنه شعب من متعهدي السفن ومن البحارة المتمكنين من العمل بالمجاديف. ولكن الشغف المطلق بالملاحة ليس هو السمة الوحيدة التي تميز أهل فيثاقيا عن غيرهم من البشر. كانوا يعيشون في عزلة وبمنأى عن الناس بما يوحي بأنه لم يكن هناك شعب تعامل معهم، ولكن أهل فيثاقيا كانوا في الحقيقة بشراً عاديين، ينعمون بطبيعة الحال بالألفة مع الآلهة الذين كانوا يأتون ويجلسون إليهم في أيام الأعياد والولائم(١٤٠). ولكن إذا كان الآلهة جميعاً دون تمييز يقيمون في فيثاقيا كما يحلو لهم، فلم يكن لأي منهم نصب أقيم في أجورا Agora(١٤١) إلا لواحد فقط هو: بوسايدون، الذي هو القوة الإلهية التي أنجبت جنس ألكينوءوس ومنحت أهل فيثاقيا ميزة اجتياز البحار. على أرض فيثاقيا هذه بدت سيادة بوسايدون ثابتة لا جدال فيها.

ولكن هناك ربة أخرى قد تنافسه هذا الوضع، إذا نحن صدقنا على القراءة التي لم يذهب إليها أحد من قبل في فهم الأبيات الأربعة الخلافية المكرسة لمدح رعايا بوسايدون: «كما أن رجال فيثاقيا يفوقون بقية الرجال في إطلاقهم سفينة سريعة في البحر، كذلك نسّاجات فيثاقيا يَفُقْن ‹في هذا الفن› كل النساء. لأن أثينة منحتهن sphisin معرفة الأشغال الجميلة وميزة الأفكار الأريبة» (١٤٢). هل كانت سيادة أثينة تقتصر على النسّاجات، كما يبدو من مدلول العبارة الأخيرة - التي استخدمت في الحديث عن بينيلوبي، فوصفتها بأنها ماهرة بفضل من أثينة في نسج القماش قدر مهاراتها في تخريج الأفكار الأريبة (١٤٣) - أم هل كانت حماية أثينة تمتد فتشمل سواء بسواء النساء العاملات في حرفة النسيج والرجال الملاحين المدهشين من أهل فيثاقيا (١٤٤)، وهو ما قد توحي به التوافقات التي ذكرناها من قبل بين أثينة وبين الربابنة؟ وعلى الرغم من أن هذا التفسير الثاني يبدو مغرياً فلابد من استبعاده لسببين.

السبب الأول هو أن عمل أثينة كله كان يدور على هامش فيثاقيا. فقبل أن يضع أوليسيس قدمه على أرض فيثاقيا، ظهرت أثينة مرة لكي تسد الطريق على الرياح التي أطلقها بوسايدون لمهاجمة سفينة عدوه،فبعثت ريح بورياس Boreas قوية مكنت أوليسيس من بلوغ الساحل (١٤٥). وما كاد أوليسيس يبلغ ساحل فيثاقيا حتي أخذت الربة أثينة - التي حمته - نفسها بالتحفظ أشد التحفظ. فرفضت أن يراها أوليسيس رأي العين، ولم تشأ أن تتصرف على المكشوف، ونأت بنفسها «احتراماً لعمها <بوسايدون>» (١٤٦). فلما أوصلت أوليسيس في حمايتها إلى قصر ألكينوءوس، اختفت وعادت إلى مدينة أثينا ودار إيريخثيوس Erekhtheus (١٤٧). وهناك معلومة طبوغرافية تترجم أكمل ترجمة العلاقة التي قامت بين أثينة وبين بوسايدون في المجال الفيثاقي: فبينما هيمن نُصُب بوسايدون على أجورا والمدينة، لم يبق لأثينة من مكان خاص بها إلا غابة مقدسة متواضعة (١٤٨) كانت إلى تواضعها تقع خارج المدينة على هامش مدينة ألكينوءوس.

يضاف إلى هذا السبب الأول سبب ثان يؤكد المسافة التي تباعد بين أثينة وبين أهل فيثاقيا، وتوضح على نحو حاسم علاقة أهل فيثاقيا برب البحر الأكبر<بوسايدون>. كان أهل فيثاقيا، بما هم ملاحون ومعداوية، يمتلكون سفناً خارقة للمألوف، في روعة سفينة ديونيسوس Dionysos: كانت أسرع من الجناح أو من الفكرة تتقدم دون ارتجاج واصطدام؛ «حتى إن الصقر، وهو أسرع الطيور، لم يكن يستطيع اللحاق بها،،،»(١٤٩). ولم يكتف بوسايدون بمنح هذه السفن السرعة، والعجلة في التحرك على صفحة البحر، بل أعطاها ما هو أكثر من ذلك؛ لقد أعطاها امتياز «اجتياز هاوية البحور الكبرى» laîtma még'ekperóosin(١٥٠). فلم تكن سفن أهل فيثاقيا، وقد غشتها الغيوم والأنواء، تجتاز فقط هاوية البحر «دون أن تخشى قط الإصابة بعوارية أو التعرض لتيه»، «بل كانت موهوبة ذكاءً، تستطيع من تلقائها أن تكشف الكامن من رغبات البشر وأفكارهم» (١٥١). وبينما كانت الملاحة التي يتولاها البشر تتطلب دواماً تصحيح المسار اعتماداً على الدفة، كانت سفن أهل فيثاقيا تبحر «بلا ربان وبلا دفة» (١٥٢). فمنذ أن أعطى بوسايدون سفن أهل فيثاقيا امتياز هاوية البحر، لم تعد بها حاجة إلى استخدام الدهاء مع الرياح ولم تعد بها حاجة إلى أن تعمل حساباً للزوابع: فقد تحول البحر بالنسبة إليها من هاوية لا سبيل إلى اجتيازها إلى فضاء مألوف مجرد من كل غموض. ولما كان فن الملاحة قد أصبح عديم القيمة في فيثاقيا نتيجة الامتياز الذي نالته السفن وعرفت به كل طرق البحر، لم يعد لأثينة ودهائها الميتيسي ما يعملانه. وإذا كان «أهل فيثاقيا قد تفوقوا على البشر جميعاً فأطلقوا في البحر (١٥٣)

سفينة سريعة»، فلم يكن ذلك إلا بفضلٍ من پوسايدون الذي كانت لديه القدرة على أن يمنح سفنهم معرفة فطرية بغيابات البحر، كما كانت لديه القدرة على أن يجردها منها فجأة، عندما يتملكه الغضب، فيحول السفن الأسرع من الصقر إلى قطعة من الحجر الغشيم أو من الصخر الثقيل الضارب بجذوره في المياه [١٥٤]. هذا المثل الفيثاقي لا ينال من تحليلنا لوسائل العمل الخصيصة بأثينة وبپوسايدون، بل يدعمه بدعم قيم لأنه يبين أن قدرة پوسايدون الكبرى - حتى إذا ظلت دون تقسيم، أي إذا ظلت على نحو ما موكلة إلى نفسها - تعمل فيما وراء وفيما أمام مجال قيادة السفن، أي دون مساس بمنطقة عمل أثينة.

يضاف إلى هذ الموقف الأول، الذي يترسخ فيه پوسايدون على أساس استبعاد أثينة استبعاداً كاملاً، موقفان آخران نجد فيهما الإلهان - پوسايدون وأثينة - يتواجهان على نحو أكثر مباشرة في مجال توجيه السفن وقيادتها. أول هذين الموقفين تتصل أسبابه في الطرف الأقصى من أتيكا، عند رأس سوءونيون. في مواجهة البحر يقوم معبد لپوسايدون يهيمن على الموقع، طوله ٣١,١٥ متراً وعرضه ١٣,٤٨ متراً [١٥٥]. وشهرة رأس سوءونيون قديمة قدم ملحمة الأوديسا [١٥٦]. فعندما وصل أسطول مينيلاس إلى مشارفها، عائداً من طروادة، أذا بربانه فرونتيس - وقد أصابته سهام إپوللون في أثناء الملاحة - يفقد الدفة من بين يديه. وعقد مينيلاس العزم على أن يدفنه؛ فأغرق سفنه ورفع إلى فرونتيس ميتاً أيات التكريم الجنائزية، وجرى هذا على الأرجح فوق اللسان المكرس لپوسايدون . ومنذ سنوات عندما عاد ش. پيكار Ch. Picard [١٥٧] إلى الحفائر التي قام بها العلماء الأثريون الإغريق، وأجرى في الموقع تحليلاً لها، وجد من الحجج الصائبة ما أتاح له التعرف إلى نصب لفرونتيس في مبنى صغير يقع على حدود ساحة پوسايدون المقدسة. ومن هنا فإن رأس سوءونيون يبدو أنه يقدم مثلاً على الاشتراك الوثيق أخص الوثوق بين پوسايدون وبين ريّس دفة يكفي اسمه - فرونتيس يعني الحريص الأريب - برهاناً على أنه يمتلك ذكاءً مناوراً لن يعدم الجدارة بأن يكون ممن شملتهم أثينة بحمايتها. تقول ملحمة الأوديسا عنه :«لم يكن له نظير في قيادة سفينته من خلال الزوابع» [١٥٨].

وتبين بقية هذا الفصل في الأوديسا على نحو أفضل تَمَيُّزَ هذا الربان. فمنذ حرم مينيلاوس عون فرونتيس ولجدته، وجد نفسه، دون أن يدرك ما يحدث له، قد وقع في الفخ الذي نصبه له زيوس. ففي أثناء الالتفاف حول رأس ماليا، فوجئ الأسطول بعاصفة دبرها له زيوس، ملك الآلهة [١٥٩]. وتحطمت سفن عديدة، وتشتت سفن أخرى حتى وصل بعضها إلى

مصر حيث وجد مينيلاوس نفسه محصوراً قد أحاط به رب من الأرباب سد عليه الطريقédese keleúthou ‏(١٦٠). ويبدو واضحاً أن مينيلاوس، وقد خلف فرونتيس وراءه في راس سوءونيون قد فقد الدهاء الميتيسي الذي ما كانت السفن بدونه تستطيع أن تجتاز الزوابع(١٦١). فهل يعني هذا أن نستنتج أن هذا الرب البحري - الذي بدا لنا حتى الآن غريباً كل الغرابة على كل شكل من أشكال الدهاء الميتيسي - صادرٌ على نحو ما هذا الذكاء الملاحي؟ لابد من إجراء فحص أكثر تدقيقاً للمعطيات الثقافية في سوءونيون لصرفنا عن هذا الاستنتاج. والحق أن موقع سوءونيون لم يكن خالصاً لپوسايدون وحده. وپاوسانياس (١٦٢) يكتب أن الملاحين عندما كانوا يصلون إلى حيث يرون أتيكا، كانوا يكتشفون أولاً من البحر نصباً صغيراً يقبع على مرتفع: ذلك هو نصب أثينة سوءونياس Souniás ‹نسبة إلى سوءونيون› الذي عثروا عليه على بعد ٥٠٠ متر تقريباً من معبد پوسايدون، فوق تل قليل الارتفاع. وعندما أجرى علماء الآثار حفائر في هذه المنطقة أخرجوا وثيقة تحدد سمات أثينة سوءونياس Souniás. هذه الوثيقة عبارة عن لوحة صغيرة من الخزف المصور هي لوحة نَذْر تمثل سفينة يسوقها ربان ملتح، يجلس، ويمسك الدفة بيده (١٦٣). حتى إذا تردد متردد في اتباع رأي پيكار الذي يميل إلى أن يرى في هذه اللوحة الصغيرة «تذكاراً لموت فرونتيس»، فقد ثبت بالوثائق أن الربان المعتبر بطلاً في رأس سوءونيون متضامن مع أثينة ومشارك لپوسايدون.

وينبغي أن نلجأ في تحديد موقف فرونتيس من القوتين الإلهيتين البحريتين - پوسايدون وأثينة - إلى التناظر مع وضع ربان أسطوري آخر. فهناك مأثورة أحدث من الملحمة الهوميروسية تذكر أن ربانا اسمه كانوپوس Kanôpos أو كانوبوس Kanôbos خلف فرونتيس علي أسطول مينيلاوس الرودسي وكان هو الذي قاده حتى وصل به إلى مصر وهناك أصابه موت مفاجئ، فتحول إما إلى نجم مضيء لا يراه إلا البحارة الذين يمخرون عباب البحر من رودس إلى مصر، أو إلى النجم الأنور في برج أرجو، وهو النجم الذي يمثل في السماء دفة سفينة الأرجونوتية (١٦٤). وتعبر أسطورة كانوپوس Kanôpos في إيجازها أكمل تعبير عن العلاقة الوثيقة بين الملاحة والفلك: فالربان الميتي تحول إلى علامة من هذه العلامات المضيئة التي يستطيع الربان القدير أن يرسم بناء عليها طريقه في البحر. وكانوپوس Kanôpos هذا هو نفسه الذي يحدثنا عنه تاريخ معبد أثينة لينديا Lindia في رودس ذاكراً أنه أهدى دفة سفينته - لا إلى الربة الوحيدة التي تحمي ليندوس Lindos، والتي تحمي الربابنة كذلك - بل إلى «أثينة وپوسايدون» مجتمعين tai Athanaiai kai Poteidani ‏(١٦٥).

ولا يمكن – سواء في رودس أو في رأس سوءونيون – أن يكون للاشتراك الوثيق بين أثينة وپوسايدون مع ربان إلا معنى واحد: هو التعبير عن أنه لا يمكن لأي ربان أن يمارس مهارة هي من شأن أثينة أساساً، دون أن يعترف في نفس الآن بنصيب پوسايدون من السيادة، وهو نصيب يظهر في الصورة العادية لپوسايدون سيد البحر الذي يحمل فوق ظهره السفن التي يركبها البشر. فمهما كان فرونتيس وكانوپوس تحت حماية أثينة، فلا بد لهما من التعامل مع پوسايدون، وإذا كان پوسايدون يستطيع أن ينكر أثينة، فهي لا تستطيع أن تستبعد شريكها القوي، بالمقدار الدقيق الذي لا يستطيع به الذكاء الملاحي أن يعمل عمله دون عونٍ من عنصرٍ ينتمي أساساً إلى السيادة الپوسايدونية.

هكذا نجد أثينة وپوسايدون – سواء في رودس أو في رأس سوءونيون – يظهران على هيئة قوتين إلهيتين توأمتين، تتمايز الواحد عن الأخرى تمايزاً واضحاً، ولكنهما تتعاونان تعاوناً فعالاً وضرورياً. في الموقف الأخير الذي بقي علينا أن نتفحصه نجد هاتين القوتين تتواجهان على نحو مباشر، قلّت المباشرةُ أو زادت، في مجال قيادة السفينة. وكما أن الأناشيد الديونوسية تحكي عن سباق عربات بين متنافسيْن أحدهما قائد يتبع أثينة والآخر قائد يتبع پوسايدون (١٦٦)، كذلك قصة الأرجونوتية ‹لأپولونيوس الرودسي› يبدو أنها تقيم تعارضاً حقيقياً (١٦٧) بين الربانيْن اللذين تتابعا على السفينة أرجو، بين تيفوس – الربان الذي اختارته أثينة وأرسلته – وبين أنكايوس – ابن پوسايدون الذي عهدت بالدفة إليه بعد موت تيفوس فجأة عقب اجتياز الصخور الرجراجة مباشرة. وأنكايوس – دون أن يكون بالمعنى الدقيق منافساً لتيفوس – يظهر في هيئة منافس في فن قيادة السفن ظهوراً يزيده وضوحاً ما ورد في قصة الأرجونوتية من مدح لمعرفة الملاح ومهارته في توجيه الدفة (١٦٨).

ربان پوسايدون من ناحية وربان أثينة من الناحية المقابلة: هل المواجهة بين تصرفات هذا وتصرفات ذاك يمكن أن تؤدي إلى تصحيح هذه أو تلك النقطة من خط التقسيم الذي رسمناه بين القوتين الإلهيتين البحريتين؟ ويمكننا أولاً أن نلاحظ ملحوظة أولى: الإلهان يظهران لدى من يحمونهما بطرق مختلفة. بينما تدفع أثينة تيفوس إلى اللحاق بالأرجونوتية لكي يمسك الدفة، بينما تقف هي إلى جانبه لتدعم عمله من أجل اجتياز الصخور الرجراجة، لا يتدخل پوسايدون في أية لحظة لصالح الربان الذي نجد ما يغرينا باعتباره «ربانه». كانت هيرا، لا پوسايدون، هي التي حثت أنكايوس على أن يتولى مهمة تيفوس. أما في الفقرات الدرامية فأرجوس أو ياسون أو الديوسكوران أو تريتون وأپوللون أيجليتيس Aiglétes هم الذين يأتون

لتخليصه من المأزق ولتقديم العون إليه. لم يطلب أنكايوس ولم يتلق عوناً من أبيه الرباني. عندما تتبين هذا الاختلاف بين أثينة وپوسايدون تظهر لنا الاختلافات بين الربانيْن واضحة جلية. فبالقدر الذي يترسخ فيه ربان أثينة على هيئة الرئيس الحقيقي للسفينة إلى الحد الذي يغطي فيه أكثر من مرة على ياسون أمام رفاقه، بالقدر نفسه يبدو أنكايوس باهتاً، عديم الأهمية، تتجاوزه في أغلب الأحيان الأحداث التي لم يستطع قط أن يتنبأ بها.

ومنذ بداية قصة «الأرجونوتية» ، نجد تيفوس على هيئة الربان القدير: الماهر في التنبؤ prodaenai بتغيرات الجو وتقلبات الريح، القادر كذلك على حساب مساره -tek-mérasthai طبقاً لموقع الشمس والنجوم [١٦٩]. كان هو الذي يعطي إشارة الانطلاق ويقود المناورة لكي يضع السفينة في البحر [١٧٠]. كان طوال الجزء الأول من الحملة ينهض مبكراً مع نجم الصباح ، ويرصد الرياح المواتية، ويحث الملاحين الأرجونوتية على ركوب السفينة [١٧١]. كان دهاؤه الميتيسي وحرصه phradmosúne [١٧٢] هما اللذان يرسمان مسار الحملة. وعند مدخل البوسفور كانت مهارته في المناورة هي وحدها التي تتيح له أن يشق لنفسه طريقاً وسط الأمواج الهائلة التي تهدد بالإطاحة بالأرجونوتية [١٧٣]. وظهرت براعة تيفوس على نحو أكثر وضوحاً في اجتيازه الصخور الرجراجة. وأعطى تيفوس، كما أوصاه العراف فينيا Phineus ، أولاً الأمر بإطلاق حمامة طورانية ليختبر بطيرانها طريق السفينة [١٧٤]. فلما تم له اجتياز الممر، أمر البحارة بأن يشدوا على المجاديف ويندفعوا بين الصخرتين، في اللحظة التي كانتا فيها قد بدأتا تتباعد من جديد. وفي وسط الممر تماماً، في اللحظة التي أتت فيها أثينة تدعم عمله خفية، كان تيفوس واعياً بما فيه الكفاية ليتفادى في آخر دقيقة لُجةً هائلة انقضت نحوهم [١٧٥]. حتى إذا دلف تيفوس إلى أويكساينوس پونتوس Euxcinos Pontos ‹البحر الكريم ، والمقصود البحر الأسود، وقد حوروا اسمه إلى العكس على سبيل الاستمالة› ، تملكه سرور حقيقي على عكس القلق الذي تملك بحارة الأجرونوتية: وشجع ياسون، وقوى عزيمة الطاقم، وأعلن ما أدهش الجميع ألا وهو أن الحملة أصبحت منذ تلك اللحظة مضمونة النجاح؛ فقد تحققت نبوءات فينيوس؛ وأصبح الطريق بعد اجتيار الصخور الرجراجة مفتوحاً [١٧٦]. وما مرت هنيهة حتى اختفى تيفوس فجأة [١٧٧].

أما في حالة أنكايوس فيظهر في المشهد [١٧٨] نمطُ ربانٍ مختلف كل الاختلاف. ليس من شك في أنه كان يملك طائفة من المعارف في مجال الملاحة، وليس من شك أيضاً في أنه كان يعرف كيف يمسك الدفة، ولكن أنكايوس لم يكن يتنبأ قط، ولم يكن يتخذ قراراً في أي وقت،

ولم يكن يوجه السفينة حقاً بحال من الأحوال. فلما ظهرت العقبة الأولى في الرحلة، عندما حان حين المرور من أويكسساينوس پونتوس Euxeinos Pontos ‹البحر الكريم ، والمقصود البحر الأسود› إلى المرحلة التي تؤدي إلى كولخيس Kolkhis ‹حيث الجزة الذهبية› اتخذ أرجوس مكان أنكايوس ليقود المناورة (١٧٩). وفي رحلة العودة كان أرجوس هو الذي بّين للأرجونوتية الطريق الذي يتبعونه (١٨٠). ومنذ ذلك الحين اكتنفت مسار السفينة الأرجونوتية سلسلة من التدخلات العجيبة الإعجازية. فعندما أرادت الربة هيرا أن تبين للسفينة اتجاه إيستروس Istros، رسمت في السماء خطاً كبيراً مضيئاً (١٨١). وبعد مقتل أپسورتوس Apsyrtos كشف العرق النبوي المكفت في جسم السفينة أن على الديوسكورين أن يتضرعا إلى الآلهة لتفتح للسفينة طرق أوسونيا Ausonie الموصلة إلى أرض كيركي Kirke (١٨٢). وفي مرة أخرى عندما أوشكت الريح أن تحيد بالحملة عن الطريق في قلب المحيط الأوقيانوس، تدخلت هيرا من جديد ، تدخلاً مباشراً ويمزيد من القوة، فدفعت السفينة إلى الوراء وردتها إلى الطريق الصحيح (١٨٣). في كل هذه الظروف نجد أنكايوس مثل الغائب، لا يلعب أي دور. بل لا يتدخل عند اجتياز خاريبدا Kharybde وسكوللا Skul-la، وتمسك ثيتيس السفينة وتقذفها في الممر مستفيدة من سكون الريح الذي أحدثه تواطؤ هيفايستوس وأيولوس Aiolos – تواطؤ سيد النار وملك الريح (١٨٤). وبقية الرحلة تشهد كذلك على عجز أنكايوس. ففي اللحظة الذي ظهرت فيه الپيلوپونيز ‹شبه جزيرة المورة› للأبصار، هبت عاصفة جديدة ألقت بالأجرونوتية إلى بحر ليبيا وجنحت بهم قبل ‹خليج› سيرته ، في قلب منطقة مهجورة. هنا كانت الأمور قد تجاوزت كل حد. وفاضت عينا أنكايوس بالدمع وهو يبلغ الأرجونوتية أنه يتخلى عن منصبه ويرفض قيادة السفينة (١٨٥). منذ تلك اللحظة لم نعد نسمع عنه شيئاً. ويكتنف نهاية الرحلة تدخلان كبيران من لدن قوى إلهية. فقد تدخل تريتون Triton عندما صعد من أعماق البحيرة التي تتسمى باسمه، وقاد السفينة ممسكاً بالدفة حتى بلغ بها الموضع الذي تتفرق فيه المياه في البحر (١٨٦). كذلك تدخل أپوللون أيجليتيس Aiglétes عندما أضاء نوراً وهاجاً في ظلمات ليلة عاصفة، وأنقذ هكذا الأرجونوتية من الضياع الكاتولاس katoulás (١٨٧).

من أول الملحمة إلى آخرها يتناقض ربان پوسايدون أشد التناقض مع ربان أثينة. فأنكايوس على نقيض تيفوس لا يبين في أي لحظة أنه يحتكم على أي قدر من الدهاء الميتيسي. وكلما تقدمت الحملة، ظهر عجز أنكايوس واضحاً جلياً، حتى يجد نفسه مدفوعاً إلى التنحي بسبب انعدام الكفاءة. ولكن من بين فصول الملحمة هناك فصل يبين أفضل من الأخرى بوضوح حدود

عمل هذا الربان البوسايدوني الأصل: دوره هو الدور الذي انتهى إلى الديوسكوريْن ليتوليا سفينة الأرجونوتية. حددها القطاب الخشبي النبوئي، عرق الخشب النبوئي، فعندما وصلا جزر ستوئيخاديس Stoikhades ثبتهما في منصبهما الجديد ملكُ الآلهة الذي وكل إليهما مهمة إنقاذ السفن التي تتعرض للخطر (١٨٨). ويختلف أسلوب تدخل الديوسكوريْن أوضح الاختلاف عن أسلوب أثينة. الديوسكوران «منقذا السفن» يظهران في السماء، وينيران من فوق الصواري. فالديوسكوران حاملا النور phosphóroi ، وهما يهدئان رياح العاصفة ويُهبطان أمواج البحر (١٨٩). وهناك شعيرة يؤديها من يحتاج إلى ظهورهما من الملاحين تتمثل في قيام الملاحين بتقديم أضحيات من الحملان البيضاء على مؤخر السفن المعرضة للخطر(١٩٠). وتلك شعيرة موازية ومقابلة للشعيرة التي يخص بها الأثينيون رياح العاصفة، فقد كانوا عندما تتهددهم عاصفة يضحون على الساحل بحَمَلٍ لونه أسود. ففي إحدى الحالتين تهدف الشعيرة إلى تهدئة السحب المعتمة، التوفوس، وتحويل الرياح الغاضبة عن طريق تقديم ضحية سوداء اللون، لا تقدم إلا إلى القوى الجهنمية. وفي الحالة الأخرى تهدف الشعيرة إلى دعوة الديوسكوريْن إلى إضاءة نور في العاصفة وهو نور تلمح إليه مسبقاً الأضاحي الحيوانية المقدمة بلونها الأبيض الفاقع. هذا الأسلوب الذي يعمل به الديوسكوران حدد پلوتارخوس أصالته على نحو ممتاز: «أنهما لا يبحران مع البشر، وإنهما لا يقاسمانهم أخطارهم، بل يظهران في السماء فهما المنقذان.» (١٩٢).

كان من الضروري أن نلف هذه اللفة عن طريق الديوسكوريْن لنقتنع بأنه ليس هناك منافسة بين تيفوس وبين أنكايوس يمكن أن تحدث صدى يشير إلى منافسة محتملة بين پوسايدون وبين أثينة على مستوى قيادة السفن. الربان الوحيد الذي يمكنه أن ينتسب إلى پوسايدون يجد نفسه مضطراً إلى أن يكل أمر نجاة سفينته إلى رعاية الديوسكوريْن. بعبارة أخرى: أنسب نقطة للمقارنة بين تيفوس وبين أنكايوس هي نفسها النقطة التي تنحل فيها بوضوح ما بعده وضوح شفرة الاختلاف بين وسائل عمل الديوسكوريْن وبين وسائل تدخل أثينة. وكما بدا على الفيقائيين أنهم نعموا بما أغدقه عليهم پوسايدون، كذلك وبالقدر نفسه ظهر أنكايوس على هيئة المحروم، كان رباناً مسكيناً، لا يرجو شيئاً إلا عون الديوسكوريْن. صحيح أن سلطان پوسايدون بلا حدود على البحر، ولكنه لا ينطبق، لا على الربان ولا على فن إدارة الدفة، بل هو يشمل ما قبل وما بعد هذا المستوى التقني: ما قبله عندما يحلو للرب پوسايدون أن يهيج أو يهدئ العنصر البحري؛ وما بعده عندما يمنح سفن الفيقائيين معرفة كاملة بالطرق والغيابات في البحر تجعل الدفة وفن القيادة بلا فائدة.

وأثينة ربة البحر، بما هي «زاغة البحر» مثل الربة البيضاء، الليثوكوثيا، لا تحمل إلى الملاح نجاة مطلقة وعجيبة غامضة؛ كذلك عملها لا يترسخ في لعبة تضاد الأسود والأبيض التي تميز تدخل الديوسكورين (١٩٣). وسواء وقفت بجانب الربان لتفتح له طريقاً على البحر أو أطلقت الطائر أداة فعالة تؤدي إلى اجتياز الغيابات، فأثينة تظهر في العالم البحري بممارسة ذكاء ملاحي يعرف كيف يرسم طريقه مستقيمة على البحر بمخاتلة الأنسام وحركة الأمواج. هذا الذكاء العملي المخاتل يلوح تقنياً لا ينفصل عن التقنية، وهو يظهر في فن قطع الأجزاء الخشبية قَطْعَاً مستقيماً على الخيط، كما يظهر في الفن التكميلي القائم على ضمها مضبوطة بعضها إلى البعض لصناعة السفينة التي هي آداة الملاحة. في مجال العمل هذا الذي تشترك فيه أثينة مع بوسايدون وليثوكوثيا والديوسكورين، تتميز أثينة بميزة تفرقها عن كل القوى البحرية الأخرى ألا وهي المقدرة المتساوية على البناء وعلى قيادة السفن، وتلك هي السمة التي يُعرف بها أسلوبها في التدخل على مستوى الملاحة.

الباب التاسع

قدما هيفايستوس

التلخينيون Telkhines [١] حدادون، معدِّنون لهم نظرة قاتلة، وهم سَحَرَة دائماً يضرُّون. وهم قوى أولانية تتبع التقاليد الرودسية ، ولهذا فهم في قلب طائفة من المصورات الميثية تعرضها على الترتيب التشكيلي فصول مغامراتهم في رودس وفي كيوس، وعلى الترتيب النمطي. مجموعة الترابطات والعلاقات التي تربطها ، من ناحية بالقوى الإلهية التعدينية المجاورة وهي: السينتيون والداكتوليون والكابيري وهيفايستوس، وتربطها من ناحية ثانية بالقوى الإلهية الأولانية للعنصر البحري: پروتيوس Proteus وثيتيس Thétis ويساماثي Psamathe. ويمكننا من خلال الشبكة الميثية التي تسجل فيها التيلخينيون أن نستخلص بعض جوانب التعدين من حيث هو شكل من النشاط كما نستخلص في الوقت نفسه بضعة سمات للحداد من حيث هو نمط من الرجال: هناك صلات التعدين بالنشاط الزراعي؛ وهناك علاقات الحداد وشغل المعادن بالبحر، ومكانته، وقواه، ووظيفته الكوسموجونية؛ تمثيل العامل المعدّن: وأسلوب تصرفه، شكل أعضائه، أدوات التناول. ودون أن ندّعي هنا أننا سنبسُط المقومات المختلفة للخطاب الميثي المخصص للأنشطة التعدينية، قد اخترنا أن نشدد على نموذج حيواني يضم السمات الجوهرية لميثوس التيلخينيين على نحو تكاملي، ويسمح في الوقت نفسه بتوضيح ناحية كبرى من تصوير الحداد في بلاد الإغريق الأرخائية العتيقة: هذه الناحية هي مورفولوجيا أعضائه السفلى. عندنا كتاب للمؤرخ اللاتيني سويتونيوس <Tranquillus Suetonius> عن الكلمات الجارحة التي يستخدمها الإغريق، وهو الذي أعطانا أوفر بيانات عن التيلخينيين [٢]. في هذا الكتاب المتبحر الذي كتبه بالإغريقية الرجل المسئول عن المكتبات الإغريقية الرومانية في عصر هادريانوس، نجد سلسلة كاملة من الإشارات تشدد على توافقات هذه القوى الإلهية التعدينية مع العالم البحري: التيلخينيون أبناء البحر؛ مغامراتهم تتموقع على جزر مثل رودس وكريت؛ وهم يبدون على هيئة كائنات برمائية تتخذ في تحوراتها مظهر الحيوانات البحرية: «إنهم يشبهون الشياطين حيناً، والبشر

حيناً آخر، وقد يشبهون الأسماك، وقد يشبهون الثعابين.». ولكن نص سويتونيوس لا يقتصر على هذه الإشارات ذات الطابع العام، بل يضم ألواناً من التدقيق أكثر عجباً. ونحن دون أن ندخل في تفصيلات المشكلات النصية التي تطرحها كتابة هذه الشهادة[٣]، يمكننا أن نلخصها بهذه الكلمات: بعض التيلخينيين لا أذرع لهم ولا سيقان، وأصابعهم غشائية كأرجل الأوز. ويقال إن نظرتهم براقة، وحواجبهم سوداء[٤]. وإذا كانت سمتا النظرة والحواجب تحيلان بداهةً إلى القوة السحرية للتيلخينيين، فإن سمتي الأذرع والسيقان بتكاملهما ترسمان صورة حيوانية تشهد في وضوح على قدرة التيلخينيين على التحور - وبعبارة أدق تشهد على الأشكال الأخيرة التي ذكرها سويتونيوس : الأسماك والثعابين. وعبارة «كائنات مجردة من الأذرع والسيقان» ácheires kai ápodes كانت تعني بالنسبة لعلماء الطبيعة القدامى سمة مميزة للأسماك، هذه الحيوانات التي جسمها جذع ممتد من الرأس إلى الذيل[٥]. ولكن الكائنات السمكية الشكل لها كذلك بين أصابعها غشاء «مثل الأوز»؛ فأصابعها الغشائية إذن مركبة مباشرة على جذعها. وهناك حيوان واحد يطابق هذا الوصف تماماً، وهو : عجل البحر le phoque هذا الحيوان الثديي السمكي الشكل ذو القدمين القصيرتين اللتين تتخذان شكل الزعنفتين بكل منهم خمس أصابع محاطة بالجلد. والسمات السلوكية لعجل البحر، ومكانه في سلم الحيوانات، وميزاته المكرسة، كلها عناصر تؤكد التطابق الذي نقترحه، وكلها أوجه تسمح بتحديد التيلخينيين سواء في دورهم من حيث هم قوى إلهية أولانية، أو في وظيفتهم من حيث هم معدّنون.

وعجول البحر ثدييات برمائية من ذوات الأقدام الزعنفية، متكيفة أوضح التكيف مع الحياة المائية البحرية، شكل جسمها مغزلي، ورأسها أقرب إلى التفرطح، وجوارحها الأمامية قصيرة وقليلة الخلوص، والخلفية لا تتبع جسمها إلا سلبياً. وهي في أعيننا حيوانات غريبة، ولكنها في الزمن الأنتيكي كانت على العكس تكوّن أمة كبيرة منتشرة انتشاراً واسعاً في البحرالمتوسط وفي بحر إيجه. والشواهد متاحة: منذ ما كتبه سترابون Strabon وديودوروس Diodores وأجاثارخيديس Agatharchides عن جُزُر عجول البحر، وكثرة هذه الثدييات في البحر الأحمر - إلى الأساطير العديدة التي تدور حول عجل البحر، سواء في الملحمة الهوميروسية أو في مجموعة «الكورانيديات». ويتفق الملاحون والمتخصصون في الملاحة في العصور القديمة على أن اختفاء عجول البحر من البحر المتوسط حدث في وقت ليس ببعيد: ففي بداية القرن ‹العشرين› كانت هذه الحيوانات البرمائية لا تزال تشتّي ناحية رأس فيجالو Fégalo ، وظل بعضها حتى هذه السنوات الأخيرة يلم بسواحل الجزر المهجورة فتفاجئه السفن العابرة[٦].

في التراث الإغريقي ينتظم نموذج عجل البحر حول سمتين جوهريتين في تصرف هذا الحيوان: وضعه البرمائي وطبيعته بالأرجل الزعنفية. وبعبارة أخرى طريقة حياته، وخصائصه المورفولوجية، وهذان وجهان من عجل البحر متضافران تضافراً وثيقاً، كما يبين مقارنة نصي أرسطوطاليس. في كتابه تاريخ الحيوان يصف أرسطوطاليس عجل البحر على اعتبار أنه حيوان برمائي: «فهو من ناحية لا يستنشق الماء، بل يتنفس، وينام ويضع صغاره على البر، ولكنه يظل قريباً من الشاطئ، وكأنما هو يدخل في عداد الحيوانات المزودة بالأرجل، وهو من ناحية ثانية يقضي أغلب وقته في البحر، يحصل منه على طعامه، ومن هنا وجب أن نسلكه في عداد الحيوانات البحرية.» (٧) فعجل البحر مقسم بين البر والبحر، يفضل البقاء على البر، على تلك الشريحة من الأرض المطلة على البحر، وهو لا يمكنه أن يعيش هذا الأسلوب المزدوج من الحياة إلا عن طريق الإفادة من الميزات المورفولوجية التي تمكنه من الانتماء إلى نوع الأسماك وإلى نوع الحيوانات البرية في وقت واحد. وهذه هي النقطة التي يشدد عليها أرسطوطاليس في مقاله عن أجزاء الحيوان: «إذا نحن اعتبرنا عجول البحر من الحيوانات المائية، وجدنا أن لها أرجلاً؛ وإذا نحن ألحقناها بالجنس البري، وجدنا لها زعانف، لأن أرجلها الخلفية تشبه زعانف السمك تماماً.» (٨).

هذا الأسلوب المزدوج الذي تتخذه عجول البحر في حياتها تحدده موروثات مختلفة بدقة. نجد أولاً القصص التي توالت من أرسطوطاليس إلى إليانوس Elianos والتي تدور حول تعليم عجل البحر الصغير (٩). هكذا يحكي پلوتارخوس كيف يجري تعليم صغار عجول البحر الحياة البرمائية: «عجول البحر تضع صغارها على اليابسة؛ وتقوم شيئاً فشيئاً باقتيادها إلى البحر، وجعلها تتذوقه، ثم تعود أدراجها بعد ذلك. وتكرر هذا الإجراء عدة مرات إلى أن تعوّد الصغار وتقوي جرأتهم وتصل بهم إلى حيث يحبون البقاء في البحر. (١٠) هذا الذهاب والإياب بين اليابس والرطب، هذا التنقل الدائم بين الأرض والبحر يترجم الطبيعة البرمائية لحيوان هو في وقت واحد بري وبحري. وهو يكتشف واحدة من الوظائف العظمى لعجل البحر في الموروث الإغريقي: ألا وهي تحقيق الوساطة بين اليابس والرطب، وربط العنصر البحري والعنصر الأرضي جميعاً. منذ فصل پروتيوس في «الأوديسا»(١١)، تعتبر عجول البحر بالنسبة إلى الإغريق حيوانات طلعت من أعماق الغياهب البحرية وتمددت في تجويف المغارات على طول الشواطئ: فهي تمثل نوعاً من التفضيل للسان البر المبْتَل الذي يضم اليابس والرطب. على ساحل البحر parà rhegmini thalásses راحت عجول البحر التي تنتمي إلى شيخ البحر تتمدد لتنام(١٢)؛ وعلى الشاطئ epi rhegmini póntou أتت پساماثي Psamathe،

أخت ثيتيس، لتضع ابنا اسمه فوكوس Phôkos أي عجل البحر بعد أن اتخذت هي نفسها هذه الهيئة الحيوانية، هيئة عجل البحر، لتفلت من ضمة أياكوس Aeakus [١٣]. وعجول البحر البرمائية ذوات الأرجل الزعنفية لا تعشش فقط على السواحل في المغارات البحرية، بل هي تختار أيضاً الصخور التي يضربها الموج، تلك الصخور التي يسميها الإغريق سپيلاديس spiládes. وهذا التعبير هو الذي استخدمته هيرا في إشارتها إلى المكان الذي وضعت فيه ليتو Leto الطفل الذي لم ترض أية أرض باستقباله خوفاً من غضب هيرا: ولدته هيرا «في الموضع الذي تضع فيه عجول البحر صغارها، على الصخور الضائعة» [١٤]. هذا المكان هو جزيرة ديلوس، وهي جزيرة كثيرة الرياح، وصخرة يضربها البحر:بل إنها في التصوير الميثي أرض بغير جذور، جزيرة طافية [١٥]. كانت جزيرة ديلوس Délos في تصورهم تهيم فوق البحر، تعوم على هوى التيار، تدفعها ريح نوتوس Nôtos ‹الجنوبية›، أو ريح أويروس Eu-ros ‹الشرقية›. وعلى عكس الأرض، وهي الربة جايا «ذات الجُنوب العراض» التي ثبتت جذورها في الأعماق متيحة للبشر مقاماً صلباً لا يرتج، نجد الجزيرة الطافية قطعة من الأرض نصفها غارق في الماء يخضع لحركة مزدوجة ، أفقية ورأسية : فهي تارة ترتج من أثر الموج من الشمال إلى اليمين، ثم من اليمين إلى الشمال، وتارة تطفو من عمق البحار لتضيع من جديد في ضخامة البونتوس ‹البحر›. وبين الجزيرة الطافية وعجل البحر الذي يسكنها تناظر كامل: ففي الفكر الميثي كلاهما يتموقعان في منتصف الطريق بين الأرض والماء؛ وهما لا ينتميان انتماءً كاملاً لا إلى هذه ولا إلى ذاك؛ ولأنهما يربطان العنصر البحري والعنصر الأرضي سواء بسواء، فإنهما كلاهما يتوليان الوساطة بين العنصر والآخر.

ونموذج عجل البحر، هذا الكائن البرمائي، المزود بوضع مزدوج أعمق الازدواج، نموذج حيواني يخضع لتوجُّهٍ مزدوج ومتفارق: تجاه الأرض والبشر الذين يسكنونها، وتجاه البحر والقوى المعادية للإنسان. ولدينا سلسلة مزدوجة من الموروثات تناولت على نحو متواتر وجهتي أسلوب حياة عجل البحر وهي تؤكد هذا الاختلاف في السلوك لدي حيوان واحد: بعضها يشدد على التوافقات بين عجل البحر والجنس البشري، وبعضها تشدد على قوته المتمثلة في «عينه الشريرة».

وإذا كان عجل البحر يبدو مقطوعاً عن العالم البشري نتيجة لحالته الحيوانية ونتيجة لطبيعته المائية في آن واحد، فإن عجل البحر يرتبط بهذا العالم البشري بعلائق عديدة: بخصوصيات فسيولوجية معينة أبرزها علماء الطبيعة؛ وبشغفه بالحياة في القاع على الأرض

اليابسة التي يختلف إليها الصيادون؛ وأخيراً بشبهٍ مثير معين بالأسلوب البشري الذي وجد صداه في تراث فولكلوري طويل. وفي كتابه «تاريخ الحيوان» ‹ترجمه يوحنا البطريق إلى العربية بعنوان «طبائع الحيوان»› يبين أرسطوطاليس التوافقات بين عجول البحر وذوات الأربع، وعجول البحر مثلها تلد وترضع صغارها، ويشدد أرسطوطاليس مراراً على ما بين عجول البحر - هذه الثدييات البرمائية - وبين البشر من تشابه: فعجول البحر من ناحية تلد في أي وقت من العام «مثل البشر»؛ ويقول من ناحية ثانية إن أنثى عجل البحر إذا كانت أعضاؤها التناسلية تشبه ‹سمكة› الجِلأخ ‹بالإغريقية batos بالفرنسية truie›، فهي فيما عدا ذلك «تشبه المرأة».وينبغي أن نقرب من ملاحظات علماء الطبيعة هذه، الموروثات التي خلفها الجغرافيون عن علاقات التقارب التي يقيمها البشر من أهل السواحل بينهم وبين عجول البحر. فهذا هو أجاثارخيد في وصفه لجزيرة الفوقي ‹عجول البحر› الواقعة عند طرف البحر الأحمر، على طول ساحل الإخثيوفاجيس Ichthyophages ‹=أكلة الأسماك›، يحكي في إعجاب عن علاقات حسن الجوار التي تقوم بين هذه البقاع: «يبدو أن نوعاً من السلام الأبدي قد انعقدت أواصره بين البشر وعجول البحر. فالبشر لا يلحقون أبداً ضرراً بعجول البحر، وعجول البحر من جانبها تمتنع عن كل ما يؤذي البشر. وكل جنس منهما يحترم أرض الآخر، والجنسان جميعاً يعيشان في وفاق لا يلحظه الإنسان إلا نادراً بين جماعات البشر المتجاورة»[١٧].

في هذ السياق نفسه ينبغي علينا أن نضع الحكاية الطريفة التي أوردها إليانوس El-ianos عن الغراميات بين عجلة من عجول البحر وصائد الإسفنج: «عشقت عجلة من عجول البحر ذات يوم رجلاً يجمع الإسفنج، فخرجت من البحر، وضاجعت الرجل في مغارة بحرية. وكان هذا الصياد أشد الرجال قبحاً؛ ولكنه كان في عيني عجلة البحر يجلوه أندر جمال في الوجود» [١٨].

هكذا نجد عجل البحر وهو اللصيق بعالم البشر بسمة من سمات أسلوب حياته، يستطيع أيضاً بتكوينه المورفولوجي أن يقدم سمات شَبَهٍ أكثر دقة بالجنس البشري. في مجموعة «الكورانيديات» نجد علاماته الفارقة مسجلة على النحو التالي: «عجل البحر حيوان جميل جداً، له أيد بشرية الخ [١٩]». ويتفق مع هذا الوصف ما لاحظه أرسطوطاليس: «رجلاه الأماميتان تشبهان اليدين [٢٠]» .وعندما نصل إلى القرن السابع عشر نجد الرحالة الفرنسي تيڤينو Thévenot عند مروره بساحل سينا في مواجهة جزر عجول البحر القديمة ينشغل بنوع

معين من السمك يسميه أهل المنطقة الإنسان البحري. «هذا السمك طويل وجسيم، وليس له من شيء خارج المألوف إلا يدان هما فعلاً مثل أيدي الإنسان مع فارق هو أن الأصابع ملتصقة معاً بغشاء مثل رجل الأوزة، وجلد هذا السمك يشبه جلد الشاموا» (٢١). لن نتوقف في هذا الوصف الذي نشر في باريس في عام ١٦٦٤ فقط عند الإشارة إلى الأيدي البشرية التي تحدثت عنها «الكورانيديات» وعند كلمات المقارنة التي ساقها سويتونيوس في ملاحظته على التلخينيين - «أصابعهم ملتصقة بغشاء مثل الأوز»، بل نوقف كذلك عن اسم «الرجل البحري» الذي يطلقه أهل المنطقة على هذ السمك. والرجل البحري وعجل البحر نوعان يذكرهما پلينيوس القديم Plinius secunsus <في كتابه Naturalis Historia> أحدهما بجانب الآخر في قائمة الوحوش البحرية التي وضعها (٢٢). جنسان يمكن للكاتب المشتغل بالحيوان أن يذكر المزيد من أوجه القرابة بينهما. جنسان بدأ التنويه بالتوافقات بينهما في الفصل الذي يدور حول مينيلاوس وشيخ البحر في الأوديسا. والحق أن پروتيوس إذا كان انخدع بمظهر عجل البحر الذي اتخذه مينيلاوس ورفاقه عندما لبسا الجلود التي سلخت لتوها عن هذه الوحوش البحرية، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى أن الفرق بين الإنسان وبين عجل البحر من السهل تجاوزه. والشبه الذي يمكن أن يقوم بين عجل البحر وبين الإنسان شبه كبير يزيد من حجمه أن عجل البحر الذي يقيم في البحار يحمل في ذاته سرائر مظهر بشري (٢٣).

وإذا كان عجل البحر يرد في جانب من الموروثات حيواناً محباً للبشر يعيش على حاشية البشرية، فإنه يرد أيضاً في جانب آخر منها حيواناً كارهاً للناس، يعيش بعيداً عنهم في أعماق البحر، وينخرط في سلك الحيوانات النجسة والشريرة (٢٤). وعندما يبرز هذا الوحش من أعماق البحر السحيقة فإنه يبدو كأنما أتى من وراء الكون: فهو يحمل على بدنه رائحة نفاذة، هي رائحة الغياهب؛ وهو يبعث رائحة موت لا يمكن أن تغلبها وأن تطردها إلا الأمبروسيا ambrosia ، رائحة حياة الخالدين (٢٥). وعجل البحر بما له من سمات خثونية <أرضية> جهنمية تضفي على خصائصه الفسيولوجية لوناً من الشر، يتخذ هيئة عدو الجنس البشري. ويحكون عنه أنه إذا أوشك على الوقوع في الأسر يتقيأ منفحته ويتخلص من مَنيه. وهو يفعل ذلك ليحرم الناس من مواد عظيمة القيمة: فمنفحته تشفي الصرع، ومنيه يشفي الضعف الجنسي (٢٦). وعندما يذكر إليانوس في كتابه «تاريخ الحيوان» هاتين الفعلتين اللتين يأتيهما عجل البحر، يضيف الملحوظة التالية : «نعم، هذا الحيوان له، بتدبير من زيوس، عين شريرة báskanos» (٢٧) وهذا الدور الذي أنيط بعجل البحر لا يخلو من الخلط: فازدواجية صفة النظرة، تضم إحداث الشر والوقاية منه، هكذا توصف نظرته بأنها شريرة báskanos

ولكنها تجمع في ذاتها بين إحداث الشر بمجرد التطلع ، وبين الوقاية baskánion واتقاء النظرة الشريرة، وقد أدى هذا إلى أن عجل البحر أو أي جزء منه مهما صغر استخدم حجاباً له فعالية أكيدة تتناسب مع عظم قوة الشر في نظرته. ونحن نجد في تصنيفات پلوتارخوس و«الكورانيديات» و«جيوپونيكا Geoponica» قائمة كاملة بأجزاء عجل البحر المختلفة التي يمكن أن تستخدم أحجبة وطلاسم (٢٨): فقلب عجل البحر عندما يثبت فوق الصاري، يقي السفينة من كل خطر؛ وشَعر أنفه الصلب يحقق النجاح أروع النجاح؛ وأظافر أصابعه تقي من كل سحر، وتشفي من كل مرض، وتبعد كل عمل شرير. وإلى جانب هذه الميزات التي يشارك فيها عجل البحر عدداً كبيراً من الحيوانات الأخرى، فهو مشهور بأنه يتنبأ بالظواهر الجوية ويصرفها، مثل الرعد والبرَد والعاصفة. والرأي عند پلوتارخوس أن جلد عجل البحر لا تصيبه الصواعق أبداً؛ ونقرأ في «الكورانيديات» أن الإنسان إذا سمّر جلد عجل بحر إلى مؤخر سفينة فلن تصيبها صاعقة أبداً؛ وفي مجموعة «الكورانيديات» نفسها نقرأ أن جلد عجل البحر يصرف الرعد والأخطار والشياطين. ونجد في «جيوپونيكا» في ثلاثة مواضع أن جلد عجل البحر أكثر الوسائل فعالية لحماية الكروم وحقول القمح والأراضي المزروعة من أضرار البرَد.

وعجل البحر غامض غموضاً ازدواجياً مضاعفاً: في مسلكه المزدوج، في «ازدواجيته» حيال البشر؛ في أسلوب حياته، أحياناً بري، وأحياناً بحري. وينبغي أن نضيف إلى هذين النمطين من الغموض الازدواجي نمطاً ثالثاً: الافتقار إلى اليقين بشأن حيوان يدخل في أن واحد في عداد السمك وفي عداد ذوات الأربع. هذا الشكل الثالث من الغموض الازدواجي تظهر سماته في مسلك عجول البحر العجيب، كما تظهر في أطرافها العجيبة. أما أن مسلكها عجيب، فلأنها وهي حيوانات مائية، كما لاحظ أرسطوطاليس، لها أرجل، ومن حيث هي ماشية من ذوات الأربع أطرافها زعانف. وعجل البحر لا يمشي، بل يبدو عليه أنه يزحف، فهو يسير إلى الأمام منزلقاً، ويتقدم متموجاً، بحركة كأنها ثعبانية، فهو يضع أطرافه الأمامية على جنبيه ويحدث بجسمه انقباضات وانتفاضات متكررة. ولم يتخلف علماء الطبيعة القدامى عن ملاحظة وتسجيل المسلك الخصيص العجيب الذي تسلكه عجول البحر في استخدام زعانفها، هذه «الزعانف التي تخدمها في البحر ‹للعوم› تقوم منها مقام الأرجل على الأرض فتزحف بها»، هذا ما دوّنه پلينيوس القديم (٢٩)؛ أما أرسطوطاليس فيسجل أن «عجل البحر ينزلق على المنحدرات بدلاً من أن يمشي، نظراً لعجزه عن الاعتماد على قدميه (٣٠)». في فصل من كتاب «تاريخ الحيوان» خصصه أرسطوطاليس لأساليب الحياة المختلفة، نجده بعد

أن يذكر أن من بين الحيوانات الأرضية، حيوانات تطير، وأخرى تتحرك على الأرض، ومن بين تلك التي تتحرك على الأرض ما يمشي، ومن بينها ما يزحف، وما يتحرك بتموجات، ينتقل إلى ملاحظة أن بعض الطيور «أرجلها ضعيفة» kakópodes وأنها لذلك تسمى «كسيحة» ápodes. وعندما يصل في عرضه إلى هذه النقطة يضيف ملحوظة عن عجل البحر: «كذلك عجل البحر له أرجل ضامرة ā kekolobooménoi pódes» (٣١).
والفعل koloboûsthai المستخدم للتعبير عن ضمور الأرجل هو نفس الفعل الذي استخدمه أرسطوطاليس في نفس الكتاب لتحديد شكل الأسماك: «ليس لها سيقان، ولا أذرع، ولا أجنحة؛ كل جسمها عبارة عن جذع ممتد من الرأس إلى الذيل؛ وأجزاؤها الخارجية ضامرة kek-olóbotai» (٣٢). وعجل البحر مضمر في أجزائه الخارجية «فعجل البحر هو أشبه ما يكون بذي أربع ضامر hósper peperoménon... tetrápoun» أطرافه وُصفت بعناية بهذه الكلمات في كتاب «تاريخ الحيوان»: «بعد لوح الكتف مباشرة نجد الرجلين الأماميتين مثبتتين، شبيهتين بيدين، مثل يدي الدب، فلكل منهما خمس أصابع، ولكل أصبع ثلاث سلاميات treis kampás، وظفر ضئيل. والقدمان الخلفيتان لها خمس أصابع ولها سلاميات وأظافر، كلها تشبه ما يناظرها في الأماميتين، والقدمان الخلفيتان قريبتا الشبه شكلاً بذيل الأسماك» (٣٣). في هذا الوصف، وفي النصوص الوصفية السابقة، يقع التركيز في المقام الأول على نواحي الغموض الازدواجي في عجل البحر؛ فهو تارة من ذوي الأربع، وتارة أخرى من الأسماك؛ تارة له قدمان ويدان، وتارة بلا ذراعين وساقين. حالات من عدم اليقين في استخدام المفردات تترجم بأمانة الغموض الازدواجي الذي يحيط بحيوان يتردد بلا نهاية بين وضع السمك ووضع ذي الأربع المزود بأقدام وأرجل مثل الحيوانات الماشية على الأرض، والمحروم في نفس الوقت من الذراعين والساقين شأنه شأن الحيوانات البحرية. ونجد في المقام الثاني أن نفس الوصف يبين بوضوح شديد أن الغموض الازدواجي حيال نوع الحياة الذي خُص به عجل البحر يجد التعبير الكامل كل الكمال عنه في مورفولوجيا الأطراف الذي يميز الأقدام الزعنفية البرمائية. هذه الأعضاء المتعددة المرافق، هل هي أيد، أم أرجل، أم زعانف؟ هذا لغز يظل دائماً مفتوحاً: أتكون هذه الأرجل زعانف، وهذه الزعانف أيد؟ هل هو ذو أربع له زعانف، هل هو سمك له أيد، هل هو نوع من البشر بلا ذراعين وبلا ساقين، أو إنسانسمك، أو سمك من ذوات الأربع، كل هذه التعريفات الممكنة التي يوحي بها كلام أرسطوطاليس تبين بما فيه الكفاية أن صورة عجل البحر تتأرجح بين ثلاثة حدود: سمك - ذو أربع - إنسان يضفي جهده على نموذجه الحيواني رسماً وتصويراً لا نظير لهما. والسمة الثالثة التي يتسم بها وصف

أرسطوطاليس أطراف عجل البحر هي الأهمية التي يخص بها أرسطوطاليس مفهوم الالتواء: فكل اصبع من أصابع الرِّجْلين الأماميتين ومن أصابع الرجلين الخلفيتين، لها ثلاث سلاميات ‹تمكنها من التلوي›؛ وشكلها يوحي بمظهر ذيل السمك الملتوي . فعجل البحر بناء على هذه أو تلك الخاصية من خاصيات أطرافه كائن ملتو؛ وهذه السمة الجوهرية لشكله العام تؤكدها حركته العرجاء، وزحفه المتعوج إلى أمام، ومسيرته الملتوية.

وفي الوصف الكامل إلى حد بعيد الذي نقله إلينا سويتونيوس نجد التلخينيين – وقد أوتوا القدرة على التحور المتعدد – لم يخضعوا للتحور إلى شكل حيواني واحد: فهم تارة يشبهون الشياطين، وتارة يشبهون البشر، وتارة يشبهون السمك. فهيئة الحيوان البرمائي ذي الأرجل الزعنفية التي يمكن أن يتخذها التيلخينيون ليست الهيئة السمكية الوحيدة التي كان يمكن أن يتحور إليها هؤلاء الحدادون البحريون. فإذا جاز اعتبار عجل البحر بمثابة شكل متميز للتيلخينيين، فإنما يرجع السبب في ذلك إلى أن هذا النموذج الحيواني كان يتيح لهؤلاء الحدّادين المُعَدِّنين البحريين فرصة الكشف عن السمات الجوهرية لشخصيتهم الميثية. والحق أن هناك ألواناً من التشابه المنصبة على نقاط جوهرية بين نموذج العجل البحري في الفكر الإغريقي وبين تصوير التلخينيين في الميثات (٣٤). فالتلخينيون مثل عجول البحر يترددون بين وضعين، وضع البشر ووضع السمك: فمن حيث هم أول سكان جزيرة رودس ‹أصلهم من البحر›، بزغوا من البحر، ‹وسينتهون إليه عندما› يلقي بهم إلى البحر أبناءُ الشمس. وبعبارة أكثر دقة نقول إن دورهم في الموروثات الميثية الرودسية يجعلهم وسطاء بين البحر والأرض، كقوى غيبية لا تنفصل مهمتها كلها عن تصوير رودس في صورة جزيرة طافية، صورة أرض نصفها يختلط بماء البحر. ونخلص أخيراً من الموروثات الميثية الرودسية إلى أن التلخينيين الحدّادين المُعَدِّنين بما هم أول بشر نزلوا رودس، يعتبرون كائنات تحمل العين الشريرة: فنظرتهم تفسد كل شيء، وهم صناع سموم من مزيج من الجذور النباتية، وهم ينشرون في الأرض ماء ستوكس الذي يصيب الأرض بالجفاف، وهم يجتذبون البرَد والثلوج والعاصفة إلى حيث يرومون، فهم يمارسون على الظواهر الجوية نفس السلطة التي اعترف بها التراث لعجول البحر.

من هذه المقارنة السريعة يمكننا أن نستخلص نتيجة مفادها أن النموذج الميثي لمُعدِّني رودس يجمع كل السمات المفهومية التي بدت لنا ضرورية في تعريف عجل البحر. ومع ذلك فهذه النتيجة تتطلب تحفظاً مزدوجاً: إذا كان النموذج الحيواني للحيوان البرمائي ذي الأرجل الزعنفية يلقي الضوء على التيلخينيين بسماتهم كشياطين بحرية وكائنات أولانية، فإنه لا

يبدو عليه أنه يقدم صلات دقيقة جداً بالوظيفة التعدينية لنفس هذه القوى الغيبية. أضف إلى هذا أن سمة مهمة لنموذج عجل البحر، هي الطبيعة الغريبة لأطرافه، لا يبدو أنها تجد لها مقابلاً في تصوير التيلخينيين. والحق أن هاتين النقطتين لا تنفصلان الواحدة عن الأخرى، ولا بد من أن يجري تحليلهما مواجهةً. فالسمة الأخيرة للنموذج الحيواني هي بالفعل التي تحيط تشابكياً وبأكثر إصابة بصفة الحدادين التي يتصفون بها.

وللوصول إلى استجلاء هذه العلاقة بين الأطراف الغامضة الازدواجية لعجل البحر وبين نشاط التيلخينيين التعديني، ينبغي أن نلجأ لطريق التقافي يفرض نفسه، هو نموذج حيواني أخر يجمع في عناصره التكوينية توافقات صريحة بين مورفولوجية أطرافه ونشاط الحداد التقني. هذا النموذج الحيواني الآخر الذي يتميز في آن واحد بغرابة أطرافه وباشتراكه مع المعدِّن، هو الكابوريا ‹السرطان البحري› karkinos، الوحش البحري الذي يشترك مع الكابيري Kabiri ومع هيفايستوس جميعاً اشتراك تواطؤ. وهناك تفسير لغوي كتبه هيسوخيوس يقرر فيه بالفعل التساوي التالي: «ما الكابيري Kabiri إلا كابوريات kar-kinoi، وهي حيوانات يعظمونها في ليمنوس Lemnos تعظيماً خاصاً، حيث يعتبرونها ألهة. ويزعمون كذلك أنها أبناء هيفايستوس (٣٥)». والكابيري قوى غيبية بحرية لها وظيفة تعدينية - ولدت من اتحاد هيفايستوس وكابيرو Kabeirô، ابنة پروتيوس Proteus ملك عجول البحر - الكابيري يشخصونها على أنها الحيوان الذي يضم على نحو وثيق جداً البحر والتعدين: وكاركينوس karkinos وهو اسم الكابوريا بالإغريقية، يعني كذلك كماشة الحداد(٣٦). وهكذا تبدو صورة هذا الحيوان القشري البحري، في نظر الإغريق، لا تنفصل عن صورة الآلة التي تطيل يدي الحداد وتسمح له بأن يعالج المعدن الذي يسخن إلى التوهج.

والكابوريا - مثله مثل عجل البحر - حيوان برمائي: «وهو يقضي حياته قرب اليابسة؛ ويتنقل فوق الأرض؛ ويعشش في جحور(٣٧)». ولكنه على عكس عجل البحر لم يكن يُنظر إليه غالباً كوسيط بين الماء والأرض. وتتمركز أصالته في مجال آخر، هو مجال أطرافه، وطريقة مشيه، وفي شكل أرجله، وشكل كلاباته. ولدينا مثلاً وصف الكابوريا ذي الذيل الصلب págouros: «وحش له سيقان ملتوية rhaiboskele، وكلابتان dichalon ، يدفن نفسه تحت الرمل ammoduétan، يمشي القهقرى opisthobámon... وهو عوّام يستخدم ثماني أرجل oktápoun néktan (٣٨)». الكابوريا إذن وحش له سيقان ملتوية، يرد في تراث كامل حيواناً لا يمشي مستقيماً إلى أمام، بل يمشي بالورب، ويتقدم في اتجاه مائل katà

diámetron. يقول أرسطوطاليس إن كل الحيوانات تتحرك بنفس الطريقة؛ فهي تتقدم بالورب، سواء كان لها أربع أرجل أو أكثر، فتضع على التوالي الرجل الأمامية اليمنى على الأرض، ثم الخلفية اليسرى، وهكذا دواليك. كل الحيوانات لها رجلان قائدتان، كل الحيوانات باستثناء الكابوريا فله أربع أرجل قائدة [٣٩] وهو يمشي منحرفاً إلى جانب eis tò plágion[٤٠]. والمثل السائر الإغريقي يطابق وصف العالم الطبيعي :«إنك لن تجعل الكابوريا يسير مستقيماً أبداً» [٤١]. وتثير مشية هذا الحيوان المتعدد الأرجل القلق الذي يزيده أن هذه الأرجل معوجة وأن له من أمام درقَته كلابتين هائلتين. والأطراف الأمامية والخلفية عند الكابوريا متميزة بعضها عن البعض تميزاً واضحاً، على عكس عجل البحر. والكلابتان تمكنانه من المسك مسكاً مخيفاً، أما الأرجل فتتيح له التنقل على الأرض. فأطراف الكابوريا متنوعة في وظائفها، وهي تتعارض فيما بينها على نحو آخر، تتعارض من حيث توجهاتها. «فكلابتا الكابوريا لا تستخدمان في المشي، بل في القبض والمسك كما قد تفعل الأيدي؛ ولهذا السبب تنثني هاتان الكلابتان في عكس اتجاه الأرجل، فالأرجل تنثني إلى الداخل، والكلابتان إلى الخارج-toùs mèn...epi tò koilon, toùs d'epi tò peripherès kámptousi kai he-lissousi [٤٢]. الكابوريا وقد أوتي القدرة على المشية المواربة التي تضم اتجاهين ، الأمام والخلف، يحدث في بنيته المورفولوجية تركيباً مزدوجاً للأضداد. فأرجل الكابوريا بدلاً من أن تكون متجهة قليلاً إلى الخارج، تتجه إلى الداخل، والرجل اليسرى تلتوي إلى اليمين، واليمنى إلى اليسار. ويضاف إلى هذا الالتواء المزدوج في الأعضاء السفلى، وهو التواء يحيط بالاتجاهين المتضادين جميعاً، توجه مزدوج في نموذج متناسق يحيط بالكلابتين اللتين تعيد حركتهما في الاتجاه العكسي حركة الأعضاء السفلى. فالنموذج الحيواني للكابوريا يحقق في أطرافه وفي مشيته تجميع كل الاتجاهات: الأمام والخلف، اليمين واليسار.

سيقان معوجة، مشية مواربة، اتجاه مزدوج ومتفارق - كل هذه السمات التي لاح لنا أنها تميز الكابوريا تذكر على نحو مُلح بأشهرالحدادين الإغريق، هيفايستوس، الإله الداهية [٤٣] الذي يشبهونه بالكابوريا تحديداً في جزيرة ليمنوس. ولنا أن نلاحظ من خلال التراث الأدبي أن المظهر الفيزيقي لهيفايستوس. الرب الحدّاد المُعَدّن، يتحدد بثلاثة نعوت : كوللوس kullós =<معوج> (في الكلمة المركبة <ذو الساق المعوجة> kullopodion) و cholós وamphiguéeis . وهذه النعوت الثلاثة جميعها تنعت أطراف الحداد، النعت الأول يدل تضامنياً عل الشكل المنحني، والنعت الثانيcholós يدل على الطبيعة المبتورة، والثالث am-phiguéeis يدل على التوجه المزدوج إلى اتجاهين متعارضين. وذو الساقين المعوجتين -Kul

lopodion هو هيفايستوس برجليه الملويتين وأطرافة المعقوفة [٤٤]. في المفردات الطبية كلمة kullós التي تعني مقوس تضاد كلمة blaisós التي تعني منبعج ، مثل الالتواء إلى الخارج ويقابله الالتواء إلى الداخل [٤٥]. ولكن فيما وراء هذا التخصص في لغة الأطباء، فكلمة kullós تعني القدم الملوية كما تعني اليد الملوية، وكما تعني الكف الملوية المقعرة التي كانت تذكّر الإغريق بكلابة الكابوريا [٤٦]. وعبارة Karkinoûn toùs daktúlous تعني تقويس الأصابع، وعقفها للداخل، اصطناع يد الكابوريا -كما كانوا يقولون [٤٧]. وهيفايستوس بما له من أطراف معوجة، يوصف بأنه مشوه خولوس cholós. وكلمة خولوس cholós عندما تستخدم وحدها تدل على كائن حي، مبتور، مقطع الأطراف، مشوه. أما اذا استخدم نفس النعت مع héteron póda فإن المعنى يكون "أعرج" [٤٨]، ومع tè cheira يكون المعنى "أكتع"[٤٩] . وكما أن هيفايستوس ليس معوج الساقين بالمعنى الخصيص للكلمة، فهو كذلك ليس أعرج: إنه مبتور الساقين [٥٠] أو هو مبتور الأطراف السفلية [٥١]. اعوجاج الأطراف وبترها، سمتان لهيفايستوس نكاد نجدهما في النعت الثالث الذي ينعت به الإله am-phiguéeis. وتعني الكلمة عند هـ. فوس H. Vos : «معوج الساقين» أما ل. ديروا L.Deroy فيحللها بما يعني: «من له موهبة الاتجاه المزدوج المتفارق» [٥٢]. هذا النعت الهوميروسي يترجم على أدق وجه الخصوصيات المورفولوجية التي يختص بها هيفايستوس امتيازاً في التصويرات الخزفية التي ترجع إلى العصر العتيق، الأرخائي. فعلى عدد من الزهريات الخزفية - التي بينت ماري ديلكور Marie Delcourt أهميتها بالنسبة إلى تحليل هيفايستوس [٥٣] - نجد تشوه الحداد يصور بأشكال مختلفة يمكن تصنيفها إلى نموذجين متكاملين: من ناحية نموذج يبين أطرافه المنحنية، وقدمية المعوجتين، وساقيه الملتويتين؛ من ناحية أخرى نموذج التوجه المزدوج الذي تبينه إما قدمه اليسرى تتجه إلى الأمام، بينما قدمه اليمنى تلتوي إلى الوراء؛ أو يبينه وضع القدمين كعباً إلى كعب، إحداهما تتجه إلى اليسار والأخرى إلى اليمين [٥٤]؛ أو يبينه التضاد بين الرأس المتجه إلى أمام والقدمين المتجهتين إلى الخلف.

وسواء كان هيفايستوس الحداد الميثي ذا توجه مزدوج أو كان ذي ساقين ملتويتين، فهو دائماً كائن ذو مسلك غامض مزدوج وأطراف غريبة. هذه السمة الأساسية للمعدّن التي يكشفها على مستويات مجاورة النموذجان الحيوانيان اللذان لاحا لنا متضافرين تضافراً وثيقاً في التصوير الميثي للحداد، وهما: السرطان وعجل البحر- السرطان في ليمنوس متصلاً بالكابيري وعجل البحر في رودس متصلاً بالتيلخينيين [٥٥]. وهكذا عن طريق

الالتفاف والاستعانة بالتناظر بين النموذجين الحيوانيين، نجد السمة الأخيرة لعجل البحر التي لاحت كأنها لا تجد مقابلاً في ميثوس التيلخينيين تخذ معناها كاملاً: هذه المشية المعوجة وهذه الأطراف الملتوية لرفاق شيخ البحر تدل تضافرياً على شيء هو الوظيفة التعدينية لهذه القوى الغيبية المحيِّرة. وعجل البحر بمضيتة الملتوية يأتي مثل الكابوريا ذي المشية المواربة ليوضح سمة أساسية للحداد: صفة الغموض الازدواجي التي تتصف بها الأطراف والتي هي العلامة الدالة على إله مثل هيفايستوس الذي يظهر دهاؤه الميتيسي، وأفكاره العليمة وذكاؤه المبدع هكذا على المستوى التصويري بالشكل الغريب الفريد المفروض على قدميه. ولم يكن السبب في إصابة هيفايستوس بالعجز والتشوه - كما اقترح البعض (٥٦)- هو أنه تعلم السحر. فالعالَم الإغريقي لا يبدو عليه أن أخذ بمثل التشويهات البترية التي يصاب بها السحرة في بعض المجتمعات الأسترالية أو الجرمانية، وإذا صح أن الأمازونات (٥٧) تشوه أبناءها الذكور بأن تحطم ركبهم أو حراقفهم، فإنهن يفعلن ذلك لمنعهم من تدبير شيء ماكر ضد نسائهم وليُكرهوا هؤلاء المشوهين على ممارسة الحرف الظاعنة فيكونوا حدادين وأساكفة، وهي - في مجتمع تمارس فيه النساء وحدهن الحرفة الحربية - حرف تدل على العبودية والعجز اللذين بقيا من نصيب الرجال.

العكس هنا هو الصحيح، فقوة هيفايستوس هي التي يبرزها امتيازه بموهبة الاتجاه المزدوج المتفارق. فمن أجل السيطرة على القوى المتحركة الرجراجة المنسابة كالنار والرياح وخام المعادن التي يقيس الحداد قدرته بناء عليها، فإن ذكاء هيفايستوس ودهاءه الميتيسي لابد أن يكونا أكثر حركة، وأكثر أشكالاً، وأن يضما في ذاتهما إلى أقصى حد من الشدة مقومات الاعوجاج والالتواء التي يحتكم عليها الكابوريا وعجل البحر، هذين الوحشين اللذين يغوصان نصفاً في العنصر البحري الذي يبدو أن التعدين لدى الإغريق عقد معه منذ القِدم علاقات عميقة بالغة العمق.

القسم الخامس

الخلاصة

الباب العاشر

الدائــرة والقيـد

في مملكة الآلهة الخاضعين لسلطة زيوس الرائقة نجد أن الدهاء الميتيسي - إن جاز لنا التعبير - أكثر الأشياء توزعاً بالعدل في الدنيا. ولا يرجع السبب في ذلك إلى أن الدهاء الميتيسي - مثله مثل البداهة التي منحت بالتساوي لكل سكان الأوليمبوس - بل يرجع إلى أن توزيع السلطات بين أفراد مجمع الآلهة البانثيون المختلفين يستتبع على نحو لا سبيل إلى تحاشيه نوعاً من تبعثر هذا الشكل من الذكاء. والدهاء الميتيسي بما هو متعدد الأشكال والتنوع يجد نفسه مطلوباً للتطبيق في مجالات المعرفة العديدة التي يختص بها الآلهة. ولكن هذا التبعثر يتوازى مع تحديد متضافر للدهاء الميتيسي الذي يجوز لكل واحد أن يحصل عليه. وإذا كان زيوس هو صاحب النصيب الأوفر منه، فليس القصد من ذلك أن يستخدمه على هواه على حساب الآخرين الذين هم بالقياس إليه أقل حظاً من الدهاء الميتيسي : فقد تغير وقت كرونوس ولم يعد من الممكن أن يأخذ أحد السيادة على الآلهة ‹من زيوس›. بل العكس هو الصحيح، لقد تدعمت سيادة زيوس بكل دهاء العالم لا لشيء إلا لأنها تحملت بعبء جعل كل القوى الإلهية الأخرى تحترم الحدود التي منحت له في تنظيم الكون. ولا يستتبع ذلك أن يكون جميع الآلهة مزودين بقليل أو بكثير من الدهاء الميتيسي. فلا ديميتير ولا بوسايدون ولا أرتيميس ولا أبوللون يشاركون فيه بنصيب، وكذلك ديونيسوس الذي يأتي من السحر والألاعيب بما لا يتصل بالدهاء الميتيسي الخالص. ولو جرى تحليل شامل لبنيات مجمع الآلهة لما وجد سبيلاً إلى إنكار هذا التقسيم الأساسي بين الآلهة أصحاب الدهاء الميتيسي، والآلهة الآخرين. ولكننا في متابعة بحثنا سنجد ما يغرينا بالاهتمام في المقام الأول بتحديد الاختلافات التي تتصل أسبابها في داخل المجموعة المكونة من الآلهة أصحاب الدهاء الميتيسي.

والواقع أنه من خلال أساليب الدهاء الميتيسي تتضح معالم الانحرافات والاختلافات بين وسائل العمل المفضلة لدى كل قوة في قلب الولاية التي يبدو على هذه القوة أو تلك أنها تحكمها بناء على نفس الحقوق التي تدعيها لنفسها القوة التي تنافسها منافسة مباشرة، سواء كان الأمر أمر المعارف التقنية بالنسبة إلى أثينة وهيفايستوس، أو كان على مستوى مختلف تماماً هو علاقات الحب بالنسبة إلى هيرميس وأفروديتي. والموروث الأورفيوسي الذي يزعم أن هيفايستوس وأثينة تلقياعلى المشاع من الكوكلوبيس الولاية على الفنون [١] لا يعني أن ولاية البعض تطابق ولاية البعض الآخر تطابقاً كاملاً، وكأنما قام ثلاثي عمال الصاعقة والرعد، في الأجيال التالية، بالنزول عن مكانه لثنائي من إلهين خبيرين بكل المعارف التقنية. في ميثات الاستيلاء على السلطة التي تشهدنا على الكوكلوبيس نجد الكوكلوبيس أساساً صناع السيادة الموكلين بتزويد زيوس بأسلحة ذات طبيعة سحرية لا تكاد تختلف عن التمكن من النار، تلك النار المرعبة والمُفلجة التي ليست قوة تقنية بقدر ما هي وسيلة خالصة للتقييد وللتمكن من الغريم [٢]، بينما نجد في جيل الأوليمپيين هيفايستوس وأثينة مسئولَيْن عن مجموع الأنشطة التقنية التي تمثلها في عالم البشر مجموعة منوعة كبيرة من أسرار الصنعة، ابتداء من التعدين والفخار، وصولاً إلى النسيج وإلى شغل الخشب، مروراً بمهارة قائد العربة وفن ربان السفينة وطريقة معينة في استخدام الأسلحة. وفي الحالات التي تجد فيها أثينة نفسها مرفوعة إلى موقع مهيمن، من حيث هي ربة «حامية للمدينة»، كما هي الحال مثلاً في احتفال الأپاتوريين Apatouries - احتفال كل من ينتمون إلى سلالة واحدة - يحدث أن يشغل هيفايستوس كل الساحة المتاحة فيتحول من سيد نار التعدين إلى مخترع نار المدنية ، نار المطبخ، ونار القربان التي ما كان يمكن أن تستقيم حياة البشر بدونها [٣]؛ ولكن القاعدة العامة كانت تتمثل في أن في كل المناسبات التي تلتقي فيها أثينة وهيفايستوس، ترتسم حدود صلاحية الواحد الفاصلة فلا تتعدى حدود صلاحية الاخر. ولقد رأينا شكيمة الحصان، وهي أداة تقنية تنتمي صناعتها بالنار إلى فن الحداد، ولكن تطبيقها على الحصان الذي خلقه پوسايدون اختصت به اليد التي تعرف فن السيطرة والتسيير المستقيم. في مجال الحصان وقيادته تتدخل سيادة أثينة من خلال الفعالية التقنية والسحرية للشكيمة التي يفرضها الفارس على ركوبته. ولكن أسلوب العمل هذا الذي هو خصيص بأثينة، لا تستطيع أثينة ممارسته إلا بالتواطؤ مع رفيقها هيفايستوس. وإذا كانت الشكيمة، الأداة المعدنية، قادرة على كبح عنف الحصان وصُرعته، فإنما يرجع ذلك إلى أنها ولدت من اللهب، ولما كانت من إنتاج النار التعدينية التي تستمد منها مقدرتها المزدوجة على التقييد بمسكة سحرية وعلى اليقظة الدائمة التي لانوم معها أبداً.

ولنقرأ مقولة پلوتارخوس: «لا شيء يشبه الكائن الحي أكثر من النار» [٤]، فهي تعبر عن بديهية بالنسبة إلى الفكر الإغريقي، بديهية تبرر توافقات هذا العنصر - النار - مع هيفايستوس ومع هيرميس جميعاً. فدهاؤهما الميتيسي يتحدد بالنسبة إلى النار وقوتها الحيوية التي يتولى كل واحد منها توجهاً نوعياً بالقياس إليها. فهيفايستوس في نشاطه من حيث هو حداد إله لا ينفصل عن النار، ولكن هذه النار التي لا ينفصل عنها هي نار تصهر الخام وتسمح بصناعة سبائك المعادن. ونار كور الحدادة من حيث وظيفتها نار لا تخمد. وهيفايستوس لا يلهو عندما يولد النار من الحك الصبور لخشبة بخشبة؛ وقوة هيفايستوس تتألق في سيطرته على المنافيخ التي تعظم عنف النار أو تخفضه. ولنجد هيفايستوس في العرين الذي ذهبت إليه ثيتيس لتبلغه بطلبها أسلحة جديدة لابنها، يبدو لنا في هيئة من قبيل سيد الرياح؛ يكفيه أن يأمر منافيخه بأن تنفخ، فإذا هي على التو : «تطلق نفثة حارة ومتنوعة pantoie في خدمة الصانع، سواء أراد التعجيل أو لم يرد، بحسب ما يطلبه هيفايستوس وبحسب تقدم شغله» [٥]. والنار، مثلها مثل الدهاء الميتيسي، كائن متنوع pantoios، فهي تستطيع أن تكتسي بكل الأشكال، سواء منها المفزعة إلى أبعد حدود الفزع، والأليفة إلى أبعد حدود الألفة، فتعض بسن غاشمة كل ما يأتي ليلعق ألسنة اللهب الصغيرة. ولكن هذه النار المتعددة الأشكال - وهذا وجه آخر من دهائها الميتيسي - تعرف كيف تلين لمتطلبات شغل التعدين، فتتخذ انحناءات الزمانية التي تحكم العملية التقنية، وتخلق هكذا الحلي المتألقة، والعقود المنمقة، الدايدالا daidala ‹بدائع الحلي› التي تكشف بسناها المتلألئ، وثراء ألوانها، وفتنتها اللانهائية عن الحياة التي تنبض فيها، كما تكشف عن «الأفكار العليمة» التي راودت الصانع الذي أبدعها. ونار هيرميس إذا قيست بنار هيفايستوس الصناعية قد تبدو هينة. ولكنها نار تنضج اللحم، والرائد مكلف بإشعالها. ولكن هذه النار الغذائية يتولى دهاء هيرميس الميتيسي إطلاقها من الحركة السريعة التي تتحركها قطعتان من الخشب، والدهاء الميتيسي هو الذي اخترعها في الليل، عند العودة من سفرة بين الأدغال والزراعات. وما استخدم الدهاء الميتيسي هذه النار، حتى تخيل أن يخفي آثارها [٦]. هذه النار نار متحركة، مثل هيرميس، تولدت جنسياً، مثل إله كولليني Kullène ‹فقد ولد هيرميس في كهف فوق جبل كولليني›.. وهو يبرز في ساحة مكشوفة تجتازها قوة عابرة، وهو إله لا سبيل إلى الإمساك به، مراوغ ومتمكن من التصرف للتخلص من المآزق، يتضاد مع الحداد القوي ‹هيفايستوس›، قائم في ورشة حدادته، بجانب النار التي لا يتنقل من حولها إلا في تثاقل، دائراً من منفاخ إلى منفاخ [٧]. هذه العقلية التخلصية التي تميز هيرميس الداهية

يستخدم الإغريق في تحديدها كلمة تضم معاً فكرة النار وفكرة حركة اليد الخاطفة polúmetis البارعة: purpalámes [٨]. في الكتاب الذي خص به سويتونيوس الكلمات الجارحة نجد هذه الكلمة purpalámes تدل على اللئيم، أي المكّار الواسع المكر panurge [٩] أما الفقهاء المعجميون مثل هيسوخيوس وپاوسانياس، فالكلمة تعني لديهم المخاتل poikilos، الشخص الذي يفهم باللمحة والذي يستطيع بحركة خاطفة أن يخترع التوليفة المناسبة: لماح كالنار palamómenos isa puri [١٠]. في النشيد الهوميروسي الذي يحكي فيه هيرميس كيف أخفي في الليل ثيران أپوللون، يظهر هيرميس كأنه نار خاطفة شيطانية لفرط توثبه وروعة مهارته. ويبدو أن دهاء الميتيسي يتركز من خلال سلسلة من الصور والمقارنات في لهيب نظرته.

وهو قد ولد صباحاً، وعزف القيثارة Kithara ظهراً [١١]، وسرعان ما أصبح ذكاؤه لماحاً لا يقارن إلا بالومضة التي تطلقها نظرة [١٢]. وفي أثناء الليل اختلس قطيع أخيه أپوللون›، وعندما عاد ليندس خلسة في الأقمطة التي تركها في الصباح، على أمل أن يضلل انتباه أپوللون، كان مثل جمرة متأججة من البلوط الأخضر تغطت برماد كثيف [١٣]. ونجد في قصة الأحداث التي يرويها أپوللون على نحو مهيب أمام الآلهة المجتمعين، أن الظلمة في العرين ازدادت كثافة، بل كانت من العمق بحيث أن النسر بعينه الثاقبة لم يكن ليستطيع أن يرى فيها شيئاً. وإنما اشتدت كثافة الظلمة لكي تبرز على نحو أشد الوميض الذي تطلقه عين هيرميس، هذا الهيرميس الذي تظاهر بأنه غرق في سبات لذيذ، بينما كان في الحقيقة واعياً، حذراً، يقظاً كل اليقظة [١٤]، منشغلاً كل الانشغال بالتجميع والتأمل وابتداع الحيل، حتى إنه كان يلجأ مراراً إلى استخدام يده في دعك عينيه ليخفف ما فيهما من التأجج وليخفي نارهما فقد كان من الممكن أن يكشف وميضهما نارهما حتى عمق مخبأه المظلم [١٥]. وكأنما كان رب الليل هذا - الذي كان يعرف أكثر من غيره أن يُخفي وأن يتخفى - لا يمكن أن يكشفه شيء إلا نأجج دهائه الميتيسي.

كان في استطاعة أپوللون أن يجر أمام الأوليمپوس أخاه الصغير ‹هيرميس› الذي استمر بغمز بعينه ويرقّص حاجبيه [١٦]. ولكنه يضطر إلى أن ينزل لأخيه هيرميس عن الامتيازات التي سيكون على دهائه الميتيسي أن يقرها له في عالم الآلهة. ولقد تم تقسيم السلطات بين الأخوين بسهولة لأن مجاليهما إذا تداخلا في بعض النقاط فإن أحدهما صاحب دهاء ميتيسي، والآخر لا يستخدمه.

* * *

في منظومة مجمع الآلهة المرتبة لم يعد الدهاء الميتيسي يردُ إلا لكي يبرز الانحرافات، ويوزع المعارف ويرسم حدود السلطات بين الآلهة. وإنما ينبغي على الباحث، أن يخرج على نحو ما، خارج الخطاب اللاهوتي الذي تُحكى في إطاره غالبية الميثات الإغريقية عن الآلهة، عندما يبحث عن الحكايات والقصص التي يدور فيها الحديث عن الـمُـواجهات بين القوى الإلهية التي لن تسعى أبداً إلى التشكيك في نظام العالم، بل تسترسل في استعراضات احتفالية لسلطات كل واحدة. وإذا أخذنا من حيث المبدأ بأن كل إله يقيِّد يعرف كذلك أن يفك القيد وأن مَسْكَةَ كل إله لا يمكن أساساً وتعريفاً أن تفشل، فإن المنازلة بين آلهة أوتيت دهاء ميتيسياً متساوياً تشبه جري كلب كيفالوس Kephalos وراء ثعلب تويميسي Teumesse: فقد كان هذا الكلب يجري بسرعة لا ينافسه فيها أحد، ولكن الثعلب كان أيضاً يجري بسرعة لا تسمح لأحد ببلوغه [١٧]. ولبيان ما تتسم به هذه المواجهات من عدم الجدوى، ولإظهارها بمظهر التسلية الخالصة، كان من الضروري تخيل مواقف يضمن فيها الحق لأحد الطرفين فوزاً عابراً، أو يتيح له على الأقل فرصة قصيرة يمارس فيها على واحد من منافسيه سلطته في التقييد والسيطرة.

في حكاية من هذا النوع غنى الشاعر ديمودوكوس Demodokos على شرف أوليسيس أمام الفيئاقيين ما يلي: أفروديتي استخفَّت بهيفايستوس ‹زوجها› وخانته مع آريس Ares فانتقم هيفايستوس من العاشقيْن بأن جعلهما يعانيان تكبيل قيوده [١٨]. وهناك مثل سائر يقول إن قيد هيفايستوس يوصف به كل أمر لا مهرب منه áphukta [١٩]. ولكن سلطته السحرية المكبِّلة عندما تبيح لنفسها حرية الحركة تكشف في عملية التقييد عن السمات الجوهرية التي تمنح الدهاء الميتيسي انتصاراته وفوزه.

أخبرت "الشمس" ‹هيليوس› هيفايستوس أن زوجته أفروديتي تخونه في فراش الزوجية، فسارع إلى ورشة حدادته ليصنع سلاسل لا تلين، وقيوداً لا يستطيع أحد أن يفكها desmoi árrhektoi, álutoi . وما كاد يفرغ من صناعة الفخ teúchein dólon ، الذي وضع جزءاً منه على شكل دائرة أحاطت بأرجل السرير chée désmata kúkloi hapántei، وعلق الباقي في السقف، مثل نسيج العنكبوت، خفيفاً، رقيقاً لا تستطيع حتى عين إله أن تكشفه [٢٠]. ولم يعد أمامه إلا أن يتظاهر بأنه مسافر إلى ليمنوس، فوقع العاشقان في الفخ: «وقعت عليهما القيود ‹المعدنية› التي صنعها هيفايستوس بصنعته ومهارته téchne، وحرصه العظيم polúphron؛ فلم يعد في مقدورهما أن يتحركا، ولا أن يرفعا ذراعاً أو ساقاً؛ وفهما آنذاك

أنهما لا يستطيعان الفرار oukéti phuktá [٢١] » كان الزوج يعرف الحقوق، فدُعي الآلهة إلى إثبات حالة الخيانة الزوجية. وارتفعت ضحكات الآلهة الساخرة، وتوالت نكاتهم. وأعجب الحضور "بشغل" هيفايستوس، وحيَله téchnai [٢٢]، بالفخ الذي نصبه، وبمهارته في صناعة القيود التي لا تنفك. وانطلق مثلٌ بين الآلهة، فيه السخرية من تفاهة أريس المهزوم، وفيه امتداح دهاء هيفايستوس الميتيسي: قد يسبق الأبطأُ الأسرعَ أحياناً. «هاهوذا هيفايستوس، هذا البطيء bradús يمسك أريس وهو أسرع okútatos الآلهة المقيمين على الأوليمپوس. بمهارته téchne يفوز الملتوي cholós » [٢٣]. كان أريس في لعبة الأسرع يخرج فائزاً، ولكن علاقة القوة تنقلب انقلاباً فظيعاً نتيجة ألاعيب هيفايستوس: فيتحقق فوز مذهل لا يثير من الدهشة أقل من رؤية أنطيلوخوس في سباق العربات يتقدم على مينيلاوس صاحب الخيل الأسرع، ولا أقل من اكتشافنا في جسم الضفدعة البحرية البطيئة أشد البطء bradútatos أعضاء قنص خاطفة تجعل منها أسرع الحيوانات المائية táchistos [٢٤]. كان أريس سريع الذراعين والساقين كما يليق برب الحرب، ولكنه لم يكن مشهوراً بمكر وخديعة: بل كان غشيماً لا ظل لدهاء ميتيسي لديه. والقيود التي أطبقت عليه وأسَرَته مكبلاً بجانب أفروديتي لم تكن الوحيدة التي بات عليه أن يعاني من قضائها [٢٥]:لقد وقع غنيمة بائسة في شبكة هيفايستوس. لم تكن الغنيمة الحقيقية التي أمسكها الحداد هيفايستوس هي أريس، بل كانت زوجته أفروديتي الخائنة التي كانت في حد ذاتها قوة دهاء وخداع: كان دهاؤها الميتيسي المتموج aiolómetis [٢٦]، وحذقها في نصب الفخاخ doloplókas [٢٧]، ورغبتها التي لا ترتوي غلتها في الخيانة والغواية [٢٨] هي الخصال التي جعلت من أفروديتي ربة يخشاها الألهة كما يخشاها البشر [٢٩]. وكانت أفروديتي، مثلها مثل إيروس – وهو حفيد ميتيس – تحب الصيد، ونصب الفخاخ، والإيقاع في شباكها بالضحايا الذين تسلط عليهم أشريتها، وأعمالها السحرية، ومطارحاتها الغرامية فتجعلهم عاجزين amechania [٣٠]. حتى زيوس نفسه، بما أوتي من دهاء عظيم، عرفت أفروديتي كيف تغرر به وتملكه، على الأقل عندما وافقها، وعندما استرسل في ملاحقات أفروديتي الذهبية استرسالاً لا يفتقر في أحيان كثيرة إلى الرغبة،

وليس من شك في أن أفروديتي بدت في هذا الوضع أقل مهابة. فقد جرفتها رغبة الصبابة إلى مضاجعة أريس وأوقعتها هكذا في فخها هي، إذ أفقدتها عابراً تلك اليقظة التي يصبح كل دهاء ميتيسي بدونها نصف مشلول أو نحو ذلك. والقيود <المعدنية> التي صنعها هيفايستوس لتكبيلها من النوع الذي يتطلبه أسر قوة دهاء. وهذا هو الدورالذي لعبه هيرميس

في هذه الواقعة التي تلقي الضوء على سمة من سماته الجوهرية. لم تكن المصادفة يقيناً هي التي وضعته في المقدمة بين الآلهة الذين تجمعوا حول الفخ الذي انقفل على أفروديتي. وقد داعبه أپوللون في هذا لأن الجميع كانوا يعلمون الميل الذي يراود هيرميس حيال أفروديتي، فقال له: «ما من شك في أنك كنت ستضع نفسك راضياً في هذه القيود الوثيقة لتنام في سرير بجانب أفروديتي الذهبية.» (٣١) وكثيراً ما نجد في شعائر الزواج في بلاد الإغريق هيرميس وأفروديتي شريكين، هيرميس يقتاد الزوجة من بيت أبيها إلى بيتها الجديد، وأفروديتي تحفز المعاشرة الجنسية، التي بدونها يظل الانتقال من نار بيت إلى نار بيت آخر غير ذي جدوى[٣٢]. أضف إلى ذلك أنهما يمتلكان معاً كلمات الغش التي تخدم الغواية مثل الدهاء[٣٣]. أما الإجابة التي يرد بها هيرميس على سخرية أخيه ‹أپوللون› فلا تقتصر على الاعتراف بعلاقاته المتميزة بأفروديتي، بل تبرزها فتضعها تحت عنوان القيود البالغة الإحكام التي لا يتقدم ليتكبل بها إلا إله قادر على التقييد، يتمنى أن يؤتى أشباهها: «فيا ليت قيوداً أبيپرونية apeirones عدتها ثلاثة أضعاف هذه تضمني، إذا أتيح لي أن أنام بجانب أفروديتي.» (٣٤).

فما هي السمة الفريدة التي تتسم بها هذه القيود التي يطلبها هيرميس لتضمه ضمة وثيقة إلى أفروديتي؟ كانت القيود قد وصفت من قبل بأنها لا تنفك، وبأنها سلاسل لا فرار منها، فإذا هي توصف هنا بأنها "أبيپيرونية" apeirones وكلمة apeiron اختلف في شرحها الشراح، فالبعض رأى فيها صورة القيود اللانهائية، والبعض الآخر فضل التشديد على أنها تعني ما لا يحصيه العد. ولكن معنى عبارة القيود الأبيپيرونية apeirones واضح منذ پورفوريوس Porphurios وشروحه الهوميروسية (٣٥). ولقد بدأ هذا الفيلسوف الأفلاطوني المحدث بملاحظة أن معنى كلمة apeiron لا يمكن أن يكون "مالا يحصيه العد"، لأن هذه الصفة ‹العددية› للقيود قد تحددت في "عدتها ثلاثة أضعاف هذه" tris tóssoi. ثم بين پورفوريوس بعد ذلك أن مفهوم apeiron هو وصف لقوة هذه القيود التي تحيط بكل الاتجاهات والتي ليس لها نهاية péras ولا بداية arché. هذا الشرح لا غموض فيه: إذا كان هوميروس قد اختار النعت apeirones ليصف السلاسل التي لا تنفك álutoi، فإنما يرجع السبب في ذلك إلا أن هذه القيود دائرية énkukloi، على هيئة الحلقات، ولأنها تحبس من تمسكه في دائرتها. وهكذا فإن وضع المشكلة يكون على النحو التالي: هذه القيود "الدائرية" التي صنعها هيفايستوس والتي تستطيع أن تكبل إلها متحركاً وداهية الزمن الذي يرغبه هذا الإله ليكون أكثر قرباً من أفروديتي، وليظل أسيراً لها، ما هو معناها في الإطار الكلي

لأعمال وأشكال الدهاء الداهية؟ ما هو المكان الذي يمكن أن يحتله في حقل الدهاء الميتيسي مفهوم من قبيل "اللامحدود" أبيرون apeiron بمدلوليه: القيد والدائرة؟

ولكي نرسم صورة أولى لما كان الإغريق يميلون إلى تسميته "اللامحدود"، ولكي نتبين على الفور عدداً من الخطوط الأساسية التي تتخلل الحقل الدلالي لأبيرون apeiron، يمكننا، دون أن نقع في فخاخ قراءة اشتقاقية، أن ننطلق من الجدل الذي أثاره اللغويون حول هذه الكلمة (٣٦). ويبدو أن التحليل اللغوي الذي يربط قَدَر كلمة apeiron بكلمة péras تتأرجح بين حلين:

- الحل الأول أن تكون البادئة النافية -a مربوطة بكلمة péras

- الحل الثاني أن تكون نفس البادئة النافية -a مربوطة بالجذر *per (peráo, peiro, peıaino) الذي يعني العبور والاختراق.

بالنسبة إلى المعني الاشتقاقي لكلمة péras - وله شواهد أخرى في الإغريقية متمثلة في الصيغتين المنافستين peiras و peirar نجد علماء الهيللينيستية واللغويين منقسمين مرة أخرى:

- بعضهم يميلون إلى «حد، طرف، نهاية»

- والبعض الآخر يرون أن المعنى الأساسي لكلمة péras هو «قيد».

وفي أثناء جولتنا خلال هذه الشروح، المنصبة على كلمة يُغذّي تشابُكها الدلالي الاختلافات في القراءة، اخترنا أن نبرز توجهين كبيرين في الحقل الدلالي الذي تشغله الكلمتان -apeiron peiras :

- توجه يدور حول مفهوم الطريق

- وتوجه آخر يدور حول مفهوم القيد.

وألعاب التداخل بين «السير في طريق» و«تقييد» هي التي ستحدد وضع apeiron ، «اللامحدود»، بين الأدوات الإدراكية التي يستخدمها الذكاء العملي.

وليس هناك أدنى شك في أن التوجه الأول هو، من بين هذه التوجهين، أكثرها وضوحاً في الرسم، في تاريخ كلمة peirar الذي بدأته دراسات ج. بيورك G. Björk وش. كان Ch. Kahn . ومفهوم «السير في الطريق» المتضمن في peirar بالمعنى العادي للحد يفترض وجود تنظيم معين للمكان. بهذا المعنى الأول تستخدم كلمة peirar في أغلب الأحايين مع

فعل حركة، ولكنها لا تدل بحال من الأحوال على حدود ثابتة ولا خط تقسيم فاصل ثابت؛ بل تدل دائماً على الحد الأبعد، على النقطة التي يبدأ بعدها الخواء. وهناك إشارة في كتاب «الخطابة» ‹الريطوريقا› لأرسطوطاليس تسمح بتحديد دقيق لتصور المكان مرتبطاً بهذا «الحد» peirar، يقول أرسطوطاليس: «في اللغة القديمة (٣٧) كلمة peirar {وهي صيغة متبادلة للفظة peiras] لها معنى tékmar أو [tékmor] ، أي علامة، إشارة، دليل.» وكان من الضروري أن يتم في عام ١٩٥٧ اكتشاف «كوسموجونية» لألقمان (٣٨)، مكتوبة في اسبرطة الأرخائية ‹العتيقة› للإفادة من الترادف الذي كشف كتاب «الخطابة» عن وجوده بين «حد» و«إشارة».

وألقمان يضع بالفعل عند بدايات الكون قوة يسميها تيكمور Tékmor، أي دليل، تلعب برفقة پورروس Póros ، أي طريق، دور الخادم لدى ثيتيس Thétis ربة البحر الكبيرة. في حالة أولانية - تحكمها قوة أعماق بحرية رأينا توافقاتها مع الربة ميتيس - يبدو أن تيكمور Tékmor أي الدليل وپورروس Póros أي الطريق يتوليان مهمة تبديد الظلمات التي يجسمها سكوتوتس Skótos وفتح الطرق التي ستأتي منها الشمس سائرة حاملة ضياء النهار، بينما تنتشر دروب البروج المنيرة على قبة السماء. في المكان البحري الذي يمارسان فيه سلطاتهما نجد تيكمور Tékmor أي الدليل وپورروس Póros أي الطريق يحددان عمل ذكاء يتولى كاملاً مهمة الإفلات من تيه عالم يسيطر عليه الاضطراب والارتباك. وكلمة پورروس الطريق Póros التي تنتمي هي أيضاً إلى العائلة الدلالية لكلمة peráo التي تعني العبور والاختراق تدل على التخطيط، الترتيب، الإجراء الذي يخترعه الدهاء الميتيسي ليفتح لنفسه طريقاً؛ أما كلمة تيكمور Tékmor ، الدليل ، التي لا تعني فقط الغرض المستهدف، ولكن الخطة، والدواء الذي يعالج موقفاً صعباً، فهي مفهوم مبني على تضافر ثلاثة مجالات متمايزة ولكنها متكاملة وهي: الملاحة، الفلك، التخمين والتنبؤ. في مجال الملاحة كلمة تيكمور Tékmor تعني نهاية الرحلة، نقطة الأفق التي توجه مسار السفينة؛ أما في الفلك المبتدئ الذي يتضمنه على ما يبدو فن الربان، فنفس الكلمة تدل على موقع النجوم الذي ينبغي على السفينة أن تضبط مسارها عليه. ولكن هذين المستويين لا ينفصلان عن مستوى ثالث: الإبحار اتباعاً لنقاط اهتداء ثابتة في السماء يعني أيضاً - بالنسبة إلى تراث ميثي كبير تُمَثِّل ملحمة الأرجونوتية فيه منتهى الإبداع الروائي - الثقة في الإشارات التي ترسلها الآلهة والتي يقوم عراف بدور الوسيط فيكشف الغطاء عنها. كانت العرافة تكشف للملاحين العلامات المنيرة التي يستدلون بناء عليها على مسارهم، أي أنهم يتعرفون على العلامات،

ويختارون نقاط الاهتداء على نحو يمد معبَراً بين المشهود والغيبي. وسياق رحلة عبور البحر الخطيرة هو بالضبط السياق الذي يتوثق فيه على أوضح وجه الترادف القديم بين peirar وtékmor الذي يحدثنا عنه أرسطوطاليس. في تراث الأرجونوتية، ملاحي سفينة أرجو، في لحظة الإقلاع للقيام برحلة بحرية يصفونها في أغلب الأحيان بأنها كانت أول رحلة بحرية، يوجه ياسون في حضرة رفاقه جميعاً، إلى أپوللون صلاة حافلة يذكره فيها بالوعد الذي قطعه عراف ديلفوي Delphoi يوم أن ذهب يطلب النصح بشأن المهمة التي فرضها عليه عمه الحقود. كان أپوللون قد وعده بأن «يرسم الطريق» من أجله. وتعبير «يرسم الطريق» يرد مرتين، كل مرة في صياغة مختلفة، فمرة : تكون الصياغة «يدل على پيثيراتا peirata ‹علامات› الرحلة»[٣٩]، ومرة أخرى تكون الصياغة «يبين پورووي póroi ‹طرق› البحر»[٤٠]. أما آلـ póroi فهي طرق الملاحة، الطرق التي وعد أپوللون بفتحها من خلال خضم المياه التي لا تعرف الكرم؛ ولكن هذه الطرق يدل عليها إله ديلفوي على النحو الذي يليق بعراف تستخدم عبارته - على ما جرت به التقاليد - إشارات، فهو يبين مسار السفينة استناداً إلى نقاط اهتداء ، إلى peirata، إلى شواخص منيرة أو نقاط على الأفق كل نقطة منها تلحق بها التي تليها كالمراحل حتى نقطة النهاية النهائية لرحلة ملاحي الأرجو. فالكلمة تدل على النقطة الحدودية، كما تدل على نقطة الاهتداء، والمسار، فكلمة peirar تنتمي مثل مرادفتها ték-mor لمفردات المصطلح البحري.

وهناك فصل آخر من مغامرات ياسون يربط الصيغتين، بل يربطهما مباشرة. فقبل أن تحاول سفينة أرجو اجتياز البوسفور، وقفت في ثونيا، على السلحل الشرقي من ثراقيا. هناك كان فينيوس Phineus يتربع على تخت الحكم، وفينيوس هو العراف الذي أذنب إذ استغل علمه استغلالاً سيئاً فأبلغ البشر بالخطط التي دبرها زيوس. وعوقب فينيوس Phineus بأن كُف بصره، وقضي عليه ألا يأكل من الطعام إلا ما كان كريه الرائحة، قد نجسته الهارپيات Har-pyiai، فالتمس الملك الأعمى الخلاص بأن قدم إلى بحاري الأرجو بيانات دقيقة للوصول إلى كولخيس Kolkhis ‹في آسيا الصغرى، وترتبط بها أسطورة الجزة الذهبية› واجتياز ممر الصخور السوداء. وقال ياسون وهو يشكره ، «لقد شرح ‹فينيوس› للملاحين تفصيلياً حد peirar رحلة العبور والدليل tékmarâ[٤١]، مما سيمكن رفاق السفينة أرجو من العبور بين الصخور «الرجراجة» وبلوغ peráo البحر الواسع póntos[٤٢]. كلمة تيكمار Tékmar - الدليل - تعني وسيلة اجتياز «الممر المنحرف»[٤٣] بين الصخور الرجراجة: وطيران حمامة من نوع الحمام الطوراني تطلق أمام السفينة تؤدي بالنسبة إليها دور النبوءة. أما فيما يختص

بلفظة peirar ‹حد› فهي تدل في آن واحد تضافرياً على الشخوص التي تعلم مسار العبور وعلى الطريق الذي تفتحه السفينة لنفسها في الفضاء البحري الذي تدل عليه كلمة پونتوس póntos البحر الواسع. أما كلمة peirar فتآلفاتها مع السير póros يبرزها استخدام الفعل peráo أي "يعبر"، وهكذا فإن كلمة peirar تتضاد مع پونتوس póntos ، البحر من حيث هو امتداد عميق الغياهب ، خاؤسي، خال من الطرق، من حيث هو مكان كان الإغريق يصفونه باللفظين ápeiros و apeiritos لا لأنه بلا حدود أو بلا خط فاصل، ولكن لأنه الامتداد الذي لا يمكن أن يعبره peráo أحد من طرف إلى طرف، فهو مكان لا يمكن اجتيازه، وما يكاد طريق يرتسم فيه حتي ينمحي ويزول من فوق صفحة المياه الناعمة، وهي صفحة لا تتكرر مرتين أبداً.

والتوجه الثاني الذي يخترق الحقل الدلالي لكلمة peirar يظهر بمظهر هدف أكثر تركيزاً. فمعنى «قيد» يفرض نفسه فوراً بالنسبة إلى عدد معين من الاستخدامات يبدو سياقها غير مختلف عن التعدد الدلالي لمفهوم «قيّد» في الفكر الإغريقي. في فصل الخاص بالسيرينيات Seirênes يجعل أوليسيس الرفاق يربطونه ربطاً وثيقاً إلى صاري السفينة؛ ويقيدون ذراعيه وساقيه بالقيود dein؛ وقد سميت هذه القيود التي علقت بالصاري پيراتا peirata أو ديسموي desmoi [٤٤]. ويظهر هذا الترادف نفسه في قصة أپوللون الذي يحكي نشيده الهوميروسي عن طفولته العجيبة : فأپوللون الذي كان كأخيه هيرميس ينمو نمواً ‹فائقاً› تراه العين، ويتغذى على الأمبروسيا ، عندما كان رضيعاً كبر بسرعة حتى إن أقمطته stróphoi سرعان ما كانت تضيق عليه فلا تحيط به، بل كانت كل اللفف التي يلف به ‹تقصر عن ملاحقة نموه و› تنصرم بعد قليل. في هذه القصة تستخدم الكلمتان peirata وdesmá للتعبير عن الرباط والقيد [٤٥]. ونفس كلمة peirar في الصيغة péras تدل في المصطلح الطبي على طرف الرباط، على القطعة من النسيج التي تحيط بجرح أو تحمي عضواً [٤٦]. ولقد تعلق عدد من علماء الهيللينيستية بأهداب هذه «الخبرانية التلقائية» التي نقدها من قبل بينڤينيست E. Benveniste متناولاً عدداً كبيراً من محاولاتها التوليف الدلالي المفتعل[٤٧]، فاعتقدوا أنهم وجدوا في المعنى المحسوس والتقني لكلمة péras – وهو: شريط، حبل – الدليل على أن المعنى المجرد وهو «حد، حدود» استخلص انطلاقاً من استخدام «بديهي» لكلمة peirar بمعنى قيد أو عقدة. ولكن آخرين، وهم فلاسفة أكثر حصافة، مازالوا يوغلون في الاشتقاق حتى تبينوا المعنى المجرد في قلب المعنى المحسوس. وتبينوا أن كلمة peirar لا تدل على القيد أو العقدة، بل تدل على طرف أو نهاية الحبل [٤٨]. ونحن، الذين

نقبل بأن «معنى» أي شكل لغوي يتحدد بناء على مجموع استخداماته، نرى أن المشكلة ليست هي استنباط معنى من معنى آخر، ولكنها هي أن نفهم أي نمط من العلاقة كان من الممكن أن يقيمة الإغريق بين «طريق» و«قيد»، وكيف أن معنى «يقيد» peirar هو في ظاهره معنى مختلف عن معنى «يسير» الذي تفرضه بعض السياقات، ولكنه يمكن أن يمثل تنويعاً للمعنى الأول. في الحقل الدلالي لكلمة peirar هو الحقل الذي تجد فيه هذه الأسئلة أجوبتها: فنمط معين من الطريق يمكن أن يتخذ هنا شكل قيد يغل، وبالمقابل، عملية التقييد تستعير هنا أحياناً شكل العبور أو السير.

بعض استخدامات پوروس póros تعتبر مثلاً على النمط الأول من العلاقة. فكلمة póros من حيث هي الطريق المرسوم على بحر لا يستطيع أحد اجتيازه يمكن أن تعني أيضاً عبور نهر، أوعبور مخاضة أوعبور جسر لا يمكن عبور النهر بدونه، أي أن النهر يكون بدونه نهراً لا يمكن اجتيازه أي يوصف بأنه أپيراتوس apératos [٤٩]. وعندما قرر كسرى اجتياز مضيق هيلليسپونت Hellespont ‹الاسم القديم لمضيق الدردنيل› لكي يستعبد الإغريق، تفتق كبرياؤه المفرط عن مشروع إنشاء جسر يظل طريقاً مفتوحاً في البحر، ويرسم على صفحة اللجج المتغيرة دواماً طريقاً ثابتاً لا يتحرك. واعتمد مشروع الجسر على المعرفة التقنية للمهندسين الذين أنيط بهم تصميمه وضمان تنفيذه. وتمثلت الوسيلة التي تخيلوها لعبور مضيق هيلليسپونت Hellespont ‹الدردنيل› في «آلة» عبارة عن عدد هائل من السفن قيدوها الواحدة الأخرى بسلسلتين مدوهما بين الشاطئين [٥٠]. هذا الممر póros الذي صنعه الفرس اليأ لربط وتكبيل البحر، هو في حد ذاته «قيد»، «نير رُكب حول رقبة البحر» [٥١]. وعندما يقوم خيال داريوس الذي يستحضره الكورس في مسرحية «الفرس» لإيسخيلوس بشجب الحماقة المجنونة التي ارتكبها "الملك الكبير"، فإن لومه الأكبر انصب على أن كسرى أراد «أن يوقف مسار هيلليسپونت المقدس بأغلال العبيد» وأن «يسلك فيه أصفاداً مطروقة بالمطرقة.» [٥٢]. وهيرودوتوس يستخدم نفس التعبيرات: لقد قام مهندسو "الملك الكبير" بتقييد وتكبيل المضيق ‹الدردنيل› zeugnúnai tòn póron، فلما هبت عاصفة عارمة ومزقت الجسر ونشرت أشلاءه على اليم، فقد فكت lúein العاصفة - بحسب تعبير هيرودوتوس - ما جرؤ البشر في جنونهم المتعالي - على تحميله بالأغلال [٥٣]. وتعود صورة النير نفسها في الفصل الذي يثبت على نحو قاطع جنون ملك ‹الفرس› الهمج: لقد أمر كسرى للانتقام من هيلليسپونت بأن تجلد بالسوط ثلاثمائة جلدة وبأن يُلقى في البحر سلسلتان pe-déonn zeûgos [٥٤]. وما دام هيلليسپونت قد جرؤ على نفض النير، فقد ضرب مَثَلَ العبد

المتمرد، وكانت السلسلتان اللتان ألقيتا في المضيق تؤكدان إرادة "الملك الكبير" في أن يقيد ذراع البحر وأن يجعل منه طريقاً ثابتاً ومقهوراً.

وإذا كان من الممكن أن يعتبر الممر أو المسار من قبيل القيد الذي يغل، فإن مقلوب هذه الصورة ممكن أيضاً في الفكر نفسه. فعندما أعطى أوليسيس الأمر بتقييد ذراعي وساقي ميلانثيوس راعي الماعز الذي خانه لصالح الخطاب، فقد استخدم تعبيراً يتحول فيه القيد إلى مسار وعبور يلف الضحية: «لفوه بسلبة مضفورة seiren dè ex autoû peirénante plektèn[٥٥]» وكلمة peirainein التي تعني العبور تتخذ هنا معنى اللف، معنى تمرير سلبة مضفورة من طرف الجسم المطلوب تكبيله إلى طرفه الآخر. والقيد عندما يمر حول الذراعين والساقين فإنه يرسم حركة دائرية الشكل، مقلداً على نحو تقريبي الأساور أو الخواتم التي اعتاد الإغريق أن يسموها «الخواتم اللامحدودة» ápeiroi [٥٦]. لأن هذه الأساور - كما يشرح أرسطوطاليس - لا تحمل حجراً أو فصاً، فهي لهذا بلا نهاية péras وبلا بداية arché: إنها دائرية بشكل كامل [٥٧].

مع صورة القيد الذي يرسم طريقاً بلا حدود يبدو الحقل الدلالي لكلمة peirar أكثر تشابكاً مما لاح على التوجهين أنهما يبينان. كان التوجه الأول ينبني كليةً على التكاملية التضادية peirar-apeiron: peirar كانت تدل على نمط من الطريق المفتوح في مكان محدد، على الضد من مالا يمكن عبوره وما ليس له حدود نهائية apeiron، أما التوجه الدلالي الثاني، وهو القيد، فإن نفس الكلمتين peirar و apeiron لم تعودا تكوِّنان ثنائياً متضاداً، بل هما يكونان تركيباً جديداً من كلمتين تدعم الواحدة منهما الأخرى على نحوٍ ما لتوحيا بالصورة التناقضية peirar ápeiron أي القيد الذي لا يمكن عبوره والطريق الذي لا يمكن فكه.

ولكن هناك في الفكر الميثي الإغريقي مكان شبيه بالفضاء البحري حيث اللامحدود apeiron يتأرجح بين القيود التي لا يمكن لأحد أن يفكها وبين الطرق التي لا يستطيع أحد أن يسلكها. هذا المكان هو التارتاروس Tartaros، ولقد رأينا [٥٨] كيف وصفه هيسيودوس، قائلاً إن الرياح العارمة تسكنه، وإن الدوامات تخترقه، وإنه مكان اضطراب كامل، مكان لا تَوَجُّه فيه، فقد تجرد من الاتجاهات الثابتة ، ومن العلامات المنتظمة. وكما أن البحر الواسع امتداد لا يمكن اجتيازه ápeiros, apeiritos كذلك التارتاروس مكان فيه سندان قُذف به من نقطة ما ولن يبلغ العمق أو الحدود أبداً، بل سيظل تائهاً في سباق لا ينتهي إلى

نهاية(٥٩). ولا يعني هذا أن التارتاروس لامحدود، بل هو كالبحر مكان لا يمكن اجتيازه، يستحيل عبوره من من طرف إلى الطرف الآخر. في التراث الأورفيوسي (٦٠) ليس التارتاروس فقط بلا قاع، بل بلا علامات اهتداء، ولا يقبل مساراً محدد الاتجاه، وليس فيه peirar . والصفة apérantos التي تعني ما لا يمكن اجتيازه هي الصفة التي اختارها پروميثيوس عندما ذكر التارتاروس وقال إنه يود أن يكون مدفوناً فيه بدلاً من أن يبقى معرضاً للهواء الطلق تحت أعين أعدائه (٦١). ولكن التارتاروس ليس فقط مستحيل الاجتياز، بلا طريق، بل هو كذلك في نظر پروميثيوس - في نفس النص - المكان «الذي وضع فيه الإنسان بوحشية على صلة بقيود من المحال فكها» desmoi álutoi (٦٢). ونجد هاتين الناحيتين في صورة مختلفة اختلافاً قليلاً في التارتاروس الذي هددت أم هيرميس ابنها به، ثم هدده به أخوه بعد هروبه، فالأخ يذكّره بالظلمات التي لا مخرج منها améchanos (٦٣) والأم تحدثه عنف القيود التي لا يمكن فكها améchana (٦٤). وكأنما امتاز مكان التارتاروس، لكي يصبح من المحال اجتيازه، بامتياز التقييد والغل إلى الأبد، ونحن بالفعل نجد في ثيوجونية هيسيودوس، أن التارتاروس هو المكان الذي يزج فيه بالآلهة المغلوبة، تلك التي غلبها زيوس والتي غلبها كرونوس. هذا هو المصير الذي صار إليه التيتان Titanes الذين قهرتهم نار السماء وضربات الهيكاتونخيريس : فهاهم أولاء يتوارون في الظلام ويحملون الأغلال (٦٥). ومن قبل لقي الهيكاتونخيريس نفس المصير: فقد قيدوا بقيد شديد وزج بهم في التارتاروس (٦٦). وولوج هذا المكان الذي لا يستطيع أحد أن يجد له منه مخرجاً، مهما أوتي من الدهاء الميتيسي، كان يعني بالضرورة أن يجد نفسه مغلولاً بأشد القيود قسوة (٦٧). وبالمقابل كان الخروج منه بمنة من إله سيد، كان يعني الإفلات فوراً من الأغلال ورؤية القيود تنفك. فكل أولئك الذين أخرجهم زيوس من غيوم التارتاروس، بعد فوزه على كرونوس، حررهم في نفس الوقت من الأغلال سواء في ذلك الهيكاتونخيريس أو اخوة كرونوس (٦٨). لم تكن هذه الأغلال القاسية التي لا يمكن فكها هي القيود التي يكبل بها السجانون أسراهم. فالتارتاروس الذي يشبه البحر الفسيح مكان لا يمكن اجتيازه، إنه apérantos أو apeiron ، وهو ليس فقط سجناً من المستحيل الفرار منه. بل هو نفسه مكان مقيِّد يختلط امتداده بالقيود التي لا يمكن أن تحل. التارتاروس مكان بلا مخرج، ليس به شخوص أو علامات تسمح بعبوره، فهو يبدو على الفور على هيئة القيد الهائل، الذي لا نهاية له، ولا حدود بالنسبة إلى من يجد نفسه محبوساً في عالمه. إنه peirar ápeiron بالمعنى المزدوج الذي تبينّاه وذكرناه من قبل ‹أي القيد الذي لا يمكن عبوره والطريق الذي لا يمكن فكه›، ولما لم يكن فيه أي اتجاه، فليس من سبيل إلى

عبوره، أو اجتيازه، ولكنه من الناحية الأخرى، بالنسبة إلى من يكون قائماً فيه، في هذا الوسط الذي هو على نحو ما عكس المكان المنظم، مكان لا سبيل إلى الخروج منه أبداً؛ فيبقى من فيه محبوسين بداخله إلى ما لا نهاية، مثل آريس وأفروديتي في قيود هيفايستوس التي تُحل.

وانغلاق القيد دون ما حدود لا يتخذ فقط بالنسبة إلى الإغريق شكل التارتاروس الرهيب الذي تستأنفه بعض مصورات هاديس Hadès ‹إله الموت› التي تمثل ضيوفه عاجزين عن الإفلات من أغلاله السحرية. وهناك شيء تقني مطَمئن ومألوف يجسم مفهوم القيد الدائري، وهو الشبكة التي تستخدم في صيد الحيوان وصيد السمك، والتي نوهنا منذ البداية بأهميتها بالنسبة لمفردات الدهاء الميتيسي [٦٩]: وسواء كنا حيال شراك أو شباك أو أحابيل أو جوابي، ويغض النظر عن سُمك الخيوط، أو اتساع الغُرَز، فأن الشبكة عبارة عن منظومة من القيود المنسوجة أو المضفورة، وتكوينها المعماري يجعل منها الشكل الأعظم للقيد، سواء من منظور المقيِّد أو المقيَّد. ولهذ وصفت الشبكة بالحق كل الحق بأنها apeiron، لامحدودة ودائرية. وهناك قصيدة لإيبوكوس Ibykos تصف إيروس Érôsوهو يصيد الحيوان، عينه سوداء، ونظرته مغرورقة، يكثر الحيل والإغراءات: وهو صياد بارع أي براعة، فهو يدفع غنيمته مباشرة إلى «شباك ‹أفروديتي التي›لا مخرج منها » apeirona diktua [٧٠]. ولنستشهد بالصورة التي خص بها هيسيودوس المرأة الأولى، پاندورا Pandora، التي ابتدعها دهاء زيوس الميتيسي القوي المكين، يقول إنها «فخ وعر بلا مخرج» -dólos aipùs am échanos[٧١] . لا جدوي من مقاومتها. وأفروديتي Aphrodite توصف بأنها «لا تقاوم» ámachos [٧٢]، والغنائم التي وقعت في الشباك توصف بأنها ضربها الذهول -am échania[٧٣] وتملكها الدوار illigos [٧٤] بشراسة تحاكي ما يجري على سكان البحر الذين مسّهم مسٌ عابر هين من ‹سمكة› الرعّادة ‹التي تصعق من تمسه› فخروا صرعى، ومفلوجين، وكانوا كالأسرى المكبلين بالأغلال الثقال [٧٥]. هذه الشبكة الدائرية هي التي سيأسرون فيها ويقتلون غالبَ الطرواديين، الرجل الذي استخدمه الليل وسيد الآلهة لرمي الشبكة المحيطة -ste ganòn diktuon [٧٦] على أسوار المدينة، شبكة الوبال الواسعة التي ألقت بهم، رجالاً وأطفالاً، في قيود العبودية [٧٧]. في الثلاثية المسرحية «أوريستيا Oresteia å لإيسخيلوس يضم دهاء كلوتايمنيسترا Klytaimnêstra مختلف تنويعات القيد المضفور. وكلوتايمنيسترا – مثل پينيلوپي التي منت عليها أثينة فجعلتها ماهرة في النسيج وماهرة في تدبير المكيدة – تعرف كيف تدبر الفخ وكيف تنسج الغلالة التي ستستخدمها في صيد الحيوان [٧٨]. هكذا

يتداخل صيد الحيوان، وصيد السمك، والنسيج بعضه في البعض دائماً. وهذه الشبكة تنصبها كلوتايمنيسترا بعناية، بالإغريقية = peristichzei وهذا الفعل هو الفعل التقني الذي يدل على عمل صياد الحيوان الذي ينصب شراكه مستخدماً حراباً يصفها صفوفاً (٧٩). وعندما وقع أجاممنون في الشبكة، فقد كانت شبكة لصيد السمك (٨٠). بلا مخرج، فما استطاع «الفرار، وما استطاع تفادي الردى. ». وهذه الشبكة التي تستخدم لصيد السمك والتي تسمى أمفيبليسترون amphiblestron هي نوع من الطرحة الشبكية يمكن أن يستخدمها صياد الحيوان الذي يقف لفريسته بالمرصاد ويرمي الطرحة الشبكية عليها باليد (٨١). وهي كما نتبين من اسمها تحيط من كل جانب amphibállein أو periibállein (٨٢). ولكن عندما ذكرت آليكترا وأوريستيس Orestês على قبر أبيهما الشبكة المحيطة ápeiron <التي فتكت به>، فقد أسمياها «سلاسل غير ذات برونز» pédai ...achálkeutoi (٨٣)، وكان إسخيلوس قد وصف الأغلال المعدنية التي صفد بها هيفايستوس أعضاء پوميثيوس - على العكس - بأنها «شبكة» محيطة amphiblestra(٨٤) لأن هذه السلاسل الفولاذية المحيطة kirkoûn التي تحيط بالذراعين والساقين (٨٥)، والتي كبلت پروميثيوس في قيد دائري بالغ الشدة، لا يقارن به إلا التارتاروس الذي لا يستطيع أحد له اجتيازاً (٨٦). يضاف إلى ذلك أن الفخ الذي نصبته لأجاممنون زوجته كلوتايمنيسترا Klytaimnêstra يتخذ شكل الغلالة أو القماش الرقيق النسج، هذه الغلالة التي تشبه الغلالة المرسومة على آنية خزفية في متحف بوسطن Boston (٨٧) تحيط بهازم طروادة <أجاممنون>، المحبوس «في رداء لا مخرج منه» ápeiron húphasma(٨٨) يسلمه لضربات أيجيستوس Aigisthos <عشيق زوجته الذي سيجهز عليه>، هذا الرداء الذي يستحيل الفرار منه يشبه الرداء المخضب بدم نيسوس Nessos غمامة الموت nephéle، الذي ألبسه هيرقليس <وقضى عليه>، وكانت تلك مكيدة من القنطوريس (٨٩).

قيد دائري ، ودائرة مقيِّدة، هكذا تكون شبكة صيد الحيوان أو السمك، وهي ليست هكذا في نسيجها فحسب، في التداخل المحكم، قَلَّ هذا الإحكام أو كَثُر، بين عُقَدها وغُرَزها. بل هي كذلك أيضاً في العديد من استخداماتها التقنية. ولقد بينّا من قبل أن صيادي السمك يمسكون أنواعاً بعينها من السمك بالإحاطة الدائرية بها، بتطويقها . فما يكادون يحددون رصيفاً حتى يشرعون في رمي شباكهم من بعيد ثم يقتربون في السكون أشد السكون حتى تحيط الدائرة بالسمك kuklósosin. فإذا انقفلت الدائرة على السمك، أعطى الصيادون إشارة الصراخ والضجيج فيندفع السمك هائجاً مجنوناً في الشباك المنصوبة. الإطباق والإحاطة الدائرية

(٩٠) kukloûn, perikukloûn, sugkukloûsthai مصطلحان تقنيان يدلان على هذا النمط من الصيد الذي تجعل الشبكة من نفسها في أثناء تقدمها قيداً محيطاً ودائرةً ليس إلى اجتيازها من سبيل. وهذان المصطلحان يستخدمان في المجال العسكري حيث تَستلهم بعضُ خطط الحرب البحرية مباشرة العمليات التي اخترعها الصيادون. في معركة سالاميس Sa-lamis البحرية ‹ضد الفرس› (٩١) ناور الإغريق كما يناور الصيادون عند صيد سمك التونة(٩٢): فاستدرجوا أسطول الأعداء داخل المضيق ، وهنالك انحشرت السفن فيه، وأعاق بعضها بعضاً؛ فأحاط بها الإغريق دائرياً، وقفلوا الشبكة، وأصبح الفرس مثل السرب الهائل من سمك التونة عندما يقع في فخاخ المزرابة «خلت الكلمة الفرنسية: la madrague›(٩٣)، وما أشبهها بالجابية الهائلة التي يخرج منها الصيادون عند ئذ السمك، فينهالون عليه ضرباً بالمطارح (٩٤). أما في معركة أرتيميسيون Artémision ‹ضد الفرس› فكانت المناورة على عكس هذه. فقد بقي الإغريق ساكنين وأحاط أسطول كسرى بهم من كل جانب، ولكن في اللحظة التي اصطفت فيها السفن الفارسية على هيئة الهلال، كما يقول هيرودوتوس، متأهبة لتقفل الدائرة ، اندفع الإغريق إلى الأمام ليحطموا الفخ. كان الإغريق على عكس سمك التونة، الذي أجمع القدامى على أنه بطيء الفكر، عاجز عن اتخاذ قرار جريء (٩٦)، فقفزوا قفزة واحدة خارج الشبكة، منافسين في ذلك الأسماك التي تحدث عنها أوپيانوس Op-pianos ، قائلاً إنها عندما توشك على الوقوع في الفخ، تتخيل ألف حيلة للخروج منه (٩٧). في المعارك التي تجري في البحر، تتمركز لعبة الدهاء حول شكلين يمثلان المناورتين الكلاسيكيتين في هذا النوع من الحرب وهما: periplous وdiékplous (٩٨) حيث يتبادل المكر العمل مع الحركة الدائرية.

في حالة periplous أي الالتفاف يقوم الأسطول وقد اصطف على هيئة خط بالدوران حول العدو مع العمل على تضييق الدائرة؛ ويتحين اللحظة التي يتملك فيها الاضطراب سفن العدو المتدافعة بعضها ضد البعض الآخر لكي تباغتها وتهاجمها بشوكة المقدمة. هذه هي مناورة المُخطِّط الحربي الأثيني فورميون Phormion في موقعة پاتراي Patrai في أغسطس من عام ٤٢٩ قبل الميلاد (٩٩). فعندما ظهر الأسطول الأثيني كونت السفن الپيلوپونيسية وحداتها على هيئة دائرة كبيرة حتى لا تتعرض للهجوم فرادى. ولكن فورميون تنبأ برد فعل الأعداء؛ ففرض عليهم المكان واللحظة اللذين اختارهما ، لأنه كان يعرف أن الريح التي تهب من الخليج في تلك الساعة ستزيد من الاضطراب الذي سيحدثه أسطوله الذي تحرك راسماً دوائر حول السفن الپيلوپونيسية «فحصرها في مكان محدود بأن ظل يقاربها ويحاذيها

موحياً بقرب الهجوم المدبر». واستطاع أمير البحر الأثيني بعشرين سفينة مثلثة ‹تريبيرية tri-êrês لها ثلاثة صفوف من المجدفين› أن ينتصر على سبع وأربعين سفينة پيلوپونيسية، وإذا كان الأسطول الأثيني الصغير قد انتصر على أسطول يزيد على ضعفه ، فلم يكن الفضل في ذلك مجرد مناورة منظمة كمشهد الباليه، يعرفها الغريمان كلاهما على أحسن وجه. وإنما يرجع الفضل في النصر إلى الـمُخطِّط العسكري ومهارته في التنبؤ بمراحل الإحاطة الدائرية وفي فهم خاطف للمناورة التي ستجعل الدائرة من المحال تجاوزها.

أما الحالة الثانية في الحرب البحرية وهي diékplous فإنها تترك مكاناً كبيراً أيضاً للذكاء المناور. وكلمة diékplous تعني في أساسها الدقيق «وسيلة الخلاص». مثلاً: عندما دفعت العاصفة سفينة الأرجونوتية إلى رمال بحيرة تريتونيس، ظهر الإله تريتون Tritôn على السطح ووعد ياسون - في مقابل الحصول على الكرسي المثلث الأرجل الخاص بعراف ديلفوي Delphoi - بأن يريه الممر للخروج من الرمال ويريه الطريق الذي ينبغي عليه ومن معه من الملاحين أن يسلكوه في رحلتهم. فالإله تريتون - مثله مثل آلهة بحريين آخرين - يكشف للملاحين الذين انسدت أمامهم السبل عن «وسيلة الخلاص» ، عن الطريق póros أو المخرج diékplous [١٠٠].ولكن من الناحية التقنية الـ diékplous وسيلة أعمق فكراً. في هذه الحالة ينتشر الأسطول على صف واحد، بحيث تكون مقدمات السفن ناحية العدو، ويكون على كل سفينة مثلثة أن تنزلق من بين سفينتين معاديتين محاولة أن تحطم بعض المجاديف. وعندما تتم السفينة المثلثة اختراق خط العدو، يكون عليها أن تدور حول نفسها نصف دورة وأن تستغل ارتباك العدو فتهاجمه من الجانب أو من الخلف. ولكن هذه النصف دورة المفاجئة ، هذا الانقلاب، الذي يؤدي بالعدو حسب الخطة إلى الارتباك، ولكن العقل الذي يفكر على نحو أقل روتينية يمكنه أن يتنبأ به وأن يجد فرصة لإيقاع العدو في الفخ الذي نصبه. هذه هي الخطة التي دبرها بالفعل هيراقليديس Herakleidês المولاسي Mylasa والتي كانت النموذج الذي اتبعه الماساليوتيون ليلحقوا هزيمة نكراء بأسطول قرطاجنه في الحرب البونية الثانية. كان الماساليوتيون Massaliotes يحذرون القرطاجنيين.«والواقع أن الفينيقيين عندما كانوا يتصدون لسفن مصطفة على خط مواجهة اعتادوا أن يندفعوا بسفنهم نحو العدو اندفاع من يريد ضربه بشوكة المقدمة. ولكنهم لم يكونوا يهاجمون عندئذ، بل كانوا يخترقون خَطَّه، ثم يدورون نصف دورة diekpleúsantes epistréphein ، وينقضون على السفن المعادية في اللحظة التي تكون فيها من الخلف، بالمقلوب plagiais. ولما كانوا يعرفون من التراث أسرار المعركة التي

جرت في أرتيميسيون، وخطط لها هيراقليديس Herakleidês الميلاسي، وهو رجل فاق ذكاؤه agchinoia آنذاك ذكاء معاصريه، ولهذا صف الماساليوتيون سفنهم على خط المواجهة الأول، وأمروا بأن يدعوا في الخلف على مسافات محسوبة سفناً احتياطية .فإذا اجتاز القرطاجنيون الخط الأول، كان على السفن الاحتياطية، دون أن تتحرك من موضعها المحدد لها، أن تهاجم السفن المعادية في اللحظة المناسبة eukairos، عندما تسير فيظهر جانبها (١٠١)» كان هذا هو ما فعله هيراقليديس Herakleidês الميلاسي.

أما المعركة بين القرطاجنيين والماساليوتيين فقد اختلفت أوضاعها. في الوقت الذي ظن فيه القرطاجنيون أنهم يباغتون الماساليوتيين بانقلاب مفاجئ، وجدوا أنفسهم يقعون في الفخ، ويتعرضون للهجمات التي قرر رجال مارسيليا أن يقوموا بها في تلك اللحظة بالضبط. هكذا انقلب دوران السفن الذي علق عليه القرطاجنيون أملهم في خداع أعدائهم، وأصبح وبالاً عليهم هم. لقد أحاطت بهم حلقات <غرز> شبكة دائرية فأصابتهم بالعجز. كان هيراقليديس Herakleidês الميلاسي هو الرجل الذي نجح لأول مرة في الضرب بالشبكة هذه الضربة الجميلة(١٠٢)، وحقق شهرة أي شهرة في كل ربوع كاريا Karia <على ساحل آسيا الصغرى> بفضل الهزيمة المنكرة التي أوقعها في الجيش الفارسي. كان قد علم أن الأعداء يتحرقون شوقاً إلى نهب المدينة، فنصب كميناً بالليل على الطريق الذي قرروا أن يسلكوه (١٠٣): وأبيد الجيش الفارسي. سواء على الأرض أو في البحر، بالكمين الليلي أو بالمعركة على سطح مياه الفضاء المتحرك. كان هناك ذكاء واحد يعمل عمله، يجمع معاً مرونة القيد وقوة الدائرة، ويضم غدر الأخطبوط إلى دهاء الثعلب.

ولكن إذا كانت الشبكة المتموجة هي أكمل أشكال الدهاء الميتيسي جميعاً، فإن توليفة الدائرة والقيد ترد في طائفة من الحركات والأشياء التقنية التي تعتبر في آن واحد منتجات وأدوات الذكاء الماكر. ينطبق هذا على بعض الفخاخ مثل الشوستراپ chausse-trappe <كما يسمونه بالفرنسية> الذي تقتنص به الوعول. ونسيج هذا الفخ يصنع من البلوط الأخضر المقشور القلفة، وله تيجان مدورة، وله خوابير خشبية وخوابيرحديدية على التبادل معشقة في الغطاء المضفور. وهناك من حول التاج حبل مضفور له عقدة منزلقة ربطت فيه كتلة خشبية ثقيلة. كذلك هناك أغصان مبرومة وحلفاء مضفورة تختلط وتتداخل في الفخ المصنوع بدهاء من أجل الإيقاع بالوعول التي تغلبها الغفلة فتضع حافراً في هذه الدائرة المقيِّدة(١٠٤). وشغل السِّلال الذي يضفر السِّلال هو الشغل الذي يُظهر فيه على نحو بالغ الوضوح ائتلاف القيد

والدائرة. وتعود ملاحظة هذا الشغل إلى هيبوقراطيس Hippokratês مؤلف رسالة Du Ré-gime. يتحدث فيها عن السلالين plokeis الذين يقومون في أثناء عملية التضفير بالتقدم في شغل السلة دائرياً kúkloi، وبدلاً من السير في الشغل من البداية إلى النهاية كما هي الحال في الأشغال الأخرى، فعندما ينتهون يرجعون إلى البداية، أي أنهم يسيرون من البداية arché إلى البداية arché [١٠٥]. وعلى النحو نفسه في النسيج ، في شغل الصوف، نجد خيوط السلسلة عندما يتم غزلها بالمغزل، تنضفر مع السداة لتكوِّن النسيج في مجموعه، ولكن شغل النسّاج يقوم على الذهاب والرجوع، بينما شغل السلال يسير بحسب تخطيط دائري كامل الدائرية يسوق البوص المبروم دون أن يلقى أبداً أية حدود غير نقطة البداية. وذلك سير نموذجي يذكِّر بالشكل الفائق لتلك الحلي التي لا نهاية لها ولا بداية، وهي أساور وخواتم دائرية كاملة الدائرية لا يقطعها حجر أو فص. ومن أجل صناعة مثل هذه الحلي أمضى هيفايستوس تسع سنوات في قاع البحار بصحبة ثيتيس Thétis وأورونومي Eurynomé ليصل إلى التمكن من شغل المعادن [١٠٦]. ومن بين روائع daidala دهائه الميتيسي نجد عقوداً hórmoi وأسلاكاً معدنية معدة لكي تلف حلزونياً حول الأذرع والرقبة gnamptai hé-likes [١٠٧]. وتلك روائع شكلها الدائري أو المنحني يؤكد التشابه مع الفخ الذي صنعه هيفايستوس للإمساك بأفروديتي وأريس؛ فهي كلها منتجات دهاء ميتيسي واحد. وليست قيمة الطلسم التي تضفيها على هذه الخواتم وهذه العقود لألأة المعدن وثروة الموتيفات المحفورة إلا شكلاً آخر من القوة السحرية التي تمتلكها شبكة القيود التي لا فكاك منها والتي صنعها هيفايستوس الصانع الديميورجي نفسه. ولأن شبكة هيفايستوس قيد يجيش بقوة الحياة في أشد صورها فهي لا تعرف لها من حد آخر إلا فلك دائرة مقفلة على فريستها. وسواء كان القيد الدائري شبكة أو حلية فإنه لا يفعل - برفضه لكل حدود تفرض على تحوراته العديدة - أكثر من تصوير سمة جوهرية من سمات الدهاء الميتيسي. وبقدر ما تكوِّن الغلالة والشبكة المنسوجة بدهاء كلوتايمنيسترا الميتيسي فخاً «لا مخرج منه» على صورة المرأة الماكرة التي يصفها كورس <مسرحية> «أجاممنون» بأنها «حية لها رأسان» <رأس من كل ناحية> - هذه الأمفيسباينا amphisbaina تنتهي ببدايتها [١٠٨] مثل روائع هيفايستوس التي يبدو أنها تشبه صانعها في هذا الذي بدا لنا أنه يحدد على نحو بالغ التطابق الدهاء الميتيسي للحداد: دائرية المشية والاتجاه المزدوج الذي تتجهه أطرافه المعوجة والمنحنية [١٠٩]، وهو ما يسجل على أرض الواقع تخطيطاً موسوماً يبدو مثل الأساور والخواتم «اللامحدودة» بلا نهاية وبلا بداية.

ولكن هيفايستوس ليس الإله الوحيد المقيِّد الذي ترسم لنا آثاره صورة اللامخرج apei-ron. وإذا كان هيرميس قد وقف في الصف الأول من المتفرجين الذين دعاهم الزوج المهان ‹هيفايستوس ليشهدوا زوجته الآثمة وعشيقها في الفراش› فإنما يرجع السبب في ذلك إلى أنه عليم بالأعمال الملتوية والمعوجة وأن دهاء الميتيسي - مثل هيفايستوس - يخلف وراءه آثاراً لا ينجح واحد من ملاحقيه لا في حل شفرتها ولا في تجاوزها، بل هي تغرقهم في الذهول وتتركهم حيارى. وسرقة بقر أبوللون تكشف التوافق العميق بين ذكاء هيرميس والسلاسل «اللامحدودة» التي تمنى كل التمني أن يقع أسيراً لها. واستخدم هيرميس كل ما أوتي من مواهب الدهاء dolié téchné لكي يمحو آثار حوافر البقر ويقلب أرض المدق (١١٠). فما كاد يفصل عن بقية القطيع الحيوانات التي اختارها حتى عمل على تقليب الآثار، وهي عملية يصفها "النشيد الهوميروسي" على مدى بضعة أبيات وصفين بينهما اختلاف خفيف. في الوصف الأول نجد هيرميس يدفع أمامه البقرات، ويغير الآثار ichné apostrépsas، قالباً علامات الحوافر antia poiésas hoplás، راداً تلك التي في الأمام إلى الخلف، وتلك التي في الخلف إلى الأمام tàs prótas ópisthe, tàs d'ópithen prótas. وبينما كان يدفع الحيوانات أمامه، ويقلب بالسحر آثار حوافرها كان هو نفسه يمشي «في الاتجاه العكسي» émpalin(١١١) - أما في الوصف الثاني فنجد البقر هو الذي يمشي في الاتجاه العكسي، ويلف رأسه ناحية الراعي الذي يقودها مصطنعاً مشية «مقلوبة» epistropháden (١١٢). ويبدو أن المقصود أن هيرميس كان يسير وقد لف رأسه ناحية حيواناته، ولف قدميه إلى الاتجاه العكسي، على النحو الذي اتخذته آثار الحيوانات بالسحر في الوصف الأول. الفرق الوحيد بين الوصفين هو الاتجاه الفعلي للبقر فهو يسير في أحده مطمئناً في الاتجاه الذي اختاره هيرميس وقد أناط بالسحر إنجاز الباقي، وفي الآخر يستسلم البقر لتجربة غير مألوفة فيسير القهقرى ويوفر على راعيه «المشية المقلوبة». أياً كان الأمر فقد كوّن هيرميس وأبقاره ركْباً ذا اتجاه مزدوج متفارق تتركز غرابته كلها في صورة ظلية محيرة لشخص يتجاذبه العلو والهبوط في اتجاهين متضادين، بالضبط مثل هيفايستوس ذي الاتجاهين المسمى amphiguéeis .

هذه الآثار المزدوجة هي الفخ الذي دبره هيرميس. لقد أصبح الطريق الترابي بالنسبة إلى ضحاياه مضطرباً كل الاضطراب: فآثار الحوافر والأقدام مقلوبة في الاتجاه العكسي، تقود من يقصها إلى الناحية المضادة لتلك التي سلكها القطيع المسروق، وهي ترسم مساراً لا يؤدي من بداية إلى نهاية، بل لا يعرف له من حد إلا نقطة الانطلاق. وتشتد حدة الغموض المزدوج الذي يحيط بهذه العلامات نتيجة لتشديد القصة على إظهار اجتماع المتضادات في آثار الحيوانات

وفي آثار هيرميس سواءً بسواء. هذا القلب المزدوج يثير ذهول ورعب قصاصي الأثر الذين دفع بهم أپوللون في أثر سارق البقر عندما يكتشفون فجأة «أن الذاهب إلى أمام يذهب إلى الخلف» وأن «المتضادات تتداخل بعضها في البعض الآخر» tà d'aû enánti'alléloisi sump [eplegména] (١١٣). ولا تقف هذه الآثار المزدوجة والفظيعة التي اخترعها دهاء هيرميس الميتيسي عند حد تقليد دهاء الأرنب البري الذي يسمي الصيادون فعلته الماكرة «تبطين الطريق» ويقصدون بذلك أنه يعود فيطأ آثاره رجوعاً حتى يضلل الكلاب التي تقتفي الأثر (١١٤). فإحداث التداخل بين الأمام والخلف يستخدم فيما يستخدم الذكاء التقني للسَّلال ومهارة صياد الحيوان فمن أجل تسيير الحيوانات المسروقة، صنع هيرميس لنفسه diaplékein نعلين عجيبين، خارقين للمألوف thaumatà érga، بأن ضفر summisgon أغصان الطرفاء ‹اسم الشجرة بالفرنسية tamaris› وأفنان نوع من الريحان ‹بالفرنسية myrte› (١١٥). في هذ المجال الذي يتخذ فيه الصيد أو السرقة شكل مباراة نجد الدهاء الميتيسي عند هيرميس لا يفرق في أية لحظة الخطط البالغة الذكاء عن القدرة على إبرام الألياف النباتية وتضفير الفخاخ التي تريد نصبها (١١٦). وهيرميس عندما يحدث التداخل بين الأمام والخلف، ويضفر الاتجاهين المتضادين أحدهما في الأخر، يسجل على التراب وعلى الرمل الشكل الموصد لهذه الآثار التي لا يمكن أن يتتبعها أحد، والتي تجعل من المحال الإمساك به، في نفس الوقت الذي تلقي فيه بمن يحاول فك الشفرة إلى الحيرة والعجز. وأپوللون يقر بذلك أمام الآلهة فيقول إن هيرميس لا يمكن الإمساك به améchanos، ولا يمكن ترويضه ؛ وإن كل الحيل التي تستخدم ضده مصيرها الفشل لا محالة (١١٧). هذا الإله الذي لا تستطيع أية سلسلة أن تقيده والذي سعت أمه وأبوه إلى تخويفه، فهددته أمه بقيود موصدة لا تنحل améchana (١١٨)، وهدده أبوه بظلمات في التارتاروس لا مخرج منها améchanos (١١٩). وأپوللون لا قدرة له على تنفيذ تهديده. فعندما اغتاظ للإطاحة باثنين من حيواناته، وشرع في تكبيل أخيه هيرميس وتطويقه peristréphein بقيود شديدة karterà desmá، وجد نفسه أمام منظر تركه مشدوهاً مرة أخرى. فأفنان الأرثد ‹اسم الشجرة بالفرنسية gattilier› التي كان المفروض ‹أن تصبح قيداً شديداً مضفوراً› أن تغل المذنب تغلغلت داخل الأرض، وكونت جذوراً، وتكاثفت es-ramménai بعضها في البعض الآخر، ووصلت دون ما جهد إلى قطيع أپوللون وأبقاره(١٢٠). هنا يقدم هيرميس المشهد النادر للدهاء الميتيسي الذي يضفر قيوده من أجل متعة الإبهار. وبينما تنسج أفنان الأرثد شبكة حية ‹من النبات الحي› تحت بصر أپوللون المتصلب، كانت عين هيرميس الخبيث تتأجج بنار الدهاء الميتيسي. والقيود التي تنحل من تلقاء ذاتها، مثلها مثل

الآثار المزدوجة المتداخلة، تشكل عملية دهاء سحري تضاف إلى المغامرات الأخرى لدهاء هيرميس الميتيسي. هذا المشهد المدهش يثير لدى المشاهد شعوراً بالانشداه، نوعاً من الانبهار والدوار، مثل الذي كانت تثيره الأسئلة ذات الألغاز التي كان سقراط يوجهها إلى محدثيه فيظلون في حيرة لا يعرفون ماذا يقولون وقد تردوا إلى موقف لا مخرج منه ووقعوا في حالة نفسية «تنجم عن تساوي استدلالين متضادين» (١٢١). كل هذا يدخل في عداد تشابك الاتجاهات المتضادة، التي رسمها دهاء هيرميس الميتيسي على أرض الواقع، فهي بالمعنى الخصيص لغز يسميه الإغريق تارة ainigma أينيجما وتارة جريفوس griphos (١٢٢) وهي نفس الكلمة التي تطلق على شبكة صيد سمك من نوع معين (١٢٣). لأن اللغز يتم ضفره مثل السلة أو الجابية. ويتحدث پلوتارخوس في حوار من حواراته عن الإسفنكس Sphinx الذي يضفر الألغاز ainigmata kai griphous plékousan (١٢٤) ويدبج الأسئلة التي وصفها سوفوكليس بكلمة poikila (١٢٥) أي مختلطة، مبرقشة، متلونة، متموجة. ويبين نسيج بعض الألغاز، من بين أكثرها شهرة، تشابك الأشكال وبرقشة الألوان التي تضفي على هذه الأسئلة الانتفاض المقلق الكامن في عبارة كأنها تجيش برعدة دائمة ولا تبقي أبداً على حال. فعندما يجد الكاهن پولويدوس Polyeidos نفسه يواجه اللغز الذي طرحته الكوريتيس Kourétes، وهو :«ما هي البقرة الثلاثية الألوان التي تنتمي إلى قطيع الملك؟ وماذا تشبه؟» يتبين أنه يواجه عبارة لا يمكن إدراكها فهي تتخذ كل الأشكال دون أن تظل أسيرة أي شكل منها أبداً. ويضع الكاهن نهاية لومضات المعاني الممكنة عندما يجيب: «هي توتة ‹ثمرة توت mûre›، تارة بيضاء، وتارة حمراء وتارة سوداء» (١٢٦). هذه الإجابة التي تخرجه من اللامخرج منه هي القبضة الأكيدة التي سلسل بها عبارة اللغز المتموجة المنتفضة .

وتشابك الحدود المتضادة يعطي انتفاضة اللغز أقصى شدته: « رجل لم يكن رجلاً، رأى ولم ير طائراً لم يكن طائراً، حط على خشب لم يكن خشباً، رمى ولم يرم، حجراً، لم يكن حجراً»(١٢٧) هذا هو اللغز الأطفالي عن الخصي الذي صوب حجراً خفافاً على خفاش حط على قشة لم يكن يراها جيداً. وهو مثل على الكلمات المزدوجة المعنى التي تتيح لأفلاطون تحديد حقل الرأي ، الدوكسا dóxa، هذا العالم الوسيط الذي يشترك في آن واحد في الوجود واللاوجود، حيث يتداخل ويختلط المظلم والمنير، ويتشابك الحق والباطل تشابكاً وثيقاً. (١٢٨) هذه العبارات ‹التي ليس لها رأس وذيل، بل لها رأسان›، العبارات ذات الرأسين التي تُتجاذب في الاتجاهين المتضادين epamphoterizein (١٢٩) والتي يسميها آخرون «عبارات الكابوريا»(١٣٠) لأنها معوجة لا تسير أبداً مستقيمة إلى الهدف، هي فخاخ وعتها ودبرتها

كائنات ذوات دهاء وذكاء، مثل اسفنكس ثيبة، في العالم الميثي، ومثل كليوبولينى، ابنة حكيم من الحكماء السبعة، هو كليوبولوس Kleoboulos، في عالم أقل إحداثاً للحيرة(١٣١). فبينما كانت السائلة التي طرحت الأسئلة على أوديبوس وحشاً ثلاثي الهيئة تطابق معرفته المتشعبة هيئته الثلاثية التي تجمع بين المرأة والأسد والطائر، كانت كليوبولينى Kleobuline ابنة الحكيم كليوبولوس Kleoboulos التي صورها بلوتارخوس في «وليمة الحكماء السبعة»، بنتاً صغيرة فاتنة تجرى إلى ثاليس Thalês لتعانقه، وتتسم بذكاء لامع حتى إن أباها، كما يشرح ثاليس، أسماها أوميتيس Eumètis– أي ميتيس الطيبة – نظراً لمهارتها في حل وطرح الألغاز، وهي مهارة لا يفصلها ثاليس عن الذكاء الذي أثبتته كليوبولينى نفسها في مجال السياسة (١٣٢). ومعرفة أوميتيس مزدوجة: فهي تعرف كيف تضفر الكلمات الغامضة التي تحتمل معنيين، وتعرف كيف تجمع الضدين وكيف تشابك المعتيين، ولكن دهاءها الميتيسي في المقابل يتيح لها أن تجد الكلمة أو الإجابة التي تفرض صوتاً واحداً على الخطاب المتعدد الأصوات والأشكال، وأن تعمل عمل القيد السحري فتفرض الصوت الواحد على ما تضمه العبارة الممتنعة على الفهم من أوجه محيرة أشد الحيرة. وابنة كليوبولوس Kleoboulos مثل إلهات البحر التي تحمل أسماء ثيتيس ونيريوس وميتيس وتشترك في معرفة عرافية وموهبة التحور. ولكن القوة الإلهية لديهن كثيراً ما تفشل عندما يتصدى لهن بحركة سحرية كائن أكثر دهاءً عرف كيف يتحين فرصة مباغتتها، أما أوميتيس التي تعرف كيف تحل الكلمات الغامضة المزدوجة المعاني كما تعرف كيف تضفرها، فإنها تمتلك – مثل هيفايستوس وهيرميس – الامتياز المزدوج المتمثل في أنها في آن واحد قيد ودائرة: فهي من خلال الألغاز تمد الدائرة اللانهائية لأشكالها المتغيرة، وهي من خلال إجاباتها النبيهة ترسم من حول السائل الدائرة الموصدة التي لا سبيل إلى اجتيازها نفس الدائرة التي يعقدها حول الآلهة الهاربة ذراعا الإله المنتصر على اللغز المنضمين كالمنجلة.

* * *

بدون التواطؤ الأساسي بين القيد والدائرة لا يستطيع الدهاء الميتيسي أن يمارس ذاته كامل الممارسة. فالذكاء الماكر لكي ينشر كل مقوماته يحتاج إلى التبادل الدائري بين المقيِّد والمقيَّد. ولكن هناك مفارقة في الكشف عن ديناميكية الدهاء الميتيسي في مقالب يدبرها إوليمپي مخدوع لكي ينتقم لنفسه. فمنذ اليوم الذي استقرت فيه سيادة زيوس نهائياً تعدلت لعبة الدهاء الميتيسي على نحو جذري، حيث ابتلع زيوس زوجته الأولى الإلهة ميتيس، وبهذا

محا زيوس بضربة واحدة لصالح لنظام ثابت مستقر هذا الجزء الذي لم يكن من الممكن التنبؤ به من الاضطراب الذي كان يثير الثورات والصراعات بين آلهة زمان مضى. منذ فعل زيوس ذلك لم تعد هناك مغامرات، ولا مفاجئات؛ لم تعد هناك انقلابات يجد سيد القيود نفسه بعدها نفسه مقيداً. وإذ ألح الآلهة الآخرون على زيوس أن يوزع بينهم التشريفات والامتيازات، وزع المعارف مُعرَّفة في حرص والسلطات محددة بعناية. هكذا نجد الاضطرابات التي كانت ميتيس تولدها عندما كانت منضوية لنفسها تُنَحّى عن عالم آلهة الأوليمپوس الذي شمله النظام. ويرجع الفضل إلى حرص زيوس في أن زوجته الأولى لم تعد تستطيع أن تهدد النظام الذي أقامه وبخاصة لأنها كانت مضطرة إلى ضمان استقراره واستمراره. فزيوس، سيد العالم الجديد، لم يرتكب خطأ نبذ ميتيس إلى هذه الناحية أو تلك قبل أو بعد حدود مملكته، بل ابتلعها فدمجها بهذا الابتلاع في سيادته هو. واحتفاظ زيوس بميتيس في داخله يسمح له بأن يتدبر مسبقاً كل صنوف الدهاء التي يمكن أن يمكرها في الأزمان القادمة بشر أو آلهة أو وحوش مجهولة. إن زيوس، قاهر كرونوس، إذ افتتح عالماً يتمتع فيه كل واحد بامتيازاته دون خوف من أن يتجرد منها أبداً، أسس في الوقت نفسه القانون الذي يبرر الممارسة الدائمة الثابتة لسيادته؛ لقد صادر لصالحه القوة الوحيدة التي كان يمكن أن تشكك في تقسيم السلطة، وأناط بها مهمة الحفاظ على منظومة الانحرافات الخلافية التي تمثل على نحو ما مجمع الآلهة - الپانثيون - خاضعاً لسلطانه. منذ ذلك الحين لم يعد الدهاء الميتيسي إلا مكوّنا في بعض المعارف أو في بعض السلطات التي تتولاها مجموعة صغيرة من الآلهة تتجه أنشطتهم وظيفياً نحو المجالات التي يعلو فيها قدر هذا اللون من الذكاء. في هذه اللعبة الجديدة للميتيس يكسب الأوليمپيون في كل الحالات بالضرورة. وهذا هو أوليسيس يسمع هذا المعنى تذكره به أثينة عندما ابتسمت لرؤيته يدبج أكاذيبه موجهة إلى أول قادم دون أن يشك في أن أثينة - ابنة ميتيس - نصبت له لتوها فخاً إذا اتخذت قناع شخص[١٣٣]. والمعركة بين إله وبشر غير متكافئة بالضرورة، حتى إذا كان هذا البشر واحد من أهل الأرض «يساوي دهاؤه الميتيسي زيوس» [١٣٤].

أياً كان الأمر فعالم البشر الجياش بالإمور البشرية هو العالم الذي ينعم فيه الذكاء الماكر بكل امتيازاته. هذا الذكاء الماكر المشغول بالصيرورة يجد نفسه بلا انقطاع يواجه أحداثاً جديدة، ومواقف غامضة تحتمل معنيين؛ وهي إذ يتربص بها ما لا يمكن التنبؤ به ينبغي عليها أن تكون من اليقظة والمهارة في التحور المتعدد بحيث تحول لصالحها القوى الماكرة التي تدبر لتقلب عليها فخاخها وشباكها. لا مكان هنا أبداً للعبة الدائرية بين المقيِّد والمقيَّد. بين المقيِّد

والمقيّد ونوع الرجال ذوي الدهاء لم يكف عن الزيادة منذ القائمة التي وضعت بسرعة في الإلياذة ليهتدي بها أنطيلوخوس (١٣٥). فإذا كان الدهاء الميتيسي لقاطع الشجر، قد لحق به منذ وقت مبكر دهاء النجار، ثم دهاء الملاح ، فإن مهارة قائد العربة ليست إلا شكلاً خاصاً من الذكاء يتطلبه كل موقف مباراة من أي بطل، وحرص الشيخ نيسطور الذي يعطي الجماعة أفضل الآراء يستبق مباشرة مهارة السياسي وهو الرجل الذي يعرف كيف يكوّن في أقصر وقت أصح رأي عن عن أوسع احتمالات المستقبل. ودون أن نتكلم عن صياد الحيوان وصياد السمك، لم يعد ينقصنا لإكمال القائمة إلا الطبيب والمخطط الحربي والسفسطائي - وهم الأنماط الثلاثة من الرجال ذوي الدهاء الميتيسي الذين يقارنون في أغلب الأحيان في الفكر الإغريقي بالربان الذي يقود السفينة القيادة المستقيمة في البحر على الرغم من العواصف. من النجار إلى الجنرال، من السياسي إلى الطبيب، من الحداد إلى السفسطائي نجد السمات الجوهرية للدهاء الميتيسي هي هي حتى نهاية الثقافة الأنتيكية. إنها هي التي سمح لنا الفصل الخاص بأنطيلوخوس باستخلاصها في الملحمة الهوميروسية. أما بالنسبة إلى السفسطائي والطبيب والسياسي فليس لهم من مجال عمل إلا الصيرورة، إلا التحول وإلا ما لا يبقى أبداً شبيهاً بذاته؛ وليس المرض والخطاب قوتين أقل عدوانية وإفلاتاً من البحر والنار أو المعدن المنصهر؛ ومواجهتهما تتطلب دائما التنبؤ بالفرصة الخاطفة الهاربة التي تتيح خداع القوى المتعددة التحور. والانتصار الوقح الذي حققه أنطيلوخوس عندما تقدم على جوادي مينيلاوس الأكثر سرعة، لا يفترق عن «القوة الرائعة» للسفسطائي (١٣٦) الذي يلقي خطابين متضادين عن كل مسألة وينجح في جعل الخطاب الأضعف هو الخطاب الأقوى، الخطاب الذي يتمكن على عكس المتوقع من الغلبة بقبضة لا سبيل إلى مقاومتها.

على مدى ما يزيد على عشرة قرون نجد نموذجاً واحداً، بسيطاً إلى أبعد حدود البساطة، يشهد على مهارات، وتصرفات، ومهارات منوعة تنوع النسيج والملاحة والطب. وهكذا ظل الذكاء العملي الماكر منذ هوميروس إلى أوبيانوس تحت كل أشكاله يمثل معطى دائماً مستمراً من معطيات العالم الإغريقي. ومجاله إمبراطورية ، والإنسان الحريص، الرجل ذو الدهاء الميتيسي، سيتخذ في وقت واحد عشرة أوجه مختلفة، متجسماً في الأنماط الرئيسية للمجتمع الإغريقي، من قائد العربة إلى السياسي، مروراً بصياد السمك، والحداد ، والخطيب، والنساج، والربان، وصياد الحيوان، والسفسطائي، والنجار، والمخطط الحربي: حاضراً دائماً في كل مكان، ولكنه مع ذلك غائب غياباً عجيباً، على الأقل في التاريخ المألوف لدينا. وليس من شك في أنه قد يبدو من قبيل المفارقة أن شكلاً من الذكاء - رأينا كم هو أساسي، وكم هو

واسع التمثيل في مجتمع كالمجتمع الإغريق القديم - ظل على نحوٍ ما غير معترف به. وتزيد دهشتنا عندما نذكر أن فيْلَسوفَيْ القرن الرابع - أفلاطون وأرسطوطاليس - لم يتقاعسا عن التنويه به، وتفصيل سماته وتحديد صفاته. وإذا استطاع مستطيع أن يحمل شراهة زيوس إصر السكون الذي خيم على الآلهة ذوي الدهاء الميتيسي، فإلى من تتجه شكوكنا في بحثنا عمن التهم النظير البشري ، الإنسان الحريص، الإنسان ذا الألف شكل؟

وليس البحث في هذا الموضوع بحثاً تافهاً كما قد يبدو، لأنه يقود، أولاً على خط مستقيم إلى الفلاسفة الذين يهتمون اهتماماً شديداً ومبرراً بأوجه المعرفة المختلفة. ففي تحليلهما لما أسميناه حتى الآن الذكاء العملي ميّز أفلاطون وأرسطوطاليس صفتين رئيسيتين ليستا جديدتين كل الجدة تنضمان معاً لترسما أنسب نموذج مفهومي لإثبات أن الدهاء الميتيسي يخطو خطىً ملتوية، وأنه ينطلق مباشرة إلى الهدف سالكاً أقصر الطرق، أي طريق اللف والدوران(١٣٧). أول صفة من هاتين الصفتين العقليتين تبين العلاقة الضرورية بين حركة الذكاء وبين سرعة عمله، هذه الصفة هي الأجخينويا agchinoia «الألمعية» التي يشدد فيها على اللمحة والحدة. وأفلاطون يشرح في «خارميديس Kharmides» (١٣٨) أن صاحب الألمعية هو الذي يتصرف على نحو بالغ الخفة وبالغ السرعة لاستخلاص قراراته أو آرائه، سواء كان الأمر أمر تفكير أو أمر بحث عقلي. وأرسطوطاليس من ناحيته يشدد على أن هذا الشكل من الذكاء يمارسه صاحبه في وقتٍ «أقصر من أن يُلاحظ» áskeptos (١٣٩): لحظةٍ خاطفة هاربة إلى درجة أنها تفلت من انتباه المتربص skopós حتى لو كان أشد الناس يقظة؛ وقتٍ مفرط القصر يشبه الشعرة التي بلغت من القصر حداً يستحيل معه قصها akarés(١٤٠). خص أفلاطون هذا الذكاء الذي يمتاز بالخفة كل الخفة والمرونة كل المرونة بمجال هو التفكير والبحث العقلي. أما أرسطوطاليس - فدون أن يناقض أفلاطون - فقد خص الأجخينويا agchinoia «الألمعية» بمجال تطبيق أوسع بكثير، حيث يتحدث عن « ألمعية» القابلة إذ تقطع الحبل السُري: «قطع الحبل السري يتطلب من القابلة لوناً من التفكير لا يخطئ الهدف المطلوب بلوغه ouk astóchou dianoias. فلا يكفي أن تكون قادرة في الولادات العسيرة على أن تسعف المريضة الإسعاف الصحيح euchéreia، ولكن ينبغي أيضاً أن تكون ألمعية حتى تتقي ما قد يطرأ من أحداث pròs tà sumbainonta agchinoun وحتى تربط الحبل السري للطفل(١٤١)» ‹معرفة› حركات اليد لا تكفي، بل تحتاج القابلة إلى خبرة (١٤٢)، فبحسب ما إذا كان خلاص الجنين خرج في نفس الوقت معه، أو بقي في الداخل، وبحسب الوضع الذي يتخذه الطفل، تختلف حركات يد القابلة: ففي إحدى الحالات ينبغي أن يتم القطع في الداخل

بعد ربط الحبل السري؛ وفي حالة أخرى ينبغي فصل الحبل عن الخلاص بالاستعانة بخيط من الصوف والقطع من تحت الرباط. وعبارة أرسطوطاليس عن ذكاء متجه كله نحو حركة الأشياء والأعمال الجارية تجعلنا نظن أن مهارة القابلة لا تختلف عن ألمعية السياسي وأن نفس الذكاء الحاد المتوقد يمكن أن يكون مطلوباً على السواء في محارب ماهر في الخطط الحربية وفي قوة إلهية بحرية نسلها تناط به الأنشطة التعدينية. والواقع أننا نجد في تراث ليمنوس الميثي أن الكابيري - الآلهة الحدادين المولودين عن اتحاد هيفايستوس وكابيرو - من ناحية الأم أحفاد بروتيوس وربةٍ اسمها أنخينويه Anchinoé(١٤٣) : القوى الإلهية الصادعة بالتعدين التي يربطها أهل ليمنوس بالكابوريا تنحدر من ناحية الأم من ربة تناظر ميتيس ولكنها ربة اتخذت قدرتها على التحور شكل ذكاء مرن مرونة رهيبة.

أن تكون بالمرصاد لكل ما يمكن أن يطرأ، هو أن تتزود بكل وسائل التنبؤ بحيل العدو، وأن تتخيل مسبقاً طرق الإمساك بها في شبكتك، كما فعل ‹القائد العسكري› هيراقليدس المولاسي في ‹معركة› أرتيميسيون، ذلك الرجل الذي فاق كل معاصريه بألمعيته، عندما نجح في أن يحبس في دائرة محكمة سفن الأعداء في اللحظة التي كانوا فيها يظنون أنهم يفيدون من المفاجأة بإحداث العكس المقرر في المناورة من نوع اختراق خط العدو diékplous(١٤٤).

في حديث الفيلسوفين ‹أفلاطون وأرسطوطاليس› الذي يدور حول حدة العقل، نجد الألمعية agchinoia على نحوٍ ما لا تنفصل عن صفة أخرى للذكاء يأتمن عليها أرسطوطاليس القابلة التي يقول عنها «إنها لا تخطئ قط الهدف المطلوب بلوغه». هذه الصفة في شكلها الإيجابي هي الإصابة، هي صواب الرؤية custochia. فالذكاء الحاد لا يقوم بدون هدف يُستهدف، إنه يتضمن استعداداً لبلوغ الهدف المستهدف (١٤٥). وعبارة يتخذ هدفاً هي بالإغريقية stocházesthai (١٤٦) وهو فعل ينتمي إلى مفردات القواس وصياد الحيوان. وأفلاطون عندما يتحدث عن الإصابة eustochia يشير عدة مرات إلى مهارة القواس الذي يوجه قوسه نحو الهدف (١٤٧)؛ وعندما يدور الحديث عن مواجهة الخنزير البري، لا يتقاعس الفقيه المعجمي پوللوكس، ‹يوليوس پوللودويكيس Joulios Poludeukês› عن التشديد على فائدة النظرة الصائبة بالنسبة إلى صياد الحيوان الذي لا يمكن أن يأمل في إخراج الوحش مغلوباً من المعركة إلا بإصابته إما على مستوى عظم الكتف أو بدقة بين العينين (١٤٨). في المجالات المختلفة التي يتدخل فيها الدهاء الميتيسي نجد النظرة الصائبة تكتسب من الأهمية قدر ما يكتسب تَوَثُّبُ الفكر. والصانع الفني الذي يبدع مصباحاً لا بد أن تكون له

نظرة صائبة [١٤٩] ولا بد للربان أن يكون قادراً على «التصويب الصحيح» [١٥٠] لكي يقود السفينة مباشرة إلى الميناء. وسواء كان الأمر أمر ممارسة طبية، أو مناورات عسكرية، فإن عمل القائد أو الطبيب يحدده دائماً الهدف المستهدف [١٥١]؛ هذا الهدف الذي ينبغي على الرجل السياسي هو أيضاً، إذا أراد أن يسوس المدينة، أن يستهدفه، دون أن يدع نظرته تعوم بأن يصوب في اتجاهات متعددة في آن واحد، بل يتبع طريقة اللجنة المركزية «للمدينة الأفلاطونية» «فلا يستهدف إلا هدفاً واحداً، على نحو يمكنه من تركيز كل مقوماته عليه إن صح التعبير [١٥٢]».

سرعة اللمحة وإصابتها: عندما أمسك أرسطوطاليس وأفلاطون بهذين المفهومين لتحديد السمة النوعية للدهاء الميتيسي فقد اختارا أن يشددا علي طبيعة «الإصابة» للذكاء العملي وقاما على هذا النحو ببيان الوجه التنبؤي لنوع من المعرفة ارتسم مساره من قبل بكوسموجونية ألقمان مع تصوير ثيتيس ، وهي قوة الفضاء البحري ومعها مساعداها تيكمور Tékmor وپوروس Póros أي العلامة والطريق . والحق أن التنبؤ tekmairesthai هو – على طريقة الملاحين الذين يثقون في إشارات العرافين والعلامات المضيئة في السماء – فتح طريق بالاستعانة بنقاط اهتداء وتثبيت العينين على الهدف التي تقصد الرحلة الملاحية إلى بلوغه [١٥٣]. والمعادل الذي يقيمه علماء المعاجم بين «يستهدف stocházesthai» و«يتنبأ tekmairesthai» [١٥٤] يبرره العرض الصريح لمعرفة تقريبية على هيئة رحلة طويلة عبر الصحراء éremosحيث الطرق لم تعد مرسومة، أو حيث ينبغي على الإنسان أن يخمن طريقه وأن يستهدف نقطة على الأفق البعيد. هذه المعرفة الملتوية والعرجاء هي تلك التي جعلها «كتاب عن الطبيعة» (<عنوانه بالفرنسية Traité sur la Nature> الذي ألفه ألكيميون الكروتوني Alcméon de Crotoneفي نهاية القرن السادس) قِسْمَةً بين البشر جميعاً، على خلاف اليقين الذي لا ينعم به سوى الآلهة سواء بالنسبة إلى الأشياء الغيبية أو بالنسبة إلى أمور البشر [١٥٥].

نأخذ من هذه المعرفة التنبؤية التخمينية التي تشارك بوجودها في مجموعة الأنشطة التي يسودها الدهاء الميتيسي مثلين سيسمحان لنا بأن نحدد بناء عليهما أوجه هذا اللون من المعرفة، وهما: الطب والسياسة. هذان مجالان يرتبطان بالنسبة إلى الفكر الإغريقي برباط التضامن الوثيق ويمثلان، كلاهما، موضوع تفكير استمر على مدى الزمن وتناولهما التشكيل القائم على مفاهيم عقلية منذ مطلع القرن الخامس. في ذلك العصر لم يكن هناك معرفة بدا

عليها أنها بينت من التوافقات مع فن الملاحة أكثر مما فعل الطب، وكان من الأمور العادية أن يقارن الربان القابض على دفة السفينة بالطبيب الذي يسعى إلى إنقاذ المريض من خطر المرض[١٥٦]. والواقع أن المرض كان في تصور الإغريق من قبيل اليويكيلون poikilon الشيء المخاتل المتلون المبرقش [١٥٧]؛ بمعنى أن القُوَى التي كان على فن الطب التصدي لها متعددة ومائجة [١٥٨]. و«كتاب الأوبئة»(عنوانه بالفرنسية Traité des Épidémies) يعرض قائمة حافلة بالمعطيات التي ينبغي على الطبيب أن يضعها في حسابه عندما يفحص مريضاً: «الطبيعة الإنسانية العامة، والطبيعة الخاصة بكل إنسان: المرض، المريض، العقاقير الموصوفة، الشخص الذي وصفها، وما يمكن أن يستنتجه الإنسان منها خيراً أو شراً؛ الحالة العامة للجو، والحالات الخاصة للجو، بحسب تنوع السماء والمكان؛ العادات وأساليب الحياة، أنواع الشغل، عمر كل فرد، العبارات، السلوك، صنوف الصمت، ضروب الفكر، أنواع النوم، أنواع الأرق، الصفات، لحظات الأحلام؛ حركات اليدين المضطربة، أحاسيس الأكلان، الدموع؛ نوبات التوتر، أنواع البراز، أنواع البول، أنواع البصاق، أنواع القيء؛ طبيعة الأمراض التي يتبع بعضها بعضاً؛ الرواسب الدالة على التدهور والأزمة؛ العرق والبرودة والرعشة والسعال والعطس والزغطة، الجشاء والتكريع، الغازات الساكنة <الفساء> والصاخبة <الضراط>، حالات النزيف والبواسير [١٥٩]» وينبغي على الطبيب لكي يعرف اتجاهه في هذا العالم من الأعراض المتحركة أن يكون مالكاً لكل مقومات ذكاء متعدد الأشكال يقابل عدوه الذي يمكنه أن يتخذ أشكالاً عديدة: ينبغي أن يظهر من القدرة على التوسل بالوسائل العديدة [١٦٠] مثل بطل هوميروس الذي يلعب ألف لعبة. ويتوازى مع ذلك وجه جوهري من أوجه الممارسة الطبية هو التصرف بسرعة واطمئنان: وهناك عبارة محكمة تقول إن الطب هو فن تقدير سريع خاطف أوليجوكايروس oligókairos [١٦١] وفرص التدخل فيه دائماً لحظية oxús. فلا يصح أن يُعالج ظهراً ما ينبغي أن يعالج صباحاً [١٦٢]. والطبيب كصياد الحيوان المتربص عليه أن يتحين اللحظة الدقيقة التي يكون فيها تدخله حاسماً. ولكنه لا يستطيع أن يدرك فرصة انتهاز اللحظة المناسبة (الكايروس Kairos) والقبض عليها، والأخذ بناصيتها إلا إذا كان مزوداً على نحو كاف بكل المعرفة التي اكتسبت بالخبرة لكي يتنبأ ويستشعر الوقت الذي ستبزغ فيه اللحظة المواتية. فالمرض إذا كان قوة مزودة بالتحور، فإنه كذلك يخترقه إيقاع خاص به [١٦٣] وتأتي في أثناء تطوره لحظة يحدث فيها تحول حاسم فيدور مسار الأشياء فجأة وينقلب: تلك هي الأزمة، وتلك هي الأيام التي توصف بأنها حساسة، وهذه هي النقطة الخاطفة التي يستطيع فيها احتيال الطبيب، هذا الكائن الضعيف، أن ينتصر على قوى المرض العدائية [١٦٤].

والعلم الطبي يحتكم، لكي يوجه عمله، على أسلوب معرفي خصيص ، هو التشخيص، يضم ثلاث عمليات عقلية معاً:

- التفكير في الحالات الحاضرة
- مقارنتها بالحالات الماضية التي تقدم ظروفاً مشابهة
- استخلاص النتائج التي تسمح بالتنبؤ بكيفية تطور المرض (١٦٥).

ولكن الطبيب لا يتسم بسمة تنبؤية بناءً على قدرته على التأثير على الزمن فقط، فيكون كما يقول پيندارو س épiakairótatos (١٦٦) على طريقة الربان الذي يمسك الدفة في بحر هائج مائج؛ إنه لا يبلغ هدفه المقصود إلا إذا تنبأ tekmairesthai (١٦٧) بطريقة مستعيناً بكل العلامات التي تمكن قدرته على التوسل بالوسائل العديدة من معرفتها ومقارنتها واستخدامها أفضل استخدام. ينبغي كما تقول رسالة في الطب القديم Traité de l'Ancienne Médecine استهداف نوع من التقدير stocházesthai métrou tinós لأنه ليس هناك في هذا المجال عدداً ولا وزناً يتيحان بلوغ الحقيقة الدقيقة akribés (١٦٨) . المحك الوحيد المقبول هو "الصحيح" orthón (١٦٩) : «الطبيب يقوم بما هو ممكن؛ أما ما ليس ممكناً فهو ينصرف عنه؛ فإذا أفلتت منه عثرة، فهو قادر على تصويبها (١٧٠)». والطبيب كالملاح لديه من المهارة ما يمكنه من تفادي الكارثة في كل مرة عندما يضطره فنه الطبي إلى الاقتراب الشديد منها- وأفلاطون يقول إن الإنسان لن يستطيع أن يعرف سر غضب الرياح أو إقبالها (١٧١) - والطبيب محكوم عليه بأن يشق لنفسه طريقاً بأن يتنبأ به اعتماداً على الآراء dóxois (١٧٢).

نفس هذه المعرفة غير المباشرة والتي تحسس طريقها نجدها من نصيب هذا النمط الذي أسماه معاصرو أفلاطون وأرسطو ‹الرجل› «الحريص» phrónimos (١٧٣) وهو : السياسي. وكان السوفسطائيون الأول، أولئك الذين سبقوا جيل القرن الخامس الباهر، يتخذون في ممارساتهم العامة هيئة المتخصصين في العمل السياسي (١٧٤). هكذا كان منيسيفيلوس Mnesiphilos الذي جعله التراث أستاذ ثيميستوقليس Themistokles: «ورث عن سولون ما كانوا يسمونه "الحكمة" صوفيا sophia ، أي المهارة السياسية deinóteta politiken والذكاء الذي يسود العمل drastérion súnesin(١٧٥)» وعندما اتجه السعي إلى نصب فخ في سالاميس Salamis ‹اسم الجزيرة حالياً سالامينا Salamina › للأسطول الفارسي، كان منيسيفيلوس هناك حيث اتخذ سمات المستشار الحكيم (١٧٦)، لكي

يهمس إلى ثيميستوقليس بما أسماه إيسخيلوس في حكايته «حيلة رجل إغريقي» (١٧٧). أما في رواية هيرودوتوس فإن السوفسطائي نفسه ‹منيسيفيلوس› يبدو صنواً صريحاً لذكاء ثيميستوقليس، هذا الرجل الذي كان معاصروه يلقبونه بأوليسيس لما عرف به من الحرص الشديد phrónesis (١٧٨). كان ثيميستوقليس، مثل بطل الأوديسا ‹أوليسيس›، ‹يتشكل بالشكل› «الذي تتطلبه الظروف» (١٧٩)؛ كان في المجلس وفي اللجان الخطيب الذي يعرف أحسن من أي إنسان اخر كيف يتواءم مع الزمن والمكان ومستمعيه وكيف يجيب في كل مناسبة على خير وجه (١٨٠). وكان ثيميستوقليس يجمع إلى هذه الصفات حسّا سياسياً يفوق المألوف: «كان بارعاً، حيال المشكلات الفورية، في اتخاذ الرأي أفضل الرأي، بفضل تفكيره البالغ السرعة، وكان فيما يتصل بالمستقبل يعرف كيف يكوّن أصوب رأي عن أبعد الاحتمالات. فإذا كانت مسألة بين يديه ، عرف كيف يعرضها؛ وحتي إذا لم تكن له بها خبرة، كان حكمه عليها صحيحاً؛ ،أخيراً، إذا كانت الميزات والمثالب ما تزال متوارية في علم الغيب، فقد كان يعرف أفضل المعرفة كيف يتنبأ بها. وجماع القول هو أن هذا الرجل بمقومات طبيعته وبالقليل من الجهد الذي كان يحتاج إليه، كان لا نظير له في ارتجال ما ينبغي عمله (١٨١)» توثب العقل، صواب النظرة، ذكاء فوري في الاحاطة بالموقف الجديد: هذه هي قيم "الحريص المقتنة، ولكنها تجتمع هنا في رجل واحد ساد معاصريه - في رأي ثوقيديديس Thou-kydidês - ببصيرته السياسية. أن يكوّن أصوب رأي عن أبعد الاحتمالات هو ما عبر عنه‹ ثوقيديديس Thoukydidês› مؤلف كتاب «حرب البيلوپونيسوس ‹المورة›» بقوله «إنه الذي يتنبأ على خير وجه» áristos eikastés (١٨٢). والمعرفة التنبؤية التي يدل عليها هنا فعل eikázein تعمل عملها بالتوسل بمقارنة تسمح بإدراك حادث مجهول بالاستعانة بتشابه بحادث مألوف. وعند أرسطوطاليس «إصابة النظرة» eustochia تحقق نفس الهدف: إنها تسمح بتخمين تَشَابُهٍ بين أشياء تلوح لأول وهلة مختلفة (١٨٣). وهي عملية عقلية تتموقع في منتصف الطريق بين الاستدلال بالتشابه وبين المهارة في حل شفرة الإشارات التي تربط ما يُرى بما لا يُرى، المشهود بالغيب. وأفقها الزمني هو بالضبط ذلك الأفق الذي يكتشفه منذ ظهوره في«الإلياذة» شخصُ الناصح الأريب. قد يكون هذا الناصح الأريب هو پوليداماس، أو نيسطور أو هاليثيريس، ولكن القاعدة تبقى هي هي لا تتغير، وهي: أن ترى في آنٍ واحد أمامك وخلفك hámа prósso kai opisso (١٨٤)، والقاعدة تعني أن تكون لديك أولاً خبرة بالماضي لكي تستطيع أن تخمن ما سوف يحدث ، ولكنها تعني أيضاً تقريب المستقبل بالأحداث الماضية، والسير من نقطة في الأفق إلى نقطة أخرى من خلال الغيب. كما يفعل

العرافون من جانبهم بوسائلهم الخاصة، وهم أناس حدد أوريبيديس Euripides معرفتهم في زمانهم على أنها مهارة في التنبؤ، في eikázein [١٨٥] في أن تكوّن أصوب رأي عن أبعد الاحتمالات.

وإذا كانت هذه المقارنة الأخيرة تبين أهمية الذكاء التنبؤي في فكر القرن الرابع، فإنها كذلك تبين قيمة الأحكام التقييمية المتضادة التي يمكن أن تكون الإحاطة التقريبية بها موضوع هذا الذكاء. وعند أوريبيديس أن العراف الأنتيكي الذي تلهمه الآلهة قد أميط عنه اللثام: فلم تعد موهبته الشهيرة في رؤية الغيب إلا فن التخمين الصحيح. أما ثوقيديديس Thoukydidês فيعجب أعظم الإعجاب بثيميستوقليس وذكائه السياسي، لأنه وهو مؤلف كتاب تاريخ حرب البيلوبونيسوس Peloponnêsos يرى أن التاريخ لا ينبغي له أن يكتفي بأن يكون الذاكرة الجمعية للأعمال الماضية التي شهدتها المدينة ، وإنما ينبغي عليه مثل العمل السياسي الذي يتخذه له نموذجاً أن يهدف إلى ذكاء أكثر حيوية يحيط بالحاضر وكأنه يمتد نحو التنبؤ بالمستقبل [١٨٦]. والفلاسفة الذين حددوا في العصر نفسه الصفات العقلية للإنسان ذي الدهاء الميتيسي، لم يمتنعوا عن تكوين أحكام عن هذا الأسلوب من المعرفة، وأنّى لهم هذا وهم يتصدون لمهمة تتضمن هيكلاً طبقياً منظومياً لمختلف العلاقات بين الوجود والمعرفة. وموقف أفلاطون من هذه النقطة موقف أساسي رئيسي. وهو دون مواربة يدين المعارف والتقنيات التي تعتمد على الذكاء التنبؤي. في «محاورة جورجياس» يؤثّم الخطابة التي تَدين بنجاحها إلى الحدس واللمحة، ويحكم على الخطابة بأنها ليست فناً، وليست معرفة وليدة العقل [١٨٧]. أما محاورة «فيليبوس Philêbos» فهي أشد حسماً، حيث تميز من بين المنتجات البشرية تلك التي تعتمد على معرفة غير يقينية، وتلك التي تنتمي إلى الدقة: فهناك الفنون التنبؤية من ناحية، وهناك من الناحية المقابلة المنتجات التي يتناولها الحساب arithmós والمقياس métron والوزن stathmós [١٨٨]. لا يكون الشيء جزءاً من العلم الدقيق ، ولا ينتمي إلى مجال الحقيقة إلا إذا كان قابلاً للقياس. وإذا كان أفلاطون يستثني فن العمارة عن تقدير لآلاته الخلابة وهي المسطرة kanón والمخرطة tórnos والبرجلdiabétes والخيط státhme [١٨٩]، فهو ينبذ بعنف وشراسة الطب، والاستراتيجية العسكرية وفن الملاحة ناهيك عن فن الخطابة وألاعيب السوفسطائيين. وأصبحت الصوفيا sophia هي الحكمة التأملية، ولم تعد معرفة يدعيها فني ماهر بالمعنى التقليدي منذ الملحمة الهوميروسية حيث كانت الصوفيا sophie تدل على معرفة منظمة لها قواعدها وعملياتها، تنتقل من جيل إلى جيل من جلال اتحادات حرفية مثل الحدادين والنجارين [١٩٠]. هل هذه المعرفة العملية

يدينها أفلاطون صاحب «الجمهورية» وينبذها، جامعاً في حركة الاستبعاد نفسها العامل الفني الذي لا يملك إلا الممارسة اليدوية، و‹الرجل› الذي يعرف قواعد فنه، الرجل الذي يسميه مؤاف كتاب «الطب القديم» "التقني" (١٩١).

وإذا كان أفلاطون قد عني كل هذه العناية بتفصيل مكونات الدهاء الميتيسي، فإنما فعل هذا لكي يعرض على نحو أفضل الأسباب التي تحمله على إدانة هذا الشكل من الذكاء. ويجد لزاماً عليه أن يشجب في إسهاب ما تنضوي عليه العمليات الملتوية، والمسارات المعوجة وحيل التقريب من البؤس والعجز والضرر بخاصة. باسم حقيقة واحدة هي التي تؤكدها الفلسفة نجده يجمع الأشكال المختلفة للذكاء العملي في إدانته الواحدة والحاسمة. فالفيلسوف الذي يتخذ عن سيادة قرار التقسيم مسئول كذلك عن المَوْضَعَة objectivation العابرة الطيارة التي يمكن أن نقول إنها توحد الأشكال المتناثرة للدهاء الميتيسي وتجمعها في صورة واحدة تبرز خطوطها التحديدية عن المجافاة الوعرة للمعرفة الثابتة الدائمة التي تقرها ميتافيزيقا الوجود ومنطق الهوية.

وليس من شك في أن المنظومة الأرسطوطاليسية صححت التقسيم الذي قال به أفلاطون، حيث إننا تبينًا استناداً إلى أسباب صحيحة أن نظرية الحرص كما يعرضها أرسطوطاليس في كتاب «الأخلاق النيقوماخية» تتضمن تصميماً على الارتباط بتراث الخطباء والسوفسطائيين بالمعارف المختلفة الخاضعة للاحتمال والمتجهة إلى كائنات خاضعة للتغير (١٩٢). فلا جدال في أن أرسطوطاليس كان يرى أن نموذج الحريص phronimos هو رجل السياسة، الرجل «الذي يعتمد نجاحه على اللمحة أكثر مما يعتمد على العلم الثابت الذي لا يتغير (١٩٣)، الرجل الذي ينبغي على عمله المتجه إلى غاية أن يعمل دائماً حساباً للملاءمة وأن يكون على بينة من أن عمله يجري في مجال لا يوجد فيه شيء ثابت أبداً. ولكن علينا أن نلاحظ شيئاً لا يقل نصيبه من الحقيقة عما ذكرنا لتونا وهو أن التحليل الأرسطوطاليسي يُعنى بتمييز الحرص phrònesis عن المهارة deinótes (١٩٤)، حيث يبين أن المهارة لا تقتصر لا على الحدس، ولا على النظرة الصائبة، وإنما هي نوع من المهارة المؤسسة على «التفكير بغية خيرٍ ما euboulia، وهي لهذا تختلف عن المقدرة «على فعل الأشياء موظفةً لغرض مستهدف (١٩٥)»، وهي المقدرة التي يتحدد بناء عليها ‹نمط› الرجل الذي يسميه الإغريق panurge أي المكار اللئيم، الشخص الذي يتحلى بميزة مقلقة تتمثل في ذكاء مرن نرونة مفرطة.

وليس هذا هو التجاور الوحيد الذي يبدو أن «الحريص» في رأي أرسطوطاليس يخشاه،

فأرسطوطاليس - صاحب كتاب «الأخلاق النيقوماخية» - يلاحظ، وهو يشير إلى المعنى السوقي لكلمة الإغريقية أي حريص «ومن الناس من يصل بهم الأمر إلى حد وصف أنواع معينة من الحيوانات بأنها حريصة (١٩٦)»، ولهذا فإن مسألة الفصل الجذري بين البشر والبهائم، بين العقلاء وغير العقلاء، الأحياء الذين ليس لديهم لوجوس (١٩٧)، هي المسألة التي توشك أن توضع هنا موضع البحث مجدداً، ويدفع إلى ذلك على نحو أشد عمقاً أن النماذج الرئيسية الأساسية للدهاء الميتيسي، في صميم نسيج دلالتها، تتكون في مجال يتداخل فيها ذكاء الإنسان تداخلاً مستمراً مع ذكاء الحيوانات البرية والمائية في مواجهة أنشطة الصيد. وأياً كانت المخاطر، فيظل من الممكن بالنسبة إلى الفكر الأرسطوطاليسي أن تكون هناك معرفة تنصب على ما يفتقر إلى الدقة، حتى إذا لم يكن في مقدور هذه المعرفة وهي تطابق موضوعها إلا أن تكون مفتقرة إلى الدقة (١٩٨). فإذا أخذنا بأن حقائق العلم هي بالضرورة وإلى الأبد كما هي (١٩٩) فليس هناك ذكاء ذو صبغة عملية يطمح إلى بلوغ معرفة ثابتة: ليس هناك علم ممكن ينصب على ما كان من نوع «ما ليس محدداً». والرأي عندنا أن الفلسفة الأرسطوطاليسية،على نحو ما، ومع كل التخفظات التي أشرنا إليها لتونا، ترد الاعتبار إلى المعرفة الاحتمالية والذكاء الذي يعمل عمله بألاعيب اللف والدوران.

ولكن المشكلات التي يطرحها على تاريخ الذكاء هذا الحوار حول الدهاء الميتيسي لا يمكن حبسها داخل حدود مناقشة بين فيلسوفين من القرن الرابع الإغريقي. فالاختيارات التي اتخذت آنذاك كان لها أثرها القوي على مسار الفكر الغربي حتى إنها وجهت التراث التاريخي حتى العصر الحديث إلى طريق ضيق من العديد من النواحي. وإذا كان الحديث المتبحر في العلم الذي تحدث به عن الإغريق أولئك الذي أعلنوا أنفسهم ورثتهم، قد لزم الصمت ردحاً طويلاً من الزمن حول الذكاء المعتمد على الدهاء، لسببين أساسيين على الأقل هما :

أولاً: بلا شك لأن الهوة الفاصلة بين البشر والحيوانات لم يكن من الممكن من المنظور المسيحي إلا أن تزداد عمقاً، بحيث يبدو العقل البشري أكثر مما كانت الحال بالنسبة إلى القدماء منفصلاً بوضوح أكبر عن القدرات الحيوانية؛

ثانياً: أليست تلك أيضاً وخاصة إشارة إلى أن "الحقيقة" الأفلاطونية - التي نبذت إلى الظلام مستوى كاملاً من الذكاء بكل طرقه الخصيصة في الفهم - لم تكف فعلياً عن مخالجة الفكر الميتافيزيقي للغرب؟

ملحوظة

تسهيلاً على القارئ يجدر بنا أن نذكر أن هذه البحوث التي تناولت مفهوم الدهاء الميتيسي الإغريقي، إذا كانت قد أجريت دائماً في تعاون وثيق بين المؤلفيْن اللذين يظهر اسمهما على هذا الكتاب، فقد كان يحدث أحياناً أن يظهر بعضها في طبعة أولى، غالباً ما كان يتولاها أحدهما، تظهر في المجلات العلمية الرصينة المختلفة. ولهذا فقد رأينا أننا لن نفعل شيئاً بلا فائدة إذا نحن أعددنا هذه القائمة التي رتبنا فيها البحوث بحسب التتابع

M. DETIENNE, « La Prudence d'Athéna », *La Parola del Passato,* 1965, p. 443-450.

J.-P. VERNANT et M. DETIENNE, « La Mètis d'Antiloque », *Revue des Études Grecques* 80, 1967, p. 68-83.

M. DETIENNE et J.-P. VERNANT, « La Mètis du renard et du poulpe », *Revue des Études Grecques* 82, 1969, p. 291-317.

J.-P. VERNANT, « Thétis et le poème cosmogonique d'Alcman », in *Hommages à Marie Delcourt,* Collection Latomus, t. 114, Bruxelles, 1970, p. 38-69.

M. DETIENNE, « Le Phoque, le Crabe et le Forgeron », in *Hommages à Marie Delcourt,* Collection Latomus, t. 114, Bruxelles, 1970, p. 219-233.

M. DETIENNE, « Le Navire d'Athéna », *Revue de l'Histoire des Religions,* 1970, 4, p. 133-177.

J.-P. VERNANT, « Mètis et les mythes de souveraineté », *Revue de l'Histoire des Religions,* 1971, 3, p. 29-76.

M. DETIENNE, « Athena and the Mastery of the Horse », *History of Religion,* 1971, p. 161-184.

J.-P. VERNANT, « L'Union avec Mètis et la royauté du ciel », in *Mélanges H. Ch. Puech,* Paris, 1974.

M. DETIENNE, « Le Lien et le Cercle », *Journal of Symbolic Anthropology* 5, 1974 (ni l'article, ni ce numéro ne sont jamais venus à notre connaissance).

Ces études, qui avaient déjà été conçues comme les chapitres d'un volume unique, ont été, en vue de cette publication, remaniées, complétées, et augmentées de développements inédits.

وجدير بالتنويه أن هذه الدراسات التي خططناها منذ البداية لتكون فصول مجلد واحد، قد تناولناها من منظور هذه الطبعة بالتعديل والإكمال والزيادة بإضافات جديدة لم ننشرها من قبل.

هوامش وتعليقات

المقدمة :

(١) كان أحدنا قد بيّن أهمية الدهاء la métis عند تحليل الفكر التقني: J.-P. Vernannt, "Remarques sur les formes et les limites de la pensée technique chez les Grecs", Revue d'Histoire des Sciences, 1957, p. 205-225, repris dans Mythe et pensée chez les Grecs 5, Paris, II, 1974, p. 44-64. –

٢) نستثني كارلو ديانو في كتابه : Carlo DIANO, Forma ed Evento. Principi per una interpretazione del mondo greco 3, Vicenza, 1967, حيث تناول الفكر الإغريقي بقراءة فينومينولوجية فتبين عابراً في إطار المقابلة بين أوليسيس وأخيلليوس بعض سمات الدهاء la métis (انظر ص ٥٦ وما بعدها).

٣) Françoise FRONTISI-DUCROUX, Dédale, mythologie de l'artisan en Grèce ancienne, Paris, Maspero, 1975.

٤) ساعدتنا فرانسواز فرونتيزي-ديكرو Françoise Frontisi-Ducroux وستيلا چورجوندي Stella Georgondi في تحسين هذه الطبعة الثانية، نشكرهما شكر الأصدقاء.

القسم الأول
ألاعيب الدهاء

الباب الأول
سباق أنطيلوخوس

١) U. von WILAMOWITZ, Die Heimkehr des Odesseus, Neue Homerische Untersuchungen, Berlin, 1927, p. 190, n. 1.

٢) H. JEANMAIRE, "La Naissance d'Athéna et la royauté magique de Zeus", Revue archéologique, 1956, juil. -sept., p. 12-39

٣) نكتفي باختيار طائفة من أهم الألفاظ التي رأينا أنها تشترك في معنى الدهاء الميتيس وهي:

dólos et mètis (Od., III,119-122), dolómêtis (Il., I, 540; Od., I, 300; III, 198); polúmêtis et dolíê téchnê (Hymne hom. à Hermès, 76; Od., IV, 455); agkulomêtês,

doliê téchnê, phrázesthai, kruúptein, lôchos, dólos (HÉS., Théog., 160-175); phármaka mêtióenta (Od., IV, 227); mêtın huphainein (Il.,

VII, 324; Od., IV, 678) mêtis et kérdê (Il., X, 223-225; XXIII, 322; 515; Od., XIII, 299 et 303); polúmêtis et kerdaleóphrôn (Il, IV, 339 et 349); agkulomêtês et haimúlai mêchanai (HÉS., Théog., 546-647; ESCH., Prom , 206).

٤) نيسطور هو أول أصحاب الحل والعقد الـ mêdontes فهو يقدم دائماً أفضل الآراء (انظر Il., XIV, 107:ameinona mêtin) : «إنه يسبق الآخرين جميعاً، ويبدأ بمد خيوط مخططه» ... huphainein mêtın ونطالع في الأبيات من ١١٨ إلى ١٢٩ من النشيد الثالث بالأوديسا مدح (Il., VII, 324). أوليسيس والإشادة بأن دهاءه لا نظير له، ويؤدي هذا بنيسطور إلى التشديد على الجماعة ذات الذكاء الأريب الذي يرسي أساس تعاطفها المتبادل.

٥) انظر Il., XXIII, 306 sq.

٦) انظر Il., XXIII, 307-308: hippsúnas...pantoias.

٧) في البيتين ٣١٠ و٣١١، معارضة واضحة بين bárdistoi «أكثر بطئاً» و aphárteroiò أكثر سرعة» . وفي البيت ٣٢٢ نجد الصفة hêssonas «أسوأ» التي تصف hippous تستدعي في الذهن الصفة المقابلة «أحسن» التي لا ترد صراحة.

٨) وأنطيلوخوس نفسه ليس مجرداً من الدهاء كل الدهاء، والبيت ٣٠٥ يلح في إبراز هذه السمة، حيث يقول : « وهذا هو أبوه يقترب منه، وينصحه بما فيه خيره، على الرغم من أنه كان من قبل حكيماً noéonti. وهناك ثلاثة نصوص أخرى تشير إلى نباهته (٤٤٠: pepnûsthai ؛ ٥٨٦: pepnuménos ؛ ٦٨٣: nóon). أضف إلى ذلك أن قائد العربة اسمه Noêmôn «حكيم» (٦١٢).

٩) تصرفنا فى الصياغة كما فعل هـ. جانمير H. Jeanmaire الذي اتبعنا هنا ترجمته، فلم نترجم كلمة mêtis بل تركناها بحرفها «ميتيس».

١٠) الإلياذة Il., XXIII, 322 وكلمة hêssonas تعني حرفياً «الأقل جودة»

١١) هذه المناورة – يمكننا أن نقول "الحيلة" mêchanê – هي من قبيل الانتهاء إلى نتيجة ليست هي التي تحسم الموضوع (انظر ملحوظات پ. شانترين وهـ. جوب على الإلياذة P. Chantraine et H. Goube, Homère, Iliade, Chant XXIII, Paris, 1964, 419-424)

١٢) انظر «حيل النساء» gunaıkoboúlousâ ... métıdas في الحديث عن كلوتايمنيسترا (Esch , Chéoph., 626)

١٣) ليس زيوس فقط صاحب دهاء mêtıeta ، بل هو أيضاً داهية mêstôı húpatos (Il., VIII, 22;

XVII, 339 . ودهاؤه على قدر كل ألوان الدهاء الأخرى (راجع عبارة Diì mêtin atálanton, II, 169; 406; 636; X, 137 في الإلياذة

١٤) Esch., Prom., 206-207; 213; 219; 440; Apollod., I, VI,1; I, VI, 3; Nonnos, Dionys., I, 481 sq. ويمكننا أن نتبين دور الدهاء الميتيسي في الأصل الأول لسيرة زيوس : Apollod., I, II, 1 وارجع إلى ما ذكره هيسيودوس من قبل Hés., Théog., 471 et 496 وانظر فيما بعد ص ٦١-١٢٤.

١٥) I., XXIII, 319-325

١٦) < Hés.>, Bouclier, 214-215

١٧) I., VIII, 340

١٨) I., XIII, 545

١٩) ونكتفي بذكر مثال واحد يؤكد فيه السياق على نحو طريف فكرة الثقل والكثافة التي تضمها كلمة pukinós فنحيل القاريء إلى الأوديسا Od., IX, 445، إلى الحيلة التي دبرها أوليسيس ليفلت من انتقام سيكلوپ. فقد غاص تحت بطن أقوى الكباش، وتعلق بصوفه، فمر أوليسيس أمام ضحيته : «كان كبشي آخر الخارجين، فتقدم يثقله صوفه وتثقله أفكاري الثقال kai emoi pukinà phro-néonti »

٢٠) II., XXIII, 415-416: technésomai êdè noésô, ... oudé me lései

٢١) Pind., Isthm.,II, 22

٢٢) Antimaque, fr. 32 Wyss استشهد بها Paus., VIII, 25, 9

٢٣) II., XXIII, 585 حيلة «قيدت» pedêsai عربة مينيلاوس.

٢٤) II , XXIII, 590

٢٥) II , III, 108-110. في تراث كامل نجد الشاب وقد أعوزه الدهاء الميتيسي، يتأرجح عقله على هوى الظروف كما تتأرجح العربة أو السفينة التي يعوزها القائد الحريص أو الملاح الأريب، فتهيم هنا وهناك على هوى الخيول أو الرياح. أما الرجل فحاله كحال قائد العربة أو الملاح، يتضمن الدهاء الميتيسي بالنسبة إليه استمرار الاتجاه، وخط قيادة تحدد من قبل وجرى اتباعه بانتظام. صورة الشاب رهن التغيرات، المتصف بـ«الخفة» يمكن أن نستشهد عليها بثيوجونية Theognis, 629 : «الشباب والغرارة يجعلان عقل الإنسان خفيفاً epikouphizei â»؛ وبأفلاطون، القوانين Platon, Lois, 929 c: «خصال الشباب تتعرض بالطبع للتغير عدة مرات pollàs metabolàs .. metabàllein إبان الحياة»؛ وبثيوفراستوس Théophraste, ap Stob., Anth., II (IV, 1, p. 340 Hense) : «من

الصعب أن نتنبأ بشيء عن الشباب في المستقبل؛ فسن الشباب سن لا يحيط بها التنبؤ astóchastos، لأنه بلا انقطاع يتغير pollàs échousa metabolás وينجرف pheroménê تارة إلى هذه الناحية وتارة إلى الأخرى állote ep'állo.»

٢٦) Il., I, 343

٢٧) Il., XVIII, 249: pepnumenos

٢٨) Il., XVIII, 250

٢٩) Sappho, fr. 16 in Lobel-Page, Poet. Lesb. Fr.

٣٠) Il., X, 224-226: brássôn te nóos, leptê dé te mêtis (226)

٣١) Thuc., I, 138, 3

٣٢) يوصف پروميثيوس بأنه poikilos وaiolómétis (infra, n 36, 37, 48)، بينما يوصف إيپيميثيوس بأنه hamartinoos (Hés., Théog., 511). في كتاب «الأعمال»، Les Travaux 85-86 يوصف إيپيميثيوس بالعجز عن التفكير، والفعل المستخدم هو phrázesthai - وهو من أفعال الدهاء الميتيسي.

٣٣) Il., XVIII, 314

٣٤) Il., III, 202

٣٥) Od., VI, 234

٣٦) poikilométes أو poikilométis صفة أوليسيس (Il., XI, 482; Od , III, 163; XIII, 293) وصفة زيوس (Hymn. Apoll , 322) وهيرميس (Hymn. Hermès, 155). و poikilóboulos هي صفة أخرى وصف بها پروميثيوس (Hes., Théog , 521) وأوليسيس (Anth. Plan , IV, 300, 5) وهيرميس (Orph. Hym. 28, 3 Quandt).

٣٧) أفروديتي توصف بأنها aiolómetis(Esch., Suppl., 1037) مثل پروميثيوس (Hés., Théog., 511) وسيسيفوس(Hés., fr. 7, 4 R.). أما صفة aiolóboulos فترد عدة مرات في (Oppien, Cyneg., I, 452; III, 139; IV, 25, etc.

٣٨) Il., VI, 289 et 294; Athénée, 48 b.

٣٩) Il., X, 75.

٤٠) Tr. gr. fr. 419 Adeps. N2.

٤١) Pind , Pyth , IV, 249.

٤٢) المعاني المسلسلة للفظتي aiólos و poikiloبينتها بوضوح شروح هوميروس ودراسات المعجمات؛ انظر aiólos في قاموس .Lexicon des fruhgriechischen Epos (1955), p. 329 => قاموس الملحمة الإغريقية المبكرة>.

٤٣) Esch., Prom., 495

٤٤) Aristote, Éth. Nic., I, 10, 1100 a 34

٤٥) Eur., Hélène, 711-712

٤٦) Plat., Rép., 568 d.

٤٧) Plat.,Théétète, 146 d.

٤٨) Hés., Théog., 511 et Esch., Prom., 310.

٤٩) Ésope, Fab., 37 et 119

٥٠) Arist., Cav., 758-759

٥١) E Benveniste, "Expression indo-européenne de l'éternité", Bull Sté Linguistique 38, 1937, p 107 sq وهناك مقترحات أخرى حول الأصل الاشتقاقي للكلمة. ففي رأي فرينكل E. Fraenkel, Gnomon 22, 1950, p. 239 تعتبر كلمة aiólos صيغة تشديد، +(F) de Fólos, = de *uel: walzen, drehen, wenden يلف، يدور، يحوّل. والكلمة وردت في لوحات كنوسوس الميكينية، وكانت موضوعاً لبحوث متعددة: M. Lejeune, Noms propres de boeuf á Cnossos: ="أسماء الثيران" في Rev. Ét Gr. 76, 1963. p. 6-7 ؛ وانظر P. Chantraine,"Notes d'étymologie grecque", Rev Phil. 37, 1963, p 15; H. Muhlenstein, "Le Nom des deux Ajax", Studi micenei ed egeo-anatolici, II, Rome, 1967, p. 44-52

٥٢) L. Parmentier, Rev. belge de Philologie et d'Histoire I, 1922, p 417 sq

٥٣) ID., ibid., p. 420 في شأن Xanthe وهو حصان محجل (II., XIX, 404)

٥٤) H. J. Mette, s.v ailélos, Lex, fr. Epos (1955), p. 329

٥٥) Il , V, 295

٥٦) Il, XXII, 509

٥٧) Od., XXII, 296-301. وفي هذه الحالة تكون aiólos oistros هي أثينة ابنة ميتيس

٥٨) Il, XII, 167

٥٩) Pind., Ném , VIII, 25

٦٠) Eust., p. 1645, 3 sq. في شأن العلاقات بين Éole و poikilia انظر التفسيرات الرمزية في Jambl., Theol. arithm., p. 28, 11 de Falco.

٦١) Apollod., I, 3, 6; Hés., Théog., 886-900.

٦٢) خدعة dólos ختلت éperopeúein مينيلاوس (Il, XXIII, 605) وقيدت وغلّت pedésai عربته (585)

٦٣) Il, XXIII, 343

٦٤) Il, XXIII, 343

٦٥) Il., XXIII, 320

٦٦) Il., XXIII, 426

٦٧) كلمة aphradéos التي ورت في البيت رقم ٤٢٦ من الإلياذة تذكر بها الصفتان paréoros و aesiphron في البيت رقم ٦٠٣. والصفة الأولى تعني الحصان الجامح، وتدل على سبيل الاستعارة على الطائش – بلا شك بالإشارة إلى العدْو الأكثر اضطراباً والأقل ثباتاً لهذا الحصان (وهو ما يقترحه شانترين P. Chantraine وجوب H. Goube في تعليقهما على البيت رقم ٦٠٣ من الإلياذة). أما لفظة paréoros فتحيل إلى صورة العربة التي تتقدم على خط متلوٍ (البيت رقم ٣٢٠). وهذه الصفة لها مذاقها الذي يزيد عندما نسترجع نصائح نيسطور إلى أنطيلوخوس والتي لم ينس أن يحدد فيها مقدماً علامات الطريق التي تسمح باتباع الاتجاه الصحيح Il ., XXIII, 323 (térma); 326 (séma .. ariphradés) Cf. 358 (sémeme dè tèrmat' Achilleùs).

٦٨) Il., XXIII, 430 .

٦٩) Il., III, 205-224

٧٠) Od., VIII, 494.

٧١) Od., VIII, 276 sq.

٧٢) Od., XII, 252.

الباب الثاني
الثعلب والأخطبوط

١) R. Keydell, s.v. "Oppianos", R. -E. (1939), c. 698-708 وانظر المقدمة المخصصة لأوبيانوس في Oppian, Colluthus, Tryphiodorus مع ترجمة إنجليزية لـ A. W. Mair, The Loeb Classical Library, Londres, 1928, p. XIII sq. وعلى» سبيل التسهيل لن نفرق بين آثار

أوبيانوس وتلك المنحولة إليه. انظر في هذا الشأن P. Hamblenne, "La Légende d'Oppien", l'Antiquité classique, 1968, p. 589-619 . وكلامنا هنا يدور حول كتابين فنيين لأوبيانوس كتاب صيد السمك Halieutiques وكتاب صيد الحيوان Cynégétuques.

٢) Oppien, Hal , II, 52-55 في بعض المواضع استلهمنا ترجمة E. -J. Bourguin المنشورة في Coulommiers في عام ١٨٧٧.

٣) ID., ibid., II, 128-130.

٤) ID., ibid., II, 86-89. من ٩٩ إلى ١٠٤ اتباع لمقارنة مزدوجة، من ناحية بصائد الطيور وشرك العصافير؛ ومن ناحية ثانية الثعلب الذي يصطنع الموت. يعرف هذا النوع من الضفادع في التراث منذ أرسطوطاليس باسم الصيادة halieús . وهناك وصف تقنية صيده في Arist., H A., IX, 37, 620b 10 sq; Plut., Soll. anim., 978 d' Antigone, Hist. mirabil., XLVII; Pline, H.N., IX, 143; Élien, H. A., IX, 24.

٥) هذا هو التعبير الذي استخدمه Plut., Soll. anim., 978 a-b في الحديث عن سمك الجبار.

٦) Oppien, Hal., II, 62 والملحوظة la note b de Mair (p. 286)

٧) . ID., ibid., II, 232-233 والملحوظة la note a de Mair (p. 304)

٨) في كتاب «ذكاء الحيوان» يبين لنا پلوتارخوس (بلوتارك) على لسان فايديموس الذي يقوم بدور المدافع عن ذكاء السمك، أسباب ضرورة اليقظة بالنسبة إلى الحيوانات البحرية، مهما كان نصيبها من الدهاء، وكيف أن عليها أن تكون دائماً يقظة وعلى أهبة الاستعداد، فيقول: إن كل نوع له مزاياه وله نواحي ضعفه التي لا تكون واحدة حيال كل الأعداء الذين يتصدى لهم «والطبيعة إذ منحت الأسماك هذه البدائل وهذه الإمكانات التبادلية في الهجوم والهروب تمرنها وتعودها على استخدام كل مهارتها، وعلى إظهار كل ذكائها» (978 e)

٩) Od., IV, 388 sq.

١٠) Hésiode, fr. 33(a) et (b) Merkelbach-West

١١). Oppien, Hal., III, 29-49

١٢) . Oppien, Cynég., I, 81-109 صورة صياد الحيوان ويشدد بيته Bethe على طائفة من الصفات وبخاصة : néos, koûphos, elaphrós, dromikós, oxús ...agonistés .. ágrupnos (شاب، خفيف، سريع، عداء، متأهب ... مناضل ... يقظ).

١٣) Cf. eg Il, XV, 642

١٤) Platon, Lois, VIII, 832 e-833 a

١٥) Hymne homérique à Hermès, 80-83 ينسب ابتكار النعال البيضاء phaikades للرياضة البدنية إلى هرمس، انظر: Ératosthène, fr. 9 Hiller.

١٦) Nonnos, Dionys., XVI, 106 sq. Keydell.

١٧) Callimaque, Hymne à Artémis, 16 Pfeiffer.

١٨) Oppien, Hal., et Cynég., passim.

١٩) Oppien, Cynég., I, 101-104; Hal., III, 426-431. في هذه المسألة ارجع أيضاً إلى أفلاطون: Platon, Lysis, 206 a وأرسطوطاليس: Aristote, H. A., IV, 8, 533 b 15-18.

٢٠) هذه هي كلمات أرسطوطاليس في فقرة يمكن أن تجد العديد من الأصداء في كتاب صيد السمك لأوبيانوس

٢١) Plutarque, Sollert. anim, 976 c-d.

٢٢) كان على دهاء أنطيلوخوس أن يلعب لعبة الطيش لكي يخدع مينيلاوس، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

٢٣) انظر ما سبق ص ٢٣

٢٤) Oppien, Hal., III, 45-46.. كذلك سوفوكليس Sophocle, Ajax, 879-880 يذكر صيادي السمك الذين يقضون الليل كله في رصد غنيمتهم .

٢٥) Arist., H. A., IV, 10, 537 a 12 sq.

٢٦) Athénée, VII, 320 a.

٢٧) Oppien, Hal., II, 658-659 .

٢٨) Il., XIV, 247-248; Sophocle, Antigone, 606 sq; Eschyle, Prom., Ench , 358.

٢٩) Il., XXIV, 24; Od , I, 37-40; Hymne hom. à Aphrod., 262.

٣٠) Pollux, On., V,

٣١) ID,. ibid , V, 24 (t. I, p. 267, I. 20 sq Bethe).

٣٢) Oppien, Hal., III, 49 .

٣٣) ID , ibid , III, 41 تنطبق الصفة نفسها على الأوديسا (١٥/٤١٩) و على «الفينيقيون»

٣٤) انظر J Taillardat, Les Images d'Aristophane, Paris, Paris, 1965, p 230

٣٥) II., I, 311; XXI, 355; (Orphée), Lithica, 54.

٣٦) انظر ما سيأتي بعد ص ٤٩وما بعدها.

٣٧) II, II, 173 وانظر ما سبق ص ٢٧-٢٨.

٣٨) Oppien, Hal., III, 41-43 .

٣٩) ID, ibid., III, 92

٤٠) Aristophane, Cavaliers, 758

٤١) Eschyle, Prom. Ench , 51.

٤٢) Plutarque, Sollert anim., 979 a.

٤٣) Platon, Lysis, 823 d-824 a.

٤٤) Oppien, Hal , III, 338-370.

٤٥) انظر عن هذه السمكة النصوص التي جمعها ماير A. W. Mair (o. c., p. LIII-LVII)

٤٦) Oppien, Hal., III, 281 sq. وهناك مثل آخر على الدهاء dolophron في Hal., IV, 77 sq : صيد سمك Le scare الاسكاروس (ببغاء البحر) الذي تُستخدم أنثاه طعماً للذكر.

٤٧) Oppien, Cynég., III,410 et -415-416

٤٨) Oppien, Hal., II, 146-147

٤٩) Oppien, Hal., II, 182 et 225 .

٥٠) Oppien, Hal., II, 176-168 المدونات التقنية التي نشأت حول ذكاء وعقل الحيوانات كانت موضوع أبحاث جون ريتشموند John Richmond, "Chapter on Greek Fish-Lore", Hermes. Suppl. 28, Wiesbaden, 1973.

٥١) Oppien, Hal., II, 107-118 انظر كذلك Garcia Gual, "El Prestigio del Zorro", Emerita, 38, 1970, 417-431.

٥٢) Oppien, Cynég, III, 449-460.

٥٣) Oppien, Hal , IV, 448-451.

٥٤) Aristophane, Lysistrata, 1270 انظر في موضوع الثعلب نموذجاً للخداع J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, Paris, Paris, 1965, p. 227-228.

٥٥) Oppien, Cynég, III, 449 .

٥٦) Alcée, 69, 7, p. 144 Lobel-Page.

٥٧) Ésope, Fab., 119

٥٨) Ésope, Fab., 199

٥٩) Plutarque, Animine an corporis affectiones, 500 c-d.

٦٠) Hésychius, s.v. Alopos; Arist., H. A., I, 1, 488 b 20; Pind., Pyth., II, 77.

٦١) Callimaque, Hymne à Artémis, 79 Pfeiffer.

٦٢) Alcée,fr. 69, p. 144 Lobel-Page. انظر كذلك D. Page, Sappho and Alcaeus. An Introduction to the Study of Ancient Lesbian Poetry, Oxford, 1955, p. 152 sq et Éd. Will, Korinthiaka, 1955, p/ 381 sq.

٦٣) Diog Laërce, I, 74; Strabon, XIII, 600; Plut., De Herod. Mal., 15. كما يذكر إ. ڤيل Éd. Will (o. c., p. 383) أراد البعض أن يروا في هذه الحكاية اقتباساً أخذ عن المعركة بين المصارع ذي الشبكة والمصارع الذي كان ينازله. وتصوير الثعلب في العالم الإغريقي يوحي بأن الحكاية إما قديمة وإما مأخوذة بأمانة عن الثعلب المكار پيتاكوس Pittakos.

٦٤) "الثعلب يعرف الكثير من الألاعيب. أما القنفذ فلا يعرف إلا واحدة، ولكنها مشهورة. » وإذا كان هذا البيت الشعري قد سار مثلاً، فإنه يؤكد تعدد سمات الثعلب، ولكنه يؤكد كذلك حدود كل دهاء ميتيسي مهما كانت مقوماته من الثراء. » في مواجهة دهاء الثعلب يبدو «علم» القنفد فقيراً فقراً عجيباً: فعند اقتراب الخطر، أياً كان، يلتف على نفسه، ويتكور ويدع كل أشواكه ناحية الخارج. ومع ذلك فإن كل ذكاء الماكر يفشل: فقد وجد الثعلب سيده. انظر في موضوع هذين الشريكين M Bowra, "The Fox and the Hedgehog", Class. Quart. 34, 1940, p. 26-29

٦٥) Élien, H. A., VI, 24.

٦٦) Isthm., IV, 34 sq. أما الثعلب فلأنه يعلم - كما يقول پنداروس كيف يواري أثره بألف ألعوبة ملتوية » áll'állote patéon hodoìs skoliais يعتبر في نظر الأسد مثل الثعلب بالنسبة إلى النسر. ومع ذلك ينبغي أن نذكر في عجالة أن خداع الذئب لا يمكن أن الخلط بينه وبين لؤم الثعلب: وهما كلاهما من الحيوانات المفترسة، ولكن الذئب يهاجم صراحة دون استخفاء بين الثعلب يعمل في الظلام، دون أن يكشف عن نفسه. وعلى هذا المستوى فإن التعارض بين الذئب والثعلب يناظر التعارض بين الصقر والحدأة (انظر Artémidore, II, 20, p.137, 1-3 et IV, 56, p. 279 Pack)

٦٧) Pind., Isthm., IV, 45-47

٦٨) شراح پنداروس Les Scholies à Pind. Isthm., IV, 77 c (t. III, p 234, 12-17 Drachmann)

يشددون على هذه النقطة : عن طريق هذا الانقلاب «يبدو أن الثعلب يعلّم حيلة الحلبة pálaisma التي يتمدد فيها المصارع على الأرض فيكون غالباً بالحيلة téchnei، حتى ولو كان غريمه أقوى منه meizona.

٦٩) Plut., De Soll. anim., 977 b.

٧٠) Élien, N.A., IX, 12. Cf. Oppien, Hal., III, 144 sq, Pline, H. N., IX, 145 et Philé, De animalium proprietate, 1848-1853 (éd. Fr. Dubner: Poetae Bucolici et Didactici, Coll. Didot, Paris, 1846).

٧١) في طائفة كبيرة من النصوص تنسب حيلة الإنقلاب هذه إلى جنجباسة البحر scolopendre . وأرسطوطاليس في كتابه «تاريخ الحيوان» Hist. anim., 621 a 6 sq يستخدم في معرض الحديث عن وصف ثعبان البحر نفس التعبيرات التي خص بها بلوتارخوس وإليانو ثعلب البحر : «بعد أن ابتلعت الجنجباسة السنارة قلبت باطن جسمها إلى الخارج حتى لفظت السنارة؛ ثم قامت بحركة عكسية أعادت باطن جسمها إلى موضعه.» ويقابل هذا النص الأرسطوطاليسي نصوص بلوتارخوس التالية:. Plut., De sera num. vid., 567 b-c, et de Pline, H. H., IX, 145. والجنجباسات ديدان مائية كبيرة تشبه ديدان الأرض الحلقية . راجع: E. de Saint-Denis, Le vocabulaire des animaux marins en latin classique, Paris, 1947, p. 102 ؛ وهي أسماك يشبه شكلها في صورته الطبيعية وثاق مرن (انظر ما سيلي)

٧٢) Oppien, Hal., II, 295.

٧٣) Théognis, 215: polúpou ... poluplókou

٧٤) Eur., Médéc, 481: speirais ... poluplókois هذا الثعبان هو حارس الجزة الذهبية : وهو لا ينام

٧٥) Trag graec. fragmenta, Adesp., 34 N2: oikema kampais poluplókois

٧٦) Platon, Phèdre, 230 a. – كل عناصر الوصف جمعها ف. ڤيان : F. Vian, "Le mythe de Typhé et le problème de ses origines orientales", dans Éléments orientaux dans la religion grecque ancienne (Bibliothèque des Centres d'Études supérieures spécialisés), Paris, 1960, p. 17-37 (particulièrement p. 24-26)

٧٧) Oppien, Hal., II, 233: téchnés; 236: apàteisi; 239: dóloio ; 280 في صراعه مع سمكة المورينا (la murène). tà d'aióla kérdea téchnes plázontai : 305: dolometa.

٧٨) Oppien, Hal, II, 408 sq. والأخطبوط مثله مثل اللص hemerókoitos (Hés., Trav , 605) ومثل «نوام النهار» يظل يقظاً متنبهاً طوال الليل. في Etym Magn , كلمة hemerókoitos معناها : ... اليقظ ليلاً. ويقظته مستمرة دائمة لا تتوقف. وليست هذه سمة من سمات سلوك

الحيوان، وإنما هي تأكيد لصفة أساسية من صفات الدهاء الميتيسي.

٧٩) Théognis, 215-218; Pindare, fr. 43 Snell; Sophocle, fr. 286 N2.;Ion, fr. 36 N2; Antigone, Hist. mirab., L. (55).

٨٠) في Quaest. Nat., p. 916 b. يطرح بلوتارخوس السؤال لمعرفة سبب تغيير الأخطبوط لونه: هل يفعل ذلك بسبب الخوف، أو الغضب أو المحاكاة؟

٨١) ارجع إلى إيسخيلوس، حاملات القرابين Eschyle, Choéphores, 726-728 هيرميس هنا ينطق بالعبارة التي لا يدركها البصر áskopon épos والتي تنشر على العيون ظلمة الليل (الأبيات ٨١٦-٥١٨).

٨٢) Oppien, Hal., II, 120; III, 156.

٨٣) Tholós في Arist., H. A., 524 b 14; 621 b 27; Atén , 323 d; Pline, H.N., IX, 84; cholé : dans Nicandre, Alexipharmaka, 472 Gow.

٨٤) Arist., H. A., 524 a 15 sq.

٨٥) Arist., H. A., 541 b 12 sq.

٨٦) Oppien, Hal., III, 120; III, 156-164.

٨٧) Plut., De Soll. anim., 978 d.

٨٨) Oppien, Hal., IV, 147-162.

٨٩) Théognis, 215-218

٩٠) Od., I, 1.

٩١) Eust , p. 1381, 36 sq Cf. Cf. W. B. Stanford, The Ulysses Theme, Oxford, 1954.

٩٢) Arist., Thesmoph., 462-463.

٩٣) Euripide, Phéniciennes, 494.

٩٤) Eupolis, fr. 101 Kock, et Antisthène, fr. 26 (t. II, p 277-278 Mullach)

٩٥) عن مفهوم ephemeros انظر الدراسات الأساسية هي E. Fraenkel, Wege und Formen Fruhgriechischen Denkens , 2. Auflage Munchen, 1960, p. 23-39 et Dichtung und Philosophie , 2. Auflage Munchen, 1962, p. 149.

٩٦) Pind., Isthm., VIII, 14.

٩٧) Plut., De Soll anim., p 978 e-f. عندما يرسم بلوتارخوس الصورة السيكولوجية للقائد

ألكيبياديس Alkibiades فإنه يشدد على القدرة الكبيرة التي أوتيها أل ألكميونيداي Alkmêonidai ‹الأسرة النبيلة التي ينتمي إليها القائد ألكيبياديس› على التكيف مع المواقف والبشر، والتوافق مع عادات وأساليب حياة الكائنات المختلفة أشد الاختلاف. ويضيف بلوتارخوس بعد ذلك هذه الجزئية: «كانت تلك عند ألكيبياديس حيلة لأسر الناس mechane théras anthropon». ولكن على العكس من التمييز الذي فرضه كتاب Soll. anim., p. 978 e-f نجد الحرباء – لا الأخطبوط – هي التي تؤخذ لمقارنة مسلك ألكيبياديس بما يقابله في عالم الحيوان.

٩) مرادفات في لغة الحبّالة : H. Blumner, Technologie und Terminologie der Gewerbe und Kunste bei Griechen und Romern, 2. Auflage, I, 1912 (réimp. Olms, 1969), p 295.

٩) Oppien, Hal., III,347. Cf. J.Dumortier, Les Images dans la poésie d'Eschyle, Paris, 1935, p. 71 sq.

١٠) Oppien, Cynég., I, 150. Cf. Od., IX, 427 et X, 166; Grattius, Cynegeticon, I, 38 sq (éd. R. Verdière).

١٠) Hymne homérique à Hermès, 75 sq avec le commentaire de L. Radermacher, Der homerische Hermeshymnus, Sitz. Akad. Wiss Wien, Philos.-hist. Kl , t. 213, B, 1, Wien und Leipzig, 1931, p. 115-116.

١) Aristophone, Ploutos, 1154.

١) Schol. in Aristoph Plout., 1153.

١) Aristophone, Nuées, 450. في Eustathe, p. 1353, 9 هيرميس الملتوي الدوار strophaios يشبّه صراحة بالملتوي strophis

١) Nonnos, Dionys., XXX, 108 sq Keydell.

١) Schol. in Arist. Plut., 1153: ... strophaîon... tòn eidóta sumplékein kai stréphein lógous kai mechanás

١) Platon, Rép., 405 c Cf. Soph , Limiers, 362

١) Lucien, Demosth. Enc., 24, (t. III, p. 373 Jacobitz).

١) Platon, Phèdre, 261 d.

١) Dion. Halic., Rhét , VIII, 15; Platon, Théétète, 194 b.

١) Oppien, Hal., III, 80; Aristophane, Guêpes, 20; Athénée, X, 448 f sq.

١١٢) Aristophane, Oiseaux, 194.

١١٣) Diog. Laerche, I, 74; Strabon, XIII, 600; Plut., De Herod. Mal., 15.

١١٤) Eschyle, Agam., 1380 sq. عن التمثيل المصور لهذه الشبكة القاتلة يمكن الرجوع إلى: E. Vermeule, "The boston Oresteia Krater", Amer. Journ. Arch. 70, 1966, p. 1 sq, avec les remarques de H. Metger, Bull. archéol., Rev. Et. Gr., 1968, no 222.

١١٥) Od., VIII, 278-280.

١١٦) Od., XXII, 386: diktuon poluopón.

١١٧) Eschyle, Prom., 81.

١١٨) Eschyle, Agam., 1382.

١١٩) Aristophane, Guêpes, 699. في المصطلحات العسكرية كلمة kukleın وكلمة kuloûn تعنيان "طوق"، على نحو ما بين J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, Paris, 1965, p. 224.

١٢٠) Od., XII, 252.

١٢١) Hésiode, Travaux, 83.

١٢٢) Eschyle, Agam., 1375-1376; R. Böhme, "Arkústata. Ein Tragödienwort", Die Sprache 7, 1961, p. 199-212. .

١٢٣) Od.,XXII, 386 sq.

١٢٤) Il., V 487-488: linon pánagron وإنما وقعت طروادة كلها في شبكة steganòn dıktuon طوقتها Eschyle, Agam., 357-361.

١٢٥) Pind., Isthm., IV, 46-47.

١٢٦) Ion de Chios, fr. 81 von Blumenthal.

١٢٧) انظر ملحوظات ڤيدال ناكيه P. Vidal-Naquet, "Chasse et sacrıfice dans l'Orestıe d'Eschyle", in J.-P. Vernant et P. Vidal-Naquet, Mythe et tragédıe en Grèce ancienne, p. 135 sq.

١٢٨) Sophocle, Antıgone, 341-350; Euripide, fr. 27 N2.

١٢٩) Platon, Banquet, 203 b-e.

١٣٠) Metin huphainein: Il., VII, 324; IX, 93-95; 422; XIII, 303; 386; Od., IV, 678; 739; (Hés.), Boucl , 28. Déolon huphaınem: Il., VI, 187, Od., IX, 422; dólon (ou: technen) plékeın: Esch , Choèph., 220; eur., Ion, 826; 1280' Théognis, 226 (doloplokia);

انظر أيضاً الأمثلة التي جمعها تايردا في كتابه السابق الإشارة metin tektainesthai: Il., X, 19. إليه J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, Paris, 1965, p. 232-236 وهو يضيف إلى هذه الصور التقنية للضفر والنسج والبناء صور المطبخ في لغة أريسطوفانيس. والفعل kurkanân الذي يعني "يعد خليطاً" يستخدم فيها بمعنى «تدبير أمر».

١٣١) في أعمال أفلاطون Platon, Lois, III, 678 et Politique, 283 b يضم فن الضفر plektiké تقنيات النسيج huphantiké وتقنيات النجارة tektoniké. انظر P. M. Schuhl, "Remarques sur Platon et la technologie", Rev. Et. Gr. 66, 1953, p. 465-472 et R. Weil, L"Archéologie" de Platon, Paris, 1959, p. 65-66.

١٣٢) أرسطوطاليس (Aristote), Mechanica, 847 a 22 sq.

١٣٣) أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 620 b 25 sq

القسم الثاني
الاستيلاء على السلطة

الباب الثالث

معارك زيوس

١) عن المجردات المؤلهة عند هيسيودوس ارجع إلى B. Snell, Die Entdeckung des Geistes, Hamburg, 1955, p. 65 sq. بعض الآلهة التي لها شعائر تحمل أسماء يمكن مقارنتها باسم ميتيس، مثل: Aidós, Pistis, Phóbos, Éros, Cháris انظر H. Usener, Mythe et pensée chez les Grecs 1, Paris, 1969, p. 52. عن المشكلة العامة الخاصة بالأسماء المجردة من حيث هي آلهة عند الإغريق والرومان انظر H. Usener, Gotternamen, Versuch einer Lehre von der religiösen Begriffsbildung, Bonn, 1896, p. 364-375.

٢) انظر "بروميثيوس مغلولاً" Promèthée enchaîné, 212-213 ولجد عند هوميروس نفس التضاد بين dólos من ناحية وkrátos et bie من الناحية الأخرى. لوكورجوس الذي واجه في منازلة غريبة أرايثوس – الذي يصفه پاوسانياس بالداهية aner polemikós (VIII, 4, 10)– إذ ناجأه من الخلف في طريق شديد الضيق فلم يستطع أن يستخدم حربته الحديدية التي لا تُغلب Iliade, VII, 135 sq. فقتله بالدهاء لا بالقوة dóloi, oii ti kráteige، بأن سبقه عن خيانة hupophthás. انظر Paus, VIII, 4, 10 : فقتله بالدهاء لا بالأمانة dóloi kai ou sùn toi dikaioi. انظر Od, IX, 406 et 408 انتصر أوليسيس على الكوكلوپيس «بالحيلة لا بالقوة» dóloi oudè biephin. عن دور ميتيس، واستخدام الخدع في المعارك الحربية انظر Od, III, 119-121 : على مدى تسعة أعوام حبس الإغريق أعداءهم في شبكة من الكمائن من مختلف الأنواع pantoioisi dóloisi، ولكن لم يكن

هناك من يساوي أوليسيس في الدهاء الذي انتصر على أصحاب الخدع جميعاً pantoioisi dóloisi. في الإليــاذة II., III, 202 أوليـــسيس الداهيــة polúmetis يعــرف كل الحيـل وكل الأفكارالكثيفة pantoioius te dólous kai medea pukná.

٣) Aiolometis: Thógonie, 511; agkulometis: Théog., 546; Travaux, 48; aipométes: Promèthée, 18; dolophronéon :Théog.; poikilos :Théog., 511;Prom., 308; poikilóboulos:Théog., 521; polúidris:Théog., 616;sophistes:Prom., 62.

٤) " ... deinòs... heurein káx améchánon póron", Esch., Prom., 59

٥) Théog., 547, 551, 555, 560.

٦) Théog., 537, 565; Travaux, 48.

٧) حتى اشتقاق بروميثيوس من médea, mêtus أو manthàno يعني يتعلم ليس مؤكداً M. L. West, Hesiod, Theogony, 1966, p. 308 ؛ ولكن اتباع روح الإغريق يفرض التقريب نفسه بين اسم ابن Japet و promethés أي بصير، prometheia بصيرة، استشفاف؛ وكذلك بين اسم أخيه Epimetheús و epimétheia الفكرة التي تأتي بعد تأن؛ انظر Théog., 511 et 559; Travaux, 89; Eschyle, Suppliantes, 700.

٨) Théog., 887

٩) Ibid., 559' Travaux, 54.

١٠) Théog.,900

١١) Promèthee, 101-103

١٢) Ibid., 908.

١٣) Ibid., 927.

١٤) Théog., 894 ونلاحظ في الفترة كلها تكرار فعل phrázo = يتأمل (الأبيات ٨٩٢ و٩٠٠) مرتبطاً بكلمة (891) phradmosúne= الحرص و periphron (894) و epiphron (896) = حريص.

١٥) Prométhée, 150, 402-405.

١٦) Ibid., 762

١٧) Ibid., 170, 520-525, 769-770, 915.

١٨) Ibid., 119 sq.

١٩) Ibid., 219-220 et 439-440 .

٢٠) Apollodore, I, 1, 1; I, 1, 4; I, 2, 1.

٢١) Théog., 127

٢٢) Ibid., 126.

٢٣) Ibid., 127.

٢٤) يمكننا أن نقارن البيت ١٢٧ : pánton hédos asphalès aiei «لكل الأشياء مقراً مكيناً إلى الأبد» (جايا) والبيت ١٢٨ makáressi theois hédos asphalès aiei «للآلهة السعداء مقراً مكيناً إلى الأبد» (أورانوس) : انظر في هذه النقطة M. L. West (o. c., p. 193-194) الذي يبين أن العبارتين، ليستا، كما زعم البعض أحياناً، غير قابلتين للتوفيق، حتى إذا كان معنى العبارة الأولى قد تحدد بدقة في البيتين ١١٨و١١٩ اللذين يردان في كل المخطوطات. البيت ١٢٨: óphr'eie makáressi theois hédos asphalès aiei «حتى يكون للآلهة السعداء مقراً مكيناً إلى الأبد» - يشير في رأينا إلى الوضع المستقبلي لأورانوس، إلى الوضع الذي سيصير إليه، ولا يشير إلى الحال المباشر كما في البيت السابق: hina min peri pánta kalúptoi «حتى يغشاها قاطبة» - بل يشير إلى ما سيكون في المستقبل عندما يصبح على النحو الذي قدر له سلفاً من الناحية الكونية والدينية: فوق العالم السماء الثابتة الساكنة لكي تتخذ فيها الآلهة السماوية مكانها . انظر: Schol ad Hés. Th., 128, p. 185 Flach والفعل kalúptein لا يعني في المقام الأول : يغطي كما يغطي الغطاء الإناء، ولكنه يعني = يغشى ويخفي. انظر: Théog., 539 et 541 ؛ فلابد إذن أن تكون هناك علاقة بينه وبين الفعل apokrúptein في ١٥٧؛ فلكي يغشى رب السماء الأرض لابد أن يمتد فوقها؛ وهذا ما يرد في الأبيات ١٧٦-١٧٨، وفيها أورانوس «يرتبط بجايا ويمتد في مكان فوقها» amphi dè Gaiei (...) epéscheto kai rh'etanústhe pántei. هذا هو الوضع قبل تدخل كرونوس. وفي المقام الثاني التعبير hédos asphalès aièi يفترض أن السماء تظل ثابتة ساكنة وأن رب السماء لا ينزل بعد ذلك على الأرض جايا ليقترن بها؛ انظر في هذه النقطة Odyssée, VI, 43 et Pindare, Néméennes, VI, 5-7 «السماء الصلبة تظل مقراً مكيناً إلى الأبد» ho dè chálkeos asphalès aièn hédos ménei ouranós. ويشرح هيسيودوس وضع أورانوس المزدوج هذا بجملتين متميزتين، الأولى تبدأ بلفظة hina والثانية بلفظة óphra . ويمكن أن نلاحظ بعد ذلك أن الجبال Oúrea التي تلدها جايا، مثل أوروانوس، بدون معاشرة، أي بدون اتحاد مع إله ذكر، تعرّف هي الأخرى بأنها مقر طائفة معينة من الآلهة، هي النيمفات التي لن يحكي هيسيودوس عن مولدها إلا فيما بعد، انظر البيت رقم ١٨٧ عن النيمفات الميلينية.

٢٥) Ibid., 176-178

٢٦) Ibid., 157: pántas apokrúptaske أي =غشاها جميعا .

٢٧) استخدام الفعل érchpmai (elthe dè núkt'epágon «أتي جالباً الليل» يحمل ضمنياً معنى أن أورانوس لم يكن يغطي الأرض بلا انقطاع؛ فهو «أتى» ليتحد معها. وهذا لا يعني أنه يكون في أوقات أخرى في مكانه بالسماء. وتبدو لنا الكلمة في نص هيسيودوس لها معنى خاص يعطيه لها الإغريق عندما يكون المقصود العلاقات الحميمة الجنسية مع امرأة، على نحو ما نطالع في هيرودوتوس .Hérodote, II, 115 et VI, 68. والواقعة المتمثلة في أن رب السماء المعتمة عندما يتحد بجايا «يأتي بالليل» تبين أنه - إذ لا يبقى باستمرار في مكانه - يمنع (124: hemére) نور النهار من أن يخلف الظلمة بانتظام. ولهذا فهو إذ يغشى جايا، وإذ يخفي أولاده في حجر جايا، لا يدعهم «يصعدون إلى النور» (١٥٧).

٢٨) .Ibid., 160 جايا تئن في داخلها، من الضيق، والعجلة والزحام steinoméne. انظر : ,Il., XXI 220 ‹الإله النهر› سكاماندروس لم يعد يستطيع الانسياب لأنه كان steinomenos nekúessi «مزحوماً» بالجثث التي ملأته، ومنعته من أن يصب في البحر، مثل جايا التي كانت مزحومة بأولادها الذين لم يكونوا يعرفون السبيل إلى مخرج.

٢٩) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس: Théog., 138. Kronos agkulometes : 18, 137, 168, 473, 495.

٣٠) نفس المرجع .Ibid., 138

٣١) نفس المرجع . Ibid., 177: himeiron philótetos على العكس من ذلك جايا أنجبت جايا أورانوس philotetos ephimérou «دون الاستعانة بالحب العاطفي» (البيت ١٣٢). ولكن هذا الحب العارم بما اتسم به من تكرار مستمر وغياب المسافة بين القوتين المتقابلتين لم يسمح للاتحاد بأن يخرج إلى النور جيلاً جديداً. كان أورانوس برغبته المستمرة في الوصال philotes يقترب في آن واحد من القوة الأساسية لإيروس وأفروديتي ، الربة التي كانت دائمة في صحبة إيروس وهيميروس، الحب والرغبة (البيت ٢٠٢) كما يقترب من الليل. والوصال يقيناً من امتيازات أفروديتي (البيت ٢٠٦)، ولكننا نجده في سلالة الليل النكراء (البيت٢٢٤)، هذا الليل الذي ينشره أوروانوس لرغبته المستمرة في الوصال.

٣٢) كره أورانوس أولاده منذ اليوم الأول (ex arches, 156) ؛ ما كانوا يولدون حتى يواريهم في غيابات جايا. ولكن هذه المعلومات لا يمكن التوفيق بينها وبين ما سيذكره الشاعر فيما بعد في فقرة أخرى وفي سياق مختلف هو سياق الصراع بين كرونوس وزيوس (٦١٧-٦٢٠). أما بالنسبة إلى الهيكاتونخيريس أصحاب المائة ذراع فعندما حنق أبوهم عليهم حسداً منه لما كان لهم من قوة لا مثيل لها، وبنية وقوام، قيدهم بقيد شديد. وسنعود إلى تناول المشكلات المرتبطة بتقييد الهيكاتونخيريس الذي لا يرد في النص الذي نفسره. ولكننا نسجل هنا على عجل أن قوة الهيكاتونخيريس وبنيتهم وقوامهم لا يمكن أن تثير حسد أبيهم إذا كانوا أطفالاً حديثي الولادة. صحيح أن الآلهة تكبر بسرعة،

ولكن هيسيودوس لا يغفل عن التشديد في حديثه عن زيوس على أن الوليد كان لابد أن تنمو قوته وبنيته قبل أن يواجه كرونوس (انظر الأبيات ٤٩٢-٤٩٣).

٣٣) نفس المرجع .Ibid., 165

٣٤) J. -P. Vernant, "Oedipe sans complexe", Raison présente, 1967, 4, p. 10-11 (=Mythe et Tragédie, p. 85-86).

٣٥) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس: .Théog., 207-210

٣٦) نفس المرجع .Ibid., 174 وارى أورانوس جايا (kalúptoi, 127) ووارى أولاده (apokrúptaske, 157). وبالمقابل وارت جايا كرونوس (krúpsasa) ووضعته في كمين حيث سيأتي أبوه دون أن يشك في شيء.

٣٧) نفس المرجع .Ibid., 160 et 175

٣٨) نفس المرجع .Ibid.,461-462

٣٩) نفس المرجع .Ibid., 466

٤٠) نفس المرجع .Ibid., 476 et 486

٤١) نفس المرجع .Ibid., 486 النص يتضمن theon protéroi basilei "أول ملك للآلهة". وعلى هذا النحو يفهمه مازون Mazon. ولكن وست M. L. Westفي طبعته المحققة النقدية يقترح أن تكون العبارة theon protéron basilei أي = ملك الآلهة الأولين، موجهاً النظر إلى أن التيتان يسمون في نص هيسيودوس protéroi theoi أي الآلهة الأولين (انظر البيت رقم ٤٢٤)، وأن "الملك الأول" عند هيرودوتوس ‹هيرودوت› هو ho protéron basileús (وهو تصحيح أخذ به پيپمولار. انظر وست في الكتاب المذكور ص ٣٠١).

٤٢) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس: Théog., 471

٤٣) Pausanias, VIII, 36, 3; IX, 41, 6.

٤٤) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس: .Théog., 489-491

٤٥) نفس المرجع .Ibid., 494

٤٦) نفس المرجع .Ibid., 496

٤٧) نفس المرجع .Ibid., 495

٤٨) .Apollodore, I, 2, 1 عند أپولّودوروس يقابل نضج téleios زيوس ما جاء عند هيسيودوس (٤٩٢-٤٩٤): بمرور السنوات نمت بسرعة حمية ménos الأمير الشاب وأعضاؤه ؛ أما دور ميتيس

فيذكرنا بدهاء ريا Rhea الميتيسي (٤٧١)؛ علاوة على ذلك العقار السحري phármakon أو الشراب السحري يتصل هو أيضاً بالدهاء الميتيسي وصنوف قوته؛ انظر الأوديسا، النشيد الرابع، البيت ٢٢٧، حيث جاءت عبارة عقاقير phármaka métióenta هيلينه القائمة على علم دهائي.

٤٩) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس: Théog., 464: péproto; 894: heimarto.

٥٠) نفس المرجع .Ibid., 891-893

٥١) تظهر القوى المسيطرة على الانتقام على وجه مزدوج وتصدز عن أصل مزدوج: فمن حيث صدورها عن جايا تمثلها الإيرينويس Érinyes؛ ومن حيث صدورها عن الليل Núx تمثلها الكيريس، الكيريات Kèresوهي آلهة انتقام رهيبة والنيميسيس، النيميسيات Nèmesis. عن الإيرينويس، الإيرينويات elitópoinos أو nelitópoinos عند Ruhnken ارجع إلى-Ar (ORPHÉE), gonautiques, 1365. . ويمكن الرجوع بصفة عامة عن جمع الإيرينويس -الإيرينويات - والكيريس - الكيريات -معاً إلى .M. L. West, o. c., p. 229, note au vers 217

٥٢) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس: Théog., 184

٥٣) نفس المرجع .Ibid., 493

٥٤) نفس المرجع .Ibid., 188-190

٥٥) نفس المرجع .Ibid., 205-206 – تعني كلمة aphrós في نفس الوقت الزبد الأبيض الذي يظهر على موج البحر والمني الذي طفا وانطلق من لحم أورانوس المقطوع انظر,ap'athanátou chroòs ornuto 191 . عن العلاقة بين المني والزَبَد انظر -Diogène d'Apollonie, fr. B 6 et A 24 in Diels Kranz, FVS 7, II, p 65 et 57; Hippocrate, De la génération, I, 2 et 3; Aristote, Génération des animaux, 736 a 10-24; O. F., fr. 127 et 183 Kern. . وكما أن الإيرينويس – الإيرينويات – أنتجتهن الأرض من دم أورانوس ، وهن بهذا قريبات الشبه بالكيريس والنيميسيس المتولدات من الليل، نجد أن أفروديتي المتولدة عن عضو أورانوس قريبة الشبه بالإيهام Apáteوالحنان Philótes والكلام الكاذب المعسول Pseudeis lógoi وكلها تبدو كأنها من نسل مشئوم تولد عن الليل. هكذا ولد الفعل الإجرامي الذي ارتكبه كرونوس قوى إلهية على البر وفي البحر، تضاد بعضها بعضاً مثل الكره والحب، الصراع والاتفاق، ولكنها كلها مختلطة متداخلة، فالإيرينويس – الإيرينويات – وأفروديتي لهن ناحية بيضاء وناحية سوداء. انظر في شأن الإيرينويس ، الإيرينويات Pausanias, VIII, 34, 3؛ أما أفروديتي فقد وصفت بأنها سوداء Melainis، وغويطة Muchia ورحيبة Eumenes.

٥٦) عن الزمن الخادع انظر Pindare, Isthmiques, VIII, 14 (27): dólios aton; O. F., fr. 66 Kern: Chrónos aphthitómetis ذو دهاء لا يفنى.

٥٧) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس .Théog., 889-890يقارن بـ ٢٠٥ (أفروديته)، ٢٢٤ و ٢٢٩ (نسل الليل).

٥٨) Apollodore, I, 3, 6. نفس استخدام فعل phtháno بمعنى يتقدم، يسبق في موضع آخر عند أپوللودوروس Apollodore: I, 6, 1. . تقدم زيوس بالكاد العمالقة في التقاط العقار phármakon بواعز من جيا، ولو كان العمالقة نجحوا في الاستيلاء عليه وتعاطوه لجعلهم مظفرين لا يهزمون. وهذا الفعل hupophtháno هو نفسه الذي نجده في الإلياذة Iliade, VII, 144حيث يشير إلى أن لوكورجوس وجد وسيلة مكنته من قتل غريم له كان يخشاه على نحو خاص فتمكن منه «بالدهاء لا بالقوة» كما ذكرنا.

٥٩) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس . Théog., 501-502؛ انظر شرح ويست M. L. West, o. c., p. 304

٦٠) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس. Théog., 617-618.

٦١) نفس المرجع .Ibid., 504-506

٦٢) نفس المرجع .Ibid., 501

٦٣) ... Ibid., 164: Paides emoi kai patròs atasthálou "أبناء خرجوا مني ومن أب غضوب...".

٦٤) نفس المرجع .Ibid., 167-170 et 178

٦٥) نفس المرجع .Ibid., 208-210 اللعب بالكلمات يجري على مستويين: -Titanes (Titènes) titaino, Titanes-tisis; cf, Sch à 209, p. 187 et 231 Flach.

٦٦)نفس المرجع Ibid., 337 sq .

٦٧) ليست هناك إشارة إلى زواج إلا بالنسبة إلى برياريوس فقط، وهي أنه تزوج كومپوليوس ابنة پوسيدون (الأبيات ٨١٨-٨١٩) وليست هناك إشارة إلى نسل له.

٦٨) Apollodore, I, 1, 1-6

٦٩) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس Théog , 424 et 486؛ انظر شرح ويست M L. West, o c , p. 200 كلمة próterosتفترض وجود جيل سابق بالقياس إلى جيل لاحق هو جيل زيوس؛ الرب الأوليمپي لم ينتزع من هيكاتي ما كانت قد حصلت عليه "مع الآلهة التيتان الأولين". ومعنى التعبير يتحدد في البيت التالي (٤٢٥): "tò proton ap'arches épleto dasmós احتفظت بما كانت قد أعطيته أصلاً في التقسيم الأول"

٧٠) پاوسانياس ينوه بالمأثور عن إيليس Elis والذي يشير إلى أن كرونوس كان ملك السماء الأول. ويكون زيوس قد تنازع مع كرونوس على عرش أولومپيا . Pausanias, V, 7, 9-10. في

أولومپيا Olympia على وجه التحديد كان جمع من الكهنة كل عام في الاعتدال الربيعي يقدم القرابين إلى الإله الأول، فوق قمة جبل كرونوس، وكان هؤلاء الكهنة يعملون لقب باسيليا Basilia أي "الملكيون" Pausanias, VI, 20, 1

٧١) انظر ويست .M. L. West, o. c., p. 306 et 213

٧٢) يبدو أن الكوكلوپيس عند هيسيودوس يختلفون عن الرعاة الأفظاظ في الأوديسا التي تسميهم الملحمة بنفس الاسم، وهم كذلك عمالقة يبنون الأسوار في رواية تورتايوس Tyrtée (fr. 9, 3, C. Prato)، ويشار إليهم أحياناً باسم Cheirogástores أو Egcheirogástores أي من لهم أذرعة عند بطونهم (Scholie à Hésiode, Théog., 139; Hellanicos de Lesbos, fr. 88 Jacoby, Scholie à Aristide, LII, 10, p. 408 Didorf) . عند هيسيودوس الكوكلوپيس صناع في باطن الأرض يصنعون أسلحة السيادة السحرية، وتميزهم عينهم المدورة الوحيدة في جبهتهم، كما تميزهم قوتهم (is-chius, bie)، وكذلك مهارتهم (mechanai). أما الهيكاتونخيريس أصحاب المائة ذراع (انظر عن الاسم ويست M. L. West, o. c., p. 209 et 210) فلا يتميزون فقط بقوة هائلة، وبنية رهيبة، بل يتميزون أيضاً بأذرعتم العديدة، ونشاط ومرونة (aissonto, 150) لا تعرف التعب، مما يجعل من المحال الاقتراب منهم (إذا قرأنا الكلمة في البيت ١٥١ هكذا áplatoi) أو يجعلهم بلا شكل محدد أو غير قابلين للتقليد (إذا قرأنا الكلمة هكذا áplastoi). ويظهر المعنى الحربي لهذه الأذرع العديدة واضحاً خلال حرب التيتان. وهيسيودوس يعيد استخدام في هذه الفقرة (الأبيات من ٦٧٠ إلى ٦٧٨ ومن ٧١٣ إلى ٧٢٠) التعبيرات التي استخدمها من قبل. "كان لكل واحد منهم مائة ذراع تنبثق رهيبة من أكتافهم.". ولكن هذه الأذرع، أو على الأحرى هذه الأيدي cheires مسلحة بصخور سيُهَشّمون بها التيتان (البيت ٦٧٥ والبيت ٧١٥) . وفي صفوف الهيكاتونخيريس وفي صفوف التيتان يبين كل واحد ما يمكن أن تفعله القوة bie والأيدي cheires, 677. والتشابه من ناحية أخرى لافت للنظر بين وصف الهيكاتونخيريس الأقوياء óbrimoi (البيت ١٤٨)، deinoi te krateroi المرعبين، الأشداء (البيت٦٧٠) وبين وصف رجال من الجنس البرونزي وهبوا أنفسهم للعمل الحربي. هذا الجنس يوصف بالقوة والرعب deinoi te kai óbrimon (انظر Travaux, 145 قصيدة "الأعمال" لهيسيودوس). ويلفت التشابه النظر على نحو أشد عندما نجد في الأبيات ١٤٨-١٥٠ من قصيدة "الأعمال" لهيسيودوس نفس التعبيرات التي استخدمت في «ثيوجونية» لوصف الهيكاتونخيريس : «قوتهم شديدة، أذرعهم لا تُقهر، وهي متصلة عند الكتف بجسمهم القوي» وعلينا أن نحفظ التعبير الذي استخدمه هيسيودوس في البيت ١٥٢ عند وصف موت هؤلاء المحاربين الذين قُدُّوا من البرونز : cheiressin hupò sphetéreisin daméntesò غلبتهم أذرعهم وهم ذاهبون إلى هاديس <إله الموتى>».

وهناك نص في «قوانين» أفلاطون (Lois, 795 sq.) يقدم إلينا تفسيراً جيداً لطبيعة الهيكاتونخيريس

وظيفتهم. فأفلاطون يذكر أن الملاكم الكامل لابد أن يكون أيسر أعسر قادراً على استخدام يمناه ويسراه. «عندما تكون لديه القدرة على الضرب بيده اليسرى، فإنه يتفادى ألا تكون لديه سوى إمكانية رد عرجاء، بطيئة، غشيمة عندما يضطره الغريم إلى الدوران إلى الخلف للإفلات من هجمة عكسية. وينطبق القانون نفسه على استخدام الأسلحة الثقيلة والأسلحة من كل نوع: من كان لديه عضوان للدفاع والهجوم يفرض عليه هذا القانون ألا يترك أياً منهما بلا عمل وبلا تدريب. ولو ولد الإنسان مثل جيريون أو برياريوس لاستطاع أن يسدد مائة حربة بيديه المائة».

هذا التعدد الهائل في الأيدي والرؤوس عند الهيكاتونخيريس يذكّرنا بموضوع المحارب المزدوج الذي لا يُقهر لأنه يجمع قوة رجلين. وهذه هي حال الموليونيدين <موليونيديس> Molionides، التوأمين اللذين لهما أب من البشر هو أكتور Aktor وأب من الآلهة هو پوسايدون (عن العلاقات بين الهيكاتونخيري برياريوس بالبحر وبپوسايدون ارجع إلى ويست M. L. West, o. c., p. 210 et 379 .M). ولقد قدمت الإلياذة من قبل الأخوين إذ هما مؤتلفان ائتلافاً عميقاً في قيادة العربة (XXIII, 638 sq et scholie). ويصفهما إيبيكوس Ibycos بأنهما مؤتلفان يكوّنان معاً ما يوشك أن يكون كائناً واحداً اتصلت جوارحه بجسم واحد (Athénée, II, 58 a). هذا المحارب المزدوج لابد أنه كان رهيباً: ولكي يتمكن هيرَقليس (هرقل) من قتله، اضطر إلى أن يباغته بالهجوم الغادر بأن نصب له كميناً حيث لم يكن أخذاً حذره. (انظر-Pindare, Olymp., X, 36-38; Pausanias, V, 2, 1' Apol Iodore, II, 7, 2). وهذه هي أيضاً حال جيريون Geryon الذي قيل عنه إنه ذو ثلاثة رؤوس (Hé-siode, Théog., 287) وثلاثة أبدان (Eschyle, Agamemnon , 870) اجتمعت فوق ساقين (Apol-Iodore, II, 5, 10)، وقيل إنه كانت له ست أيد وعشر أقدام (Stesichore, fr. 6 Bergk)؛ ويضيف أريسطوفانيس - الذي يتحدث في مسرحية "الأخارنيون" عن جيرنيون - أنه كان ذا خوذات أربع، أي أنه كان بأربعة رؤوس على كل خوذة من خوذات القتال. ويظهر جيريون في الصور بأبدانه المتعددة تكسوها السرابيل المصفحة من خوذات وآثاب ودروع ورماح. وعبارة أريسطوفانيس على لسان ديكياركوس موجهاً الكلام في سخرية إلى لاماخوس هي : « أم تريد أن تصارع جيريون له أربعة أعراف؟ » والشارح يصوغها كما يلي: «أم تريد أن تصارع واحداً لا يُقهر akatamáchentos؟ »

وجورج دوميزيل Georges Dumézil الذي يدين له تحرير هذا الفصل عن الميثات الإغريقية بالكثير، حتى وإن كنا افترقنا عنه عند جزئيات التفسير، أدرك تماماً هذه النواحي المتصلة بالسحر الحربي والتي تضفي على الآلهة المحاربة، علاوة على قوتها البدنية، كل أسلحة المايا maya ابتداءً من الدهاء ووصولاً إلى تعددية الأشكال وإلى موهبة التحور. ومما كتب : «ينبغي على المحارب أن يكون قادراً على الإفلات من القوانين، لا القوانين الأخلاقية فحسب، بل القوانين الكونية والفيزيقية ذاتها؛ وهو لكي يدافع عن النظام، عليه أن يكون في حال تمكنه من تجاوز هذا النظام والخروج منه - حتى وإن اضطر للمجازفة بالاستسلام إلى إغراء الهجوم عليه.» (انظر "Ordre, fantaisie, change-ment dans les pensées archaïques de l'Inde et de Rome - à propos du latin mos ", Re-

vue des Études latines, 1954, p. 145.). وقصة پيركلومينيس التي ستتاح لنا فرصة العودة إليها، تجسم هذا الموضوع، موضوع المحارب الذي أوتي القدرة السحرية على التحور. وسيحتاج هرقليس لكي يقهره إلى أن يقلب ضده، بمساندة أثينه، أسلحة الدهاء والخداع.

٧٣) انظرالمسرحية التراجيدية «پروميثيوس مغلولاً» Prométhée enchaîné, 145, 163, 942, 955, 960.

٧٤)- كما أن جايا أخفت الصاعقة في البداية، الصاعقة التي أصبحت سلاح زيوس، كذلك كانت هي التي خلقت المعدن الأبيض وَهو الصلب، والحربة التي أصبحت سلاح كرونوس (١٦١-١٦٢). أما پروميثيوس فهو الذي كشف للناس كل الكنوز التي كانت الأرض تخفيها: البرونز والحديد والذهب والفضة (Prommēthée, 500 sq)

٧٥) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس Théog., 718.

٧٦) التعبير pistoi phúlakes Diós بحسب ويست M. L. West لا يشير إلا إلى العون الذي قدموه إلى زيوس، لا إلى دورهم كحراس وسجانين. انظر العكس عند Tzetzès, Th , 277. بعد الالتزامات المتبادلة بين زيوس والهيكانخيريس الذين أخذوا واعتقلوا، لا نفهم لماذا يسكن هؤلاء التارتاروس إلا أن يكونوا حراساً. أو يكون علينا أن نقبل مع ويست M. L. West بأن زيوس نفاهم هم بدورهم.ولكن هيسيودوس لا يقول شيئاً يحمل هذا المعنى.

٧٧) Iliade, I, 402 sq.

٧٨) Marie Delcourt, Héphaistos ou la Légende du magicien, Paris, 1957.

٧٩) انظر «المجتثات الأورفيوسية» O. F., 178 et 179, p. 210-212 Kern

٨٠) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس Théog., 678-682, 695-705, 839-952.

٨١) نفس المرجع Ibid., 632.

٨٢) نفس المرجع Ibid., 695 sq et 715.

٨٣) نفس المرجع Ibid , 711. التعبير eklinthe máche لابد من فهمه موصولاً بالبيت ٦٣٨ الذي يعارضه. لمدة عشر سنوات «بالنسبة إلى الجميع على السواء ظلت نهاية الحرب معلقة» ison télos tétato ptolémoio وكما ذكر ويست M. L. West (o. c., p. 341) الاستعارة تنصب على ثقل ميزان كل معسكر من المعسكرين المتصارعين. الكفتان متعادلتان في البداية، ولكن عندما يحرك زيوس صاعقته، تميل كفة الميزان.

٨٤) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس Théog., 823-824.

٨٥) Iliade, XIV, 73: ménos kai cheîras édesen

٨٦) R. B. Omans, The Origins of European Thought, 2.éd., 1954 (1re éd. 1951, p. 348, n. 1),

٨٧) Iliade, XIII, 434 sq.; V, 385 sq; Odyssée, III, 269 et XVIII, 155-156.

٨٨) Apollodore, I, 2, 1. ينهض الكوكلوبيس هنا بمهمة الموزعين، إذ يقدمون إلى كل إله السلاح الذي يخصه والذي يحدد مجاله. بهذه السمة تقوم قرابة بين الكوكلوبيس وبين پروميثيوس الذي يشدد الميثوس الخاص به على دوره كموزع. انظر J. -P. Vernant, Mythe et pensée chez les Grecs, 5. éd., II, p. 9 sq.

٨٩) پروميثيوس (الأبيات ٩٢٢-٩٢٥. نفس التأليف بين الصاعقة والشوكة عند پنداروس Pindare, Isthmiques, VII, 59-106. زيوس وپوسايدون يتنافسان إلى أن يتحدا بثيتيس. وثيميس تحذرهما من أن النيريديس ثيتيس ستضع ثمرة هذا الاتحاد ابناً «ستكون ليده رمية ذات رهبة أشد من الصاعقة ومن الشوكة الهائلة» (٧١-٧٥). فلما عرف الملكان النبوءة اتفقا على التخلي عن مشروعهما كي تتزوج ثيتيس واحداً من البشر. وپروميثيوس في هذه الصياغة ليس هو العارف الوحيد بسر ثيميس-جايا. وقد أبدل التيتان صاحب الدهاء بنصيحة الإلهين اللذين «حفزتهما الحيطة على الحيلولة دون إتمام هذا الاتحاد ». كذلك نجد ائتلافاً وثيقاً بين صاعقة زيوس وشوكة پوسايدون في الإلياذة، النشيد ٢٠، الأبيات ٥٦-٥٨، وفيها نقرأ : زيوس يدوي من فوق، وپوسايدون يضرب الأرض من تحت.

٩٠) Iliade, XIII, 434-437.

٩١) نفس المرجع Ibid., V, 385 sq.

٩٢) Théogonie, 726-753, Cf, P. Walcot, Hesiod and the Near East, Cardiff, 1966, p. 61.

٩٣) نفس المرجع Ibid , 697.

٩٤) M. L. West, o. c.., p 351.

٩٥) Hymne Hom Apollon, I, 335. انظر في المعنى نفسه الإلياذة، النشيد ١٤، الأبيات ٢٠٣-٢٠٤.

٩٦) انظر كاللماخوس، حمام أثينة Callimaque, Bain de Pallas . للتعبير عن أن أثينة أصابت تيريسياس بالعمى عقاباً له على ما ارتكب من إثم إذ نظر إليها وهي تستحم - يستخدم النص التركيب التالي: «خطف الليل عينيه» (٨٢).

٩٧) عن استحالة الإفلات من عين زيوس انظر «پروميثيوس» الأبيات ٩٠٢-٩٠٦. وهذا هو كورس <جنيات> الأوقيانيدات يتمنى ألا يُلقي حب واحد من كبار الآلهة عليهن عيناً لا سبيل إلى الإفلات منها áphukton ómma؛ ويضفن إلى هذه الأمنية قولهن إن تلك حرب مستحيلة لا يقدر عليها أحد

apólemos... pólemos، ولا مخرج منها لأحد ápora pórimos. ويختم الكورس إنشاده بهذه الكلمات: «لا أرى سبلاً للإفلات من دهاء زيوس الميتيسي.»

٩٨) انظر: «ثيوجونية» هيسيودوس Théogonie, 715-717

٩٩) نفس المرجع .Ibid., 838-839 نفس التأليف بين نظرة زيوس الحادة ودوي الرعد والصاعقة في الإلياذة، النشيد الثامن، الأبيات ١٣٢-١٣٣. هذه العلاقة الوثيقة بين قوة النظرة الخاصة بالإله السيد الملك وبين السلاح الصاعق الذي في حوزته نجدها بينة، دقيقة التحديد على نحو خاص في «بروميثيوس مغلولاً». عبارة àgrupnan bélos أي الضربة اليقظة التي تمثلها صاعقة زيوس تقابلها gorgopon sélas ومضة النظرة المرعبة التي تنبثق في برق estrapte (راجع اسم الكوكلوبيس استيروبيس Steropès المشتق من estrapte) من عيني توفون. في تأجج هذه النظرة تعبير عن نية الوحش في أن يقلب بالعنف هيمنة زيوس (الأبيات ٣٥٦-٣٥٨). والمعركة يتواجه فيها، على نحو ما عين لعين، الإله السيد والمتمرد الذي يريد أن يخلعه عن العرش. ولكن نظرة زيوس البراقة تتميز بنوع خاص من اليقظة والحسم. وهذا هو توفون يقع ضحية عنف هذه النظرة التي كان يريد أن يصيب بها زيوس فينتهي به الأمر إلى الخضوع لـ«يد» سيد السماء: pròs bian cheiroúmenon (353) . والقرابة التي نعتقد أننا قادرون على إثبات قيامها بين عين زيوس ونار الصاعقة، قرابة طبيعية بقدر ما كان الإغريق يجمعون على تصور العين ذات طبيعة نارية. فأرسطوطاليس يقر بأن العين والرؤية في رأي جميع الفلاسفة ينتميان إلى النار (انظر De sensu, II, 437 a 19 sq) . وكثيراً ما كان الأقدمون يتصورون النظر كالشعاع المنبعث من نار العين في اتجاه الشيء (إمبيذوقليس Empédocle, : fr. 415 (B 84), in Jean Bollack, Empédocle, t. 2, p. 135, 1, 6 أفلاطون Platon, Timée, 45 b-c) وإمبيذوقليس يتحدث عن القبس الذي حفظته أفروديتي وحمته في مركز العين بأغشية مثل الملاءات الرقيقة في السرير، فيسميه koúre kúklops أي البنت الصغيرة أو البنت القاصر ذات العين المدورة (انظر Empédocle, fr. 415 (B 84), in Jean Bollack, o. c., t. 3, p 324 sq). ولعلنا نسلك سبيل الصواب عندما نفترض مثلما افترض م. فان بيرج M. Van Berg في ندوة من ندواتنا في مدرسة الدراسات العليا، أن تكون هناك علاقة مباشرة بين عين الكوكلوبيس المدورة والوظيفة التي خصّهم بها هيسيودوس من حيث هم أساطين نار التعدين، وصناع الصاعقة (انظر Théog , 141: teûxán te keraunón) خدمة لزيوس. ويتحدد الكوكلوبيس الثلاثة عند هيسيودوس هكذا بالنسبة إلى الهيكاتونخيريس الثلاثة على أنهم أولئك الذين يعطون ملك الآلهة قوة العين والنظرة، إلى جانب أولئك الذين يعطونه قوة اليد والذراع.

١٠٠) Épiménide, fr. B 8, in Diels-Kranz, FVS 7, I, p 34

١٠١) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس .Théog., 839-868

١٠٢) Apollodore, I, 6, 3.

١٠٣) انظر پينداروس .Pindare, Pythiques, I, 52 et 34-36

١٠٤) انظر «الأوديسا» .Od., VIII, 336

١٠٥) انظر «الأوديسا» .Od., XII, 164

١٠٦) .Prométhée, 353: pròs bian cheiroúmenon عن استخدام الفعل cheiro الذي يعني يحرك باليد ويخضع ويكبح انظر Plutarque, Mor., 987 e, حيث يدل اللفظ مثل dámnemi على استئناس الحيوانات المتوحشة التي تمكن البشر منها بالشباك والفخاخ págais à dólois echeirósanto. والهيكاتونخيريس بأذرعهم المائة مؤهلون على نحو خاص ليُمِدّوا زيوس بالقدرة على الكبح cheiroûn.

١٠٧) .Prométhée, 365; Pindare, Olymp., IV, 11

١٠٨) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس .Théog., 521-522 هذا العمود kion يذكّرنا بعمود السماء في حالة أخيه أطلس Atlas، وبالعمود الذي أخضع توفون.

١٠٩) .Prométhée, 152 et 1051-1052

١١٠) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس Théog., 529 وهذا القبول لا يعرضونه دائماً كشيء تلقائي بل ولا كشيء مقصود عن إرادة.

١١١) بناءً على ما كتبه هيسيودوس: كبلهم أورانوس بالأغلال. أما في رأي أپوللودوروس : كبلهم أورانوس ثم كرونوس بالأغلال. وبعض النصوص المتأخرة تشير أيضاً إلى تحرير زيوس للتيتان. ولكن هذا الرأي يقوم على تفسير وعظي أخلاقي يهدف إلى إجلال عظمة ملك الآلهة. ويبدو عمله في هذه الصياغة رخيصاً في جوهره؛ فهو لا يفترض وجود مردود على الإطلاق. فلم تعد المشكلة بالنسبة إليه إقامة السيادة أو الحفاظ عليها، فقد أصبحت سلطته على العكس ثابتة متينة على نحو يتيح له أن يمنح نفسه ترف العفو حتى عن أولئك الذين كانوا منافسين مباشرين له. أضف إلى ذلك أن كرونوس والتيتان ظلوا ملوكاً بالنسبة إلى الفكر الديني عند الإغريق. ومن الصعب أن يتصورهم المتصورون مكبلين بالأغلال إلى الأبد، وبخاصة إذا علمنا أن بعض الروايات تجعل كرونوس يحكم جزيرة السعداء (انظر قصيدة «الأعمال» لهيسيودوس Travaux, 169 a ؛ أما حالة توفون فمختلفة تماماً، و«ثيوجونية» تعرضها بطريقة مشابهة تماماً لطريقة عرض حالة التيتان الذين يظلون في العبودية طالما بقي حكم زيوس، أي طالما بقي النظام. عن التيتان محررين انظر Pin-dare, Olymp., II, 77; Pythiques, IV, 291 وانظر كذلك هيسيودوس، قصيدة «الأعمال» Travaux, 169 a-e في فقرة لا شك في أنها مدسوسة.

١١٢) انظر إيسخيلوس Prométhée, 167-170 وانظر كذلك ٣٧٥-٣٧٦ و ٥١٠ .

١١٣) نفس المرجع Ibid., 509

١١٤) نفس المرجع .Ibid., 769-770

١١٥) ولنذكر رغم ذلك من أجل تحليل البنيات أن الكوكلوپيس والهيكاتونخيريس كانوا من بعض النواحي يواجهون زيوس قبل أن يشتركوا معه. وهم في الحقيقة، من حيث هم جيل من الآلهة ومن حيث هم أقارب، ينتمون إلى التيتان ويعارضون الأوليمپيين. وهكذا فإنهم ينتقلون من وضع بدائي يواجهون فيه زيوس إلى وضع ثان مكتسب يكونون فيه بجانبه.

١١٦) Prométhée, 59 انظر كذلك البيتين ٤٧٠ و٤٧١.

١١٧) نفس المرجع .Ibid., 512-513

١١٨) انظر «ثيوجونية»، البيت رقم ٧٦٥. في موضوع الموت من حيث هو قيد انظر الإلياذة النشيد الرابع، البيت ٥١٧ : الموت moira قيد ديوريس Diôres (...) والظلام غشا عينيه skótos óss'ekálupse. - في شأن التعبير moira thanatou انظر: Od., II, 100; III, 238; XVII, 327; Omans, The Origins of European Thought, 2. ed., p. 327 et sq.

١١٩) Prométhée, 1020 ظل پروميثيوس متوارياً تحت ضمة الصخرة التي أحاطت به، وكان عليه أن ينتظر طويلاً حتى يعود إلى النور من جديد.

١٢٠) Apollodore, I, 7, 2; PAus., X, 4, 4; Callimaque, fr. 192 Pfeiffer; Eschyle, fr.369 Nauck, 2. éd.; Aristophane, Oiseaux, 684; Hérondas, Mimes, II, 28-30; Philémon, fr. 89 Kapp; Stobée, Florilegiton, II, 27; Etym. Magn., s.v. Ikonion, p. 471, 1 sq.; Ovide, Métamorphoses, I, 80 sq/; Servius, inn Virgile, Eglogues, VI, 42.

١٢١) Euripide, Ion, 452.

١٢٢) Athénée, 674 d-e.

١٢٣) نفس المرجع . Ibid., 671 f.

١٢٤) نفس المرجع . Ibid., 672 a-673 b.

١٢٥) نفس المرجع . Ibid., 672 f.

١٢٦) Hygin, Poet. astr, I, 15, p. 54 Bunte: "(Promethea) nonnulli etiam coronam habuisse dixerunt, ut se victorem impune peccasse diceret; itaque homines in maxima laetitia victorisque coronas habere instituerunt."

١٢٧) كتبنا هذه السطور عندما أتيح لنا الاطلاع على دراسة أنجيلو بريليش Angelo Brelich الذي انتهى إلى نتائج تتفق إلى حد كبير مع النتائج التي انتهينا إلينا: "La Corona di Prometheus", Hommages à Marie Delcourt, Coll. Latomus, vol CXIV, Bruxelles,

1970, p. 234-242.

١٢٨) Apollodore, I, 2, 1.

١٢٩) انظرالأوديسا .Od., IV, 400 et sq

١٣٠) Diodore, III, 70.

١٣١) Nonnos, Dionys., XVII, 236-264.

١٣٢) انظر مسرحية «پروميثيوس» لإيسخيلوس .Prométhée, 237

١٣٣) نفس المرجع .Ibid.,306 et 512-513

١٣٤) Pythiques, II, 51.

١٣٥) Louis Gernet, "Quelques rapports entre la pénalité et la religion dans la Grèce ancienne", L'Antiquité classique 5, 1936, p. 325-339 (- Anthropologie de la Grèce antique, Paris, Maspero, 1968, p. 288-301). يتساءل لوي چيرني Louis Gernet عن كلمة méson التي وردت في البيت ٥٢٢ في «ثيوجونية» هيسيودوس وعما إذا كان الأصوب إلحاقها بپروميثيوس، لا بجعلها تدل على عذاب الخازوق، ولكن بجعلها تشير إلى وضع القعود. بالنسبة إلى التفسيرات الأخرى للنص انظر M. L. West, o. c., p. 312

١٣٦) .Platon, Lois, 9, 855 c. ونلاحظ أن مسرحية «پروميثيوس» لإيسخيلوس تشدد على السمة العلنية لما ينزل بپروميثيوس من عذاب؛ والإذلال يشتد إيلاماً عندما يكون علنياً على مرأى من الجميع؛ راجع الأبيات ٩٢-٩٣، ١١٨-١١٩، ١٤٠، ١٥٥-١٥٩، ٢٤٤-٢٤٦، ٢٩٨-٢٩٩، ٣٠٢-٣٠٣، ٥٤٠-٥٤١، ٥٥٣-٥٥٤، ١٠٩٣.

١٣٧) مسرحية «پروميثيوس» لإيسخيلوس، الأبيات ٣١-٣٢.

١٣٨) Iliade, VII, 118; XIX, 72; Od., V, 453; Sophocle, Oedipe à Colonne, 19 et 85; Euripide, Hécube, 1080 et 1150.

١٣٩) انظر كذلك علاوة على البيت رقم ٣٢ البيت رقم ٣٩٦

١٤٠) انظر لوي چيرني .L. Gernet, o. c., p. 300-301

١٤١) وزع زيوس عند انتصاره الامتيازات والمناصب على الأوليمپيين، بينما جرد التيتان من كرامتهم بما فعلهم به من تقييد بعيداً عن العالم. انظر «ثيوجونيا» البيت ٦٢٩ و البيت ٨٨٥ من ناحية والأبيات ٤٢١-٤٢٩ من الناحية الأخرى.

١٤٢) عندما خلع زيوس كرونوس وقيده كان بذلك يجعل من نفسه أداة تنفذ رغبة الإيرينيات للانتقام من أورانوس. وهذا هو ما يثبته هيسيودوس مرتين: في البيت ٢١٠ يبلغ أورانوس التيتان أن فعلتهم لن

تبقى بلا عقاب،وأن المستقبل سينتقم منها لا محالة؛ وفي البيت رقم ٤٧٢ يذكر أن أورانوس وجيا Gaia تآمرا مع ريا Rhéa ودبروا خطة تهدف إلى تحرير زيوس ومعاقبة كرونوس على ما تحمل به من ظلم الإيرينيات. وإذا كان المفروض أن يكون العقاب على قدر الخطأ، فلنا أن نفهم ما جاء في بعض الصياغات من تصور عقاب كرونوس على شكل الجريمة التي ارتكبها هو نفسه من قبل. ولكن السمة الثانوية والهامشية التي تتسم بها هذه الصياغات وهي تبدو كأنها نشأت في بيئات طائفية مثل البيئات الأورفيوسية سمة واضحة ظاهرة. ويذكر أپولونيوس الرودسي أن هناك جزيرة خبئت فيها المحشة التي اجتث بها كرونوس أعضاء أبيه التناسلية. ويضيف أن أمة الفيقائيين تولدت من دم أورانوس (انظر أپولونيوس الرودسي، الأرجونوتية Argonautiques, IV, 982-994). ويذكر الشارح أن الكايوس يتفق مع أكوسيلاوس في القول بأن الفيقائيين أصلهم من قطرات الدم التي تساقطت من أورانوس (انظر Sch. Apol., IV, 992 = Alcée, fr. 116 Bergk, 96 Edmonds, 199 Reinach). ونجد لوكوفرون Lycophron في الأبيات ٧٦١-٧٦٥ من "أليكساندرا" Alexandraكما نجد الشراح في حواشيهم وتعليقاتهم على هذه الفقرة يذكرون هذه القيلة ولكنهم يبدلون أورانوس بكرونوس ويقولون إن زيوس قام هو الآخر بخصيه (انظر Scholies à Ly-cophron, Alexandra, 762,p. 243 Scheer). وعلى النحو نفسه يؤكد لودوس Lydus في "رسالة عن الشهور" أن أفروديتي تولدت من من أعضاء كرونوس الجنسية، ويضيف أنه يعني أنها تولدت من الزمن (apò toû aiònos, 4, 64, p. 116, 21 sq Wünsch). والرأي عندنا أنه ليس من الممكن من أجل تفسير ثيوجونية أن نستخلص شيئاً من هذه العبارات التي هو إضافات غريبة على التراث الميثي الذي سجله هيسيودوس.

١٤٣) هيسيودوس، "ثيوجونية" Théog., 657

١٤٤) Ibid., 585 sq.; Travaux, 80 sq; Iliade, XIX, 127-129.

١٤٥) انظر " Théog." هيسيودوس، «ثيوجونية»، البيت ٥٠٢. ونلاحظ أن جايا في البيت ١٦٤ قد وصفت أورانوس بأنه atàsthalos «مغرور إلى حد الجنون».

١٤٦) Ibid , 395-396 . "أما أولئك الذين تركهم كرونوس بلا امتيازات أو إقطاع átimos, agérastos فقد التزم زيوس بأن يمكّنهم من الحصول على الامتيازات والإقطاع بما يقضي به العدل he thémis estin « .

١٤٧) هيسيودوس، «ثيوجونية» . Ibid., 402 et 951

١٤٨) هيسيودوس، «ثيوجونية» . Ibid., 46, 111, 633, 664

١٤٩) هيسيودوس، «ثيوجونية» .Ibid., 885 وكذلك ٦١٢-٦١٤ .

١٥٠) Ibid., 397-398; Prométhée, 209 sq. .

١٥١) Marie Delcourt, Héphaistos ou la Légende du magicien, p. 21-23, 25-26, 66-68.

الباب الرابع

الاقتران بميتيس

ملكة السماء

١) انظر "ثيوجونية" هيسيودوس Hésiode, Théog., 886: Próten (...) Metin, et 901: Deúteron Thémin. (...) وكثيراً ما نوه الباحثون بالبناء الثلاثي المتواتر لقائمة زوجات زيوس في صياغة هيسيودوس ابتداء من البيت رقم ٩٠٧ (زواجه بأوورونومي Eurynomè بعد ثيميس Thémis) إلى البيت رقم ٩٢٩ الذي يختم القائمة (باستثناء البيتين ٩١٠-٩١١ أخرجهما مازون Mazon من عداد الألهة). وتأسيساً على هذا المعنى فإن زوجتي زيوس الأوليين تكوّنان في السلسلة مجموعة منفصلة؛ فهما خارج التعداد الثلاثي للزيجات التالية عليهما. هذا الوضع المشترك يبرزه تطابق العبارة التي تنتهي بها كل فقرة من الفقرتين اللتين خص هيسيودوس بكل واحدة منهما واحدة من الربتين ميتيس وثيميس: agathón te kakón te البيت رقم ٩٠٠ (ميتيس) والبيت رقم ٩٠٦ (ثيميس).

٢) انظر J.-P. Vernant, Revue des Études Grecques, 1963, p. XVII-XVIII; وانظر خاصة M. Detienne, Les Maîtres de vérité dans la Grèce archaique, Paris, 1967, chap. III, p. 30-50: Le Vieux de la Mer.

٣) انظر "ثيوجونية" هيسيودوس Théog., 901-902.

٤) انظر "ثيوجونية" هيسيودوس Ibid., 904-906.

٥) إذا نحن نظرنا إلى هذا الثنائي المكون من ربتين لا من حيث هما ربتان بل من منظور أنهما من البشر، جاز لنا أن نقول إنهما تتناولان على نحو متناظر وجهات متعارضة من العرافة. فنبوءة ثيميس تعكس ضرورة الأحكام الإلهية التي لا رجعة فيها والتي لا يستطيع البشر أن يفلتوا منها. أما ميتيس فتشير في مشورة العرافة إلى ناحية الامتحان بين الألهة والبشر، اللعبة الماكرة الخطيرة التي ليس فيها ثابت مسبقاً، والتي يكون فيها على طلاب المشورة أن يعرفوا كيف يسألوا في اللحظة المناسبة، وكيف يقبلوا أو يرفضوا كلام العرافة بل كيف يحوروا لصالحهم الإجابة التي قدمها الرب لصالح غريهم.

وقد يتيح تفسيرنا للثنائي ثيميس -ميتيس فهم الجمع في پارثينيون Parthéneion <الشاعر> ألقمان Alcman بين أيسا Aîsa <=القدر> وپوروس <الطريق> Póros على اعتبار أنهما من الآلهة الأولانية ويطلق عليهما اسم أقدم الآلهة: geraitatoi sion (= theon) أو daimónon geraitatoi

(اتباعاً لإعادة تكوين النص). ويرى فرينكل H. Faenkel في كتابه «أدب وفلسفة» Dichtung und Philosophie, 2. éd., 1962, p. 183-184 أن أيسا Aîsa <=القدر> هي مبدأ القدر من حيث هو جبر كامل، وأن پوروس Póros هي التعبير عن هامش المبادرة الذي يتيحه المستقبل للذكاء الذي يستطيع استخدام الحيلة. والعلاقة بين أيسا Aîsa <=القدر> وثيميس علاقة بديهية، والعلاقة بين پوروس وميتيس علاقة صريحة حتى بدون شهادة أفلاطون. وجمع أيسا وپوروس في ثنائي قوتين متعارضتين متكاملتين يكافئ، تماماً الجمع بين ثيميس وميتيس. ويصح أن نضيف هنا أنه إذا كانت الفقرتان الخاصتان بميتيس وثيميس تنتهيان بنفس العبارة agathón te kakón te ، <=خيراً وشراً> فإن العبارة تتخذ في كل حالة معنى عكس المعنى في الحالة الأخرى؛ في حالة ميتيس يكون المعنى هو الخير والشر اللذين تحذر الربة منهما زيوس مسبقاً لكي يتهيأ ملك الآلهة لإيجاد الحيلة التي تمكنه من نيل الخير وتحاشي الشر؛ أما في حالة ثيميس فالمعنى على العكس هو التنبيه إلى الخير والشر من حيث أنهما قدر قدرته المؤثرات الثلاث من قبل على البشر المساكين (وأسماؤهن تعبر بوضوح عن أن البشر الفانين ليست لديهم وسيلة على الإطلاق لرد القدر (أيسا) أو تحويله، ذلك القدر الذي حفظته للدهاء الميتيسي بناء على الامتياز الذي منحه إياهن زيوس timen póre metieta Zeús .

٦) Metieta: Théog., 56, 520, 904, 914; Travaux, 104, Metióeis: Théog., 286, 457; Travaux, 51, 769.

٧) انظر الحاشية المدونة على ثوجونية هيسيودوس : Schol. Hésiode, Théog., 886: "Planésas oûn autèn ho Zeùs kai mikràn poiésas katépien: فلما ضللها زيوس وصغّرها <= جعلها تتخذ هيئة صغيرة> ابتلعها". والمخطوط وردت به كلمة pikràn التي قرأها پالي F. A. Paley et Goettling وجوتلينج على أنها mikràn . أم هل ينبغي علينا أن نتبع كوك A. B. Cook, Zeus. A Study in Ancient Religion, III, p. 744, n. 4. ونبقي على كلمة pikràn ويفسرانها بمعنى مضاد السم وكان الإغريق يسمونه hierà pikrà ؛ أغرى زيوس ميتيس بأن تتحور وتتخذ شكل قطرات من سائل يسهل عليه إساغته. وكأننا نجد هنا عنصر الابتلاع الذي عرفناه في حالة كرونوس ، ولكنه هنا معكوس: فقد جعلت ميتيس كرونوس يبلع عقاراً phármakon اضطره إلى أن يتقيأ أولئك الذين كان يريد إبقاءهم إلى الأبد في داخله. وهكذا يكون زيوس نجح في تحوير ميتيس إلى عقار phármakon وبهذا يستطيع ابتلاعها وإبقاءها إلى الأبد في أحشائه.

٨) انظر J. Schwartz, Pseudo-Hesiodeia. Recherches sur la composition, la diffusion et la disparition ancienne d'oeuvres attribuées à Hésiode, Leiden, 1960, p. 343-356; Fragmenta Hesiodea, fr 33 a et b, p. 22 et 23, Merkelbach-West; A. B. Cook, o. c., III, p. 743 sq.

٩) SVF, II, 256 von Arnim = Galien, De Hippocratis et Platonis placitis, III, 8 (V, p. 351 Kuhn). في شأن قدم هذه الرواية وعلاقاتها برواية ثيوجونية هيسيودوس، انظر كوك A. B. Cook, o. c., III, p. 743, n. 9 وانظر بصفة خاصة كاور S. Kauer وكتابه Die Geburt der Athena im altgriechischen Epos, Würzburg, 1959 = «مولد أثينة في الملحمة الإغريقية القديمة».

١٠) في هذه الرواية نجد هيرا في سعيها إلى الانتقام تنجب هيفايستوس الذي يفوق الآلهة جميعاً في المعرفة والمهارة التقنيين، بينما ينجب زيوس أثينة التي تنتصر في كل أشكال الذكاء العملي.

١١) في النص عبارة polù dineúousan ‹بمعنى التقلب›، وهي التي يجعل بيرك Bergk منها polùdéne' eoûsan. وإذا نحن أبقينا على القراءة polù dineúousan فعلينا أن نفسر هذا التقلب بالإشارة إلى تحورات ميتيس وتقلبها الدائم من شكل إلى شكل.

١٢) كتب صاحب الحاشية: «كان لميتيس القدرة على التحورعلى النحو الذي تتمناه.»

١٣) أبوللودوروس Apollodore I, 3, 6.

١٤) Thétis-Pélée: Apollodre, III, 13, 5; Pindare, Néméennes, IV, 62; Sch. Lycophron, Alexandra, 175 et 178, p. 85 et 88 Scheer; Sch. Apollonius de Rhodes, Argonautiques, I, 582; Quintus de Smyrne, La Suite d'Homère, III, 618-624; Ovide, Métamorphoses, XI, 235. Protée-Ménélas: Odyssée, IV, 383-570 Nérée-Héraklès:ApollodoreII, 5, 11; Sch Apollonius de Rhodes, Argonautiques, IV, 1396

١٥) أبوللودوروس Apollodore III, 13, 5

١٦) الأوديسا Odyssée, IV, 419-423

١٧) الأوديسا Odyssée, IV, 437 et 453: dólos; 441, 465: lóchos. والخدعة dólos التي تخيلتها إيدوثيا هي أن تخفى مينيلاوس ورفاقه الثلاثة بتغطيتهم بجلود عجول البحر. عندما يتلبس هؤلاء البشر بجلود حيوانات بحرية مسلوخة لتوها، فقد يتلبسوا بشيء من شخصية غريمهم المائجة وينالوا هكذا نصيباً من دهائه الميتيسي الملتوي (انظر الصفحات ٢٤٦-٢٦٢ من المصدر المذكور).

١٨) الأوديسا Odyssée, IV, 410 et 460; dolie téchne· 455.

١٩) الأوديسا .Odyssée, IV, 460

٢٠)انظر الأوديسا وانظر كذلك «ثيوجونية» هيسيودوس Odyssée, IV, 486; Hésiode, Théog., 233.

٢١) الأوديسا .Odyssée, IV, 419 et 454: amphi dè cheiras bállomen

٢٢) أبوللودوروس .Apollodore III, 13, 5

٢٣) نفس المؤلف، المجلد الثاني .ID., II, 5, 11

٢٤) ID.: sullabon dè autòn koimómenon أمسكه بينما كان نائماً

٢٥) الأوديسا .Odyssée, IV, 414 et 453

٢٦) الإلياذة Iliade, XIV, 243-246

٢٧) الإلياذة Iliade, XIV, 247-248

٢٨) انظر ما سبق ص ٥٦ وما بعدها.

٢٩) قام أوتوس Otos وإيفيالتيس Ephialtês – إبنا ألويوس Aloeus – بتقييد الرب أريس Arès ‹هوإله الحرب مارس عند الرومان› وظل ثلاث عشرة شهراً حبيساً في جرة من البرونز؛ ولو لم يجد هيرميس وسيلة لتحرير هذا الإله المتعطش إلى الحرب لهلك apólpito؛ وهو عندما خرج من سجنه كان منهك القوة وقد تضاءلت قيمته (ede teirómenos) . انظر الإلياذة Iliade, V, 385-391

٣٠) Orphicorum fragmenta, 2. éd., 148 et 149, p. 190 Kern; Porphyre, Antre des Nymphes, 16. وعلينا أن نلاحظ التعبيرات phagon doloéssan edoden = بعد أن أكل طعام الخديعة (O.F., 148) و tón dià mélitos dólon = ضربة الخديعة الممزوجة بالعسل (Porphyre, l. c.). انظر ڤاسينك J. H. Waszink, The dreaming Kronos in the Corpus Hermeticum, Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire orientales et slaves 10, 1950 (Mélanges Henri Grégoire), p. 639-653.

٣١) De defectu or., 420 a; De facie in orbe lunae, 941 f: desmòn gàr autoi tòn húpnon memechanesthai et tòn gàr húpnon autoi memechanesthai desmòn hupó toû Diós.

٣٢) ثيوجونية هيسيودوس Théog., 856

٣٣) F Vian, Le Mythe de Typhée et le problème de ses origines orientales, in . Éléments orientaux dans la religion grecque ancienne, Paris, 1960, p 17-37; P. Walcot, Hesiod and the Near East, Cardiff, 1966, p. 9-16.

٣٤) F. Vian (o. c., p 34) لاحظ بصفة خاصة :«أوليكومي Ullikumi عبارة عن كتلة من الحجر،

وهو أصم وأعمى، يشير الخوف فقط بضخامة كتلته. وهو بصريح العبارة مثل ڤرتا Vrta في الهند، رمز المقاومة السلبية: إنه قوة الخمود، إنه العقبة ... أما توفويوس <تونون> فهو نمط مختلف كل الاختلاف.

٣٥) ثيوجونية هيسيودوس Théog., 824

٣٦) ثيوجونية هيسيودوس .Théog., 826-827

٣٧) ثيوجونية هيسيودوس .Ibid., 829-835

٣٨) Ibid., 829-830: phonai (...) pantoien óp' ieîsai, أي = يُسمع أصواتاً من كل الأنواع؛ انظر: أنطونينوس ليبيراليس، التحورات Antoninus Liberalis, Métamorphoses, XXVIII, 1: phonàs dè pantoias ephıeı.

٣٩) انظر نونوس <الشاعر المولود في أخميم>، وملحمته

Nonnos, Dionysiaques, I, 157-162; II, 250-257 et 367-370; Scholie à Eschyle, Prométhée enchaîné, 351; انظر ملحوظات ويست M. L. West على «ثيوجونية» هيسيودوس Hesiod. Theogony, Oxford, 1966, p. 386 .

٤٠) «ثيوجونية هيسيودوس» .Théogonie, 836-839

٤١) Prométhée enchaîné, 356-358; انظر ما سبق ص ٩٠-٩١.

٤٢) Épiménide, 11 fr. B 8, in Diels-K., FVS, 7. éd., II, p. 34; انظر ما سبق ص ٩١-٩٢.

٤٣) I, 6, 3.

٤٤) نص هيسيودوس يشدد على القرابة بين الهاوية الخاوية للتارتاروس، وطبيعة توفويوس <توفون> المضطربة المختلطة؛ انظر «ثيوجونية هيسيودوس»، البيت ٧٤٢ (التارتاروس)؛ الأبيات ٨٣٢-٨٣٥ (توفويوس)؛ الأبيات ٨٧٥-٨٧٦ (الرياح العاصفة).

٤٥) انظر «ثيوجونية هيسيودوس» .Ibid., 829-876

٤٦) انظر «ثيوجونية هيسيودوس» .Ibid , 378-382

٤٧) انظر ما سبق ص ٩٨ وما بعدها.

٤٨) انظر «ثيوجونية هيسيودوس» .Théogonie, 858

٤٩) بالمعنى الذي يعطيه مؤرخو الأديان للكلمة الإنجليزية trickster

٥٠) كتابه «صيد السمك» .Halieutiques, III, 9-28

٥١) F. Vian, o c., p. 28 sq, P. Walcot, o.c., p. 14 sq.

٥٢) انظر ما سبق ص ٣٤-٥٩.

٥٣) أپوللودوروس .I, 6, 1

٥٤) نفس المؤلف .ID., I, 3, 6

٥٥) انظر «ثيوجونية هيسيودوس» .Théogonie, 459-497 et 888-900

٥٦) انظر «ثيوجونية هيسيودوس» .Ibid, 629-641

٥٧) انظر «ثيوجونية هيسيودوس» .Ibid, 641

٥٨) انظر «ثيوجونية هيسيودوس» .Ibid, 775-806

٥٩) Ibid, 796-797 انظر في هذا الموضوع رودهارت J. Rudhardt, Le Thème de l'eau primordiale dans la mythologie grecque, Berne, 1971, p. 94-97. ورودهارت يستخلص بوضوح: «العلاقة بين الأساطير الميثية الخاصة بالمياه الأولانية ستوكس وتلك الخاصة بطعام الآلهة الأمبروسيا».

٦٠) Théogonie, 535 sq; Travaux, 42 sq; J.-P. Vernant, "Le Mythe prométhéen chez Hésiode", dans Mythe et société en Grèce ancienne, Paris, 1974, p. 177 sq..

٦١) انظر «ثيوجونية هيسيودوس» .Théogonie, 858

٦٢) انظر «ثيوجونية هيسيودوس» .Théogonie, 551

القسم الثالث
أصول العالم

الباب الخامس
الدهاء الميتيسي الأورفيوسي وجبّار ثيتيس

١) O. Kern, "Metis bei Orpheus", Hermes, 1939, p. 207-208

٢) S. G. Kapsomenos, "Der Papyrus von Derveni. Ein Kommentar zur Orphischen Theogonie", Gnomon 35, 1963, p. 223 sq; S. G. Kapsomenos, Bulletin of the American Society of Papyrologists 2, 1964, p. 3 sq et Archaiologikon Deltion 19, 1964, p. 17-25; R. Merkelbach, "Der orphische Papyrus von Derveni", Zeitschrift für Papyrologie u. Epigraphie, 1967, p. 21-32; W Burkert, "Orpheus und die Vorsokratiker", Antike und Abendland, 1968, 9. 93-114; La Genèse des choses et des mots Le

papyrus de Derveni entre Anaxagore et Cratyle", Les Études Philosophiques, 1970 (4), p. 443-455.

٣) انظر المجتثات الأورفيوسية، تحقيق أ. كيرن O. Kern, Orphicorum Fragmenta (O.F.), Berlin, 1963(1re éd. 1922), fr. 83, p. 157: «الإله العظيم ميتيس الذي يحمل نطفة الآلهة العظيمة والذي كان السعداء على قمة الأوليمپوس يسمونه فانيس = الباهر وپروتوجونوس أول المواليد».

٤) Ibid., fr. 168, 1 9, p. 201 et fr. 169, 1. 4, p. 207: Mètis, protos genétor; Mètis, prote genétis.

٥)) انظر المجتثات الأورفيوسية. O.F , fr. 87, 1. 1, p. 159.

٦) Ibid., fr 167 a, p. 199: «آنذاك، عندما ابتلع جوهر إيريكيپايوس پروتوجونوس Erikepaios Protogonos كان يضم في جوفه جوهر كل الكائنات ومزج في أعضائه هو قوة الرب وشدته. ولهذا فمع الرب تجمعت الأشياء كلها من جديد في داخل زيوس.» انظر النص نفسه: O.F., fr. 167 b, 168, 169.

٧) انظر المجتثات الأورفيوسية O.F., fr.168, 1. 31-32, p. 202 «وبعد أن واري زيوس كل شيء [في داخله] ، كان عليه أن يخرجه من قلبه لينتجه في الضوء المانح البهجة بعمل إعجازي.» .

٨) انظر المجتثات الأورفيوسية. O.F., fr. 168, 1. 1-2, p. 201.

٩) انظر المجتثات الأورفيوسية: O.F , fr. 168, 1. 3: «كان زيوس ذكراً، زيوس كانت باقية وتزوجت في شبابها númphe» .

١٠) أفلاطون. Platon, Philèbe, 66 c.

١١) في موضوع هوية ديونيسوس وفانيس ميتيس انظر المجتثات الأورفيوسية O.F.m fr. 170 « ميتيس ذلك الذي يسمى دائماً ديونيسوس وفانيس وإيريكيپايوس.»

١٢) نفس المرجع: في <شخص> ميتيس-فانيس Mètis-Phanès كان "برومبوس" Bromios <أي ديونيسوس> العظيم وزيوس الذي يرى كل شيء، موجودين من قبل.»

١٣) مثل زيوس ، ابتداءً من قلبه apò kradies ، كان يخرج إلى النور كل ما أخفاه عندما ابتلع فانيس ميتي Phanès-Mètis .

١٤) انظر كتاب أرسطوطاليس عن الحيوان. De la génération des animaux, 733 b 20. في كوسموغرافيا فيريكوده Phérécyde نجد زيوس ينسج غلالة phâros مزركشة لكي يقدمها في اليوم الثالث لزفافه إلى قرينته لكي تتشح بها فتتغطى بكل الأشكال المكونة للعالم المنظم مطرزة على ثوبها. ويمكننا أن نقارن هذا المعنى بما أورده پورفوريوس Porphyre, Antre des Nymphes, 14 :

«هكذا يعرض علينا في شخص أورفيوس كوري Corè نائبة كل الكائنات ذوات النطف وهي تنسج. ولقد كان الأقدمون يسمّون السماء الغلالة التي تحيط بالآلهة السماوية.» عن استخدام الأورفيوسيين كلمتي chitón (ثوب) و humén (غشاء) بمعنى كوسموجوني انظر.,O. F., fr. 60 = FVS, 7. éd. I, 1 B 12, p. 11, 1. 13-14 et 21. عن المعنى الكوني للنسيج انظر نونوس Nonnos, Dionysiaca, 41, 257 sq. وهذا هو المعنى الذي ينبغي الأخذ به عند تفسير التناظر الذي وضعه الأورفيوسيون بين كلمة spérma نطفة (حيث وصفت ميتيس بأنها spérma klutòn theon نطفة الألهة الجليلة) وكلمة اللُحمة mitos . وهناك على تشفة من زهرية ذات صور سوداء عثر عليها في كابيرون ثيبة لحمة مرتبطة بالقوة Krateia بجانب طفل صغير يدعى پروتولاوس Protolaos (الشعب الأول، الإنسانية الأولى؛ انظر .Ath, Mitt. 13, pl. IX

١٥) R. Merkelbach, o.c., p. 25

١٦) O.F., fr. 189, p. 126.

١٧) O.F., fr. 91, p. 161.

١٨) توفر على نشر النص إ . لوبيل E. Lobel, Oxyrrhyncus Papyri, XXXIV, 1957, n. fr. 2, et D. L.fr. Page, Poetate Melici Graeci, fr. 5, p. 23-24 . وهناك دراسات تحليلية متعددة تناولت هذا النص على المستوى اللغوي وعلى مستوى التفسير، انظر E. Lobel, l.c.; Page, l.c. et Class. Rev. n.s. 9, 1959, p. 20-21; W. S. Barrett, "The Oxyrhyncus Papyri, part. 24", Gnomon 33, 1961, p. 689; H. Fraenkel, Dichtung und Philosophie, 2. Aufl., 1962, p. 183 sq et 290; C. M. Bowra, Greek Lyric Poetry, 2. ed., p. 24 sq; Max Treu, "Licht und Leuchtendes in der archaischen griechischen Poesie", Studium generale 18, 2, p. 84-87; H. Schwabl, R.-E., Suppl. IX, c. 1467; A. Garzya, Studi sulla lirica Greca. Da Alcmane al primo impero, 1963, p. 20-25; Idee cosmogoniche et morale in Alcmane, Le parole et le Idee, 1963, p. 247-254' M. L. West, "Three Presocratic Cosmologies", Class. Quart. n. s. 17, 1967, p. 1-14; C. O. Pavese, "Alcmane, il Partenio del Louvre", Quaderni Urbinati di cultura classica 4, 1967, p. 116-120

١٩) L. 9-10: tèn húlen pán[ton teta]ragménen kai apóeton هيولي <مادة> كل شيء في حالة اختلاط وعدم اكتمال؛ الهيولي <المادة> عندما كانت مختلطة غير متمايزة , ١ ٢٣-٢٤ .

éti adiákrt[o]n...[t]en húlen

٢٠) عن مراجع النص الإغريقي ارجع إلى J.-P. Vernant, "Thétis et le poème cosmogonique d'Alcman", Hommages à Marie Delcourt, Bruxelles 1970, p. 39.

٢١) L.17-19 :من ناحية كان لكل شيء طبيعة شبيهة بمادة البرونز، ومن ناحية أخرى ثيتيس شبيهة بالصانع (toû technitou) .

٢٢) Eustathe, ad Il., 1154,25; D. L., Page, o.c., fr. 61, p. 53.

٢٣) Hésiode, Théogonie, 722; انظر أيضاً موضوع السندالين المثبتين في قدمي هيرا عندما علقها زيوس بين السماء والأرض، وقد ورد في الإلياذة Iliade, XV, 18-20.

٢٤) انظر الإلياذة Iliade, XVIII, 395 sq.؛ وارجع إلى W. Burkert, Gnomon 35 35, 1963, p. 827-828. في بعض المصورات التي تمثل عودة هيفايستوس، تبدو ثيتيس حاضرة في الموكب الذي يحمل الإله عائداً في الاتجاه الآخر إلى قمة الأوليمپوس (انظر H. Metzger, Revue des Études Grecques 81, 1968, p 161). على زهرية فرانسوا François يظهر نيريوس بين الأشخاص الذين يشاركون تحت قيادة ديونيسوس في صعود الإله الحدّاد نحو السماء التي كان قد قُذف منها من قبل.

٢٥) Diodore de Sicile, V, 55; Strabon, X, 3, 7; XIV, 2, 7; Callimaque, Hymne a Délos, 31; Marie Delcourt, Héphaistos ou la Légende du magicien, Paris, 1957, p. 168-170.

٢٦) Hésychius, s. v. Pyrrhaie; Delcourt, Pyrrhos et Pyrrha, Paris, 1965, p. 36. في موضوع ثيتيس التي لاحقها هيفايستوس للاقتران بها وإصابته إياها بجرح في قدمها (ونحن نعرف أن سحر ‹صناعة› التعدين كثيراً ما يواكب عيباً في القدم أو الساقين) انظر الحاشيتين :Scholie à Lycophron, Alexandra 175, p. 84-85 Scheer et Scholie à Pindare, Néméennes, IV, 81 Drachmann - الرواية الثانية لقذف هيفايستوس تلقي الضوء أيضاً على التوافقات بين التعدين والربات البحريات. وهيفايستوس يسقط في ليمنوس عند السينيتيين، ويقترن بابنة پروتيوس - كابيرو Cabeirô - لينجب الكابيريات Cabires. وتحمل أم كابيرو - وهي زوجة پروتيوس له دلالته وهو أنخينوي Anchinoè (Strabon, X, 3, 21; Stéphane de Byzance, s. v. kabeiria). وصفة الأجخينُويا agchinoia صفة ذهنية تقترب من الدهاء الميتيسي (انظر فيما بعد p 297 sq). وهكذا تكون الكابيريات الماهرات في التعدين من نسل هيفايستوس من ناحية الأب ومن ناحية الأم من نسل پروتيوس الذي اقترن بربة توشك أن تكون بديلة مطابقة للأوقيانيدية ميتيس التي سنبين علاقاتها بثيتيس.

٢٧) "Alcman and Pythagoras", Class. Quart.n.s. 17, 1967, p. 4-5.

٢٨) Pausanus, III, 14, 4.

٢٩) Scholie à Lycophron, 22, p 23 Scheer

٣٠) Ch. Kérényi, Mythologie des Grecs, 1952, p. 20, 43, 221.

٣١) Mythographi Vaticani, I, 204.

٣٢) G. S. Kirk and J. E. Raven, The Presocratic Philosophers, 1960, p. 65-70.

٣٣) Apollonius de Rhodes, Argonautiques, I, 503; Nonnos, Dionysiaca, II, 573; VIII, 158; Tzetzes, In Lycoph. Alex., 1191.

٣٤) Pausanus, VIII, 61.

٣٥) Iliade, I, 401-406.

٣٦) A. B. Cook, Zeus. A Study in Ancient Religion, III, 1, p. 745.

٣٧) تحورات ميتيس Apollodore, I, 3, 6; Sch. Hésiode, Théogonie, 886; تحورات ثيتيس Pindare, Néméennes, IV, 62 (101); Apollodore, III, 13, 4-5; Pausanus, V, 18, 5; Sch. Apollonius de Rhodes, I, 582; Sch. Lycophron, Alexandra, 175 et 178; Etym. magnum, s.v. Sepiàs; Photius, Bibliothèque, 149 b.

٣٨) انظر ما سبق ملحوظة ٤.

٣٩) Orphei Hymni, 23 (à Nérée); 25 (à Protée), p. 20-21 Quandt.

٤٠) تتفق المصورات والنصوص الأدبية على تصوير هذه الضمة التي تنكل الإله المتحور في مِنْكَلة ذراعيه المتحلقتين حيث تلتحم اليدان التحاماً وثيقاً. ومعنى منازلة الإله المتحور والانتصار عليه واضح: فالمقصود هو مباغتة الغريم بمكر أو كمين أو تنكر، وهو الداهية، الحريص أشد الحرص، اليقظ أشد اليقظة؛ والاستمرار في تكبيله بضمة الذراعين مهما حدث. ويتجرد الوحش من قدرته السحرية نتيجة للوثاق الذي ضمه، ويكون عليه بعد أن أفرغ سلسلة التحورات المتاحة له من أولها إلى آخرها أن يعود إلى صورته الأولى وأن يستسلم للغالب. فإذا كان المطلوب أن يقدم إجابة عن سؤال، كان عليه أن يقدمها دون غموض أو مواربة، وعلى نحو واضح صريح لا يحتمل إلا معنى واحداً. وهكذا يجد الداهية من هو أشد دهاءً منه؛ ويجد الحذر من يباغته؛ ويجد معلم القيود من يقيده؛ ويجد من أفرغ دائرة التحورات المتاحة له من يكبله بحلقته الدائرية؛ ويعود صاحب التحورات العديدة إلى صورة واحدة؛ ويتضح اللغز سافراً جلياً.

٤١) انظر: ج. شاربونو، < النحت الإغريقي العتيق> - J. Charbonneaux, La Sculpture grecque archaique, 1939, p 23-24. ويتضح لنا من الجدول الذي صنعه نينك Ninck في كتابه Die Bedeutung des Wassers in Kult und Leben der Alten, 1921, p. 161-163 : معنى الماء في مناسك وحياة القدماء ، وهو الجدول الذي انطلق فيه من الصياغات الأسطورية والمصورات المختلفة، عن الأشكال التي اتخذتها الآلهة البحرية (پروتيوس، نيريوس، التيلخينيون، أخيلوءوس، ميتيس، نيميسيس، ثيتيس) في مسار تحوراتها، أن النهر (الماء الجاري) والنار والماء هي الأكثر وروداً.

٤٢) پروميثيوس ٧٥٨ Prométhée sq. الداهية الواسع الحيلة (Hés., Théog., 511 et 546) قادر

على أن يجد مخرجاً حتى من المأزق المحيط كما جاء في پروميثيوس لإسخيلوس heurein kàx amechánon póron (Eschyle, Prométhé, 59)

٤٣) Isthm., VIII, 14 (27).

٤٤) أفلاطون ، الوليمة .Platon, Banquet, 203 b sq. التوازي بين ثيتيس/پوروس وبين ميتيس پوروس تبينه أ، جارزيا.A. Garzya, Studı ..., p. 24 et C. O. Pavese, p. 118 (o.c. supra n. 18)

٤٥) پلوتارخوس Plutaque, Moralia, 374 d؛ انظر كذلك أفلوطين، التاسوعات Plotin, Ennéades, III, 5, 7. وهنا نرى "الفقر" Penia مرتبطاً بما هو بغير تمييز، بغير سبب، بغير حد aórıston kai álogon kai ápeiron مثل الهيولي hýle الأولى في قصيدة ألقمان.

٤٦) يصف أفلاطون وضع الفقر penia بأنه وضع من يكون مجرداً، مقفراً endeés (204 a; cf. éndeia, 203 d) ومعوزاً áporos (204 b; cf. 203b et 203 e).

٤٧) O. F. 66 et 67 Kern.

٤٨) Orphei Hymni, 23, p. 20 Quandt.

٤٩) مسرحية "الطيور"لأريسطوفانيس Oiseaux, 36 sq.

٥٠) Orphei Hymni, 6, p.6 Quandt.

٥١) Hés., Théog., 887 et 900.

٥٢) انظر ألقمان: پارثينيون في طبعة پيج Alcman, Parthenecıon,I, 13-15, p. 2. مع الحاشية في الكتاب المذكور ص ٦؛ وانظر بردية أوكسورهونكوس papyrus oxyrhyncus حيث ترتبط كلمة présgus صراحة بپوروس Pòros. وكما أن هناك إيروس قديم أرخائي archaıos Éros، كذلك نيريوس يوصف بالشيخ géron والعجوز العتيق presbútatos (Hésıodfe, Théogonie, 233-4)، وهناك پوروس العجوز présbus Póros، وهو أقدم الآلهة geraitatos، أي أنه ينتمي إلى طبقة الآلهة الأولانية. -- فيما يختص بقيمة پوروس Póros مشاركاً لأيسا فنحن نفضل على رأي د. ل. پيج D. L. Page (Alcman. The Partheneıon, 1951) أو م. ل. ويست M L. West (Cl Qu n.s 17, I, p 7 sq) الرأي الذي ذهب إليه فرينكل H. Fraenkel في كتابه المشار إليه من قبل ص ١٨٣، (انظرالملحوظة الهامشية رقم ١٨ أعلاه) والذي يتلخص في أن المبدأين يعارض أحدهما الآخر، مثل المَخرج (وينضوي على المبادرة والحرية النسبية) الذي يعارض القدّر (وينضوي على إجبار كامل) – راجع التقريب إلى أوريبيديس ومسرحيته ميديا . والرأي عند پاڤيزه C. O. Pavese في كتابه السالف الذكر، ص ١١٨-١١٩ (انظر الملحوظة الهامشية رقم ١٨ وقد سبقت)، وپوروس Póros مشاركاً أيسا Aisa، مشاركة «الطريق» لـ «القدر». والقول بأن «القدر» و«الطريق» هما أقدم

الآلهة، يعني الإقرار بأن «القدر» له سبله وأنه يجد دائماً الطريق والوسيلة ليتحقق، انظر في الوضوعات ماسبق الملحوظة الهامشية رقم ٥ ص ١٠٥.

٥٣) انظر Parménide, fr. 13 وانظر كذلك ملحوظات م. أونترشتاينر Untersteiner, Parmenide. Testmonianze e frammenti, 1958, p. 70.

٥٤) عن أبواب البحر Póroi halós انظر XII, 259; Platon, Timée, 28 d; Apollonius de Rhodes, Argonautiques, IV, 1556; enálioi póroi: Eschylle, Perses, 453. عن النجوم تطفو وتغوص في البحر انظر : Hésiode, Travaux, 566, 616, 620' Iliade, VII, 422. ولذلك كاليماخوس في معرض الإشادة بجزيرة ديلوس عندما لم تكن قد مدت جذورها عميقة بعد، بل كجزيرة جارية، طافية فوق مياه البحر المائجة السريعة ، كتب موجهاً الكلام إلى الجزيرة: «حرة طـ كنت تطفين فوق الأمواج. كان اسمك آنذاك أستريا Asteria ‹النجمية›؛ ولكي تهربي من عـ زيوس، كنت تغوصين من أعالي السماء إلى الهاوية السحيقة مثل النجم astéri ise.» انظر :
mne à Délos, 35-38

٥٥) انظر أثينايوس: Athénée, XI, 469 f; sichore, fr. 6,1-4 Diehl: óphra di' Okeanoio perásas: póros Okeanoû cf, Eschyle, Prométhée, 531; Hésiode, Théogonie,292.

٥٦) انظر ديودوروس الصقلي: Diodore de Sicile, I, 98, 3.

٥٧) Ps. Orphée, Argonautiques, 781.

٥٨) Ibid., 37

٥٩) Ibid., 207.

٦٠) Aratos, Phénomènes, 257.

٦١) انظر أثينايوس: Athénée, XI, 489 e. ويمكننا أن نقرأ هنا عن كل التطور الخاص بالپلياد حتى ٤٩٢؛ ولنا نقارن بين Aratos, Phénomènes, 254-263 . وبين Od., XII, 61 sq. – و أناكسيماندروس Anaximandros يرى أن هناك انبعاثات ekpnoai تحدث في السماء من خـ فتحات، أبواب póroi ، يمكن مقارنتها بفوهات منفاخ أو صفارة pnoàs d'hupárxai pórous tinàs aulodeis. ومن خلال هذه الأبواب póroi تبدو لنا نار السماء في شكل نجوم . وهكذا يـ القمر في ازدياد ونقصان بحسب ما إذا كانت هذه الأبواب السماوية póroi تنفتح أو تنغـ (انظر Anaximandre, A 11 = Hipp., Réf, I, 6, 4-5). أما في رأي أرسطوطاليس فـ الانبعاث يمثل العملية التي ترتفع بها الرطوبة من المياه على شكل بخار ثم تسقط على شكل مـ وتتجه دائماً إلى أعلى نحو السماء ثم تعود إلى أسفل بعد ذلك. وتصور أرسطوطاليس هذه الدو كمجرى نهر يضم على هيئة الدائرة الأعلى والأسفل، وتساءل عما إذا كان هذا المجرى هو ما كـ

القدماء يسمونه إوقيانوس بأبوابه póroi الدائرية .(Météorologiques, 347 a 1-10).

٦٢) انظر الأوديسا .Od., XII, 62

٦٣) انظر پينداروس (82) Pindare, Ol., VII, 45 – سحابة النسيان المظلمة، المجردة من كل إشارة láthas atékmarta néphos، والتي تنشل من العقل الطريق المستقيم ortàn hodón. والمكان البحري – شبيه بالغمامة المظلمة – مجرد من الإشارة atékmartos، على الأقل طالما لم تغشه تيارات أو رياح منتظمة ترسم على صفحته «طرق البحر» póroi halós . انظر-Oppien, Halieutiques, I, 364: Poseidáonos atékmartoi periopai; {Orphée}, Arg., 1150 بفضل نسمة الريح القوية keanoû kelarúzetai ‹oud'atékmarton húdor وما هي من الأوقيانوس مياه مضطربة تنتشر صاخبة Nonnos, Dionys., 13, 537 في الأعماق الخفية للبحر الذي تجرد من كل علامة هادية atékmártoio انظر L. M. West, Cl. Qu n,s. 17, p. 3, n. 3

٦٤) انظر الإلياذة Il., XXIII, 316-317 الدهاء الميتيسي هو الذي يمكن الرجل القابض على الدفة من قيادة السفينة السريعة في البحر المخمور على الرغم من الريح»، انظرفيما بعد ص ٢٠٥ وما بعدها.

٦٥) انظر موسوعة "سودا" أي الحصن "Souda, s.v."ástrois tekmairesthai وانظر هيسوخيوس : Hésychius, s.v. "ástrois semeioûsthai"

٦٦) انظر أپوللونيوس الرودسي : .Ap. Rh., Arg , IV, 1538-1540

٦٧) Excerpta Vaticana, XIII, ed. N. Festa, in Myth. Graec., III, 2, p. 94

٦٨) انظر أپوللونيوس الرودسي : .Ap. Rh., Arg., I, 105 sq

٦٩) .Od., X,5 63

٧٠) انظر الأوديسا..Od., V, 270 sq

٧١) انظر أوريپيديس، مسرحية هيكابي (Hekabê) بالفرنسية: .Euripide, Hécube, 1273

٧٢) Ap Rh., Arg., I, 499-500 عن قيمة الإشارة تيكمار tékmar مشتركة مع النجوم انظر إيسخيلوس، پروميثيوس، ٤٥٤ وما بعده : طالما لم يعلم پروميثيوس البشر مطالع النجوم ومغاربها، لم تكن لديهم إشارة أكيدة tékmar bébaion تبين فصول السنة المختلفة.

٧٣) كما لاحظ ويست M. L. West كلمة póros < طريق> لم تستخدم قط للدلالة على طريق بري، بل كانت دائماً تعني الطرق البحرية أو النهرية. هذه القيمة التي تعني الطريق البحري أو على الأقل الطريق المائي تظهر على نحو أخاذ في ثوقيديديس Thucydide, I, 120, 2 حيث يقول : «أولئك الذين يسكنون الميسوجيا mesógeia ‹في قلب البر› ، ولا يكونون في en póroi <=الطرق المائية› ...» ويقصد بالذين يسكنون في الطرق المائية en póroi: الذين يكونون على مقربة من الساحل،

على دائرة الطرق البحرية،على عكس الذين يقطنون mesógeia الميسوجيا أي في الداخل، في قلب البر.

٧٤) انظر إيسخيلوس، پروميثيوس، ٤٥٤ وما بعده

٧٥) قارن .Od., IV, 373 et Il., II, 342; Od., XII, 392

٧٦) .IV, 455

٧٧) .Orphei Hymni, 25, p. 21 Quandt; Il., IV, 385-386

٧٨) الإلياذة، النشيد الرابع .Il., IV, 361(عدم وجود رياح)؛ الإلياذة، النشيد الرابع ، البيتان ٣٨٠ و٤٦٨ (مينيلاوس «عرقلته» الآلهة التي «قيدت» طريقه)؛ الإلياذة، النشيد الرابع الأبيات ٣٥٢، ٣٦٠، ٣٧٣، ٤٦٦ (مينيلاس أسيراً).

٧٩) الإلياذة، النشيد الرابع البيتين ٣٧٣ و ٤٦٦. في شأن القيمة المزدوجة للفظة تيكمار ‹إشارة› التي تعني دليلاً (علامة) وخطة (وسيلة للخلاص من مأزق)، انظر فقرة مشروحة من أپوللونيوس الرودسي (٢/٤١١-٤١٣) ، فيما بعد ص ٢٧٦ وما بعدها.

٨٠) الأوديسا، النشيد الرابع ، ٣٩٧، ٤١٩، ٤٢٢، ٤٥٥-٤٥٦، ٤٥٩.

٨١) قارن الأوديسا، النشيد الرابع ، ٤٦٥ و٤٨٦

٨٢) الأوديسا، النشيد الرابع ، ٣٨٩، ٤٧٥-٤٨٠. قارن أيضاً في بردية ديرڤيني دور القمر الذي يُظهر في عيون الناس وبخاصة الملاحين العلامة التي تتيح لهم أن يعرفوا حساب الفصول والرياح. انظر ما سبق ص ١٣٧-١٣٨.

٨٣) الأوديسا، النشيد الثالث عشر، ٢٠ .

٨٤) الإلياذة، النشيد الأول البيتين ٢٢٥ و ٢٢٦.

٨٥) .Musée, fr. 7 in FVS 7, I, p. 23, 1. 11

٨٦) E. Bucholz, Die Homerischen Realien, I, 1971, p. 57 sq; A.Lesky, Gesammelte Schriften, 1966, p. 468-478; E. Benveniste, Problèmes de linguistique générale, 1966, p. 296-297.

٨٧) عن پونتوس ‹الطريق› وقاع البحر انظرالأوديسا، النشيد الرابع ، ٤٣٦ ؛ وانظر الأوديسا، النشيد الثاني عشر، ٢٥٣.

٨٨) أفلاطون .Platon,Timée, 25 d

٨٩) السطر ٤٧٠ .

٩٠) انظر الأوديسا، النشيد الثاني عشر، ٦٩؛ .Hésiode, Théogonie,256

٩١) هيسيودوس، ثيوجونية .Hésiode, Théogonie,720-725 et 740-744

٩٢) نفس المرجع البيتان ٧٤٣-٧٤٤، مع الحاشية. عن قيمة التعبير éntha kai éntha انظر العبارة méga chásma pelórion éntha kai éntha في "الجذاذات الأورفية" O. F., fr. 66 a, p. 147 Kern.

٩٣) في النص المأخوذ من هيسيودوس يطلق الشاعر على التارتاروس méga chásma أي البلعوم الهائل (٧٤٠)، كذلك في "الفينيقيات" يذكر أوريبيديس «بلاعم التارتاروس العميقة» Tartárou... ábussa chásmata السطرين ١٦٠٤-١٦٠٥؛ انظر أيضاً O. F., l.c. و Plutarque, Mor. 167 a

٩٤) الأوديسا، النشيد ١٤، البيت ٢٥٤: وحملتنا ريح بورياس جميلة وفيرة على خط مستقيم كأنه تيار نهر ...hos ei te katà rhóon؛ وفي البيت ٢٥٦: لم يكن علينا إلا أن نقعد ونسلم قيادنا للريح والملاحين tàs d'ánemós te kubernetai t'ithunon

٩٥) الأوديسا، النشيد ٥، البيت ٣٨٢ وما بعده.

٩٦) هيرودوتوس، الكتاب السادس، ٤٤، ٢؛ أبوللودوروس، .Apollod., Ep., III, 19

٩٧) هيسيودوس، ثيوجونية، البيت ٨٦٩ وما بعده. ونقارن بالبيت ٨٧٢ وما بعده وبالبيت ٧٤٢: -én tha kai éntha... prò thúella thuéllei. وكذلك نجد عند هوميروس الرياح العاصفة تهب éntha kai éntha, prós alléleisin, állote... állote (انظر الأوديسا، النشيد الخامس، البيت ٣٢٩ وما بعده)

٩٨) هيسيودوس، ثيوجونية، الأبيات ٣٧٩-٣٨٣

٩٩) أراتوس .Aratos, Phénomènes, 785 sq; 905 sq; 926 عن العلاقات بين الرياح وحركة الشمس والنجوم والجهات الأصلية، انظر أرسطوطاليس Aristote, Météorol., II, 4-6, 359 b 25-365 a 12; Problèmes, XXVI.

١٠٠) انظر أورفيوس Orphée, Arg., 1049 sq وفيه: "ولقد لاحظت بالفعل أن ريح زيفوروس ازتعدت فويتولم يكن ماداً من المحيط غير واضح المعالم atékmarton هو الذي انهمر صاخباً على الضفاف.".

١٠١) انظر الأوديسا، النشيد ١٢، البيت ٢٨٦: الرياح النكراء أبناء ‹الرياح في اللغة الإغريقية مذكرة› الليل ek nukton d'ánemoi chalepoi. عن العلاقات بين العواصف وعالم الليل انظر برنار مورو,Bernard Moreux, "La Nuit, l'ombre et la mort chez Homère", Phoenix 21 1967, 4, p. 242 sq, et 259 . وبرنار مورو يشدد على أن العاصفة توصف بـ kelaine أي حالكة (الإلياذة، النشيد ١١، البيت ٧٤٧)، وتوصف بـ eremné أي بهيم (الإلياذة، النشيد ١٢، البيت ٣٧٥؛ والإلياذة، النشيد ٢٠، البيت ٥١)

١٠٢) هيسيودوس، ثيوجونية، الأبيات ٨٦٨-٨٧٠؛ وانظر .Phérécyde, fr. 5 in FVS7, I, p. 49

١٠٣) انظر Etym. Magnum, p. 772, 1. 51 (Gaisford) وانظر Dionysophane في .Sch. Apol de Rh , I, 826 . كان هناك في تيتانيه Titané نصب للرياح يقدم عليه الكاهن مرة كل عام ضحية "ليلية" من نوع ثوسيا thusia. كذلك كان الكاهن يؤدي شعائر سرية على أربع حفر bóthroi لكي يستميل الرياح «الغاشمة». ويمكننا أن نتصور أن هذه الحفر الأربع تقابل جهات المكان الأربع. وكانت عملية دفع البلاء التي تستهدفها الشعائر تمارس على شكل تنظيم الرياح بتمييز الجهات الأصلية وتحديد اتجاه المكان (Paus., II, 12, 1). في الموضع المسمى باثوس báthos أي الهوة (انظر التعبير báthiston bérethron الذي يعني الهوة العميقة جداً، في الإلياذة، النشيد الثامن، البيت ١٤، والتعبير الذي يعني هوة التارتاروس في مسرحية بروميثيوس لإسخيلوس. السطر ١٠٢٩). كان الأركاديون يقدمون الأضحيات إلى البروق والرعد ورياح العاصفة thúellai انظر .Paus., VIII, 29, 1-2) هناك كانوا يحتفلون كل عامين بأسراريات الربات الكبيرات. وكان الاتصال بالعالم الجهنمي يتخذ شكل وجود ينبوع وشعلة يفوران من التربة جنباً إلى جنب. ونحن نعرف عند هيسيودوس (ثيوجونيا، البيتين ٧٢٨ و٧٣٨) أن هناك تجاوراً وتداخلاً وتشابكاً في قلب التارتاروس بين «أصول» و«ينابيع» و«أطراف» كل شيء سينتج عنه عند التمايز العالم المنظم: الأرض والبحر والسماء ذات النجوم والظلام الحالك ويتخيل هيسيودوس كما يلاحظ ويست M. L. West في شرحه على الثيوجونية Hesiod, Theogony, 1966 (p. 361) أن التمييز الواضح بين الأرض والماء ونار السماء والظلام الحالك ، يتلاشى تدريجياً في العالم تحت الأرض، حيث تتحد العناصر المتضادة فيما يكون أصلها المشترك. وتأسيساً على هذا المعنى فإن التارتاروس يمثل من الناحية المكانية ما يمثله خاوس من الناحيةالزمانية: اللامحدد الأولاني الذي سيستطيع العالم انطلاقاً منه أن ينتظم على هيئة مناطق وعناصر كونية متمايزة. ومن هنا فإن كل شيء، يقوم على نحو أو آخر بتوحيد أو خلط عناصر فُطرت لتظل منفصلة مفككة يقترب في بعض جوانبه من الخاوس الأولاني - سواء كانت ربات ذوات تحورات أو حيوانات برمائية، تمحو الحدود الفاصلة بين البحر والأرض والأجواء والجزر العائمة التي لا تضرب جذوراً في الأرض فتطفو تارة على شكل أراض، وتغرق تارة في البحر، والرياح العاصفة التي تؤدي «في الليل» إلى أن «العدوين اللذين كانا حتى ذلك الحين متنائيين أشد التنائي وأعسره - وهما البحر والنار - يتآلفان ويفصحان عن تحالفهما» (إسخيلوس: أجاممنون، الأبيات ٦٥٠-٦٥٤). وحتى عند أفلاطون (Platon, Phédon, 113 a-b) وبلوتارخوس (Plutarque, Mor., 167 a) نجد أنهار ماء وأنهار نار تتجاور، بل وتتمازج أحياناً في التارتاروس :«أنهار من النار وانسيابات من نهر ستوكس Styx تختلط بعضها بالبعض». وعلى النحو نفسه نجد رياح الاضطراب التي تولدت من جثة توفون والتي تفر على شكل عواصف من التارتاروس تتخذ سمة مزدوجة : فهي رياح رطبة و«حالكة» تحمل إلى أعالي البحر حلكة الليل. انظر هيسيودوس (ثيوجونية، الأبيات ٨٧٢ -٨٧٧) وبخاصة التعبير es eeroeidéa pónton أي

نحو أعالي البحر حيث الغيوم الحالكة؛ الرياح الحارقة التي تجفف الأراضي وتهلك المحاصيل (نفس المرجع ٨٧٨-٨٨٠ وانظر پلوتارخوس (Plutarque, Mor., 364 a-b, 366 a, 367 d, 372 a).
وأسطورة توفون تضعه في علاقة إما بظواهر مائية : مياه هائجة، أنهار ومستنقعات؛ وإما بظواهر أرضية أو نارية: أراض محروقة، براكين (انظر ف.ڤيان :F. Vian,"Le Mythe de Typhée", in
Éléments orientaux dans la religion greccque ancienne, Paris, 1960, p 23

١٠٤) هيرودوتوس، الكتاب الرابع، ٨٥: chásma pelágeos أي هوة البحر؛ انظر سوفوكليس، أنتيجوني، ٥٨٩: érebos húphalon غيابة تحت البحر. ونحن نعرف أن ثيوجونية هيسيودوس جاء بها أن إيريبوس Erebos ابن خاوس Chaos (ثيوجونية، ١٢٥). والصفتان حالك eeróeis و eeroeidós غائم ينطبقان عادة على أعالي البحر وعلى التارتاروس.

١٠٥) الأوديسا. النشيد الرابع عشر، ٣٠٠-٣٠٤ و ٣١٤؛ انظر أيضاً التعبير المسكوك - پوسايدون أو زيوس «لف تحت السحاب والأرض والبحر؛ كانت تلك ليلة سقطت من السماء - مع ملحوظات ب. مورو B. Moreux في المرجع السابق ذكره، ص ٢٤٢.

١٠٦) إيسخيلوس، پروميثيوس، ١٠٤٨-١٠٥٠.

١٠٧) المرجع السابق، ٣٢٠-٣٢٢: الصخور لا تضرب جذورها في قاع البحر؛ ولكنها تتلاحم مصطكة لكي لا تصنع منها أكثر من صخرة واحدة.

١٠٨) المرجع السابق، الفصل الرابع، ٩٤٥-٩٤٧: كانت أحياناً تشبع القلاقل العالية التي ربما وصلت إلى الهواء، وكانت في أحيان أخرى عميقة ترتكن صلبة على أبعد أعماق البحر؛ انظر كذلك ڤاليريوس فلاكوس .Valerius Flaccus, I, 580 sq

١٠٩) انظر الأوديسا. النشيد الأول، ٥٤؛ وإيسخيلوس، پروميثيوس، ٣٤٩. ونلاحظ عند پينداروس أن عموداً من السماء kion ourania هو الذي يوثق جسم توفون تحت كتلته (Pind , Pythiques, I, 16 وانظركذلك إيسخيلوس، پروميثيوس، ٣٦٤ وما بعده).

١١٠) الأوديسا، النشيد الثاني عشر، ٦٨؛ أپوللونيوس الرودسي Ap Rh., Arg., IV, 924 sq

١١١) انظر پينداروس .Pindare, Pythiques, IV, 371-373. والصخور الرجراجة بحركتها الأفقية وحركتها الرأسية لا تكف عن خلط اتجاهات المكان ، العالي والواطي، الشرق والغرب،ومن هنا فإنها تؤدي في منطق الفكر الميثي وظيفة مناظرة لوظيفة الرياح العاصفة. وعندما قامت سفينة أرجو بتثبيت أصولها في عمق البحر، وتجميدها إلى الأبد، فقد حددت هكذا اتجاه المكان البحري. وأيولوس Aiolos عند هوميروس (واللفظة تعني المتحرك وكذلك الداهية) وهو سيد الرياح ومدبر أمرها، الذي «أحكم وثاق الطرق» بأن حبسها في قربة askós صنعت من جلد ثور، كان يقيم في جزيرة عائمة أحاط بها مثل التارتاروس (ثيوجونية هيسيودوس، ٧٢٦) سور من البرونز المنيع (الأوديسا، النشيد العاشر ، ٤-٥ و١٩-٢٠). وعند ڤاليريوس فلاكوس،Valerius Flaccus (I, 570 sq) يقيم أيولوس أيضاً في جزيرة عائمة. وهناك كتلة من الصخر كانت مقر الزوابع والرياح

والعواصف. وكتلة أخرى كانت مقر الحدادين الربانيين. وكان على الحدادين الـمُعدِّنين بغية تحقيق النجاح لعملياتهم الصناعية أن يتحكموا في الرياح وأن يحبسوها في المنفاخ askós الذي يسمح لهم بصهر البرونز وتشكيله. (انظر هيرودوتس، الكتاب الأول، ٦٧-٦٨، الذي ساوى بين عبارة العراف: «وريحان يهيّان تحت ضغط الضرورة؛ حيث الضرب والصد.» وبين حانوت الحدادة حيث يطرق الحداد الحديد. وليخاس Lichas صانع الأخات اللاكيديموني الاسبرطي الذي يصوره هيرودوتوس يكتشف «في منفاخي الحداد اللذين رآهما بعينيه : الرياح؛ ويكتشف في المطرقة والسندان: الضرب والصد». عند أپوللونيوس الرودسي نقرأ أن ثيتيس كان عليها - بغية تمكين السفينة أرجو من عبور ممر الصخور الرجراجة - أن تنال مساندة أيولوس من احية وهيفاستيوس من ناحية ثانية (Arg., IV, 515 sq)

١١٢) ڤاليريوس فلاكوس .Valerius Flaccus, Arg., I, 504 sq

١١٣) نفس المرجع. الفصل الرابع، ٥١٥ وما بعدها.

١١٤) أپوللونيوس الرودسي (Ap. Rh., Arg., IV, 1695 sq)؛ انظر سوفوكليس Sophocle, fr. 433 Pearsonوالملحوظة؛ فوتيوس Photius ؛ أوستاخيوس والحاشية ص ١٧٢٩، ٣٢؛ هيسوخيوس Hesychius, s.v. katouládo, II, p. 449

١١٥) أپوللونيوس الرودسي (Ap. Rh., Arg., IV, 1696 sq)

شدد ر. رو R. Roux, Le Problème des Agronautes, 1949 على البعد الكوسموجوني لرحلة ملاحي السفينة أجرو، وهو يري فيها تعبيراً عن الصراعات التي خاضتها الشمس ضد الظلمات. وتلاحظ في هذا الصدد جزئية لها مغزاها. فقد كشف أرجوس للملاحين طريق العودة الذي تحتم أن يكون مختلفاً عن طريق العودة، ولقد عرف البطل أمر هذا الطريق من الكهنة المصريين. والحق أن المصريين كانوا قد فتحوا طرق العالم في الأزمان الأولانية «عندما لم تكن العلامات السماوية تدور دورتها الليلية بعد، ولم يكن هناك قمر ولم يكن الفيضان قد حدث. كان المصريون قد سجلوا على ألواح كل الطرق وكل الأطراف pâsai hodoi kai peirata التي عبروها بحراً وبراً. وما كاد أرجو يتم كلمته حتى حدثت معجزة: فقد رسم ثلم شعاع مضيء على السماء على مسافة كبيرة أمام السفينة اتجاه الطريق الذي ينبغي على ملاحي سفينة أرجو أن يسلكوه لعبور البحر (-IV, 257 .(297

١١٦) ثيوقريطس .Théocrite, Idylles, XXII (Les Dioscures), 19-22

١١٧) أپوللونيوس الرودسي (Ap. Rh., Arg., IV, 1701 sq)

١١٨) انظر ما سبق ص ١٤٥

١١٩) .Bekker, Anecd., p. 354, 15

١٢٠) انظر ما سبق ص ٤٥.

١٢١) J.H. Harrison, Prolegomena to the Study of Greek Religion, 1957 (1re éd. 1903), p. 644 حيث نجد النص المجهول المؤلف لـ Philosophoumena مشروحاً.

١٢٢) الإلياذة، النشيد الأول، ٣٥٨؛ والنشيد الثامن عشر، ٣٦ و٣٨ و٤٩؛ أوريبيديس، مسرحية «أندروماخه» (أندروماك)، ١٢٢٤.

١٢٣) الإلياذة، النشيد الأول، ٣٥٩. الأنشودة الابتهالية الأورفيوسية إلى پروتوجونوسPrôtogonos تحيي في الرب الأولاني الرب الذي بدد الغمامة الحالكة homichlen skotóessan (٦-٧)؛ في ثيوجونية هيرونيموس وهيللانيكوس، في ترجمة كيرن الفرنسية (fr. 54 Kern)، ينجب كرونوس في أصل العالم إزيبوس الأغم homichlodes. عن استخدام النعوت في وصف البحر، وبخاصة من حيث هو پونتوس ، الظلمة ارجع إلى كتاب ب. موري السابق ذكره في الملحوظة ١٠١ وقد سبقت .Bernard Moreux, "La Nuit, l'Ombre et la mort chez Homère", Phoenix 21, 1967, وكما أن المياه الحالكة في الأعماق البحرية تظهر على صفحتها وعلى طول الشطآن البيضاء ذات الزَّبد، كذلك ثيتيس السوداء عندما تمشي على المياه تكون هي الربة ذات الأقدام الفضية. انظر الإلياذة، النشيد الأول، ٥٣٨؛ والإلياذة، النشيد الرابع والعشرين، ٧٩؛ والأوديسا النشيد الرابع والعشرين، ٩٢.

١٢٤) الإلياذة، النشيد الرابع والعشرين، ٩٣-٩٥ مع الشرحين المختلفين اللذين وردا من قبل في الحواشي؛ انظر Bernard Moreux, "La Nuit, l'ombre et la mort chez Homère", Phoenix 21, 1967, الملحوظتين رقم ١٠٥ و١٤٥، وانظر كذلك ج.ليندسي J. Lindsay, The Clashing Rocks, 1975, p. 55-57.

١٢٥) Heroica, XIX, 14 sq.

١٢٦) أناشيد أورفيوس Orphei Hymni, 22, p. 20 Quandt؛ ونفس المرجع Orphei Hymni, 24, p. 21 Quandt

١٢٧) Etym. Magn., p 561; Hésychius, s.v. leukoû

١٢٨) Ap., Arg., IV, 931 sq

١٢٩) انظر Scholie à Lycophron, Alex., II, 175, p. 84-85 Scheer: «ونخرج مما ذكره أوريبيديس بأن ثيتيس التي لاحقها پيليوس اتخذت مثل پروتيوس كل أشكال التحورات فلما تحورت إلى سمكة حبارتمكن منها.»؛ ومن المرجع نفسه تحت رقم ١٧٩ نخرج بأن پيليوس اتبع نصائح خيرون وأمسك ثيتيس بينما كانت تتحور إلى أشكال عديدة، واتحد بها عندما كانت في صورة سمكة حبار. - في شأن هذه المأثورة وأصلها ارجع إلى أ. سيفرينس وفرنسيس جوان A. Severyns, Le Cycle épique dans l'école d'Aristarque, 1928, p. 92; Francis Jouan,

Euripide et les légendes des Chants Cypriens, 1966.

ويوافق فرنسيس جوان Francis Jouan على أن موضوع التحورات - الذي يرى البعض أنه ينتمي إلى صياغة قديمة "شعبية" للميثوس - تم تناوله من جديد في الأغاني القبرصية (ص ٧٢). ولكن من ناحية أخرى يرى أن أوريبيديس استطاع أن ينسج نسيجه على هذه الخيوط التي وجدها مخترعاً جزئية التحور إلى سمكة حبار (ص ٧٦ وص ٨٦). ونحن نلاحظ من ناحية أن هذا التحور قامت عليه شواهد مؤكدة - دون ما إشارة إلى أوريبيديس في نصوص متعددة (نوه بها جوان ص ٦٩ ملحوظة رقم ٦) -، ونلاحظ من ناحية ثانية أن تكريس كاپ سيپياس ‹رأس الحبارة› لثيتيس، وتحديد اتحادها بپيليوس في هذا المكان، التوافقات الوثيقة بين الحبارة - في خصائصها الفيزيقية وعاداتها وبين صفات وملكات الربة البحرية - هل هذا يبدو لنا أنه يشير إلى أن أوريبيديس لم يكن عليه أن يخترع جزئية، لو لم تكن لها هذه الخلفية الميثية المأثورة، لبدت لمشاهدي المسرح الأثينيين غريبة نابية.

١٣٠) بعد العاصفة التي حطمت أسطول الفرس في كاپ سيپياس ‹رأس الحبارة› قدم الفرس الأضحيات إلى ثيتيس والنيريديات : «ولقد قدموا الأضحيات إلى ثيتيس لأنهم علموا من ‹اليونانيين› أهل يونيا أن هذا البلد هو البلد الذي خطفها فيه پيليوس وأن هذا الرأس ملك لها وللنيريديات.» انظر: هيرودوتوس Hér., VII, 191-2 ؛ وانظر: Etym. Magn., s.v. Sepiás; Schol. Apol. Rh., I, 582 وفيه : «سيپياس ‹الحبارة› Sépias= رأس في يولكوس Iolcos وقد تسمت بهذا الاسم لأن ثيتيس التي لاحقها پيليوس تحورت هناك إلى سمكة حبارة.» وانظر أثينايوس Athénée الذي يذكر أن البحر في منطقة كاپ سيپياس ‹رأس الحبارة› يعج بأسماك الحبارة.

١٣١) انظر Aristote, H.A., IX, 37 (59) وانظر Plutarque, Mor., 978 a-b وانظر Oppien, Ha;., III, 168 وفيه نقرأ :الكالامار (teuthis) يستخدم نفس الدهاء الميتيسي الذي تستخدمه الحبارة sepic dolómetis وفيه ; Oppien, Ha;., II, 120 وانظر ; Oppien, Ha; , I, 312-313 وانظر sepie dolóphron (cf. aussi III, 156) وفيه ; Oppien, Ha;., IV, 160 وانظر sepiai :وفيه kerdaléai

١٣٢) Questions de chronologie et d'ethnologie ibériques, I, 1913, p. 59, 256, 468-469.

١٣٣) عن تحور الأخطبوط المتعدد انظر: Théognis, 215, Pindare fr. 43 Schroeder - Ad., 10, Puech; Aristote, H A , IX, 37 (622 a 8); Oppien, Hal., II, 233; Athénée, 314 f, 317 f, 513 d; Plutarque, Mor., 978 e, et 916 b-917. عن تحور الحبارة المتعدد انظر: Aristote, H.A., IX, 25, 19 وفيه : «بعض الأشخاص يؤكدون أن الحبارة تغير لونها بحسب الأماكن التي تعيش فيها.» انظر فيما سبق ص ٤٧ وما بعدها.

١٣٤) انظر Plutarque, Mor.,978 d وانظر Aristote, H.A., IX, 37, 622 a 1 وانظر Aristote,

H.A., IV, 1, 524 a 3 وانظر Aristote, H.A., IV, 6, 531 b 6 وانظر Oppien, Hal., II, 233 . ونلاحظ أن أوبيانوس من منظور الصياد prenes en psamáthoisin يصور الحبارة ممددة على رمل الشواطيء. وكان القدماء يعتبرون الحبارة - وبصفة عامة كل الرخويات - كائنات برمائية يمكنها أن تعيش في أعماق البحار، ولكنها تستطيع أيضاً أن تعيش على الأرض اليابسة فتتغذى على الثمار وبخاصة الزيتون والتين (انظر Oppien, Hal., I, 307 sq و Plutarque, Mor., 916 a و Athénée, VII, 371 b-c) فهذه الحيوانات مكانها إذن على الحدود بين الماء والأرض، فكأنها تصل بين هذين العنصرين. وعلى النحو نفسه تكون عجول البحر "أرضية وبحرية" في آن واحد Oppien, Hal., I, 406، فهي تختلف إلى الأعماق البحرية، ولكنها تأتي كذلك مثلما أتى پروتيوس وسط قطيعه المكون من كلاب البحر، لتنام على رمل الشطآن en psamáthoisin ‹كلمة psammos پسـاموس بالإغريقية معناها رمل›. وپساماثي اسم نيريدة ، أخت ثيتيس. اتحدت بإياكوس أبي پيليوس وأنجبت فوكوس Phokos ، ولكنها كانت حاولت أن تهرب من الأب، كما حاولت ثيتيس أن تهرب من الإبن، متوسلة بتحوراتها العديدة.لم تتخذ پساماثي هيئة حبارة، بل عجل بحر. وكانت ثيتيس نفسها قد تحورت في أثناء رحلة عودة الإغريق من طروادة إلى عجل بحر (انظر Photius, Bibl., III, 149 b). بل إن الإغريق كانوا يعتقدون أن أسماك الكالامار -teu thides كانت أيضاً تطير في الأحواء. ويتحدث أوبيانوس عنها فيقول إنها تستطيع أن تبرح الهواء وأن تتحد مع أمفيتريتة Amphitrite ‹ربة البحر› » (Oppien, I, 423 et III, 166) ونظراً لأنها توحد عناصر حرص زيوس على تميّزها وفصلها وتفريقها بعضها عن البعض الآخر - وهي : الأثير المدوي، الهواء، المائل المنساب، الأرض - فإن الكائنات البرمائية تمثل «جنساً مشتركاً» بالنسبة إلى كل العناصر. ومن خلال هذا الجنس نجد العناصر المتضادة أشد التضاد «تتبادل فيما بينها التزامات متبادلة» ((Oppien,Hal., I, 412 sq) هذه الوظيفة التي تقوم بها البرمائيات تضعها في ساحة القوى الأولانية الممثلة لسلطة الخلق السابق على ظهور عالم متمايز تمايزاً واضحاً. إنها على نحوٍ ما شبيهة بهذه «الأصول»، و«الينابيع»، و«الأطراف» التي يتحدث عنها هيسيودوس فيقول إنها تلتقي وتختلط في أعماق التارتاروس .

١٣٥) Aristote, H.A , IV, I, 523 b 32; Oppien, Hal., II, 120 sq; Athénée, 323 d.

١٣٦) Aristote, H.A.,V, 6, 541 b 12, 544 a 1; Athénée, 323 e..

١٣٧) Aristote, H.A ,V, 6, 541 b.

١٣٨) Aristote, H.A.,V, 5,489 b 35; IV, 1, 524 a 13. .

١٣٩) اللون الأسود هو الذكر، الشجاع؛ اللون الأبيض هو المرأة أو هو الجبان أو المخنث. ومن أقوال أوستاخيوس : leukoi hoi deiloi الجبان بيض. وتذكر ليونة سمك الحبارة ، والرخويات بصفة عامة tà malákia ، مثل بياض لونها برقة جسم الأنثى (انظر Plutarque, Mor., 916 a-c). عن

العلاقات بين الأبيض واللين والمؤنث انظر ج. تاياردا J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, 2. éd., 1965 (1. éd. 1962) ؛ وانظر ج. ڤرنان J. -P. Vernant, Mythe et pensée chez les Grecs, 5. éd., 1974, t. I, p. 150-151 . ومن ناحية أخرى دلنا لينتون همفري M. Linton Humphrey أن الكلمة التي تعني في كريت الحديثة سمكة الحبارة وهي كلمة soupiá سوبيا تدل أيضاً على جنس النساء. ويستشهد أثينايوس بديوقليس فيذكر أن الرخويات تستثير اللذة والمتع الجنسية (VII, 316 c). وتحمل عدة غانيات من العصر الأتنيكي اسم سيپيا Sèpia ‹الذي يعني سمكة الحبارة› (انظر Archippos, fr. 27, I, p. 802 Edmonds وانظر Antiphane, fr. 26, II, p. 172 Edmonds وانظر أيضاً Bechtel, Die attischen Frauennamen. 1892, (Index.

١٤٠) الترجمة الفرنسية : Assemblée des Femmes, 126 sq.

١٤١) J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, 2. éd., 1965 (1. éd. 1962), o.c., p. 61.

١٤٢) Aristote, H.A , IX, 37 (57); Athénée, VII, 323

١٤٣) Plutarque, Mor., 978 a

١٤٤) Oppien, Hal., III, 156 sq.

١٤٥) Athénée, 135c وفي Halieutiques لأوفيد إشارة إلى نوع من الحبارة Loligo teuthis يوصف بالعبارة nigrum niveo portans in corpore virus (انظر J. A. Richmond, 1967, v. 130, p. 17 sq).

القسم الرابع
العلوم الإلهية :
أثينة .. هيفايستوس

الباب السادس

عين البرونز

١) نكتفي بمثلين على الرغم من تفاوتهما في القيمة: R. Luyster, "Symbolic Elements in the Cult of Athena", History of Religion 5, 1965, p. 133-163 et W Potscher, "Athene", Gymnasium 70, 1963, p 394-418, 527-544.

٢) La Religion romaine archaique, Paris, 1966, p. 179; 229. هذا التمييز بينه بشكل نموذجي تحليل چورچ دوميزيل للإله مارس في روما ، في نفس الكتاب (ص ٢٠٨-٢٣٥). وقد اتخذ

دوميزيل خطأً مضاداً لكل أولئك الذين أفاضوا في الحديث عن مارس إلهاً زراعياً، وبين على نحو محكم كامل الإحكام أن مارس لم يكن قط قوة خصوبة حتى إذا تدخل في مجال الزراعة وتربية الحيوان: فهذه الأساليب التي عمل بها حتى في إطار زراعي تدل على أنه كان مناضلاً مستعداً دائماً لتحطيم العدو، أي أنه كان إلهاً ذا توجه حربي صارم.

٣) U, Pestalozzza, "Le Origini della Buphonia Ateniensi", Rendiconti dell'Instituto Lombardo, Cl. Lettere, Scienze morali et storiche 89-90, 1956, p. 433-454.

٤) Servius, In Verg. Aen., IV, 402, I, p. 536, Thilo.

٥) عن موضوع ديميتير و الحرث Démèter et le labourage، انظر: Orph. Hymn. 40, 8 Quandt وانظر النصوص التي استشهد بها دراخمان A. G. Drachmann، انظر تحت "Pflug", R. E. 1481 ,c ,(1938). عن موضوع ديميتر والطحن Démèter et la mouture انظر Polémon ap At-génée, 109 a مع ملحوظات ديلات A. Delatte, "Le Cycéon, breuvage rituel des mtstères d'Éleusis", Bull. Cl. Lettres Ac. Royale de Belgique, 5e série, 40, 1954, p. 698.

٦) انظر Hésiode, Travaux, 430 sq, éd P Mazon, Paris, 1914, P. 106 sq من أجل التفسير. ومن الممكن وضع حجج أخرى. وصفة أثينة المزدوجة في بوئيسيا وثيساليا نجدها على نحو خاص، حيث تسمى Boúdeia et Boarmia انظر Schol. in Lycophron, Alex. 359 et 520 Scheer . وليس من شك في أن تزيتزيس Tzetzès – في التشديد على نصيب phrònesis أي «الحرص» بالمعنى القديم الذي يدخل في فن الضبط والربط – على حق في مواجهة پيستالوتسا الذي يضع هذه الشواهد في ملف أثينة «البحرمتوسطية» انظر (art. cit , p 444) .

٧) انظر الإلياذة Il., V, 260 وانظر الأوديسا Od., XVI, 282 . في الأدويسا Od., XVIII, 298-299 تذكّر أثينة أوليسيس أنها الوحيدة بين الآلهة التي يعجب الجميع بدهائها الميتيسي وحيلها kérde

٨) Hymnes orphiques, 32, 10.

٩) Hésiode, Fr. 343 Merkelbach-West (= Chrysippe, F. 908, SVF, II, 256 von Arnim). انظر S. Kauer, Die Geburt der Athena im altgriechischen Epos, Wurzburg, 1959

١٠) F. 343, 19-20. وإذا نحن صدقنا بعض علماء الآثار فإن البيثوس البارز pithos à relief الذي وجد في تينوس Ténos (والمصور في المجلد الجماعي Archiloque. Entretiens sur l'Antiquité classique {Fondation Hardt}, X, Vandoeuvrres, 1963, pl. IV) يمثل الربة ميتيس وهي تلد أثينة بدلاً من زيوس، وفي مكانه. انظر: F. Brommer, "Die Geburt der Athena", Jahrbuch

des rom germanischen Zentralmuseums Mainz 8, 1961, p. 72-73 suivi par P. Walcot, Hesiod and the Near East, Cardiff, 1966, 113-114. Contra, Kl. Fittschen, Untersuchungen zum Beginn der Sagendarstellungen bei den Griechen, Berlin, 1969, p. 129-131.

١١) انظر P. Ox. 1808, 54 (XV, 1922, p. 158, éd. Grenfell and Hunt). G. Dickins, "The Hieron of Athena Chalkioikos", ABSA 13, 1906-1907, p. 137-154.

١٢) انظر أريسطوفانيس Aristophane, Lysistrata, 1320.

١٣) انظر R. Martin, Manuel d'architecture grecque, I, Paris, 1965, p. 156.

١٤) انظر هيسيودوس، «الأعمال» Hésiode, Travaux, 150

١٥) من منظور دوميزيل المنصب على ما اقترحه ف. ڤيان F. Vivan من قراءة وظيفية لبعض الميثات الإغريقية، انظر "La Fonction guerrière dans la mythologie grecque", dans: Problèmes de la guerre en Grèce ancienne, éd. J.-P. Vernant, Paris, Mouton, 1968, p. 53-68.

١٦) انظر J.-P. Vernant لمقدمة الكتاب المذكور في الملحوظة الهامشية السابقة، ص ١٥.

١٧) تتطلب سعة المسائل المطروحة دراسات أطول. وسنكتفي بالإشارة إلى بضع نقاط دون أن ننشغل في هذه المرة بسبر أغوارها.

١٨) Il., XIII, 275 وكلمة lóchos تدل على الامتحان الأعلى الذي يبين فيه المحاربون شجاعتهم. وهو امتحان شجاعة وذكاء.

١٩) انظر Xénophon, Cyropédie, I, 6, 27 وانظر Mémorables, III, 1, 6.

٢٠) كما حدث في الحملة الليلية التي قادها أوليسيس وديوميديس وانتصرا فيها على دولون Dolon الداهية الذي تخفي في جلد ذئب، انظر Il., X, 272-264

٢١) انظر O.F, 174 Kern انظر Pindare, Olymp., VII, 35-38 انظر Hymne hom. Athéna (1), 4-16.

٢٢) انظر Il, XVIII, 200-229

٢٣) هذه الأسلحة التي صنعها هيفايستوس وصفت بأنها أكثر استعاراً من النار، انظر Il, XVIII, 610

٢٤) «النفير» أو آلة النفخ المسماة بالفرنسية "ترومپيت trompette" والتي كان الإغريق يسمونها سالپيكس آلة حادة الصوت oxúphonos يقولون إن أثينة هي التي ابتدعت استخدامها في المعارك، أثينة التي سماها الأرجيون «ذات النظرة الحادة oxuderkes» وكذلك «ذات النفير الحربي Sálpinx» انظر Paus., II, 21, 3 (مزار ذات النفير الحربي المطل على الساحة الكبرى)، انظر, Etym. Magn

Anthol. Palat., VI, 708, 2 et Schol. Lycophr., 915 Scheer (اختراع أثينة النفير)؛ انظر 46, 3 و١٥١ و١٥٩ و١٩٤ (إهداء الآلة إلى أثينة)؛ عن قارورة الليكوثوس ذات الرسوم الحمراء في النصف الأول من القرن الخامس انظر BCH, 1966, p. 741 والرسم رقم ١ يمثل أثينة ذات نفير.

٢٥) انظر الإلياذة II., XVIII, 222

٢٦) انظر الإلياذة II., XVIII, 227

٢٧) F. Vian, La Guerre des Géants, Paris, 1952, p. 57, 271, 274 انظر كذلك Dümmler, s.v. "Athena", R.E. (1896), c. 1997 و A. Severyns, Les Dieux d'Homère, Paris, 1966, p. 70-73.

٢٨) انظر الإلياذة II., V,738-742

٢٩) انظر الإلياذة II., XV, 309

٣٠) Hésiode, F. 343, 18.

٣١) انظر الإلياذة II., XXI, 401

٣٢) II., VIII, 349 (هيكتور: «في عينيه لمعت نظرة الجورجون»)؛ انظر كذلك XI, 36 (درع أجاممنون).

٣٣) Démocrite, FVS 7, II, 127, 13, sq; J. Lydus, De Mens., IV, 54; Aristote, Hist. anim., IX, 2, 609 a 15; Élien, Nat. anim., I, 29. القيم التي تعبر عنها لفظة glaukós وهي: اللون الأزرق الفاتح، بريق منير (ملف في P. Chantraine, "Grec glaukós, Glaûkos et mycénı-en Karaubo " في (Mélanges F. Carcopino, Paris, 1966, p. 193-203) قيم تدعم تفسيراً اقترحه قديماً ف.ف. أوتو W. F. Otto, Gli dei della Grecia, 1. éd., Firenze, 1955, p 68-69، وقد سبق إليه چيسين Jessen (s,v, Glaukopis, R.-E. (1901), c. 1404 sq. انظر كذلك L. Lacroix, "La Chouette et le croissant sur les monnaies d'Athènes <=البومة والهلال على النقود الأثينية> . في دراسة حديثة La Chouette d'Athéna (Rev. Études Anciennes 72, 1970, p 5-30 <= بومة أثينة> ، أراد كلود مييه Claude Meillier أن يبين أن البومة مستعارة من أثينة إرجانه Athéna Ergáne، ربة الغزّالات، وأنها جاءت في القرن السادس لتنضم إلى صفات أثينةالحربية والأرستقراطية في الأكروپوليس. وكان المؤلف يسعى إلى ربط هذا التحول (ص ٣٠) بـ«الصراع الطبقي» وصعود الشعب demos. ولكن لا ينبغي أن ننسى أن النسج وشغل الصوف أدخلا كذلك الدهاء الميتيسي لأثينة: وهذا التوضيح الذي لا يصعب القول به سيؤدي بل شك إلى صياغة مختلفة للمشكلة التي عرفها كلود مييه Claude Meillier وإلى إعادة صياغتها بالمقولات التي استخدمها الإغريق في تفكيرهم في النشاط التقني.

٣٤) Il., XI, 16, 44-46; XVII, 591-596 etc.

٣٥) أثينة توصف بالصفات التالية: glaukopis, gorgopis, oxuderkés, optillétis, ophthalmitis, narkaia . وقد جعلوا في أرجوس شعائر لأثينة التي شبهوها بالنفير oxúphonos ووصفوها بأنها ذات النظرة الحادة oxuderkés وأنها المتضامنة مع ديوميديس، وعملياته الحربية ودرعه.

٣٦) هذه السمات المختلفة الخلابة للحرب هي سمات أرخائية عتيقة ستردها ممارسة النزال الهوبليتيكي منذ القرن السابع إلى ماض بطولي، ولكنها ستظل عناصر خطاب إيديولوجي للمدينة وبخاصة عناصر الخطاب الذي ستطوره التراجيديا.

٣٧) انظر ما يلي ص ٢٤٦ وما بعدها

٣٨) انظر هـ. جانمير H. Jeanmaire, Couroi et Courètes, Lille, 1939, p. 115-119.

الباب السابع

الشكيمة اليقظة

١) انظر القائمة التي أعدها إ. ڤيل Éd, Will, Korinthiaka, Paris, 1955, p. 135-136, n. 4.

٢) انظر پاوسانياس Paus., II, 4, 1. éd. G. Rouux

٣) انظر Pind., Olymp., XIII, 63-87. وانظر H. Jeanmaire, La Naissance d'Athéna et la royauté magique de Zeus, Rev. Archéologique 48, 1956, p. 25-27, وقد قدم جانمير في هذه المقالة «مولد أثينة ومملكة زيوس السحرية» بعض التوجيهات التي لم تنسها.

٤) انظر Pind., Olymp., XIII, 18-22. وكلمة Sóphisma أي اختراجة من معجم الدهاء الميتيسي، والاختراجة هي مثلاً الوسيلة الماكرة التي مكنت پروميثيوس من الخروج من مأزقه العسير (اسخيلوس: پروميثيوس (Esch., Prom., 470)؛ ومن قبيل الاختراجات الاختراعات التي تفتق عنها دهاء پروميثيوس الميتيسي (Esch., Prom., 459)؛ والتعبير sóphisma mechanâsthai (HDT., III, 85) يعني الحيلة التي ابتدعها أوئباريس Oibarès لكي ينصب داريوس ملكاً على الفرس. ويذكر النص نفسه أن أوئباريس أريب sophós، وأنه يمتلك أشربة وعقاقير.

٥) انظر Pind., Olymp., XIII, 49-51

٦) انظر Pind., Olymp., XIII, 52-54 ويوصف سيسيفوس بأنه puknótatos palámais كما يوصف بأنه ذو دهاء مموج aiolómetis (Hés., fr 10, 2 Merkelbach-West)، اشتهر بمغامراته مع ميسترا، أوتولوكوس والموت . انظر J. Schwartz, Pseudo-Hesiodeia, Thèse, Paris, 1960, p. 276 sq, 309 sq, 442 sq, 559 sq وانظر كذلك A. Severyns, Le Cycle épique dans

l'école d'Aristarque, Liège-Paris, 1928, p.391-393.

٧) انظر Pind., Olymp., XIII, 55-62

٨) انظر أوزينر H. Usener, Göttemamen, 1895 (3e éd. 1948), p. 160 sq وقد بين أوزينر في كتابه هذا («أسماء الآلهة») العلاقة بين ميديا بالشقراء أجاميد Agamède وبيرميديد Périmède وبوليميد Polymède وغيرها من الأسماء الشبيهة. في أنشودات بنداروس البيثية Pyth., IV, 233 توصف ميديا بأنها العليمة بالعقاقير pamphármakos

٩) انظر الأوديسا Od., IV, 227

١٠) انظر هيسيودوس «ثيوجونية»

Hés., Théog., 280-283 (éd. M. L. West; Comm. p. 247

١١) انظر شاخرماير F. Schachermeyr, Poseidon und die Entstehung des griechischen Gotterglaubens, München, 1950, p. 31-32 وانظر إ. ڤيل Éd. Will, Korinthiaka, Paris, 1955, p. 145 sq et p. 4.7 sq.

١٢) المعطيات الخاصة بالوقائع مجمعة في كتاب ب. ك. ديتريش B. C. Dietrich, Death, Fate and the Gods, University of London, 1965, p. 124 sq (= الموت والقدر والآلهة) وتفسيرات ديتريش كثيراً ما تحتمل الشك (انظر نقد الكتاب بقلم أحدنا في مجلة Rev. Ét. Gr., 1967, p. 579-583). انظر ر. شتيجليتس (ربات أركاديا الكبيرات) R. Stiglitz, Die grossen Göttinnen Arkadiens. Der Kultname "Melainai Theai" und seine Grundlagen, Oesterr. Archäol. Inst., Sonderschr 15, Wien, 1967.

١٣) علينا أن نضيف إلى كتاب شاخرماير F. Schachermeyr تحليلات إ. ڤيل في الكتاب المذكور سابقاً Éd. Will, Korinthiaka, Paris, 1955, ص ٢٠٤ وما بعدها والملخص الذي نشره في مجلة كلية الآداب، ستراسبورج، "Points de vue corinthiens sur la préhistoire du culte de Poséidon", Bull. Fac. Lettres de Strasbourg, 1954-1955, p. 326.

١٤) هذه المشكلة عاد إلى تناولها مؤخراً خ. م. بلاسكويث J. M Blasquez, "El Caballo en las Creencias griegas y las de otros pueblos circummediterraneos", Rev. Belge de Philol. Hist., 45, 1967, p. 48-80

١٥) بينداروس، الأنشودات الأوليمپية Pind., Ol., XIII, 63 وفيها: پجاسوس ابن جورجونه المتوجة بالثعابين.

١٦) كتب چانمير H. Jeanmaire في كتابه "ديونيسوس" Dionysos (Paris, 1951, p. 281-285) عن رمزية الحصان بضعة صفحات تستحق تعليقات أخرى غير تلك التي ذكرناها في هذا السياق.

١٧) X, 17 Delebecque .

١٨) Pollux, I, 192 Bethe.

١٩) P. Chantraine, Dictionnaire étymologique de la langue grecque, Paris, 1968, p. 233
انظر كلمة gorgós

٢٠) أوريبيديس، أندروماخوس .Eur., Andromaque, 458

٢١) L. Robert, Collection Froehner. I. Inscriptions grecques, Paris, 1936, n 4 وانظر له أيضاً Noms indigènes dans l'Asie mineure gréco-romaine, I, Paris, 1962, p. 159 et n, 6.

٢٢) أوريبيديس، هيبولوتوس .Eur.,Suppl., 328

٢٣) XI, 13.

٢٤) Dionysos, p. 284

٢٥) أوريبيديس، الضارعات .Eur.,Hippol., 237-238

٢٦) اكسينوفون، الوليمة Xénophon, Banquet, I, 10. على هذا النحو ينبغي فهم gorgóteron. وپ. شانترين P. Chantraine (Dict. étymol., p. 234) أوضح أن Gorgo تأتي بعد الصفة gorgós . وعلى العكس يكتب ل. روبير في كتابه أن أصل كلمة يتضمن معنى المرونة والقوة النشيطة السريعة.

٢٧) إسخيلوس، خوئيفوريس Eschyle, Choéphores, 1022-1023

٢٨) انظر إ. ڤيل .Éd Will, Korinthiaka, Paris, 1956, p. 136; 138 sq; 189; 191. ويذكر البعض أن هناك وثيقتين مصورتين يظهر فيهما تاراكسيپوس. الوثيقة الأولى نشرها ك. ف. يوهانسين K. F. Johansen, Acta Archaeologica 6, 3, 1935, p. 167-213 وتبين شقفة من تابوت كلازومينيس شخصاً صغيراً شيطانياً يقف فوق على قصبة عربة. أما ش. پيكار Ch Picard, Rev. arch., 1937, p. 245-247 فقد ذهب إلى أن الشخص المرسوم ليس «مرعب الخيل» بل Zeúxippos, القائم على الخيل المكدنة. والوثيقة الثانية قام إ. پيرنيس E. Pernice بتحليلها في دراسة بعنوان "Ein korinthischer Pinax" نشرت في Festschrift O. Benndorf, 1898, p. 78 sq ويذهب إلى أن الوثيقة المصورة هي لوحة پينتيسكوفيا Penteskouphia تمثل جنياً منتصب الذكر منحنياً على ذيل حصان. أما إ. ڤيل فقد رفض في كتابه أن تكون الصورة لتاراكسيپوس Ta-raxippos محتجاً بأن تاراكسيپوس له ملامح پوسايدونية بالغة الوضوح تحول دون أن يظهر في مثل هذا المظهر المتواضع. والمتوارثات التي جمعها پاوسانياس حول تاراكسيپوس تعطي على الأرجح الحق لپيرنيس E. Pernice في تفسيره للوحة الكورينثية.

٢٩) انظر باوسانياس .Paus., VI, 20, 15-19

٣٠) Tzetzès, Sch. in Lycopher. Alex. 42, p. 34, 1 sq ويذكر شير Scheer موروثاً قريب الشبه، ويذهب إلى أنه من المرجع أن تكون شجرة غار مزروعة على قبر وأن تكون أوراقها بما تحدثه من حفيف وما تلقيه من ظل، سبباً في إصابة الخيول بالرعب.

٣١) إ. ڤيل في الكتاب المذكور سابقاً ,Éd. Will, Korinthiaka ص ١٨٨ وما بعدها

٣٢) إسخيلوس Eschyle, fr. 439 sq Mette والنصوص التي أوردها ڤيكر Weicker ، انظر تحت كلمة Glaukos (9) في R.E. (1910), c. 1412-1413

٣٣) Eitrem, s.v. "Hippomanes" (3), R. E. (1913), c. 1888

٣٤) أرسطوطاليس .Aristote, Hist. Anim., 571 b 10 sq القيم السحرية لهيپومانيس hippomanes حللها ستادلر Stadler انظر كلمة Hippomanes في R. E. (1913), c. 1879-1882

٣٥) Élien, H A., XV, 25; Apollodore, II, 5, 8 (مع ملحوظات فريزر Frazer في طبعته) انظر. أ. جروپه O. Gruppe تحت كلمة Herakles في .R, E., Suppl. B. III (1918), c. 1053 . عن صورة الحصان من حيث قوة تخريبية، بلا كمامة، متهيء للعض، يمكن أن ننظر إلى ملحوظات ج. پاييه J. Bayet على النقود الصقلية البونية في ,Mélanges de littérature latine, Rome, 1967 p. 255-280.

٣٦) أوريپيديس Euripide, Héraklès, 382 وانظر كذلك .Alceste, 492 sq . هذه الخيول التي لم تشكم هي عكس الجياد الطيعة للجام phılénioi التي يذكرها إسخيل Esch., Prom., 465

٣٧) انظر L.Gernet, Anthropologie de la Grèce antique, Paris, 1968 p. 131-132 وقد اعتمد على دراسة أوستهوف Osthoff, "Etymologische Beiträge zur Mythologie und Religionsgeschichte, 2. pélor und téras", Archiv fur Religionswissenschaft, 1905, p. 52 sq.

٣٨) أوريپيديس Euripide, Hippolyte, 1222-1223

٣٩) انظر اسخيلوس Eschyle, Sept, 203 sq وانظر سوفوكليس ,Sophocle, Oedipe à Colone 1067 : الشكيمة تبث بروقاً (astrápteı chalınós) مثل الجن والدرع.

٤٠) .Eschyle, Sept, 206 احتمال áüpnos يدافع عنه د. ڤان نيس D Van Nes, Die maritime Bildersprache des Aischylos, Groningen 1963, p 105-108

٤١) على نفس النحو الذي سمي فيه العقال ديسموس desmós في الإلياذة .Il., VI, 507; XV, 264 يضاف إلى ذلك أن تعبير "epistomızeın" يشكم الحصان" يمكن "يفحم الغريم" ، انظر ج. تايارد J,

Taillardat, Les Images d'Aristophane, 2. éd, Paris, 1965, p. 279/

٤٢) پوسايدون يوصف بأنه Damásippos مروض الخيل مثل أثينة (Schol. Arist. Nuées, 967)

٤٣) انظر ملحوظات ن. يالوريس ، "أثينة سيدة الخيل" N, Yalouris, "Athena als Herrin der Pferde", Museum Helveticum 7, 1950, p. 30-46.

٤٤) Sophocle, dipe à Colone,714 مع ملحوظات چيب Jepp في طبعته التي صدرت في عام ١٨٩٩، وأعيد طبعها في أمستردام في عام ١٩٦٥، ص ١٢١.

٤٥) P. Chantraine, Dictionnaire étymologique de la langue grecque, Paris, 1968, p. 49 انظر كلمة ákos

٤٦) كاتب الحاشية الذي كتب شرحاً على مسرحية Oedipe à Colone أوديبوس في كولونوس، البيت ٧١٤، شرح كلمة akestera بكلمة sophrpnistes وذكر أن الشكيمة تعمل عملها مثل الأدوية التي تهدئ اضطرابات الجنون manimádes nósoi .

٤٧) ڤرجيليوس: قصيدة جيورجيكا Virgile, Géorg., III, 115 (et Servius, ad loc.); Lucain, VI, 396 sq; Hygin, Fab., 274, 2 Rose; Val.-Flaccus, Argon., VII, 603-604. وارجع إلى J. Krischan, s. v. "Pelethronios", R. E.(1937), c. 270-271.

٤٨) Homeri opera, éd. Thomas W. Allen, t. V, 1912, p. 212. ونقلت القصيدة في طبعة ڤيست ميركلباخ West-Merkelbach, Fragmenta hesiodea, Oxford, 1967, p. 302.

٤٩) هناك ملحوظتان تفرضان نفسيهما بشأن أثينة التي تبسط يدها فوق الفرن. الملحوظة الأولى عن هذه اليد الحِرَفية. وأثينة صاحبة التقنية ليست مجرد عاملة بسيطة bánausos بل نراها دائماً على هيئة المعلم cheironax، وهو العامل المحترف الذي يمتلك درجة تمكن المعلم. وإذا أراد مادح أن يمدح ذكاء أثينة ومهارتها التقنيين، فإنه يمدح يدها (Anthol. Pal., V, 70, 3; 94, 1). هذه اليد التي تبسطها فوق الفرن، علامة على التمكن والسيطرة التي تمارسها على الفرصة السانحة kairós، على زمن الفرصة التي تهتبل: على الخزّاف الجيد أن يعرف اللحظة التي تكون فيها قطع الخزف قد نضجت تماماً، لا أقل ولا أكثر مما ينبغي. والملحوظة الثانية تنطبق على تدخل أثينة في شغل الخزف. وهناك وثيقة أثرية ينبغي أن نقربها من هذه الأبيات في أغنية الخزّاف، هذه الوثيقة عبارة عن لوحة پنتيسكوفيا التي نشرها إ. پيرنيس E. Pernice بعنوان "Ein korinthischer Pinax" نشرت في Festschrift O. Benndorf, 1898, p 75-80 هذه اللوحة تمثل من ناحية بومة ضخمة تحط على فرن للخزف متقد، ومن ناحية ثانية جنياً يمسك بيده عضوه ناحية رجل هو على الأرجح الخزاف. ولا يقتصر أمر الشكلين على أنهما شكلان مختلفان من السحر، بل هما يمثلان تصوير التعارض الذي ترسم علاماته أغنية الخزاف، التعارض بين أثينة حامية الفرن، والبومة ترمز إليها ، وشياطين الخزف يمثلهما

القزم الجني ذو العين الشريرة.

٥٠) شدت القصيدة مؤخراً اهتمام أحد مؤرخي تقنية الخزاف والفخراني هو چوزيف نوبل Joseph Vaech Noble, The Techniques of painted Attic Pottery, London-New-York, 1965, Appendix, III, p. 102-113 ، وقد نشر لها ترجمة وشرحاً.

٥١) البيت ١٣

٥٢) الأبيات ١٥-٢٠

٥٣) إيسخيلوس، السبعة Eschyle, Sept, 121-122

٥٤) إيسخيلوس، السبعة Eschyle, Sept, 203-208

٥٥) پيندادوس، الأناشيد الأوليمپية Pindar, Olymp , XIII, 84

٥٦) پيندادوس، الأناشيد الأوليمپية Pindar, Olymp., XIII, 86

٥٧) انظر سيشان، الرقص الإغريقي الأنتيكي L. Séchan, La Danse grecque antique, Paris,1930, p. 90-95 وانظر ڤيان، حرب العمالقة F. Vian, La Guerre des Géants, Paris, 1952, p 249-250.

٥٨) Wilamowitz, Pindaros, Berlin, 1922, p. 372, n 4

٥٩) ن. يالوريس ، "أثينة سيدة الخيل" N, Yalouris, "Athena als Herrin der Pferde", Museum Helveticum 7, 1950, p 19-101

٦٠) انظر إ. ڤيل Éd Will, o c , p 316-319 (وبخاصة ص ٣١٧، الملحوظة رقم ٢) هناك ثلاثة كتب حديثة تتيح لنا طرح مشكلات الخيل في مجموعها، وهي: J. K Anderson, Ancient Greek Horsemanship, Berkeley, 1961, P. Vigneron, Le Cheval dsans l'antiquité gréco-romaine. I et II, Nancy, 1968; J Wiesner, "Fahren und Reiten", dans Archaeologia Homerica (I, F), Gottingen, 1968.

٦١) Valerius Flaccus, Arg., III, 13-14, V, 513-514

٦٢) Plutarque, Cimon, 5, 1.

٦٣) انظر الإليادة، النشيد ٢٣، البيت ٣٠٧. والمقصود على وجه الدقة زيوس وپوسايدون.

٦٤) E. Delebecque, Le Cheval dans l'Iliade, Paris, 1951, p. 66-68

٦٥) انظر الإلياذة، النشيد ٢٣، الأبيات ٥٨١- ٥٨٤.

٦٦) Paus , VIII, 7, 2 عن پوسايدون والعربة انظر F Schachermeyr o c , p. 50-60, et passim عن التضحية بالخيل انظر W. Koppers, "Pferdeopfer und Pferdekult der Indogermanen", Wiener Beitrage, 4, 1936, p. 279-409.

٦٧) J. Wiesner, "Fahren und Reiten", dans Archaeologia Homerica (I, F), Göttingen, 1968, p.110-135.

٦٨) في دراسة بعنوان "Homophonies radicales en Indo-Européen", Bull. Soc. Limg. 51, 1955, 9. 22-28 يبين إ. بينڤينيست E. Benveniste أن ظهور معنى ثان في المعجم الهوميروسي لكلمة damáo <=يروض حيواناً> ، هذا المعنى المشتق من المعنى الأول للجذر نفسه في الهندوأوروبية <=يخضع قهراً>، يسمح على الأرجح بتحديد نشأة ترويض الحصان وبداية ركوب الخيل. على مستوى البحث الأثري ينبغي أن نفسح مكاناً هاماً لهذه المصورات التي تصور رجلاً موضوعاً بين حصانين يمسكهما باللجام أويلمسهما بيده . ارجع مثلاً إلى P. Courbin, La Céramique géo-métrique de l'Argolide,Paris, 1966, p. 485 sq et 492 sq.

٦٩) وتلاحظ أن ديليبيك E. Delebecque, Le Cheval dans l'Iliade, Paris, 1951, p. 62 لم يذكر إلا إشارة واحدة إلى الشكيمة في الإلياذة، في النشيد ١٩، البيت ٣٩٣.

٧٠) النشيد الهوميروسي إلى أپوللون، الأبيات ٢٢٩-٢٣٨. والترجمة التي نقترحها تعتمد كلية على تفسيرات ج. رو G. Roux, "Sur deux passages de l'Hymne homérique à Apollon", Rev. Ét. Gr. 77, 1964, p. 6-22 . ولكننا في ترجمة البيت ٢٣٧ وفي تحديد مفهوم hosie ، أخذنا بالمعنى الذي قال به بينڤينيست E. Benveniste, , Le Vocabulaire des institutions indo-européennes, II, Paris, 1969, p. 202 sq.

٧١) انظر G. Roux ج. رو، المرجع المذكور، ص ١٥.

٧٢) Geoponica, XVI, 1, 10.

٧٣) انظر G. Roux ج. رو، المرجع المذكور، ص ١٨. وقد اقترح رو تصحيح كلمة phulássei إلى phulássen وهي صورة الفعل غير المصرف والخاضع لكلمة moira.

٧٤) انظر G. Roux ج. رو، المرجع المذكور، ص ٢١. ويلاحظ رو فيما يتصل بپوسايدون هيپيوس وتاراكسيپوس : «وله القدرة على أن ينشر بينها <الخيل> الرعب، ولكنه له أيضاً القدرة على حمايتها من الرعب.»

٧٥) انظر پاوسانوس Paus., VIII, 25, 4-10. وانظر كذلك ديتريش B. C. Dietrich, Death, Fate and the Gods, London, 1965, p. 108 sq, 126 sq.

٧٦) Antimaque de Colophon, fr. 32, 5 وانظر كذلك Wyss وقد ذكره پاوسانياس Paus., VIII, 25,9.

٧٧) انظر ليجرا L. Legras, Les Légendes thébaines dans l'épopée et la tragédie grecques, Paris, 1905, p. 79-80.

٧٨) v. 345-347

٧٩) J. Wiesner, "Fahren und Reiten", dans Archaeologia Homerica (I, F), Göttingen, 1968.p. 111 et 113

٨٠)) انظر Fr. 32 Wyss وقد ذكره باوسانياس .Paus., VIII, 25,9

٨١) انظرفيما سبق ص ٢٢ وما بعدها

٨٢) پينداروس، الأنشودات الإيسثمية، الأنشودة ٧، البيت ٩، وفيه : يولاوس وهو أشهر من قاد عربة يوصف بأنه صاحب دهاء ميتيسي في شئون الخيل.

٨٣) انظر "Etymologicum Magnum, s. v. "Hippia وانظر .Anecdota graeca, éd Bekker, I, p "350, 24, s.v. "Athená Hippia وانظر .Paus., I, 30, 4

٨٤) انظر Fr. 40 في Müller, F. H. G., III, p. 156

٨٥) پينداروس، الأنشودات الإيسثمية، الأنشودة ١، البيت ٥٤.

٨٦) .Hésych., s. v. "impsas"

٨٧) .Nonnos, Dions., XXXVII, 310 Keydell

٨٨) .Nonnos, Dions., XXXVII, 311-312 Keydell في الأبيات ٣٢٠ وما بعدها توصف خيول إيريختيوس المكدنة إلى العربة بأنها «خيل سباق ماراثون» مما يوحي بأنها تشير إلى منسك قديم لأثينا في ماراثون Marathon. انظر ن. يالوريس، المرجع المذكور من قبل، ص ٦٢ ، وانظر إ. ڤيل. المرجع المذكور من قبل ص ١٣٥ وما بعدها.

٨٩) البيت ٦٢٢

٩٠) البيت ٣١٦. ونلاحظ أن المناورة - بل قصة السباق كلها - مستلهمة مباشرة من النشيد ٢٣ من الإلياذة. والقصة من منظورنا لا يمكن إلا أن يكون لها مزيد من الأهمية: ما نراه من التضاد الصريح في الإلياذة بين الحصان أريون وخيل أنطيلوخوس المكدنة يقابله التضاد بين المجموعتين من الخيول المكدنة، تلك التي تنتمي إلى پوسايدون والأخرى التي تنتمي إلى أثينة.

٩١) الأبيات ٢٢١-٢٢٢

٩٢) هناك نص يبدو أنه يحمل في طياته تكذيباً شديداً للتفسير الذي عرضناه لتونا، هذا النص هو كورس مسرحية «أوديپوس في كولونوس» Oedipe à Colone لسوفوكليس حيث نرى الأبيات من ٦٦٩ إلى ٧١٤-٧١٥ تضع في مواجهة أثينة حامية شجرة الزيتون، پوسايدون مخترع شكيمة الخيل.وهناك سببان يسمحان بتصوير أبعاد هذا «الوضع الشاذ» وبيان السبب في أن أثينه في هذا

السياق لم توضع في علاقة ما بشكيمة الخيل. السبب الأول هو أن هذا الجزء من كورس مسرحية «أوديپوس في كولونوس» لسوفوكليس جرت صياغته اعتماداً على النموذج الميثي لأصول مدينة أثينا. فنجد المبتهلين هنا يبتهلون إلى أثينة وپوسايدون من حيث هما قوتان مؤسستان لمدينة أثينا تتواجهان في سياق نعرفه لا على أساس النصوص فقط، بل أيضاً على أساس وثائق مصورة، منها على سبيل المثال : أ) الحية الشهيرة في ‹متحف› الإرميتاج Ermitage و ب) الپيليكة في پوليكورو Policoro. في الوثيقة المصورة الأولى نرى أثينة وپوسايدون يقفان موقف المواجهة، ويعرض كل منهما بدوره دلائل قدرته: پوسايدون يُخرج من الأرض أول حصان، وأثينة تخرج من الأرض أول شجرة زيتون (انظر H. Metzger, Les Représentations dans la céramique attique du IVe siècle, Paris 1951, p. 324-326). الوثيقة الثانية عثر عليها في حفائر هرقلية القديمة (انظر N. Degrassi, "Meisterwerke fruhitaliotischer Vasenmalerei aus einem Grab in Policoro" في Herakleiastudien, éd. B. Neutsch, Mitt. d. Arch. Ist. Rom. Abt., Erganzungsheft, XI, Heidelberg, 1967, p. 217-221, tabl. 66 et 67) في هذه الوثيقة الثانية نرى القوتين الإلهيتين معاً في أماكن المعركة: ويظهر پوسايدون راكباً حصاناً؛ وقد تسلح بخطاف مثلث وبجانبه هيرميس على هيئة فارس. وتقف أثينة على عربة تجرها أربعة جياد؛ وهي تلبس الدرع وترافقها الربة إيريسIris التي تخدمها كسائق عربة. وعلى مستوى منخفض قليلاً يمكننا أن نرى بجانب أثينة غرس زيتون. في هذا الإطار الميثي يرتسم التضاد بين أثينة التي تخلق شجرة الزيتون وحياة الزراعة وبين پوسايدون الذي يمثل قوة الخيل كما يمثل القوة فوق البحر. والحصان هنا بالنسبة إلى أثينة هو أولاً حيوان پوسايدون. هذا النموذج الميثي الذي يصور أصول مدينة أثينا يدفع الربة أثينة بكل ثقله إلى جانب شجرة الزيتون.

والسبب الثاني الذي يمكن أن نسوقه لتبرير هذا اللون من التقسيم هو أنه كان من المحال نسبة اختراع الشكيمة إلى الأثينيين، بنسبتها إلى الربة أثينة، كان وجود أثينة خاليبيتيس -أثينة ربة الشكيمة - في التراث الكورنثي يضطر الأثينيين إلى إبراز ربهم پوسايدون الذي كان أعلى قدراً حتى يواجهوا طموحات الكورنثيين.

ومن الضروري أن نضيف أن هذا الكورس بمسرحية «أوديپوس في كولونوس» لا يمكن فصله عن الأبيات التي تليه، وبخاصة البيتين ١٠٦٧-١٠٦٨ اللذين يذكران فرسان أثينا : «من كل صوب وحدب تلألأت شكائم الخيول، ومن كل ناحية سما حِمل الفوارس الذين راحوا يمجدون أثينة هيپيا‹ربة الخيل› ويمجدون رب البحر، مدبر الأرض، ابن ريا العزيزة.» هكذا نرى فرسان أثينة يعودون مرة أخرى تحت سيادة أثينة ربة الخيل. وكأنما نرى أثينة التي ما كادت تنفصل عن شجرة الزيتون حتى استعادت مكانها سيدةً للخيل بجانب پوسايدون.

والخلاصة أن بوسايدون يمكنه أن ينعم بركض الخيل وصهيلها (وهو هكذا على لوحات النذور التي وجدت في پنتيسكوفيا Penteskouphia بالقرب من كورينثيا القديمة والتي يظهر فيها على هيئة رب الخيل، واقفاً في العربة التي يقودها بنفسه: (راجع چيجان H. A. Geagan, "Mythological Themes on the Plaques from Penteskouphia") ولكنه عندنا يصطنع لنفسه هيئة مبدع الشكيمة أو مبدع فن ركوب الخيل، فإنه ‹ينسب لنفسه ما ليس له› ويمارس الهيمنة الشاملة "الإمپريالية" كما تفعل كل القوى الكبرى في مجمع الآلهة الپانثيون.

٩٣) في كتابه «پوسايدون Poséidon» ، ص ١٥٢-١٥٣، وجد ف. شاخرماير.F. Schachermeyr بحق أن أثينة هيپيا ‹ربة الخيل› لا يمكن أن تخلط برب كپوسايدون هيپيوس ‹رب الخيل›، وبيّن بإيجاز ولكن بكفاءة أن نصيب أثينة في مجال الخيل هو الصنعة البارعة والمبدأ التقني.

٩٤) پينداروس، الأنشودات الأوليمپية، ١٣، ٦٨ وما بعده.

٩٥) تفرض المقارنة نفسها هنا، فعلينا أن نقارن بتضحية بنفس النية، في مجال مواز، مجال الملاحظة، حيث يتدخل پوسايدون وأثينة معاً: ونعني الضحية المقدمة من ياسون إلى پوسايدون رب البحر، في اللحظة التي كانت السفينة الأولى التي صنعتها أثينة، أو التي ساعدت على صنعها، تتأهب لشق طريق على البحر. (انظر ڤاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus, Argon., I, 196-198)، وانظر كذلك فيما يلي ص ٢٢٦ وما بعدها.

الباب الثامن

زائغة البحر

١) انظر پاوسانياس Paus , I, 5, 3

٢) انظر كتاب م. پ. نيلسون M P Nilsson, Cults, Myths, Oracles and Politics in Ancient Greecw, Lund, 1951, p. 56 sq

٣) انظر هيسوخيوس Hésychius, no 2748 Latte

٤) انظر مثلاً أ. كيللر O Keller, Die antike Tierwelt, II, Leipzig, 1913, 9 243؛ وانظر شتاير Steier تحت كلمة Mowe (ومعناها طائر النورس) R E.(1932), c 2412-2418؛ وانظر دارسي و.ثومپسون D'Arcy W. Thompson, A Glossary of Greek Birds, 1936, p 27-29 [طبعة معادة Réimpression, Hildesheim, 1966]؛ وللمؤلف نفسه: "Was ist 'aithuia'" - ما معنى "أيثويا" في دورية Sudhoffs Archiv fur Geschichte der Medizin und der Naturwissenschaften 30, 1938, p 335-339.

٥) الخلط نفسه يصادفنا فيما يتعلق بكلمة mergus باللاتينية.

انظر (ج. أندريه، أسماء الطيور باللاتينية) : J. Andié, Les Noms d'oiseaux en latin, Paris, 1967, p. 101-103.

٦) انظر Schol. in Od., V, 66 (انظر كذلك Schol. in Od., I, 441)وانظر هيسوخيوس Hé-sychius, no 1894 Latte وربما ينبغي علينا أن نعتبر «زاغة البحر» هي puffin yelkouan وهو الرأي الذي أخذ به ج. أندريه، انظر كتابه السابق ذكره ص ٦١، وهو في ذلك ينبع أرسي و. ثومبسون.

٧) هذه النصوص التراثية يذكرها ديونيسيوسDionysios, Ixeutikon, II, 5, p. 26, 15 sq Garzya (Bibl. Teubner) ، فيما يتعلق بكلمة láros ولكن كلمة láros وكلمة aithuia كثيراً ما تتداخل وتختلط بحيث يجري تستخدم الكلمة بدلاً من الأخرى بلا صعوبة. Steier, s.v. "Mowe", R. E. (1932), c. 2414 sq.

٨) انظر أراتوس Aratos, Phainomena, 296 sq Martin.وانظر-Callimaque, fr. 178,32-34 Pfeif-fer كاليماخوس ، وانظر.Ep., 58, 4, t. II, p. 97 Pfeiffer

٩) انظر Artémidore, V, 74, p. 319, 6-15 Pack.

١٠) انظر Lycophron, Alex., 230

١١) انظر Cyranides, III (Oiseaux), II Peri aithuias (Ruelle, t. II, Paris, 1898, p. 86)

١٢) انظر Théophraste, De signis, II, 28; Aratos, Phainomena, 950; Schol. Arat., Phai-nom., 918, p. 511,1. 10 sq Maass.

١٣) انظر الأوديسا Od., V, 285-464

١٤) انظر الأوديسا، نفس المرجع السابق ٣٣٧ et 353

١٥) Schol.Apoll. Rhod., I, 917

١٦) Schol. in Od., V, 22 وEust , p 1385, 64.

١٧) Schol. in Lycophron, 359 Scheer.

١٨) هناك دراستان خصصتا لتعريف أثينة أيثويا Athena Aithuia. الأولى جمعت مجموعة من العناصر المرتبطة بالوقائع، وهي التي كتبها أ. كيوك,A. Kiock, Athena Aithuia, ARW 18 1915, p. 127-133 . والثانية كتبها ك. أنتي C. Anti, Athena marina e alata, Monum. ant R. Accad. Lincei 25, 1920, p. 270-318وقد شدت الانتباه إلى عدة مصورات يمكن أن تتصل بأثينة بحرية، سواء لبست پيبلوس موشى بالنجوم (راجع phosphóros) أو يرافقها طائر بحري. ولكن ليس بين الدراستين واحدة أدركت دور الدهاء الميتيسي في هذه المصورات التي تمثل أثينة بحرية

١٩) الأوديسا Od., II, 262-433 . راجع D. Wachsmuth, POMPIMOS O DAIMON, Untersuchung zu den antiken Sakralhandlungen bei Seereisen, Berlin, 1967, p. 72 sq.

٢٠) انظر أپوللودوروس الرودسي .Apoll. Rhod., I, 105-110; Valerius Flaccus, Arg., II, 48 sq

٢١) انظر ڤاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus, Arg., II, 598 sq ٢٢) انظر ڤاليريوس فلاكوس Valerius Flaccus, Arg., II, 549.

٢٣) أورفيوس، الأرجونوتية .Orphée), Argonautiques, 695 sq)

٢٤) الإلياذة Il., X, 274 وانظر D'Arcy W. Thompson, A Glossary of Greek Birds, o.c., p. 102-104..

٢٥) Arat., Phainom., 913 sq و Elien, H. A., VII, 7.

٢٦) طائر eroidios هو بلا شك في هذا السياق نوع من البلشون - بالفرنسية héron - ، ربما Ardea Nucticorax .

٢٧) "وأوليسيس معي يتبع خطاي، وكأنما كنا كلانا خارجين من جمر متأجج، لأنه يعرف أحسن من كل من عداه كيف يكوّن آراء " (بالإغريقية noesai) ، انظر الإلياذة Il., X, 246-247

٢٨) انظر أپوللودوروس الرودسي .Apoll. Rhod , II, 328 sq

٢٩) انظر أپوللودوروس الرودسي .Apoll. Rhod., II, 598 sq

٣٠) انظر أپوللودوروس الرودسي . Apoll. Rhod., II, 601-602هناك تواز مؤكد بين ياسون الذي فقد أحد نعليه أو المنفرد النعل كما يسمونه monokrepisوالسفينة التي تجردت من جزء من مؤخرها. فبينما فقد ياسون في أثناء احتيازه مخاضة - طريقاً póros بحرياً - نعلاً من نعليه، وتأهل هكذا لخوض اختبار الجزة الذهبية ، كذلك السفينة - مثلها مثل الطائر الذي سبقها في عبور هذا الممر الضيق - أي هذا الطريق البحري - انطبعت على النحو نفسه وفي الموضع نفسه بطابع اختبار لم يستطع أحد وبحق أن يبرز سمته التمهيدية. انظر ج. رو ، مشكلة الأرجونوتية G. Roux, Le Problème des Argonautes ، مواضع مختلفة من الكتاب، وبخاصة ص ٩٢-٩٣.

٣١) انظر هـ. أوزينر، أساطير الطوفان H. Usener, Die Sintfluthsagen, Bonn, 1899, p. 254; وانظر أ. هـ. كرابه، الآلهة أصحاب الغراب عند الكلتيين A. H. Krappe, Les Dieux au corbeau chez les Celtes, Rev. Hist. Rel. 94, 1936, p. 245-246; وانظر J. Hornell, The Role of Birds in Early Navigation, Antiquity 20, 1946, p. 142 sq; وانظر R. D. Barnett, Early Shipping in the Near East, Antiquity 32, 1958, p. 230 sq, وانظر M. David, Le Récit du Déluge et l'épopée de Gilgamesh, dans Gilgamesh et sa légende. Études recueillies par P. Garelli, Paris, 1960, p. 153-160' وانظر D. Wachsmuth, POMPIMOS

O DAIMON, Untersuchung zu den antiken Sakralhandlungen bei Seereisen, Berlin, 1967, p. 189 sq.

٣٢) انظر بلينيوس Pline, H.N., VI, 22, 83; Charon de Lampasque, FGrHist, 262 F 3; Asclépiade de Tragilos, FGrHist, 12 F 2 B; Schol. in A.R., II, 328 A; etc

٣٣) انظر Benveniste, Problèmes de linguistique générale, Paris, 1966, p. 296-298.

٣٤) انظر سوفوكليس «أنتيجوني» Soph., Antigone,590; Pind., Pyth., IV, 209; Isthm., III, 18.

٣٥) بالنسبة إلى التعبير áno kai káto راجع J. Verdenius, Mnemosyne, 1964, p. 387 وبالنسبة إلى التعبير éntha kai éntha انظر الأوديسا Od., V, 327 وانظر كذلك Il., XXIII, 320 فيما يتعلق باستعمال استعاري مطبق على سباق قام به سائق عربة تجرد من كل دهاء ميتيسي (ارجع إلى ما سبق ص ٢٣ و ٣٢).

٣٦) Pind., Pyth., III, 104-105; Isthm., IV, 5-6; Olymp., VII, 95.

٣٧) Euripide, Ion, 1506; Arist., Paix, 944; Plat., Rép., 408 d. فيما يتعلق بصورة البحر في الفكر الإغريقي، نجد إشارات مختلفة، منها ما جاء في ص ٢٠٢ وما بعدها من كتاب ڤاكسموت D. Wachsmuth السابق الإشارة إليه .

٣٨) انظر Poetae melici graeci, Alcman, 5, fr. 2, col. II Page. وانظر ما سبق ص ١٣٤.

٣٩) انظر صفحات مختلفة من كتاب J Lindsay, The Clashing Rocks, London, 1965

٤٠) انظر H Strohm, Zur Sciksalauffassung bei Pindar und den fruhgriechischen Dichtern, Stuttgart, 1944.

٤١) انظر «ثيوجونية» هيسيودوس Hésiode, Théogonie, 360. الانطلاق في البحر بحسب رأي أفلاطون Platon, Axiohcos، لا يعني فقط أن تصبح برمائياً، بل تصبح بقضك وقضيضك فريسة توخي tuché (المصادفة).

٤٢) إيسخيلوس، «الضارعات» Esch., Suppl., 523: توخي tuché الفعالة praktérios مرتبطة بيثيو Peithó

٤٣) انظر ملحوظات پ. چانّي P. Janni في Studi Urbinati, 1965, p. 106 sq.

٤٤) انظر ألقمان Alcman, fr. 64 Page. وانظر V. Ehrenberg, "Eunomia" في Polis und Imperium, Zurich und Stuttgart, 1965, p. 139-158.

٤٥) هناك صفحة في كتاب «القوانين» تبين ذلك على نحو ممتاز. في الفصل يعلن الأثيني إن الإنسان

سيجد نفسه يميل راضياً إلى القول بأن "تقريباً كل الأفعال البشرية من شأن المصادفة tuché" . ولكنه يضيف : «إذا كان كل ذلك الذي نقوله – عندما نتكلم عن الملاحة، عن قيادة السفن، عن الطب، عن الفن العسكري – يمكن أن يعتبربمثابة الحق الواقع الذي ينبغي أن يقوله الإنسان، إلا أن هناك على الرغم من ذلك حق واقع أيضاً، من قبيل ما نقوله عن الحق الواقع الذي ينبغي أن يكون، فيقول الإنسان عن هذه الموضوعات ... إن الإله. أو إن المصادفة والحظ Tuché &Kairos بعون من الإله يحكمان كل شئون البشر كاملة؛ وإن هذين المعينين اللذين يعاونان الإله لابد أن يتبعهما معين ثالث، وهو من شأننا <نحن البشر>، ألا وهو الحيلة Téchné. وسنتفق على أن امتلاك فن قيادة السفن، بدلاً من عدم امتلاكه، هو عون لنا عندما تهب عاصفة ...».

٤٦) فيما يتعلق بمفهوم الكائيروس kairós انظر P. Kucharski, "Sur la notion pythagoricienne de 'kairós'", Rev. Philos., 1963, p. 95-105.

٤٧) هذه الوثائق ذات النقوش كانت موضوع دراسة M Guarducci "Divinità Fauste nell'antica Velia", La Parola del Passato 21, 21. 1966, p. 279-284 وهي دراسة أنكرت أن يكون هذا هو معنى كائيروس ، اعتماداً على سببين. من ناحية لأنها أهملت التمييز بين اللوحة رقم ١، لوحة پوسايدون المُطَمْئِن Aspháleios – التي أرختها بالنصف الأول من القرن الرابع – وبين اللوحات الثلاث الأخريات المؤرخة بالقرن الخامس والتي وجدت كلها في المنطقة المقدسة الصغيرة ذاتها té-menos. ومن ناحية ثانية لأنها ترجمت النعت Olúmpios الذي نعت به كائيروس Kairós بـ d'Olympie بدلاً من Olympien، حيث إن كائيروس هو «أصغر أولاد زيوس» (Ion de Cios, in Paus , V, 14, 9). وكان تفسيرنا يلحق بتفسير آخر اقترحه في التاريخ نفسه پوجليز كاراتيللي G. Pugliese-Carratelli," Olúmpios Kairós ", La Parola del Passato 25, 1970, p. 260 sq. وهناك رد من ح. جواردوتشي G. Guarducci, "Dall'Olympios Kairos al principe degli Apostoli", Archeplpgia Classica 23, 1970, p. 124-141 حددته مقالة G. Pugliese-Carratelli, "Fraintendimenti ed Errori", La Parola del Passato 26, 1971, p. 347-350.

٤٨) A. B Cook, Zeus, III, 1, 1940, p 140 sq

٤٩) Pomp. Mela, I, 101.

٥٠) Arrien, Peripl. Pont -Eux., 37, in Geographi graeci minores,I, 401, Muller, et Marcianus Heracleensis, Epit. peripl. Menipp., 7 sq, ibid , I, 568 sq Muller, cités par A B. Cook, ibid , p 142.

٥١) Póntos Áxeinos البحر الضنين، وهذه العبارة هي أقدم صيغة للاسم الذي أعطاه الإغريق للبحر الأسود، وكلمة «xeinos» هي الكتابة الإغريقية لكلمة اسكيثيكية إيرانية هي axsaena ومعناها: معتم. وقد تغيرت كلمة «Áxeinos» على سبيل التلطيف إلى Eúxeinos. ارجع إلى Chr M. Dan-

off, s.v.,"Pontos Euxeinos", R. E. (1962), suppl.IX, c. 951 sq وارجع إلى ملحوظات ڤاكسموت D. Wachsmuth في الكتاب المذكور ص ٢١٦.

٥٢) Sophocle, Philoctète, 855 في سياق تبرز فيه أهمية كائيروس في العمل مرتين، في ٨٣٥ و ٨٠٢. انظر Esch., Choéph., 814; Hymn. Hom. Dionys., 26.

٥٣) Esch., Suppl., 594-595 وهنا نلاحظ أن زيوس أوريوس Zeus Oúrios يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفهوم mechar القريب من مفهوم mechané .

٥٤) انظر أرسطوطاليس Aristote, Eth. Eud., VIII, 2, 1247 a 5-7; Eth. Nicom., III, 5, 1112 b 4-7.

٥٥) Alcée, fr. 249 Lobel-Page = P. Ox., 2298, fr. 1, 1. 6 sq مع الشرح المتاز بقلم بارنر W. Barner, "Neuere Alkaios-Papyri aus Oxyrhynchos", Coll. Spudasmata, Bd. 14, Hildesheim, 1967, p. 113-126.

٥٦) يقول پينداروس (Ném., VII, 17): "الحكماء يتنبأون بالريح التي ستهب بعد يومين tritaion ánemon . ولكن في «أوليس» عندما بدأت الريح الذي مكنت الإغريق من الانطلاق ‹بالأسطول لحرب طروادة›، فوجئ الرجال فضحى كل واحد إلى أرتيميس Artemisبما وقعت عليه يده.» انظر Paus., IX, 19, 7 و Callimaque, fr. 200 B Pfeiffer

٥٧) الإلياذة .Il., XXIII, 316-317

٥٨) انظر «أنيجوني» لسوفوكليس .Sophocle, Antigone, 360وفيها: «الإنسان هو الكائن الذي يعرف أن يجتاز البحر الرمادي في الوقت الذي تهب فيه رياح الجنوب وتثور العواصف، وأن يسلك طريقه وسط الغياهب.» (٣٣٤-٣٣٨).

٥٩) انظر پينداروس .Pind., Isthm., IV, 73-74

٦٠) انظر پينداروس .Pind., Olymp., VII, 94 انظر له كذلك Pyth., III, 104 انظر له أيضاً .Isthm., IV, 5.

٦١) انظر أراتوس Aratos, Phainom., 758 sq حيث يقول: «ومزايا هذا الحرص Yepiphrosúne يحصيها العد بالنسبة إلى الملاح الذي يظل يقظاً متنبهاً»

٦٢) Epinomis, 976 a-b

٦٣) هكذا أوليسيس الداهية polúmetis وقد قاد سفينته رئيساً جالساً بجوار الدفة. انظر الأوديسا Od , V, 270sq . وانظر إسخيلوس Esch., Sept, 2-3 حيث يقول : «والرئيس يعكف على عمله كلية، يمسك دفة المدينة، ولا يدع النوم يتسرب إلى مآقيه» (مع ملحوظات فان نيس

.(D. Van Nes, Die maritime Bildersprache des Aischylos, Groningue, 1963, p 122-128

٦٤) أفلاطون، الجمهورية Rép., 488 d. 489

٦٥) Esch., Suppl., 176-179; 970

٦٦) انظرإيسخيلوس، «الضارعات» Esch., Suppl., 13.

٦٧) Áxeinos tekmairesthai أو semeioûsthai "التنجيم"، وهو تعبير سائر ينطبق على أولئك الذي يقومون برحلة ملاحية طويلة، انظر ; Hésychius, no 7911 Latte وانظرSouda, s.v., t.I, p. 393, Adler 5-7 1 وانظر Diogen., II, 66 وانظر Eust., p. 1535, 59.

٦٨) Tékmorتعني في آن واحد نقطة الاهتداء والخطة التي يدبرها عن تأمل الكائن الذكي الذي عرف أن يدرك نقطة الاهتداء هذه في الفضاء. انظر.p. 145 sq, 270 sq . فيما يتعلق بورود كلمة ithúnein في مفردات الملاحة نجد النصوص الشاهدة تمتد من العصر الهوميري إلى نهاية العصور الأتيكية، انظر .Il , XXIII, 317 وانظر Aratos, Phainom., 44 وانظرApoll., Rh., I, 592

٦٩) ذكاء الربان هو أيضاً من نمط احتمالي Max. Tyr, Diss 30, 2, p. 352, 14 sq Hobein

٧٠) انظر.H. Siska, De Mercurio ceterisque deis ad artem gymnicam pertinentibus, Diss. Halis Saxonum, 1933, p 3 sq.

٧١) انظر .Paus., III, 12, 4 sq et III, 13, 6

٧٢) مثل هيرميس Hermès hodaios أو pompaios ومثل أرتيميس Artémis hegemone . ارجع إلى ز. قيده S. Wide, Lakonische Kulte, Leipzig, 1893, p. 61 وهو يرى في أثينة كيليوثيا Athéna Keleúthera «حامية الطريق»، بينما نجد فارنل L. R Farnell, Cults of the Greek States, I, 1896, p. 311أكثر حساسية لاسم المكان الذي تجد فيه أثينة كيليوثيا Athéna Keleúthera ويذهب إلى أنها «البادئة الإلهية للجنس». انظر أيضاً O. Gruppe, Griechische Mythologie, II, 1906, p 1216, n 3.

٧٣) انظر المحاولات اللغوية التي حصرها المؤلفون وآخرهم هـ. فريسك H. Frisk, Griechisches etymologisches Worterbuch, I, Heidelberg, 1960, s v "kéleuthos" وقد خص پيزاني.V. Pisani هذه الكلمة kéleuthos بدراستين من ناحية "Miscellanea Etimologica no 39" انظر Rendic. Accad Lincei 6 (5), p 9 ومن الناحية الأخرى "Glottica parerga no 15" انظر .Rendic. Ist Lombardo, Lett. Scienze Morali e Istoriche 77, 1943-1944, p. 552 sq ولكن لا التفسير على أساس *ke-*leuth ولا التفسير على أساس *kelo-*leuthos مقنعان.

٧٤) الإلياذة Il , XXIII, 768 sq . والأبيات من ١٣ إلى ٣٢ من قصيدة Bain de Pallas لكاليماخوس Callimaque <Kallimakhos>تنوه بمن أسمتها أثينة التي فازت في سباق الجري

المزدوج diaulos (ارجع إلى E. Norman Gardiner, Greek athletic Sports and Festivals, London, 1910, 1910, p. 51; 280; 283) وهي المباراة التي سمحت لكاليماخوس بإشراكها مع الديوسكوريين، اللذين ذكر نص تراثي أنهما كانا الفائزين في أول سباق أوليمپي (انظر Paus., V, 8, 4). راجع تفسير إ. كاهن- E. Cahen, Les Hymnes de Callimaque. Commentaire explicatif et critique, Paris, 1930, p. 225

٧٥) انظر الأوديسا Od , XIII, 221 sq .

٧٦) انظر الأوديسا Od., XIII, 255

٧٧) انظر الأوديسا Od , XIII, 291-299.

٧٨) Stanford, The Ulysses heme, Oxford, 1954, p. 25-42.

٧٩) انظر Kaibel, Epigr. gr., 795 وهذه الإپيجرامة كثيراً ما يقارنون بينها وبين إپيجرامة فيلوكسينوس Philoxenos (fr 15, t III, 1882, p. 615 Bergk) الواردة في المنتخبات (Anth. Palat., IX, 319). وهنا نرى هيرميس (إله › «الانطلاق» يشجع الأبطال قائلاً: «هيا! شدوا أعصابكم! اطردوا من ركبكم الفتور المائع!»

٨٠) في خليج ماجنيسيا Magnesiaكان هناك مكان يسمونه Aphétai وكان هو الموضع الذي تهيأ فيه ملاحو سفينة أرجو - الأرجونوتية - للانطلاق إلى أعالي البحر بعد أن تزودوا بالماء. انظر هيرودوتوس (Hér ., VII, 193)

٨١) انظر پاوسانياس .Paus., III, 14, 6

٨٢) انظر J Delorme, Gymnasion. Étude sur les monuments cosacrés à l'éducation en Grèce, Paris, 1960, p. 74.

٨٣) انظر پاوسانياس .Paus , III, 14, 6 وكانت هناك غير بعيد هياكل لتمجيد زيوس أمبوؤليوسZeus Amboúlios، وأثينة أمبوؤليا Amboúlia، والديوسكوريين الأمبوؤلين Amboúlioi

٨٤) الانطلاق والوصول - من حيث هما «بدايتان» - يعتبران من اللحظات الخطيرة. راجع على سبيل المثال شعائر ركوب السفينة والنزول منها في العالم الإغريقي، أو راجع أضاحي الانطلاق (مثلاً H Popp, Die Einwirkung von Vorzeichen, Opfern und Festen auf die Kriegsführung der Griechen im 5. und 4. Jahrhundert v. Chr., Diss Erlangen,1958, p. 63 sq).

٨٥) انظر پاوسانياس -Paus , III, 12,4. hidrúsato dè tes Keleutheias hierà arithmoi tria diestekóta ap'allelon.

٨٦) انظر ما سبق ص ١٨٥ وما بعدها.

٨٧) في الأوديسا، النشيد الثامن، البيت ١٩٣ تدل الكلمة على العلامة، على النقطة التي يصل إليها القرص: وكان أوليسيس قد رمى القرص لتوه، فجرت أثينة لتسجل النهاية "التيرما" térma. أما في الألعاب الواردة في الإلياذة فكلمة térma "تيرما" تعني علامة الدوران.

٨٨) على الرغم من النقد الذي وجهه البعض، مثل ريدر A. de Ridder, "L'Athéna mélancolique" BCH 36, 1912, p. 523-528 الذي ذهب إلى أنها أثينة حامية القوانين، «الوصية العظمى على المدينة» boulaia, polioûchos التي ثبتت عينيها على النقش المحفور بلا شك في اللوحة.

٨٩) Ch. Picard, Manuel d'archéologie grecque. La sculpture, II, 1 Paris, 1939, p. 39-40. وهو تفسير تناوله المؤلف من جديد وزاده تدقيقاً في مقال موجز نشره في مجله Rev. Archéol., 1958, 1, p 95-98.

٩٠) انظر ف. شامو F. Chamoux, "L'Athéna mélancolique", BCH 81, 1957, p. 143-159والرأي الذاهب إلى أنها أثينة التي تترأس ألعاب المباريات العامة رأي دافع عنه فيربانكس A. Fairbanks, "On the Mourning Athena-Relief", Amer. Journ. of Archeology 6, 1902, p. 410-416.

٩١) "L'Athéna au terma", Rev. Archéol , 1972, p. 263-266 وانظر كذلك ج.ج.مافر J. J. Maffre, "Deux pelikai attiques de Thasos, BCH 96, 1972, p 349

٩٢) وهو بالقدر نفسه يعترف بأهمية كائيروس Kairos في المقال المذكور من قبل ص ١٦٦. ونلاحظ أن شامو Fr. Chamou. يجعل للدهاء الميتيسي المكان الذي يناسبه ليفسرعلاقة أثينة بالألعاب المباريات في الساحة الرياضية العامة.

٩٣) انظر Alcée, fr. 249 Lobel et Page وانظر ما سبق ص ٢١٦ والملحوظة رقم ٥٥.

٩٤) F. Schachermeyr, Poseidon und die Entstehung des griechischen Gotterglaubens, München, 1950, p 158 sq, 164 sq.

٩٥) Hymne homérique à Poséidon, 5.

٩٦) O Rayet et M. Collignon, Histoire de la céramique grecque, Paris, 1888, p 143-152 وهناك شرح أوفى قام به فورتفينجلر A. Furtwangler, Beschreibung der Vasensammlung im Antiquarium, I, Berlin, 1885, no 347 (وصفحات أخرى مختلفة).

٩٧) وكما بين أيلوس أريستيديس Aelius Aristide (37, 20 Keil) شاركت أثينة مشاركة مزدوجة في أعمال بوسايدون التي قام بها من حيث هو رب الخيل hippios ورب البحر póntios.

٩٨) السفن هي خيول البحر (انظر Od , IV, 707-709, XIII, 81 sq; Artémidore, I, 56, p 64, 17 Pack) . وكما أن الحصان يوصف بأنه pherézugos كما نجد في (Ibycos, fr 287, 6 Page)

كذلك السفينة يصفها ألكايوس Alkaios بنفس الصفة pherézugos. ثم إن لفظة kéles تدل على الحصان كما تدل على سفينة السباق. كذلك نلاحظ أخيراً أن عبارة «تكون له السيطرة على البحر» يمكن أن يقابلها بالإغريقية hippokratein ‹السيطرة على الخيل› Thus. VI, 71, 2. Cf. J. Gardiner, "Terms for Thalassocracy in Thucydides", Rh. Mus. 113, 1969, p. 20.

٩٩) والدفة كانوا يسمونها أحياناً شكيمة خالينوس chalinós (IGm II 2, 1610, 11, 14; Eur., Héc., 539' Pind., Pyth., III, 26; Oppien, Hal., I, 299). ومن الممكن بالمقابل أن تستخدم كلمة الدفة للدلالة على الشكيمة واللجام (Esch., Sept, 206 sq; Eur., Hippol., 1219-1226) . ونحن نجد الدفة والشكيمة في العديد من المواضع مترادفتين (Soph., fr. 869, t. III, p. 69 Pearson[Cambridge, 1917]; Plut., De Iside, p. 369 a).

١٠٠) انظر پينداروس .Pind., Ol., XIII, 68 sq

١٠١) انظر پينداروس .Pind., Pyth., IV, 203-209

١٠٢) أپوللونيوس الرودسي .Apollod., I, 9, 27

١٠٣) انظر ڤاليريوس فلاكوس .Valerius Flaccus, Argon., I, 188-198

١٠٤) أپوللونيوس الرودسي A. R., II, 1187-1189

١٠٥) أپوللونيوس الرودسي A. R., II, 1187-1188

١٠٦) أپوللونيوس الرودسي A. R., II,723 وانظر P Chantraine, Rev. Philol., 1962, p. 258-259.

١٠٧) أپوللونيوس الرودسي A. R., I, 724

١٠٨) أپوللونيوس الرودسي .Apollod., II, 1, 4; Hygin, Fab., 277; Eust., p. 37, 25 sq وارجع إلى .Waser, s.v. "Danaos", R.E.(1901), c. 2094-2098

١٠٩) Hymne homérique à Aphrodite (1), 12-14. وانظر Hés., Travaux, 430, 430; Diod., V, 73' Anth. Pal., 204, 205.

١١٠) أپوللونيوس الرودسي ...A. R., II, 612-614;gómphoisin sunárasse

١١١) حاشية لوكوفرون Schol. in Lycophr., 359, p. 139, 27-30 Scheer: Aithuia dè (Athenâ), hóti kai ploîa he phrónesis kateskeúasa kai diken aithuias ediaxe toùs anthrópous nautillesthai ep'auton diaperainoménòus ten thálassan.

١١٢) الإلياذة Il., V, 59 sq

١١٣) الإلياذة Il , XV, 410-412

١١٤) هيسيودوس «الأعمال» . Hés., Travaux, 430

١١٥) انظر Il., XXIII, 315. V. Chapot, s.v. "Tignarius", Daremberg-Saglio-Pottier, t. V, p. 332 sq.

١١٦) الإلياذة Il., XII, 390-391; XVI, 483-484. وانظر هيسيودوس ، الأعمال Hés., Trav., 807-808

١١٧) عن xéo أي بَرَدَ، تشط، سنفر، صقل انظر النصوص الواردة في: V. Chapot, s.v. "Tignarius", Daremberg-Saglio-Pottier, t. V, p. 334 sq. وانظر أيضاً A. K. Orlandos, Les matériaux de constructon... des anciens Grecs (tr. fr.), I, Paris, 1966, p. 42-43.

١١٨) Cypria, fr. III Allen (Homeri opera, t. V, p. 118-119)

١١٩) Harmózein, arariskein, gomphoûn, pegnúein.

١٢٠) راجع العرض الذي قدمه ج. تاياردا J. Taillardat, "La Trière athénienne et la guerre sur mer" في Problèmes de la guerre en Grèce, publié sous la direction de J.-P. Vernant, Paris-La-Haye, 1968, p. 185-186 وانظر أيضاً L. Casson, Ships and Seamanship in Ancient World, Princeton, 1971, p. 201-223.

١٢١) أپوللونيوس الرودسي A. R., II, 613-614

١٢٢) الأوديسا Od., V, 234-257. عن أساليب البناء ونمط السفن ارجع إلى L. Casson, "Odesseus'Boat", American Journal of Philology 85, 1964, p. 61-64 وارجع إليه كذلك في Ships and Seamanship in Ancient World, Princeton, 1971, p. 201-223.

١٢٣) الأوديسا Od., V, 270-274.

١٢٤) إيسخيلوس «الضارعات» Esch , Suppl., 770.

١٢٥) H. Blumner, Technologie und Terminologie der Gewebe und Kunste, II, Leipzig, 1879 [Réimpression, Hildesheim, 1969]. p. 234-235

١٢٦) الأوديسا Od., XVII, 344; XXIII, 197; Soph., fr. 433, 4--5 N 2.

١٢٧) الأوديسا Od.,V, 245; Il., XV, 410

١٢٨) الصورة التي استخدمها ثيوجنيس Theognis, 945: eimi parà státhmen orthèn hodón, oudetérose klinómenos أي «على الخيط اتبع الطريق المستقيم لا أحيد إلى يمين أو شمال.» عن مدلول هذه الأبيات انظر A. B. Van Groningen, Théognis, Amsterdam, 1966, p 325. والمقارنة بين الخيط وبين الاستقامة ترد مرة أخرى في الأبيات ٥٤٢-٥٤٦ و ٨٠٦-٨١٢ في نفس النص.

١٢٩) الإلياذة Il., XV, 410-412

١٣٠) الإلياذة Il., XXIII, 316-317; Ap. Rhod., I, 562, etc

١٣١) Il., VIII, 110; XI, 528; XXXIV, 149; 178;362; [Hés.], Bouclier, 324; Eur., Hip-pol., 1219-1226وفي نص أوريبيدس هذا مقارنة بين العربة وبين السفينة.

١٣٢) انظر ما سبق ص ٥٦-٥٧.

١٣٣) الإلياذة Il., X, 19, et V, 62

١٣٤) Od., VIII, 493-494 وارجع إلى N. Yalouris, "Athena, als Hernn der Pferde", Mu-seum Helveticum 7, 1950, p. 67 وانظر كذلك: F.Schachermeyr الكتاب المذكور سابقاً، ص ١٨٩ وما بعدها.

١٣٥) Anth. Palat., VI, 342.

١٣٦) الأوديسا Od., VI, 266 sq.

١٣٧) الأوديسا Od., VI, 277-271.

١٣٨) الأوديسا Od., VI, 268-269.

١٣٩) استخدمنا هنا ترجمة V. Bérard

١٤٠) الأوديسا Od., VII, 202 sq.

١٤١) الأوديسا Od., VI, 266.

١٤٢) الأوديسا Od., VII, 108-111.

١٤٣) الأوديسا Od., II, 116-118.

١٤٤) وهذا هو التفسير الذي أخذ به مثلاً Dummler, s.v. "Athena", R. E. (1896), c. 1944, 59-60' O. Gruppe, Gr. Mythologie, t.II, München, 1906, p. 1215, n.7' M.P. Nilsson, Gesch. der gr. Religion, I, éd. 2, München, 1955, p. 439.

١٤٥) الأوديسا Od., V, 382-387. ويتحدث پاوسانياس Paus., IV, 35, 8 عن أثينة أنيموتيس Athena anemotis تدخلت بناء على طلب من ديوميديس فوضعت حداً لعنف الرياح التي هبت على ميثوني Méthoné.

١٤٦) الأوديسا Od., VI, 329-331

١٤٧) الأوديسا Od., VII, 78 - 81

١٤٨) الاوديسا Od , VI, 191.

١٤٩) الأوديسا .Od., XIII, 86-87

١٥٠) الأوديسا .Od., VII, 35

١٥١) الأوديسا .Od., VIII,559-563

١٥٢) الأوديسا .Od., VIII, 557-558

١٥٣) المقصود elaúnein لا ithúnein: السفينة تدفعها سواعد المجدفين (Od., XIII, 76-78)

١٥٤) هذا هو المصير الذي صارت إليه السفينة بعد أن حملت أوليسيس إلى إيثاكا. انظر الأوديسا:
Od., XIII, 162-164

١٥٥) E. Kirsten und W. Kraiker, Griechenlandkunde, I, éd. 5, Heidelberg, 1967, p. 193-165. وأقرب الظن أن احتفالاً تتسابق فيه القوارب كان يقام كل خمس سنوات على شرف بوسايدون .L. Deubner, Attische Feste, 1932 [Réimpression, 1956], p. 215, n. 2

١٥٦) Od., III,27 8 sq.

١٥٧) Ch. Picard, "L'Hérôn de Phrontis au Sounion", Rev. Arch., 1940, I, p. 5-28.

١٥٨) Od., III, 282-283. واسم فرونتيس Phrontis له دلالته مثل اسم الملاح نوئيمون Noèmôn، ابن فرونيوس Phronios، الذي استعارت منه أثينة سفينة لرحلة تيليماخوس على نحو ما جاء في الأوديسا، النشيد الثاني، ٣٨٦.

١٥٩) Od., III, 81 وكلمة Phrázesthai تنتمي إلى مفردات الدهاء الميتيسي. انظر الأوديسا Od., III, 128-129; IX, 423; IX, 423; XI, 510.

١٦٠) الأوديسا Od., IV, 380

١٦١) A. Severyns, Les Dieux d'Homère, Paris, 1966, 9. 119.

١٦٢) Paus., I, 1, 1. انظر أوريبيديس Eur., Cyclope, 293-294

١٦٣) كما وصفه باوسانياس Paus.,X, 25, 2

١٦٤) Schol. in Arat. Phainom. 351, p. 411, 19 sq Maas; Geminos, Elem. Astron., c. 2; وانظر Eust., in Dion. Per., 11 in Geographi gr. monores, t. II, p. 219. Rehm, s,v, Roeder,s,v. "Kanobus" (2), R. H. و "Kanopos", R. E. (1919), c. 1881-1883 (1919), c. 1870-1873.

١٦٥) Chr. Blinkemberg, Lindos, II, Inscriptions, 1, 1941, n ٢, XII, 1. 73-77. p. 165-166.

١٦٦) انظر ما سبق ص ٢٠١.

١٦٧) هذا التضاد أبرزه بل وتهكم عليه H. de La Ville de Mirmont, "Le Navire Argo", Rev. intern. enseign. 30, 1895, p. 280 sq.

١٦٨) أپوللونيوس الرودسي A. R., I, 188; II, 867.

١٦٩) أپوللونيوس الرودسي A. R., I, 106- 108; انظر ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,I, 481 sq; II, 71 sq.

١٧٠) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,II, 381 sq.

١٧١) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,I, 522 sq; 1274 sq.

١٧٢) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,I, 559-562.

١٧٣) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,II, 173 sq.

١٧٤) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,II, 557 sq.

١٧٥) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,II, 584-585.

١٧٦) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,II, 610-637.

١٧٧) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,II, 854-860.

١٧٨) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,II, 894-895.

١٧٩) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,II,1260 sq.

١٨٠) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,IV, 254 sq.

١٨١) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,IV, 294 sq.

١٨٢) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,IV,588 sq.

١٨٣) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,IV, 640 sq.

١٨٤) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,IV, 930 sq.

١٨٥) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,IV,1259 sq.

١٨٦) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,IV, 1588-1619.

١٨٧) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,IV, 1994-1718.

١٨٨) ڤاليريوس فلاكوس Valérius Flaccus, Argon.,IV, 588 sq et 640.

١٨٩) Hymne homérique aux Dioscures, I, 11 sq. وانظر كذلك A. B. Cook, Zeus, I, p. 760

sq.

١٩٠) نفس المرجع ٩-١١.

١٩١) أريسطوفانيس Aristoph., Gren., 847

١٩٢) پلوتارخوس Plut., De def. orac., 426 c.

١٩٣) عن طريق نفس التضاد اللوني بين الأسود والأبيض، تظهر قوة إلهية بحرية أخرى تلعب في اجتياز الصخور الرجراجة Plagktai، في النشيد الرابع من «الأرجونوتية» Argonautiques. دوراً مشابهاً لدور أثينة في النشيد الثانية من نفس النص، تلك هي ثيتيس. وثيتيس قوة إلهية بحرية مثل الربة ميتيس، تظهر في القصيدة الكوسموجونية لألقمان Alcman على هيئة ربة أولانية كبيرة أدى بزوغها في قلب عالم خاءوسي ليلي دامس إلى مولد نور النهار وسنا النجوم. وهي ربة المياه الأولانية، ومن هنا فإن قوتها - التي هي أقدم من قوة پوسايدون - تغطي جزئياً قوى هذا الإله في بعض أجزاء العالم الإغريقي. ففي رأس سيپياس Sépias، عندما انقضت عاصفة عارمة على أسطول الفرس، حاول المجوس أن ينهوها بتقديم الأضاحي إلى ثيتيس والنيرئيدات، بالإضافة إلى قرابين من الضحايا والابتهالات المرفوعة بصيحات صارخة إلى الرياح العاضبة (Hdt., VII, 189). ولكن الفصل الوارد في «الأرجونوتية» Argonautiques يرينا ثيتيس تتدخل بنفس الطريقة التي تتدخل بها أثينة. فقد تقدمت ثيتيس، تصحبها النيرئيديات - التي يشبهها الشاعر صراحة بزيغان البحر (A.R., IV, 966-967)، فأمسكت السفينة من دفتها ودفعتها إلى أمام دفعة قوية. وفعلت ثيتيس مثلما فعلت أثينة من قبل ففتحت السبيل أمام سفينة الأرجونوتية ورسمت لها طريقاً مستقيماً بين الصخور الملتوية (IV, 938: Théus d'ithune kéleuthon). وعلى الرغم من التشابه الكبير الذي لاحظناه بين القوتين الإلهيتين، فإننا لا نستطيع الاستمرار في المقارنة، على الأقل على المستوى الذي اخترناه، مستوى التحليل البنائي للقوتين المنتميتين إلى الأوليمپوس. وثيتيس ربه ذات دهاء ميتيسي مثل أثينة، وهي لا تنتمي إلى الجيل الإلهي الذي تنتمي إليه أثينة وپوسايدون أو الديوسكوريان. ولكن ثيتيس بما هي قوة إلهية أولانية مزودة بالدهاء الميتيسي، شأنها شأن ميتيس، فهي تعلو تراتسنداليا بأساليب الدهاء الميتيسي وأشكاله المتخصصة التي يمارسها الأوليمپيون - على نحو ما تظهر من خلال وسائل العمل التي يستخدمها كل من أثينة وهيرميس وأفروديتي وهيفايستوس وزيوس. وهكذا فإن ثيتيس يمكنها أن تسمح لنفسها بالتدخل على طريقة أثينة. وفي استطاعتها كذلك أن تظهر على هيئة الصانع الزي يبني السفينج لأن دهاءها الميتيسي متشعب في قيمه إلى أبعد الحدود (انظر ما سبق ص ١٤٠ وما بعدها).

الباب التاسع

قدما هيفايستوس

١) جمع هـ.هيرتر مادة توثيقية هامة عن هذه القوى. انظر:.H. Herter, s. v. "Telchinen", R.-E (1934), c. 197-224.

٢) انظرSuétone, Des Termes injurieux. Des Jeux grecs, éd. Taillardat,Paris, Les Belles Lettres, 1967, p. 54 (texte) et p. 133-136 (pour le commentaire).

٣) بالنسبة إلى هذه النقطة اتبعنا ترجمة أوستات Eustathe التي تمتاز بالبساطة(انظر ,.Suétone,o. c (p.99 بينما الصياغة التي أعاد تايياردا J. Taillardat ترتيبها تطرح العديد من المشكلات.

٤) من حقنا أن نحتار بين كلمة megalóphrues ومعناها كثيف الحاجبين (M, L) التي أخذ بها تاياردا وكلمة melanóphrues ومعناها أسود الحاجبين وهي التي ارتضاها أوستات Eustathe. والحواجب عنصر من عناصر النظرة البراقة، وسمة من سمات العين التي تفتن وتخيف: حاجبا هيرميس توصفان بالمخاتلة polúmetis (انظرHymne hom. Hermès, 278-280)، وحواجب الكوكلوبيس Cyclopes (انظر Callim., Hymne à Artémis, 52) وحاجبا هاربالوكوس Harpalykos (انظر Théocrite, Héraclès Enfant [XXIV], 115-117). أما اللون الغامق فهناك تراث هوميري كامل (انظرIl., I, 528; XV, 102; XVII, 209) يدعونا إلى اعتبار هذا اللون الغامق اللون الأكثر انسجاماً مع الرهبة التي تثيرها نظرة خلابة.

٥) انظر أرسطوطاليس .Aristote, Hist. anim., 515 b 24 et Part. anim., 695 b 5

٦) Henry Hayman: The Udyssey of Homer, London, 1866, Appendix C: 7, p. XCIII; O. Keller, Die Antike:Tierwelt, I, Leipzig, 1909, p. 407-408; V. Bérard, Les Phéniciens et l'Odyssée, I, Paris, 1927, p. 440-441; Les Navigations d'Ulysse, II, Paris, 1928, p. 434-435;J. Meirat, Marines antiques de la Méditerranée, Paris, 1964, p. 31-32

٧) انظر أرسطوطاليس .Aristote, Hist. anim., 566 b 28 sq

٨) انظر أرسطوطاليس .Aristote, Part. anim., 697 b sq

٩) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 567 a 5 sq; Pline, H. N.. IX, Élien, Hist. anim ,IX, 9

١٠) [Plut.], De soll. anim., 982 d.

١١) الأوديسا .Od., IV, 400 sq

١٢) الأوديسا .Od., IV, 449

١٣) Pind., Ném., V, 13.

١٤) Callimaque, Hymn. Délos, 243-244.

١٥) A. B. Cook, Zeus, III, 2, 1940, p.975 sq; J. Lindsay, The Clashing Rocks, London, 1965.

١٦) انظر أرسطوطاليس .Aristote, Hist. anim., 567 a 3 et 13

١٧) Agatharchide in Müller, Geographi graeci minores, t. I, p. 136. والنص ورد مع نصوص أخرى في استشهادات ف. بيرار V. Bérard, Les Navigations d'Ulysse, II, Paris, 1928, p. 434-435

١٨) Élien, Hist. anim., IV, 56. إذا رغبنا في تصوير حب هذا الحيوان الثديي السمكي الشكل في صورة سوية، فلابد بلا شك أن نبين بدقة - كما ذكّرنا ج. تريهو J. Tréheux - أن عجل البحر في اللغة الإغريقية مؤنث.

١٩) Cyranides, I, in: Les Lapidaires (grecs), éd. Mély et Ruelle, t. II, 1, 1898, p. 39, 1. 25.

٢٠) انظر أرسطوطاليس .Aristote, Part. anim., 498 a 32

٢١) Thévenot, Voyage au Levant, Paris, 1664, II, C. XXVI; V. Bérard, Les Navigations d'Ulysse, II, Paris, 1928, p. 435

٢٢) Pline, H. N.. XXXII, 144.

٢٣) هناك تراث فولكلوري متكامل عن عجول البحر من حيث هي من نسل «شعب فرعون» الذي ابتلعه البحر. انظر R. Goossens, "Un Conte égyptien: Pharaon, roi des Phoques", in Mélanges F. Cumont, t. II, Bruxelles, 1936, p. 715-722 (=ر. جوسانس، حكاية مصرية: فرعون ملك عجول البحر)

٢٤) Plut., De ser. num. vind., 552 f-553 a.

٢٥) الأوديسا Od., IV, 406: 442: 445-446: Aristophane, Paix, 758

٢٦) Élien, Hist. anim., III, 19.; Ant., Hist. mir., 20, 2 in Paradoxogr. gr., p. 42 Giannini; Ps.-Arist., mirab. Ausc., 77 in Paradoxogr. gr., p. 253 Giannini; Pline, H. N..

VIII, 111; XXXII, 112; Plut., De ser. num. vind., 552 f-553 a.

٢٧) Élien, Hist. anim., III, 19.

٢٨) Plut., Quaest. conviv., 664 c; Cyranides, II, in: Les Lapidaires (grecs), éd. Mély et Ruelle, t. II, 1, 1898, p. 24-77, 1. 22; Cyranides, IV, in o. c. , p, 120, 1. 26-121, 1. 20; Geoponica,I, 14, 3 et 5, p. 29, 2 sq Beckh; V, 33, 7, p. 155, 14 sq Beckh.

٢٩) Pline, H. N., IX, 42.

٣٠) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 567 a 7 sq.

٣١) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 497 b 24.

٣٢) انظر أرسطوطاليس Aristote, Part. anim., 695 b 2.

٣٣) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 498 a 31 -b 4.

٣٤) انظر ما سبق الملحوظة الهامشية رقم ١).

٣٥) Hésych. s.v. Kábeiroi.

٣٦) A.B. Cook, Zeus, II, 1, p. 665-667; Marie Delcourt, Héphaistos ou la Légende du magicien, Paris, 1957, p. 182.

٣٧) انظر أرسطوطاليس Aristote, Part. anim., 684 a 4-5.

٣٨) Anth. Palat., VI, 196.

٣٩) انظر أرسطوطاليس Aristote, Hist. anim., 490 b 5 sq..

٤٠) انظر أرسطوطاليس Aristote, De Inc. anim , 712 b 13 sq, 713 b 24 sq.

٤١) Aristophane, Paix, 1083' Ésope, Fab. 151 éd. Chambry; Athén., XV, 695 a = Bergk, P. L. G. 4, III, p. 648.

٤٢) انظر أرسطوطاليس Aristote, Part. anim., 683 b 33 sq.

٤٣) الإلياذة Il., XXI, 355; 367 (polúphron)

٤٤) Il., XVIII, 371; Marie Delcourt, Héphaistos ou la Légende du magicien, Paris, 1957, chap.v: "Le Magicien infirme" (p. 110-136).

٤٥) Traité des Articulaions, 53, t. IV, p. 232-234 Littré.

٤٦) Aristophane, Cavaliers, 1080' Oiseaux, 1379.

٤٧) Antiphane, 55 Kock.

٤٨) الإلياذة .II., II, 217

٤٩) أفلاطون .Platon, Lois, 794 c

٥٠) هذا هو التعبير الذي استخدمته أنتيجوني Antigone, Hist. Mirab., 45 in Paradox. gr., p. 54-55 Giannini لتحديد معنى amphiguéeis . وهذا المعنى تؤكده العديد من الحواشي التفسيرية.

٥١) أپوللودوروس .Apoll., I, 3, 5

٥٢) H. Vos, s. v. "amphiguos", in Lex. Fruhgr. Epos, p. 674; L. Derpy, "Amphiguéeis", Rev. Hist. Rel. 150, 1956, p. 129 sq.

٥٣) Marie Delcourt, o. c., p. 91-99.

٥٤) E. Buschor, "Meermänner", Sitz. d. Bayer. Akad. d. Wiss., Ph. -hist. Abt., 1941, t. II, p. 27, fig. 17.

٥٥) يبدو أن العقرب يلعب نفس الدور الذي تلعبه الكابوريا. وحرز «أرسلان تاشArslan-Dash» الفينيقي الذي عرّف به أ. كاكو و ر. دي مينيل دي بويسون A. Caquot er R. du Mesnil du Buisson: "La seconde tablette ou petite amulette d'Arslan-Dash" Syria, 1971, p. 391-406 يمثل ‹وحشاً› قزماً جنياً كبير الرأس له تقاطيع الكلب وعين ضخمة وجاحظة. هذا الوحش يلتهم جسماً بشرياً، ولكن بينما يلتفت رأسه إلى اليسار، ينتهي طرفاه السفليان اللذان يتجهان اتجاهاً غامضاً بعقربين كبيرين. أما العبارة المنقوشة والتي شرحها الناشرون، فيبدو أنها تدل على هذا العفريت ذا العين الشريرة المسمى ألاسيوت Alasiote أو القبرصي وتوحي باعتبار هذا الشخص الوحشي قاطن جزيرة المعدّنين واحداً من الأقرباء المقربين من التلخينيين الذين يوطّنهم تراث الإغريق في قبرص وفي جزيرة رودس على السواء (ص ٤٠٢).

٥٦) Marie Delcourt, o. c., p 110-136.

٥٧) Traité des Articulaions, 53, t. IV, p 232-234 Littré وثيقة من الوثائق النادرة الإغريقية الأصل التي يبدو أنها تسير في اتجاه رأي ماري ديلكور Marie Delcourt . وليس هذا الرأي سديداً، فعلى هذا المستوى الميثي الذي يعكس المذكر والمؤنث، نجد مجرد نقل للتضاد الكلاسيكي بين المحاربين والفنيين.

القسم الخامس
الخلاصة

الباب العاشر
الدائرة والقيد

١) انظر "جذاذات أورفيوس" O. F., 178-179 Kern

٢) انظر ما سبق ص ٨٩ وما بعدها

٣) Istros, FGrHist 334 F 2 Jacoby.

٤) Plutarque, Questions de table, 7, 4, 703 a-b; Questions romaines, 75, 281 f.; L. Radermacher, "Lebende Flamme", Wiener Studien 49, 1931, p. 115-118..

٥) الإلياذة Il., XVIII, 468-473.

٦) Hymne homérique à Hermès, 108-141

٧) الإلياذة Il., XVIII, 372: helissómenon peri phúsas.

٨) Paláme أي الكف أو الراحة أو اليد، تعني المهارة، الحذق، الفطنة، الحيلة (انظر Alcée,fr. 249, 7 Lobel et Page' 380; 378; Théognis, 624; 1018; Hérodote, VIII, 19' Aristophane, Guêpes, 645; Pindare, Olympiques, XIII, 52; etc)

٩) Suétone, Des Termes injurieux.149 p. 57 Taillardat.

١٠) Paus. Attic., Lex., o, 46 p. 206, 16 Erbse; Hésych., s,v. L'Hymne homérique, 357. هذا النشيد يستخدم في وصف هيرميس Hermès وهو عائد بالغنيمة كلمة diapurpalámesen

١١) Hymne homérique à Hermès, 17.

١٢) Hymne homérique à Hermès, 45.

١٣) ٢٣٧-, ٢٣٨ والحديث عن هيرميس الذي تهبب تماماً بالهباب الأسود وخرج من عقر داره ليرعب الأطفال. انظر Callimaque, Hymne à Artémis, 68-69

١٤) ٢٤١-, ٢٤٢ عندما نزل أوليسيس بلاد الفيناقيين غلبه النعاس وقد بلغ منه التعب كل مبلغ ونام تحت طبقة سميكة من ورق الشجر. تقيه الأشجار الكثيفة : كان كالحرّاقة الملتهبة يتوارى تحت الرماد، أو كالجمر الذي يخفونه في عقر الريف «لكي يحفظوا جرثومة النار spérma purós فلا يكون على الناس أن يذهبوا إلى بعيد بحثاً عنها.» (انظر الأوديسا Od , V, 488-490). ولكن بينما كان أوليسيس الذي شملته أثينة صاحبة النظرة المتأججة بحمايتها غارقاً في النوم كانت هي ساهرة عليه

تحفظه في سباته.

١٥) ٣٥٦-, ٣٦١

١٦) 278-280; 415.٣٨٧ '

١٧) Antonius Liberalis, Métamorphoses, 41-10.

١٨) الأوديسا .Od., VIII, 266-366

١٩) Apostolios, 8, 76 في Paroemoiographi graeci, II, 452, 4, Leutsch et Schneidewin.
وانظر كذلك .M. Delcourt, Héphaistos, p. 63

٢٠) الأوديسا .Od., VIII, 274-281

٢١) ٢٩٦-, ٢٩٩

٢٢) ٣٢٧,

٢٣) ٣٢٩-, ٣٣٢ في رأي أوستات Eustathe, p. 1599, 36 التعبير kichaánei toi bradùs okún مأخوذ من مثل سائر. انظر Bilinski, L'Agonistica sportiva nella Grecia antica, Roma, 1961, p. 21-23.

٢٤) Aristote, Histoire des animaux, 620 b 25 sq.

٢٥) انظر ما سبق ص ١١٦ والملحوظة رقم ٢٩.

٢٦) انظر إيسخيلوس «الضارعات» .Eschyle, Suppliantes, 1037 وانظرالإلياذة Il., III, 416 (metisomai) وانظر.Hymne hom. Aphr., 249 (óaroi kai métis), etc

٢٧) سابفو .Sappho, I, 2 Lobel-Page

٢٨) انظرIl., XIV, 214 sq وانظر.Hymne hom. Aphr., 7

٢٩) Hymne hom. Aphr., 34-44; 249-251.

٣٠) في حديث مع غانية اسمها ثيودوت شرح لها سقراط الطريقة التي نصيد بها الرجال، وبأي الألاعيب، وبأي الفخاخ، وبأي الشباك تنال صيدها (اكسينوفون Xénophon, Mémorables, III, 11, 5 sq)

٣١) الأوديسا .Od., VIII, 335-337

٣٢) هيسيودوس ، «الأعمال» Hésiode, Travaux, 800 (avec le commentaire de Proclus) وانظر كذلك Jessen, s.v. "Hermaphrodites", R. -E. (1912), c. 718

٣٣) Les Maîtres de vérité dans la grèce archaïque 2, Paris, 1973, p. 64066.

٣٤) الأوديسا ... Od., VIII, 340-342: desmoi mèn tris tóssoi apeirones amphis échoien

٣٥) پورفوريوس .Porphyre, Commentaire in Il. XIV, 200, p. 191, 9- 192, 12 Schrader
وجدير بالذكر أن مقالة قصيرة ولكنها حافزة للتفكير هي التي حفزتنا على فحص الحقل الدلالي لـ peirar-apeiron هذه المقاله هي B. Gentili, Sul testo del fr. 287 P. di Ibico, Quaderni Orbinati 2, 1966, p. 124-127.

٣٦) M. Bréal, Pour mieux connaître Homère, Paris, 1906, p. 99 sq et 283 sq; W. Krause, Die Ausdrucke fur das Schiksal bei Homer, Glotta 21, 1936, p. 148; Björck, "Peirar", Mélanges E. Boisacq, I, Bruxelles, 1937, p. 143-148; R. B. Onians, The Origin of European Thought 2, Cambridge, 1954, p. 310-342; Ch. H. Kahn, Anaximander and the Origin of Greek Cosmology, New York, 1960, p. 230-239' P. Seligman, The Apeiron of Anaximander, London 1962; H. B. Gottschalk, " Anaximander's Apeiron", Phronesis 10, 1965, p. 51-54' M. Kaplan, "Apeiros" and the Circularity, Greek-Roman and Byzantine Studies, 16, 1975, 125-140.

٣٧) انظر أرسطوطاليس .Rhétorique, I, 1357 b 9

٣٨) انظر ما سبق ص ١٣٨ وما بعدها

٣٩) انظر أپوللودوروس الرودسي .Apollonius de Rhodes, Argonautiques, I, 413-414

٤٠) .I, 361

٤١) .II, 411-412

٤٢) ٤١٢-، ٤١٣

٤٣) ، ٥٤٩

٤٤) الأوديسا .Od., XII, 50-54

٤٥) .Hymne homérique à Apollon, 129 بغض النظر عن التعبير العادي «أغلال الموت» -oléth rou peirata الذي يرد في الملحمة الهوميروسية .Il., VII, 402; XII, 79 و Od., XXII,33; 41;

٤٦) Galien, Opera omnia, t. 18, 2, p.248 Kühn ورد الاستشهاد في Bjorck, "Peirar", Mélanges E. Boisacq, I, Bruxelles, 1937, p. 147

٤٧) .E. Benveniste, Problèmes de linguistique générle, Paris, 1966, p. 292-293

٤٨) .Björck, "Peirar", Mélanges E. Boisacq, I, Bruxelles, 1937

٤٩) .Plutarque, De Alexandri magni fortuna aut vertute, I, 1, 326 e وانظر L. Robert,

في مسرحية Documents de l'Asie Mineure méridionale, Paris, 1966, p. 40-44. "الضارعات» لإيسخيلوس Eschyle, Suppliantes، البيتين ١٠٤٩-١٠٥٠، يوصف عقل زيوس بـ apératos الذي لا يمكن اختراقه، ويوصف بـ parbatós الذي لا يمكن عبوره. أما في البيت ٤٧٠ فنجد تنويها بالتعاسة «te التي يذكر بروميثيوس Proméythée (في البيت ١٠٧٨) شبكتها ويصفها بأنها "التي لا يمكن اختراقها" apérantos ، ويصور التعاسة على هيئة بحر لا قاع له mál'eúporon.

٥٠) Hérodote, VII, 36.

٥١) Eschyle, Perses, 71-72 : zugòn amphibalòn auchéni póntou

٥٢) ٧٤٥-, ٧٥٠

٥٣) هيرودوتوس Hérodote, VII, 36

٥٤) VII, 34-35.

٥٥) الأوديسا Od., XXII, 175.

٥٦) Aıstophane, fr. 250 Kock; IG, II, 709, 5, 11 (2).

٥٧) Aıstote, Physique, III, 6, 207 a 2. وانظر Pollux, VII, 179 والخاتم لا فص له álithos ، ونحن نصفه بالصفة ápeiros.

٥٨) انظر ما سبق ص ١٥٤ وما بعدها

٥٩) هيسيودوس «ثيوجونية» Hésıode, Théogonie,720-725; 740-744.

٦٠) الجذاذات الأورفيوسية O. F., 66 a et b Kern

٦١) إيسخيلوس «بروميثيوس» Eschyle, Prométhée, 153.

٦٢) نفس المرجع ١٥٤ .

٦٣) Hymne homérique à Hermès, 157.

٦٤) نفس المرجع ٢٥٦-, ٢٥٧

٦٥) هيسيودوس «ثيوجونية» Hésiode, Théogonie, 718-730.

٦٦) O.C. 622; 652-653' 658-659.

٦٧) هاديس Hadès يكبل ضيوفه ويمسكهم بأشد القيود متانة (أفلاطون (Platon, Cratyle 403 c-d). جاء في جذاذة منسوبة إلى پيندار أن وزن التارتاروس الخفي هو وزن السلاسل التي صنعت بمطرقة الحداد . وقد بينت تحليلات هـ. شريكنبرج H Schrekenberg, Ananke. Untersuchungen zur Geschichte des Wortgebrauchs, München, 1964 بتوسع العلاقات بين مفهوم «الضرورة»

وضغوط النير وقيد العبيد.

٦٨) هيسيودوس «ثيوجونية» و«الأعمال» .Hésiode, Théogonie, 501-502; Travaux, 83

٦٩) انظر ما سبق ص ٣٤-٥٩.

٧٠) انظر Ibycos, fr, 287, 2 Page مع تصحيح ápeira إلى apeiron وهو ما استصوبه ب. چينتيلي B. Gentili, "Sul testo del fr. 287 P. di Ibico", Quaderni Urbinati 2, 1966, p. 124-127. في كتابه Sappho und Simonides, Berlin, 1913, p. 125 يقترح ڤيلاموڤيتس Wilamowitz أن نري في وصف شبكة إيروس بالنعت apeiron إشارة إلى حَجَرة péras وهي الحَجَرة التي تثقل الشبكة، هذا المعنى الخاص لحجرة péras غير معروف لدينا، وشرح «الشبَكة التي لا حدود لها» مقبول، على الأقل في التسلسل الذي حاولنا أن نقيمه في أعقاب ب. چينتيلي. ارجع إلى ملحوظات لاسير F. Lsasserre, La Figure d'Érôs dans la poésie grecque, Lausanne, 1946, p. 57, n. 2.

٧١) هيسيودوس «الأعمال» .Hésiode, Travaux, 83

٧٢) سوفوكليس «أنتيجوني» .Sophocle, Antigone, 799-900

٧٣) R. Pfeiffer, "Gottheit und Individuum in der Lyrik", Philologus 84, 1929, p. 137-152 (repris dans: Ausgewählte Schriften, München, 1960, p. 42-54); B. Snell, Die Entdeckumg des Geistes 3, Hamburg, 1955, p. 106.

٧٤) «عيناي لا تعشيان، وأذناي تطنّان، والعرق يقطر من جسدي، ورعدة تتملكني؛ وأصبح خضراء أشد خضرة من الكلأ ...»: (من سابفو Sappho, fr. 31 Lobel-Page). انظر Plutarque, Eroticos, 763 a (Illigos). فيما يتصل بالدوار الذي يصاحب انعدام الطريق في المناقشات بيت بين سقراط وأعدائه: Platon, Lysis, 216 c; Protag., 339 e' Euthydème, 303 a' وهو دوار يتحول إلى تبلد يحدثه سقراط على طريقة السمك الرعاد: Ménon, 80 a-c; 84 b-c; etc.

٧٥) Plutarque, De sollertia anim., 978; Oppien, Hal., II, 72 (Amechaneisi pedetheis); 84-85 (toien guiopéden technázetai ichthúsi nárke).

٧٦) إيسخيلوس: أجاممنون .Eschyle, Agamemnon, 355-361 وانظر كذلك D. Van Nes. Die mar-itime Bildersprache des Aischylos, Groningen, 1963, p. 159-161.

٧٧) كان ساربيدون يخشى على الطرواديين «الشبكة التي تجمع كل شيء» linon pánagron (II.V,487)

٧٨) كانت كلوتايمنيسترا هي صاحبة الحيلة : واعترف بذلك إيجيسثوس (Eschyle, Agamemnon, 1936) وفعل ذلك عن رغبة وبخاصة لأن كلوتايمنيسترا كانت تحتل في الثنائي الإجرامي مكان

الرجل. كان الرجل الإغريقي - إذا كان الموضوع موضوع حيلة، أو لعبة مكر أو مناورة لئيمة - يميل بسهولة إلى تصور أن المدبر امرأة (انظر.,Hérodote, VI, 77; Apollonius de Rhodes, Argon (Euripide, fr. 288 et 464 Nauck 2; III, 557 sq ولكن كلوتايمنيسترا كانت تعرف كيف تخيط فراء الثعلب في فراء الأسد.

٧٩) إيسخيلوس: أجاممنون .Eschyle, Agamemnon, 1383 وانظر عن هذا اللفظ من مصطلح الصيد J. Dumortier, Les Images dans la poésie d'Eschyle, Paris, Thèse, p. 86, n. 1.

٨٠) إيسخيلوس: أجاممنون .Eschyle, Agamemnon, 1382

٨١) [Hésiode], Bouclier, 215.

٨٢) Hérodote, I, 141.

٨٣) إيسخيلوس «حاملات القرابين» .Eschyle, Choéphores, 981-982 وهنا نجد اللفظين كليهما mechánema et desmós

٨٤) «بروميثيوس» Prométhée, 81.

٨٥) نفس المرجع ٧٤ .

٨٦) نفس المرجع ١٥٢ -١٥٨ .

٨٧) E Vermeule, "The Boston Oresteia Krater", Amer. Journal of Arch. 70, 1966, 9. 1-22. وارجع كذلك إلى M I. Davies, Thoughts on the Oresteia before Aischylos, Bull. de Corr hell 93, 1969, p. 214-260 وإلى ملحوظات پ. ڤيدال-ناكيه P. Vidal-Naquet في J -P. Vernant et P. Vidal-Naquet, Mythe et tragédie en Grèce ancienne, Paris, 1972, p. 147, n. 69.

٨٨) Euripide, Oreste, 25 والفعل المستخدم هو : periballein

٨٩) Sophocle, Trachiniennes, 1051-1052: huphantòn amphiblestron; 1057 ; 831-832: phinnia nephéla

٩٠) Aristote, Hist des animaux, IV, 8, 533 b 15 sq. ارجع إلى تاياردا J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, Paris, 1965, p. 224 الذي يذكر كذلك أن kuklein(oûn) تعني يحيط، يحاصر في اللغة العسكرية. وهو يستشهد بهيرودوتوس .Hérodote,III, 157 أو ثوقيديديس Thuc., IV, 32 ولكن في مسرحية إيسخيلوس Eschyle, Sept, 120 sq، تتعرض ثيبة لهجوم الأرجيين وثيبة مدينة مفخخة في دائرة تشبه الأسود التي يحيط بها الصيادون. (في الأوديسا .,Od (IV, 791-792: dólion. . kúklon.

٩١) G. Smets et A. Dorsingfang-Smets, "La Bataille de Salamine. Les sources", Mé-langes Henri Grégoire, IV (Annuaire de l'Inst. Et.Byzant. 12), Bruxelles, 1952, p. 409-426 والمؤلفان ينطلقان من مبدأ ممتاز وهو أن حدثاً من هذا الحجم لا يمكن أن تتناوله إلا صياغات متنافسة، وروايات متوازية ولكن مختلفة.

٩٢) انظر Apollonius de Rhodes, Thynnorum captura quanti fuerit apud veters momenti, Jahrbucher fur class. Philologie 18, Suppl. 1892, p. 42 sq.

٩٣) إيسخيلوس Eschyle, Perses, 353-428; 975-977. انظر P. Vidal-Naquet, La Guerre tra-gique", dans Athènes au temps de Périclès (Coll. Ages d'or et Réalités), Paris, 1936, p. 61-62.

٩٤) La Grande Encyclopédie, art. "madrague".

٩٥) هيرودوتوس Hérodote, VIII, 16.

٩٦) Élien, Nat. anim., XV, 5.

٩٧) Oppien, Hal., III, 41-43.

٩٨) J Taillardat, "La Trière athénienne et la guerre sur mer au Ve et IVe siècles", 204; Y. Garlan, La Guerre dans l'Antiquité, Paris, 1072, p. 151.

٩٩) ثوقيديديس Thucydide, II, 84.

١٠٠) هيرودوتوس Hérodote, IV, 179.

١٠١) قصة سوسيلوس Sosylos de Lacédémone (FGrHist 176 F 1 Jacoby) انظر J. Taillardat, art. cit. المقال المشار إليه من قبل، ونحن نتبع ترجمته.

١٠٢) وهو يطرح عدة أسئلة معينة على المؤرخين ، انظر J. Taillardat, art. cit., 204, n. 119.

١٠٣) هيرودوتوس Hérodote, V, 121: hegemon toû lóchou.

١٠٤) Xénophon, L'Art de la chasse, 9, 11-16, éd. tr. E. Delebecque (انظر الشكل ٥، ص ١٢٢)

١٠٥) Hippocrate, Du Régime, I, 19.

١٠٦) Il., XVIII, 395-403. اليس هناك شيء يثبت أن هيفايستوس استقى من ثيتيس معرفته كحداد، وهو ما نبهنا جي بيرتيوم Guy Berthiaume إلى ملاحظته، حتى إذا كانت قصيدة ألقمان الكوسموجونية تطرح مشكلة نشاط تعديني مارسته ثيتيس (انظر ما سبق ص ١٣٩-١٤٠).

١٠٧) راجع كذلك Il., XVIII, 401. Marie Delcourt, Héphaistos ou la Légende du magicien, Paris, 1957, p. 49 وهي تشدد على القيمة السحرية للقلائد والحلي الخواتم.

١٠٨) إيسخيلوس: أجاممنون Eschyle, Agamemnon,1233 ويصف پلينيوس Pline, H. N., VIII, 85 حيوان amphisbaina بأنه مزدوج الرأس، أي أن له رأسين، أحدهما في مكان الذيل، كما لو كان قليلاً عليه قلة مفرطة أن يكون له فم واحد يصب منه السم. وهو كذلك يسمى «ذا الرأسين» amphisdistomos (Nonnos, Dionys., V, 146) و«ذا الفمين» amphikárenos (Nicandre, Theriaca, 372-373)

١٠٩) انظر ما سبق ص ٢٤٦-٢٦٢.

١١٠) Hymne homérique à Hermès, 76.

١١١) ٧٧-٧٩.

١١٢) بالنسبة إلى الملف التصويري انظر N. Yalouris, Hermès Boukleps, Archaiologike Ephemeris, 1953-54 (1958), p. 162-184.

١١٣) Sophocle, Limiers, 112-116.

١١٤) Xénophon, L'Art de la chasse, VI, 21 Delebecque (p. 76, n. 1).

١١٥) النشيد الهوميروسي إلى هيرميس Hymne homérique à Hermès, 79-81.

١١٦) الأرجح أن الأبيات ٣٤٦-٣٤٩ تتكلم عن الدهاء الميتيسي، في الإشارة إلى الآثار المدهشة التي خلّفها نعلا هيرميس.

١١٧) ٣٤٦

١١٨) ١٥٧

١١٩) ٢٥٧

١٢٠) ٤٠٩-٤٢٥.

١٢١) P. Aubenque, "Sur la notion aristotélienne d'aporie", dans: Aristote et les problèmes de méthode, Louvain-Paris, 1967, p. 6.

١٢٢) K. Ohlert, Rätsel und Gesellschaftsspiele der alten Griechen, Berlin, 1886.

١٢٣) انظر ما سبق ص ٥٢، الملحوظة رقم ١١١.

١٢٤) Plutarque, Bruta animalia ratione uti, 988 a

١٢٥) سوفوكليس Sophocle, OEdipe-Roi, 130

١٢٦) H. Jeanmarie, Couroi et وانظر [Apollodorc], Bibliothèque, III, 1 Frazer. Courètes, Lille, 1939, p. 444 sq; R. F. Wiletts, Cretan Cults and Festivals, London, 1962, p. 60-69; P. Faure, "Les Minerais de la Crète antique", Revue Archéologique, 1966, p. 75-76.

١٢٧) أفلاطون، الجمهورية. Platon, République, 497 a-480 a (avec les scholies).

١٢٨) M. Detienne, Les Maîtres de vérité dans la Grèce archaïque 2, Paris, 1973, p. 114-115.

١٢٩) أفلاطون، الجمهورية. Platon,ibid.

١٣٠) Ménandre, fr. 525 Kock. والإشارة إلى الكابوريا «كاركينوس karkinos à ترتبط باسم واحد أو عديد من المؤلفين التراجيديين، كاركينوس Karkinos، وقد عرف من خلال تلميحات مختلفة من المؤلفين الكوميديين (ارجع إلى Diehl, s.v. " karkinos ", R. E., [1919], c, 1951-1954).

١٣١) انظر K. Ohlert, Rätsel und Gesellschaftsspiele der alten Griechen, Berlin, 1886.;Wilamowitz, "Lesefrüchte 30", Hermes 34, 1899, p. 219-222 (Kleine Schriften, IV,Berlin, 1962, p. 60-63); J. Defradas, Plutarque. Le Banquet des Sept Sages, Paris, 1954, p. 26.

١٣٢) Plutarque, Banquet des Sept Sages, 148 c-d.

١٣٣) الأوديسا. Od., XIII, 291-332.

١٣٤) الأوديسا. Il., II, 169; 407; 636;X, 137; Od., XIII, 89.

١٣٥) الإلياذة.. Il., XXIII, 315-318.

١٣٦) Platon, Sophiste, 233 a.

١٣٧) R. Blanché, "Le Detour et le Raccourci", dans: Psychologie comparative et Art (Hommage à I. Meyerson), Paris, 1972, p 247-254.

١٣٨) 160 a انظر Définit. platon., 412 (Oxútes noû); Epinomis, 976 b-c

١٣٩) Seconds Analytiques, I, 34, 89 b 10-15

١٤٠) Eustathe, p. 821, 51 . ارجع إلى تاياردا J. Taillardat, Les Images d'Aristophane, Paris, 1965, p.125-126.

١٤١) أرسطوطاليس. Aristote, Hist. des animaux, VII, 9 587 a 9 sq.

١٤٢) 587 a 22-23.

١٤٣) Étienne de Byzance, s. v. "Kabeiria".

١٤٤) انظر ما سبق ص ٢٨٦-٢٨٧. والألمعية agchinoia خصلة من خصال المخطط العسكري (Énée Tacticien, Poiorcétique, XI, 10; XXXIV, 11) والملك Pollux, I, 40: oxús et agchinous . والرأي عند پولوبيوس Plybios أن الألمعية نوع من الذكاء يكون ثاقباً إلى الحد الذي يجعله يدرك النتائج الخفية للأعمال والقرارات . انظر P. Pédech, La Méthode historique de Polybe, Paris, 1964, p. 211.

١٤٥) agchinoia و eustochia يواكب بعضهما بعضاً في التحليل الأرسطوطاليسي للحرص: أرسطو، الأخلاق النيقوماخية Aristote, Éthique à Nicomaque, VI, 10, 1142 b 2-6. انظر R. A. Gauthier et J. Y Jolif, Commentaire, II, 2, Louvain-Paris, 1970, p. 511-512; P. Aubenque, "La Prudence chez Aristote, Paris, 1963, p. 149-150.

١٤٦) Platon, Euthydème, 277 b; Aristote, De la Devination dans le sommeil, 464; Aristoxène, fr. 41 Wehrli. .

١٤٧) عن eustochia Platon, Lois, 706 a; 934 b. انظر Callimaque, Hymne à Artémis, 217.

١٤٨) Pollux, V, 24. وانظر: Diodore, IV, 12, 1.

١٤٩) أريسطوفانيس Aristophane, Assemblée des femmes, 1-2.

١٥٠) Maxime de Tyr, 30, 2, éd. Hobein, p. 352, 14 sq: eustochos kubernétes. من بين شقاف الابتهالات التي كان الملاحون يضمنونها امتنانهم والتي وجدت في كهف پورشينارا Grotta Porcinara au cap de S. Maria die Leuca (Salento) وجهت واحدة إلى الربة إينو Inô يشكرها على قيادتها السفينة إلى الميناء الصحيح، والفعل المستخدم هو tucházesthai وهو مرادف للفعل stocházesthai (راجع: Hésychius, s.v. "tucházesthai")، انظر: C. Pagliara, "La Grotta Porcinara al Capo die S. Maria die Leuca, I, Le iscrizioni", Annal dell' Università di Lecce: Facoltà di Lettere e Filosofia, VI, 1971-1973, p. 20-21

١٥١) أفلاطون، القوانين .. Platon, Lois, 961 e-962 a.

١٥٢) 962 . d.

١٥٣) انظر ما سبق ص ١٤٧-١٥١.

١٥٤) انظرموسوعة «سودا» "الحصن" Souda, s.v. "tekmairómenos"

١٥٥) انظر Alcméon, fr. 1 dans Pitagorici, I, p. 147-148 éd M. Timpanaro Cardini

H. Diller, Hermes 67, 1922, p. 14-42.

١٥٦) انظر A. J. Festugière, Hippocrate. L'Ancienne Médecine, Introduction, traduction et commentaire, Paris, 1948, p. 44, n. 42.

١٥٧) Anc. Médecine, 9.

١٥٨) Régime des maladies aigués [Appendice au traité 9] (Lttré, II, 434, 16).

١٥٩) Éidémies, I, 10 (Lttré, II, 668-670).

١٦٠) ومؤلف كتاب: Régime des maladies aigues (Lttré, II, 434, 16) يتحدث عن polutropie و عن poluschidie عندما يذكر تمهيداً للنقد جهود أبناء <مدينة> كنيدوس Knidos في تصنيف الأمراض وتقسيم المجموعات الأكبر إلى مجموعات أصغر.

١٦١) Des lieux de l'homme, 44 (Lttré, VI, 338)

١٦٢) Traité des Maladies, I, 5 (Littré, VI, 146-150)

١٦٣) L. Bourgery, Observation et expérience chez les médecins de la collection hip-pocratique, Paris, 1953, p. 237; 243-244, et P. Kucharski, "Sur la notion py-thagoricienne de kairós", Revue Philosophique, 1963, p. 141-169.

١٦٤) Le Traité de l'Art, 8 (Littré, VI, 14, 1-3) وفيها كلام عن epikratein.

١٦٥) Le Traité de l'Art, 7 (Littré, VI, 23-26) وانظر: L. Bourgery, o. c., p. 220.

١٦٦) بهذه الصفة وصف پينداروس أركيسيلاس القوريني، بعد أن امتدح قبل أبيات سبقت (٢٦٢) ما عبر عنه بالعبارة orthóboulos metis (Pythiques, IV, 270)

١٦٧) Tekmairesthai toîsi xúmpasi semeioisin: Promostic, 24 et 25 (Lttré, II, 188, 2-3; 9).

١٦٨) Anc. Médecine, 9.

١٦٩) Traité de l'Art, 5 (Littré, VI, 8, 19-20)

١٧٠) أفلاطون، الجمهورية. Platon, République, 360 e-361 a..

١٧١) Epinomis, 976 a.

١٧٢) Ibid

١٧٣) Aristote, Éthique à Nicomaque, VI, 7, 1141 a 25, 27; و 5 b تشير إلى الاستخدام السوقي لـ phronesis في نظرية الحرص عند أرسطوطاليس؛ وپ أوبينك شدد بحق على هذا المعنى. P.

Aubenque, o, c., p. 23-24.

١٧٤) انظرW. Nestle, "Gab es eine ionische Sophistik?", Philologus 70, 1911, p. 258 sq; J. S. Morrison, "An Introductory Chapter in the History of Greek Education", Durnham University Journal 41, 1949, p. 55-63; G. B.Kerferd, "The First Greek Sophists, Classical Review 64, 1950, p. 8-10; J. Bollack, Les Sophistes dans "Athènes au temps de Périclès", coll. Ages d'or et Réalités, Paris, 1963, p. 310-229.

١٧٥) پلوتارخوس .Plutarque, Thémistocle, II, 6

١٧٦) Hérodote, VIII, 57-58 وانظر R. Lattimore, "The Wise Adviser in Herodotus", Classical Philology 34, 1939, p. 24-35.

١٧٧) إيسخيلوس، الفرس .Eschyle, Perses, 361-362

١٧٨) انظر .Plutarque, De Herodoti Malignitate, 869 f وكان الاسبرطيون يعجبون بما لدى ثيموميستوقليس Thémistocle من حكمة وفطنة.

١٧٩) سوفوكليس .Sophocle, Philoctètre, 1049

١٨٠) Diogéne Laerce, II, 66.

١٨١) ثوقيديديس .Thucydide, I, 138, 3

١٨٢) A. Rivier, Un Emploi archaïque de l;analogie chez Héraclite et Thucydide, Lausanne, 1952, p. 41 a 11-14.

١٨٣) أرسطوطاليس، الخطابة .Aristote, Rhétorique, III, 1412 a 11-14

١٨٤) II.,I, 343; XVIII, 250; Od., XXIV, 452. وانظر أيضاً II.,III, 108-110 (انظر ما سبق ص ٢٥-٢٧)

١٨٥) Euripide, fr. 973 Nauck 2; Hélène,757; Antphon, in FVS7, II. p. 337, 18-20. في الموسوعة المنسوبة إلى أپوللودوروس [Apollodore] Biblioth., III, 3 نجد العبارة نفسها árista eikásai تدل على المعرفة الخاصة بالعراف.

١٨٦) A. Rivier, o. c, p 47 n. 17; De Romilly, "L'Utilité de l'histoire selon Thucydide, dans L'Histoire et les Historiens, Vandoeuvres-Genève, 1956, p. 41-66; F. Chatelet,"Le Temps de l'histoire et l'évolution de la fonction historinneie", Journal de Psychologie, 1956, p 355-378.

١٨٧) 4, 4a . عن تحليل شامل لمشكلات التقنية عند أفلاطون ارجع إلى G. Cambiano, Platone c

le tecniche, Torino, 1971.

١٨٨) 55 e sq . وارجع إلى ملحوظات فيستوچيير A. J. Festugière, Hippocrate. L'Ancienne Médecine, Paris, 1948, p. 41-43.

١٨٩) 56 b-e

١٩٠) Archiloque, fr. 44 Diehl.; Il., XV, 409-411. وانظر J Bollack, in: Revue des Études Grecques, 1968, 550-554.

١٩١) L'Ancienne Médecine, 4.

١٩٢) P. Aubenque, "La Prudence chez Aristote ", Paris, 1963, P. 23-24; 40-41; 101-102; etc وانظر R. A. Gauthier dans: Revue des Études Grecques, 1963, 265-268 وإجابة أوبينك P. Aubenque, "La Prudence aristotélienne porte-t-elle sur la fin ou sur les moyens?", ibid., 1965, p. 40-51.

١٩٣) P. Aubenque, "La Prudence chez Aristote ", Paris, p.23-24.

١٩٤) P. Aubenque, art. cit., Revue des Études Grecques, 1965, p. 48.

١٩٥) Aristote, Éthique à Nicomaque, VI, 13, 1144 a 24-25.

١٩٦) Aristote, Éthique à Nicomaque, VI, 7, 1141 a 27-28.

١٩٧) هل الحيوانات ذكية أم لا؟ يمكن أن تكون لها قدرة معينة على التفكير، أن يكون لها شكل معين من أشكال الذكاء؟ ذلك سؤال مفتوح طال الجدل حوله في المدارس الفلسفية بين الرواقيين والإپيقوريين وممثلي الأكاديمية. ونجد في رسالة پورفوريوس Porphyre عن الاجتناب Traité de l'Abstinence أصدى هذه المجادلات في الكتاب الثالث، حيال عالم الحيوان . انظر Urs Dierauer, Tier und Mensch im Denken der Antike, Verlag Grüner, Amsterdam, 1977.

١٩٨) P. Aubenque, "Science, culture et dialectque chez Aristote", in: Actes du Congrès de l'Association Guillaume Budé (Lyon, 8-12 sept 1958), Paris, 1960, p. 145 .

١٩٩) أرسطوطاليس Aristote, Éthique à Nicomaque, VI, 3, 1139 b 22-24.

المحتويات

صفحة

القسم الرابع

العلوم الإلهية :

أثينة .. هيفايستوس

القسم الخامس

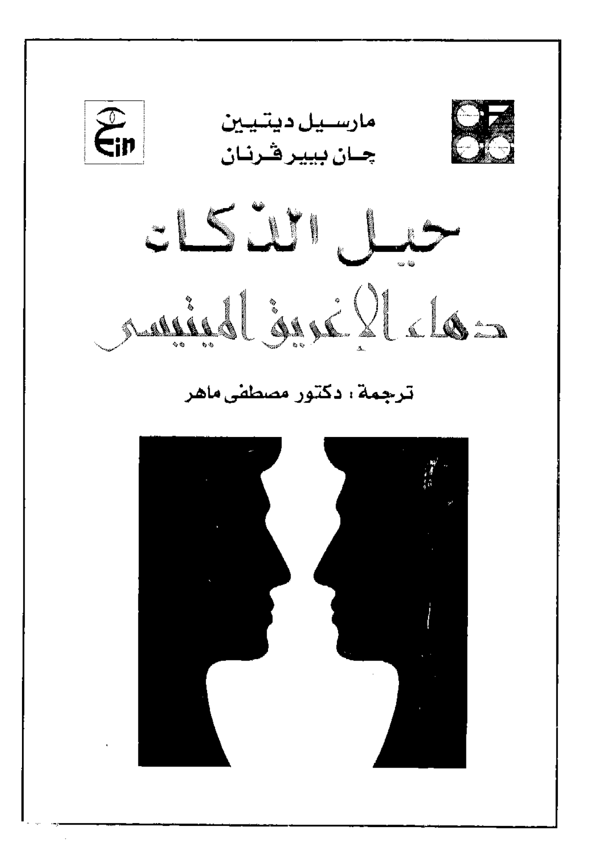
الخلاصـــة

رقم الإيداع ٢٠٠٠/٣٩٠٠

الترقيم الدولى X- 029 - 322 - 977

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق





للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES